

مدينة الرسول ﷺ كأنك فيها، وأحداث حياته كأنك تراها

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل


أماكن نبوية
مدينة الرسول ﷺ كأنك فيها، وأحداث حياته كأنك تراها


أماكن نبوية


مدينة الرسول ﷺ كأنك فيها، وأحداث حياته كأنك تراها


عبدالوهاب الطريري أبا الخيل


بسم الله الرحمن الرحيم



شكر وعرفان



يسرني بين يدي هذا العمل أن أقدم الشكر إلى مستحقيه، فهذا العمل ضميمة جهود مشكورة من إخوة كرام ما كان ليتم على هذا النحو لولا تعاونهم وكرمهم بوقتهم وعلمهم وجهدهم، فأشكر الأستاذ محمد حامد قشطة، الذي قام بتفريغ المادة الصوتية ومتابعة العمل.

كما أشكر الأساتذة الكرام الذين استفدت منهم عند إعداد البرنامج، والأساتذة الذين استفدت من مراجعتهم للكتاب بعد إعداده، وهم:

شيخنا العلامة د. عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

د. سليمان الرحيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

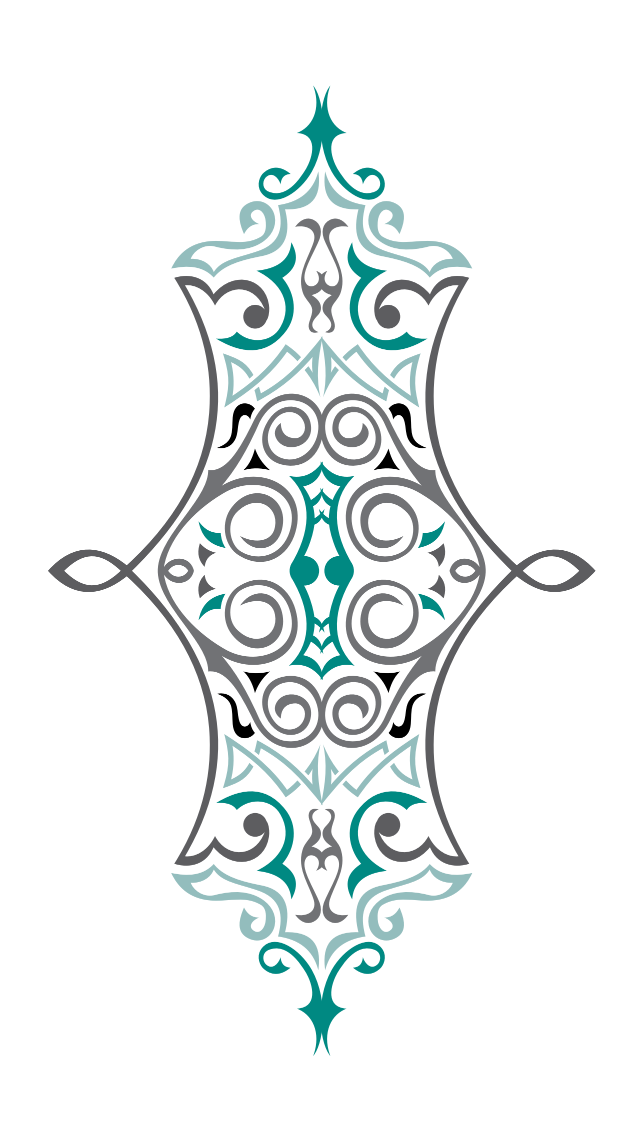
أ. د. تنيضب الفايدي.

أ. السيد ضياء بن محمد مقبول عطار.

الشيخ د. أحمد بن محمود القادري.

الشيخ محمد زبير جامي.







إهداء



إلى أحب الناس إلي، وأعظمهم حقاً علي، وأحقهم بحسن صحابتي..

إلى من لا أدرك لها جزاءً، ولا ألحق لها كفاءً، ولا أستطيع أن أؤدي لها حقّاً..

إلى التي رعتني وربتني، وأحسنت بي وإلي، ولا زلت أتفيّأ نعيم الطفولة في ظلها، وأنس الحياة بقربها.. وأستنزل البركات بدعائها..

إلى أمي حصة المحمد الحمود العامر الشمرية.

سائلاً الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل هذا الكتاب من العلم الذي ينتفع به، ويتتابع عليها أجره وبره وذخره، لها ولأمها نورة، وخالتها عائشة السنعوسي، وخالتها نورة زيد الرومي رحمهن الله.

كما أسأل ربي أن يتولى عني كفاءها وجزاءها بما لا أستطيع كفاءه، فيجزيها عني خير ما جزى أمّاً عن ولدها، وأن يبارك في عُمرها، ويَنْسأ في أجلها على عافية وحسن عمل.

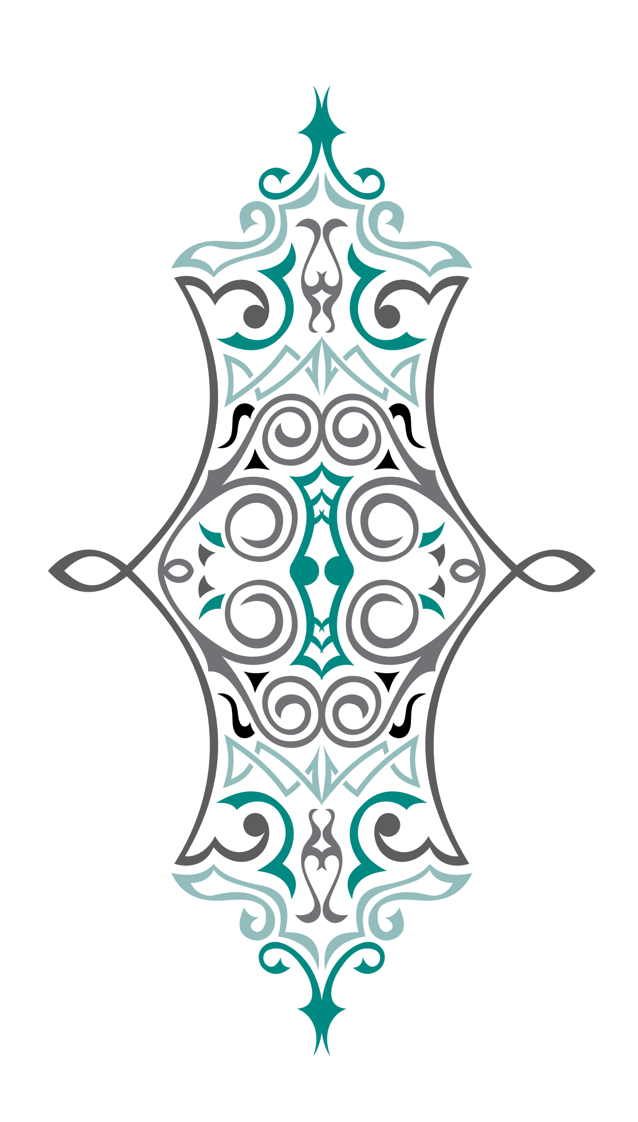
﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾.

طفلكِ ذاك الصغير

عبد الوهاب







المقدمة



الحمد لله رب العالمين، وصلواته وسلامه وبركاته على أشرف المرسلين وبعد:

فإن الدعوة النبوية المباركة: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْـمدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ**»[1] قد أجيبت له ﷺ في أصحابه رضي الله عنهم، وأتباعهم من بعده، فما من مسلم في مشارق الأرض ومغاربها على تعاقب الأزمان وتباعد البلدان؛ إلا وهو يتلهف لها حُبّاً، ويتحَرَّق إليها شوقاً.

ويا لله ما أعذب تلك الكلمات التي ذرفها القاضي عياض رحمه الله من ذوب روحه، وهو يكابد لوعة أشواقه إلى المدينة النبوية، وقد شطَّت عنها الدار، ونأى به المزار في غَرْب الأرض الأقصى في مدينة سبتة المغربية، فقال: وجدير بمواطن عُمِرت بالوحي والتنزيل، وَتَرَدَّدَ بِهَا جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، وَعَرَجَتْ مِنْهَا الْـملَائِكَةُ وَالرُّوحُ، وَضَجَّتْ عَرَصَاتُهَا بِالتَّقْدِيسِ وَالتَّسْبِيحِ، وَاشْتَمَلَتْ تُرْبَتُهَا عَلَى جَسَدِ سَيِّدِ الْبَشَرِ، وَانْتَشَرَ عَنْهَا مِنْ دِينِ الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ مَا انْتَشَرَ، مَدَارِسُ وآيات، وَمَسَاجِدُ وَصَلَوَاتٌ، وَمَشَاهِدُ الْفَضَائِلِ وَالْخَيْرَاتِ، وَمَعَاهِدُ الْبَرَاهِينِ وَالْمُعْجِزَاتِ، وَمَنَاسِكُ الدِّينِ، وَمَشَاعِرُ الْمُسْلِمِينَ، وَمَوَاقِفُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَمُتَبَوَّأُ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، حَيْثُ انْفَجَرَتِ النُّبُوَّةُ، وَأَيْنَ فَاضَ عُبَابُهَا[2]، وَمُوَاطِنُ طُوِيَتْ فِيهَا الرِّسَالَةُ، وأول أرض مسّ جلد المصطفى ترابها، أَنْ تُعَظَّمَ عَرَصَاتُهَا، وَتُتَنَسَّمَ نَفَحَاتُهَا، وَتُقَبَّلَ رُبُوعُهَا وجدرانها.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٨٨٩)، و«صحيح مسلم» (١٣٧٦).

(٢) عباب الماء: أوّله ومعظمه. ينظر: «لسان العرب» (١/ ٥٧٣).



يَا دَارَ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَنْ بِهِ ... هُدِيَ الْأَنَامُ وَخُصَّ بِالْآيَاتِ

عِنْدِي لِأَجْلِكِ لَوْعَةٌ وَصَبَابَةٌ ... وَتَشَوُّقٌ مُتَوَقِّدُ الْجَمَرَاتِ

وَعَلَيَّ عَهْدٌ إِنْ مَلَأْتُ محاجري ... من تلكم الجدران وَالْعَرَصَاتِ

لَأُعَفِّرَنَّ مَصُونَ شَيْبِي بَيْنَهَا ... مِنْ كَثْرَةِ التَّقْبِيلِ وَالرَّشَفَاتِ[(١)]

فإذا زار المسلم المدينة النبوية وجد ثَمَّ الرَّوح والراحة، والسَّكَن والسكينة، والأنس والبهجة، فهناك تضوعت أنفاس رسول الله ﷺ، وهناك أشرقت أنواره، قال أنس رضي الله عنه: دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ الْمدِينَةَ، فَأَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ[(٢)].

ويا لله لساكن المدينة، وهو يتحرك في فضائها الذي كان يلتف على جسد رسول الله ﷺ قبل أن يضمه ترابها.

ويا لله لمن يمشي على أرضها، ويتذكر أن رسول الله ﷺ مشى حيث يمشي، وجلس حيث يجلس!

في المدينة يتحدث إليك كل شيء فيها عن رسول الله ﷺ، وأيام عمره المباركة عليها.

كل مكان هناك يقول لك: كان رسول الله هنا، وجاء من هنا، وجلس هاهنا، وذهب من هذا الطريق، وصلى في هذا المحراب، واستقبل هذه السارية، وصعد هذا المنبر!

هذا مسجده، وهذا محرابه، وهذا منبره، وذاك بيته وقبره، وبينهما بقعة من الجنة، وروضة من رياضها؛ «**مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ**»[(٣)].

(١) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» القاضي عياض (٢/ ١٣١-١٣٣).
(٢) «سنن ابن ماجه» (١٦٣١)، و«جامع الترمذي» (٣٦١٨).
(٣) «صحيح البخاري» (١١٩٥)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٠).

ولا يزال ساكن المدينة يتروى أُنسها ونعيمها، حتى إذا فارقها تعلق بها قلبه، وغادرها ولم يقض منها وطراً مهما طال مقامه بها، ويظل يجذبه إليها حبُّه، ويدعوه إليها شوقه، ولا يبرح يكابد أشواقه إليها، ولوعته بفراقها، كلما تذكر أيامه بها.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها[1]

في المدينة تفرقت أحداث حياته ﷺ في أماكنها، فعلى كل جبل قصة، وفي كل بيت حكاية، وفي كل شِعبٍ ووادٍ حادثٌ وحديثٌ.

وكان من أعظم نعم الله عَلَيّ أن عِشتُ في المدينة المنورة شطراً من عمري، أقرأ تاريخها، وأستروي مؤرخيها، وأتتبع خطوات رسول الله ﷺ في أماكنها، وأستنطق المكان ما كان فيه، وأستمليه ما شهد به.

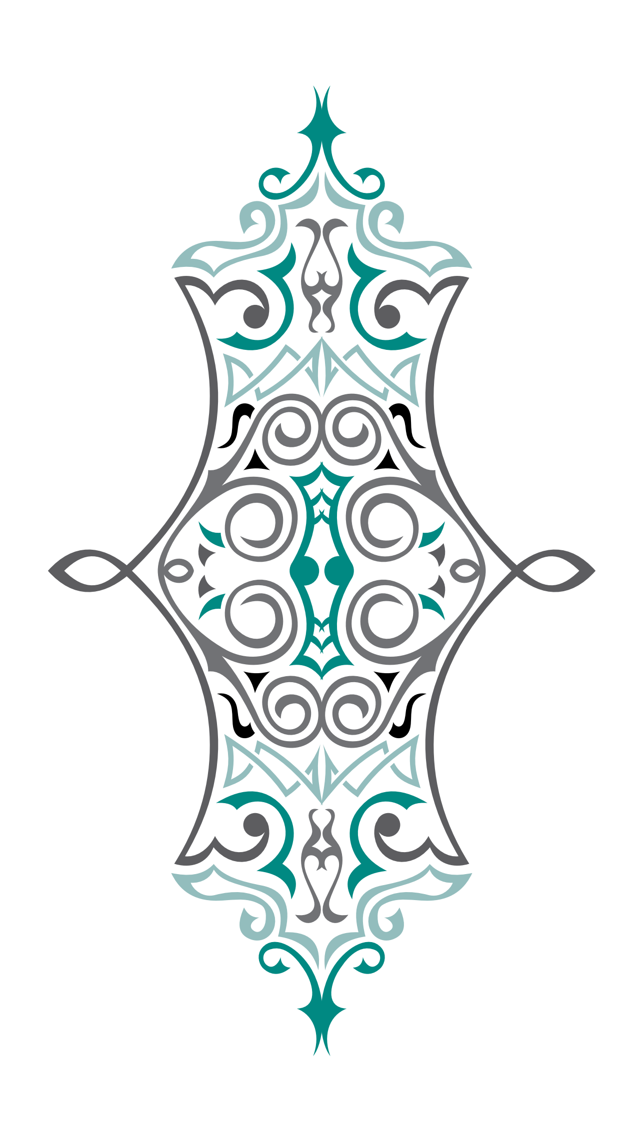
ثم رويتُ ذلك في برنامج تلفزيوني بعنوان: «**ذاكرة الأماكن**»، ثم حرّرتُ ما قدمته، فوضعت له مقدماتٍ ممهِّدة، وملحقاتٍ مُتمِّمة، وأضفتُ ما يتعلق بالقبر المقدس، ومواضع أخرى لم تكن معدَّة في البرنامج، ولعلي حرّكتُ بهذا إلى المدينة شوقاً، وأذكيتُ عزماً، وسددْتُ بعضَ الحاجة في تعريف الطلبة وغير المختصين بالمدينة وتاريخها، ومواقع أحداث السيرة فيها.

والحمد لله رب العالمين.

عبد الوهاب الطريري
إسطنبول ٠٣/ ١١/ ٢٠٢٠م

---

(١) البيت للأبله البغدادي. ينظر: «وفيات الأعيان» (٤/ ٤٦٤)، و«الدر الفريد» (١١/ ٢٤٦).



رسول الله ﷺ والمدينة



كما اختار الله مكة لبيته، اختار في الأزل المدينة مهاجَراً لنبيّه ﷺ، وجعل لها من الفضائل والميزات ما اختصت به على بقاع الأرض كلها.

فهي بلده التي هاجر إليها، وأقام دولته فيها، وأطلق دعوته ورسالته منها، ثم سيَأْرِز[1] الدين في آخر الزمان إليها[2].

على أرضها مشى، وفي فضائها تحرك، وفي محرابها صلى، وعلى منبرها خطب، أحبها وأحبته؛ حتى أحبته جبالها، ومظاهر الطبيعة فيها، «**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[3].

وكانت علاقة هذا النبي ﷺ بالمدينة تُنْسجُ في عالم الغيب البعيد، فقد بشرَّ الله به وبها في رسالات الأنبياء قبله، وجاء وصفها لدى الأمم السابقة، ولذا جاء اليهود من الشام إلى جزيرة العرب يتتبعون وصفها: «**أرْضَاً ذَاتَ حِرارٍ وَنَخْلٍ**»[4]، فنزلوا نواحي عدة ينطبق عليها الوصف، فنزلوا وادي القرى، وخيبر، وفَدَك، وفيهم من نزل المدينة لما رأوا من صفتها المذكورة في كتبهم، كما جاء بعد ذلك سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إليها؛ للوصف الذي أخبره به عنها علماء النصارى الذين لقيهم.

---

(١) يأرِز: ينضمّ ويجتمع بعضُه إلى بعض فيها. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ٣٧).
(٢) «صحيح البخاري» (١٨٧٦)، و«صحيح مسلم» (١٤٧).
(٣) «صحيح البخاري» (١٤٨٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).
(٤) ينظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ٢١٤).

ثم هاجرتْ بعد ذلك قبيلة الأوس والخزرج من اليمن عند خراب سدِّ مأرب مع هجرة أهل مأرب وما حولها إلى أنحاء الجزيرة العربية، وتفرقهم فيها، فكان من خيرة الله لهم نزولهم في أرض المدينة التي كانت تسمى «**يثرب**»، ولعلهم اختاروها لمشابهتها أرضاً ومناخاً لبلدهم مأرب، فهي أرضُ واحاتٍ تجمع السهول والجبال، وأرض خصب وزراعة، وهكذا كانت بلادهم التي خرجوا منها، وكان اليهود قد سبقوهم في سكناها، ولكنهم كاثروا اليهود فيها، واستعانوا بملوك الشام الغساسنة عليهم حتى غلبوهم عليها، واضطر اليهود للتحالف معهم، وبهذه الكثرة في المدينة عَمَرت أرضها، وكثر سكانها، وزادت خيراتها، فصارت بلداً عامراً يُقصد للميرة[1]، وتمر به القوافل للتزود منه[2].

وفشا علمُ اليهود بين الأوس والخزرج، واتبعوهم في بعض عاداتهم من غير أن يتركوا دينهم الوثني، فكانت لهم أصنامهم، ومن أشهرها مناة بالمُشَلَّل[3] بين مكة والمدينة.

وأكثَرَ اليهود من إسماعهم أن نبيّاً سيخرج، وأنهم سيتبعونه ويقاتلونهم معه، وهي معلومة كان اليهود مصدَرها والمفاخِرَ بها، بل المتوعد بقرب وقوعها، وهو ما أخبر عنه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ثم كان من صنع الله لنبيه أن يمر بالمدينة جدُّه هاشم بن عبد مناف في سفره إلى الشام، فيتزوج بها من سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية الخزرجية، فولدت له ولداً أسمتْه شيبة، وبنتاً أسمتْها رقية، ثم خرج هاشم إلى غزة، فمات فيها شابّاً[4].

---

(١) الميرة: الطعام ونحوه مما يجلب للبيع. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٧٩).

(٢) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (١/ ٥٨٤)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٢/ ١٦١).

(٣) هي ثنيّة مشرفة على قديد. ينظر: «معجم ما استعجم من أسماء البلاد» للبكري (٤/ ١٢٣٣).

(٤) ينظر: «البداية والنهاية» (٢/ ٢٥٣).

فنشأ شيبة بن هاشم عند أخواله بالمدينة حتى قارب المراهقة، فذهب إليه عمه المطلب بن عبد مناف، وهو شقيق أبيه هاشم؛ ليأخذه ويعود به إلى بلده وقومه، فأبت أمه سلمى أن ترسله معه، فقال لها: إن ابن أخي قد بلغ، وهو غريب في غير قومه، ونحن أهل بيت شرفٍ في قومنا، نلي كثيراً من أمرهم، وقومه وبلده وعشيرته خير له من الإقامة في غيرهم، فأَذِنَتْ به ودفعته إليه، فاحتمله، فلما دخل به مكة وهو مردفه على بعيره، قالت قريش: هذا عبد المطلب ابتاعه، فقال: ويحكم! إنما هو ابن أخي هاشم؛ قدمت به من المدينة! فمن ذلك سمى شيبةُ «**عبدَ المطلب**»[1].

وكان المطلب بن عبد مناف يلي أمر ابن أخيه عبد المطلب ويحوطه، وكان هاشم قد أوصى إلى أخيه المطلب، فلما توفي وثب نوفل بن عبد مناف عم عبد المطلب على ساحات لعبد المطلب تسمى «**الأركاح**» وكانت لأبيه هاشم وهبها لابنه عبد المطلب، فأخذها منه عمه نوفل، فاستنصر عبد المطلب قومه على عمه، فلم يجبه منهم أحدٌ، فلما رأى خذلان قومه له، كتب إلى أخواله بني النجار بالمدينة يستنصرهم على عمه.

فلما بلغهم الكتاب ركبوا إليه كل صعب وذلول، وكانوا ثمانين راكباً، فنزلوا الأبطح، وتلقاهم عبد المطلب، فقال لخاله أبي سعد بن عدي بن النجار: المنزل يا خال، فقال له: لا والله حتى ألقى نوفلاً، قال: تركته في الحجر جالساً مع مشايخ قريش، فأقبل أبو سعد حتى وقف عليهم، فقام إليه نوفل، وقال: يا أبا سعد، أنعم صباحاً، قال أبو سعد: لا أنعم الله لك صباحاً، ثم سل سيفه، فقال: ورب هذه البَنِيَّة[2] لئن لم تردّ على ابن أختي

---

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ١٣٧-١٣٨).

(٢) البنية: أي البناء، إشارة إلى الكعبة.

أركاحه لأملأن منك هذا السيف، فقال: قد رددتها عليه، فأشهد عليه مشايخ قريش، ثم نزل على عبد المطلب، فأقام عنده ثلاثاً، ثم اعتمروا ورجعوا[١].

ويا لله في حكمته وتدبيره، مَن كان يظن أن هؤلاء الذين نصروا عبد المطلب على قومه، هم الذين سيكون أحفادهم أنصار حفيده محمّدٍ ﷺ على قومه أيضاً بعد ذلك.

وكأنّ هذه النصرة توطئة وطليعة لنصرة الأنصار لرسول الله ﷺ فيما بعد!

ثم وُلِد لعبد المطلب بنوه في مكة، ومنهم الشقيقان: عبد الله وأبو طالب، وتزوج عبد الله آمنة بنت وهب، ثم أرسله أبوه عبد المطلب إلى المدينة ليشتري منها تمراً، فخرج إليها وزوجته حامل برسول الله ﷺ، فلما وصل المدينة نزل على أخوال أبيه بني عدي بن النجار، فمرض عندهم، ثم توفي فدفن في المدينة في دار النابغة، وهو رجل من بني عدي بن النجار[٢].

ففي المدينة ولد جدُّ رسول الله ﷺ عبد المطلب، وفيها توفي أبوه عبد الله.

وتأيمت آمنة بنت وهب بعد وفاة زوجها، وأعرضت لشدة حبها له عن الرجال فلم تتزوج بعده، فلمّا بلغ ﷺ ست سنين، ذهبت به أمه إلى المدينة، ومعها أم أيمن بركة الحبشية حاضنته؛ لتزور قبر زوجها عبد الله، فنزلت به عند أخوال جدِّه، في دار النابغة التي دفن فيها أبوه، وأقامت عندهم شهراً عند قبر زوجها الذي أحبته وتأيمت منه، وكان ﷺ قد ميّز وتفتح وعيه، ولذا حفظت ذاكرته ذكريات هذه الزيارة، فقال: «**كُنْتُ أُلَاعِبُ أُنَيْسَةَ جَارِيَةً مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى هَذَا الْأُطُمِ، وَكُنْتُ مَعَ غِلْمَانٍ مِنْ أَخْوَالِي**

---

(١) ينظر: «مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزي (٣/ ٦٠).

(٢) ينظر: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» لابن الجوزي (٢/ ٢٤٤).



نُطَيِّرُ طَائِراً كَانَ يَقَعُ عَلَيْهِ»، وَنَظَرَ إِلَى الدَّارِ فَقَالَ: «**هَهُنَا نَزَلَتْ بِي أُمِّي، وَفِي هَذِهِ الدَّارِ قُبِرَ أَبِي عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ**»[(١)].

وكأنما هذه الزيارة المبكرة في الطفولة، هي التهيئة للهجرة النبوية الكبرى في الكهولة.

ثم توجهت آمنة بابنها وحاضنته أم أيمن عائدة إلى مكة، وفي الطريق مرضت، ثم توفِّيتْ في «**الأبواء**» بين المدينة ومكة، وكان ﷺ في سنّ الطفولة الواعية، فحفظت ذاكرته الحدثَ ومكانَه، فقد رأى أمه تموت وتدفن ويسوي قبرها، ولذا لما مر بقبرها بعد خمسين سنة، زارها وجلس عند قبرها، وبكى ﷺ وأبكى من حوله[(٢)].

ثم لما تهيأ لتلقي الرسالة، ونزل عليه الوحي في غار حراء، عاد إلى خديجة خائفاً يرجُف فؤاده، ويقول: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**»، فذهبت به خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِي، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، وعَلِمَ من عِلْم أهل الكتاب، فقالت له: يا ابن عم؛ اسمع من ابن أخيك، فأخبره النبي ﷺ بما رأى، فقال: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعاً، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيّاً حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟**»، قَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً[(٣)].

وما أعجب أن يرافق خبرُ الهجرة نزولَ الوحي، وأن تبدأ التهيئة النفسية لها مع طلائع الوحي الأول فيما أخبر به ورقةُ رسولَ الله ﷺ، الذي حفظ هذا اللقاء، ورواه لأمِّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد ذلك.

---

(١) ينظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ١١٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٩٧٦)، و«سنن أبي داود» (٣٢٣٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٠).

ثم أوحى الله إليه أنه سيهاجر ويُنصر ويُظهَر، فكان إذا هاجر إليه أحد في مكة أَمَرَه أن يرجع إلى قومه حتى يسمع أنه قد ظهر ثم يلحق به، كما صنع مع عمرو بن عبسة الأسلمي[1]، وأبي ذر الغفاري[2] رضي الله عنهما.

ثم أراه الله دار هجرته وهو في مكة، فرأى أرضها ونخيلها ولم يعلم مكانها، فظنها اليمامة أو هَجَر[3]؛ لشهرتهما بالنخيل، فقال: «**رَأَيْتُ فِي الْـمنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ فَإِذَا هِيَ الْـمدِينَةُ يَثْرِبُ**»[4].

ثم كان من صنع الله لرسوله ﷺ أن الأوس والخزرج كان بينهم خصومة وحروب تتابعت؛ فكان آخرها حرب يوم بُعاث[5] قبل الهجرة بثلاث سنين، وكانت معركة عظيمة انتصر الخزرج في أولها، ثم كان النصر النهائي للأوس وهم الأقل عدداً، وقُتل فيها سادة الأوس والخزرج وقادتهم، ومنهم رئيسا الخزرج والأوس، وعدد من أكابرهم ممن كان يظن أن سيتكبر ويأنف من الدخول في الإسلام؛ حتى لا يكون تحت حكم غيره، وقد بقي من كبرائهم عبد الله بن أبي ابن سلول.

ثم كانوا بعد هذه المعركة متنافرين، فلا الأوس تُسلِّم الزعامة للخزرج؛ لأنهم قد انتصروا عليهم في هذه المعركة، ولا الخزرج تسلّمها للأوس؛ لأنهم أكثر منهم، فكان اجتماعهم على رجل من غيرهم مما يتقبله كلا الطرفين.

---

(١) «صحيح مسلم» (٨٣٢).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٢٢).
(٣) هي ساحات الأحساء، وهي الآن في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية.
(٤) «صحيح البخاري» (٣٦٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٢).
(٥) هو مكان في المدينة معروف، ويسمى الآن «المبعوث»، وفيه جرت هذه المعركة فسميت باسمه.



ولذا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَانَ يَوْمُ بُعَاثَ يَوْماً قَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَدِ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ، وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ[1] وَجُرِّحُوا، فَقَدَّمَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي دُخُولِهِمْ فِي الإِسْلَامِ[2].

فلما عرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دعوته على رجال من الأوس والخزرج في موسم الحج في مكة تقبلوها بقبول حسن، وعادوا إلى المدينة بإسلامهم[3].

فأضاءت أنوار الرسالة في المدينة وفشا الإسلام فيها.

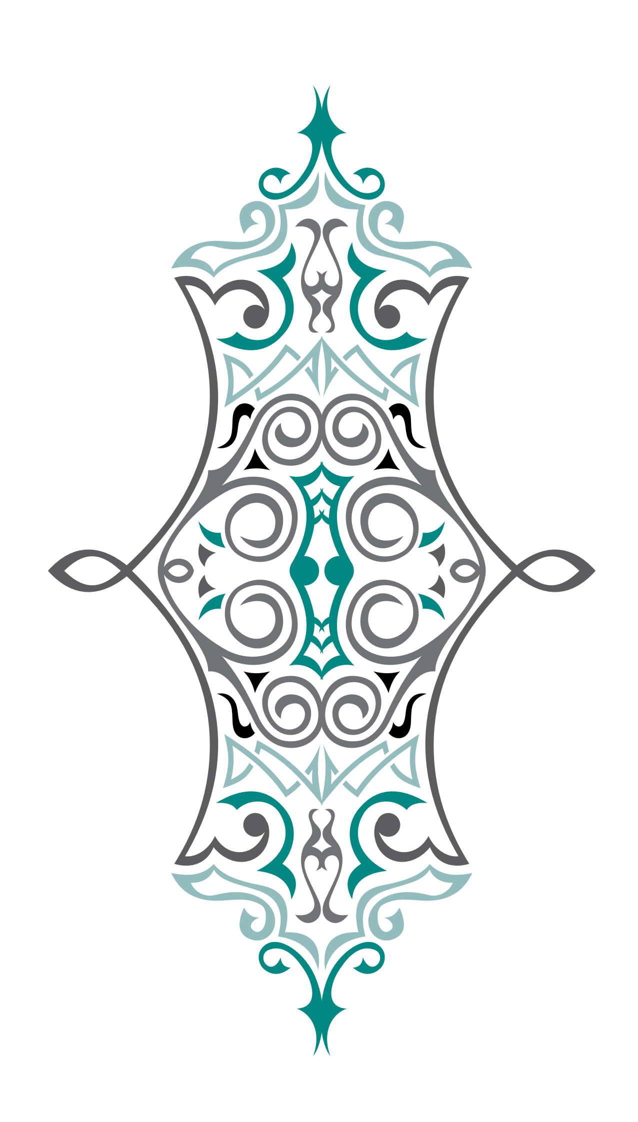
ثم تلقت المدينة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مهاجِراً إليها.

دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المدينة، فأضاء منه كل شيء، فبنى بها مسجده وداره، ونشر فيها ومنها دعوته ورسالته، ثم اختارها الله لتكون تُربتها مثوى رسوله، ومضجع جنبه، فيه ثوى، ومنها يبعث.

فانظر إلى لطف الله في تقديره وتدبيره، وما أجراه من تصريف الأحوال في الغيب السحيق، تهيئةً لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ ليتبوأ المدينة مهاجَراً وسكناً، وثِواءً ومثوى، ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.



(١) سَرَواتهم: أشرافهم. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٦٣).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٧٧٧).
(٣) ينظر: «مسند أحمد» (١٤٤٥٦)، و«مستدرك الحاكم» (٤٢٥١).



رسول الله ﷺ والأنصار



لما بُعث رسول الله ﷺ وصدع بدعوته، وصار يعرض نفسه على القبائل في المواسم، كان أكثر العرب يقولون: قومُه أعلم به، لو كان ما يقول حقّاً لاتّبعه قومه!

وكان ذلك من خيرة الله للأنصار، واختياره الخير لهم -فالله أعلم حيث يجعل رسالته- فلمّا عَرَض النبي ﷺ الإسلام على نفر من الأوس والخزرج، تذكروا مقالة يهود بقرب ظهور النبي ﷺ واتباعهم إياه، فقالوا: هذا الذي تتوعدكم به يهود، فلا يسبِقُنَّكم إليه، فأسلموا مكانهم، وعادوا بعد الحج إلى المدينة، وجعلوا ينشرون الدين حتى فشا في المدينة، ثم التقوا بالنبي ﷺ في السنة التي بعدها وبايعوه بيعة مفصلة، وهي التي تسمى «**بيعة العقبة الأولى**»، وهي التي رواها عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِالله شَيْئاً، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتُلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ، وَلَا نَنْتَهِبَ، وَلَا نَعْصِيَ، بِالْجَنَّةِ إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ، فَإِنْ غَشِينَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً، كَانَ قَضَاءُ ذَلِكَ إِلَى الله[1].

وأرسل النبي ﷺ إليهم مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعلمهم القرآن، وما نزل من أحكام الدين[2]، فظهر الإسلام في المدينة، حتى لم يبقَ بيت من بيوتهم إلا ودخل فيه الإسلام، فجعلوا يقولون: كيف نترك رسول الله يطوف ويطرد في جبال مكة، ولا ندعوه

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٩٣)، و«صحيح مسلم» (١٧٠٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٢٥).

إلينا؟! فاتفقوا على ذلك، وتمت المراسلة بينهم وبين النبي ﷺ على اللقاء والتعاقد على الهجرة والنصرة، وكان ذلك في موسم الحج، فلما كانت ليلة الموعد في منى، وكان مكان اللقاء شِعْباً منزوياً خَفِيّاً من شعاب منى، في أدناها مما يلي مكة، قريباً من جمرة العقبة، فحضر النبي ﷺ ومعه عمه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يكن أسلم؛ ولكن حضر ليشهد العقد، ويستوثق لابن أخيه.

وتسلل إليه الأنصار من منازلهم في منى يسربون في هدأة الليل كما تسْرُب القطا، حتى لا يشعر بهم أحد، فلما التقوا برسول الله ﷺ، قالوا: يا رسول الله؛ اشترِطْ لربك ولنفسك ما أحببت، فقال: «**أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ**»، قالوا: فما لنا؟ قال: «**الجَنَّة**»[(١)].

هذا ما شرط لهم! لم يشترط لهم منصباً، ولا مالاً، ولا جاهاً، وإنما شرط لهم ما آمنوا به من قبل، وهو الجنة، وموعود الآخرة.

ثم قالوا له: إن بيننا وبين الرجال -يعنون اليهود- حبالاً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله؛ أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا؟ فتبسم ﷺ وهو يقول: «**بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، وَالهَدْمَ الهَدْمَ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمتُمْ**»[(٢)].

وبدأ أصحاب رسول الله ﷺ يهاجرون إلى المدينة أرسالاً، والنبي ﷺ ينتظر الإذن من الله له، فلما أُذِنَ له هاجر هو وصاحبه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) «مسند أحمد» (١٧٠٧٨)، و«مسند البزار» (٦٥٦٤).

(٢) «مسند أحمد» (١٥٧٩٨)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٧٤).

نزل رسول الله ﷺ المدينة، وواساه الأنصار هو وأصحابه المهاجرين، وخلطوهم بأنفسهم، وشاركوهم في أموالهم، في صورة من صور الإيثار النادرة خلد الله ذكرها في كتابه، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ وكان النبي ﷺ معهم في أكرم جوار، يتعاطى الحب معهم أجمل ما يتعاطى وأصدقَه، فيسري حبُّه في نفوسهم رجالاً ونساءً وأطفالاً؛ حتى كأنما قسم حياته في حياتهم.

وكما كانوا أسخياء له بديارهم وأموالهم، فقد كانوا أسخياء بدمائهم وأرواحهم، فقد ناصروه وقاتلوا عنه ومعه حيثما قَاتل وقوتِل، وكانوا صُبُراً في الحرب، صُدُقاً عند اللقاء، فلما خرج إلى بدر يريد عير قريش، فاتته العِير، وواجه العدو، فاستشار أصحابه -وهو يريد الأنصار- لأنّ شرطهم النصرة له إن قوتل في المدينة، وقد خرج من المدينة ليقاتل، فقال سعد بن معاذ حامل راية الأنصار: وَاللهِ يَا رَسُولَ الله كَأَنَّكَ تُرِيدُنَا؟، قال: «أَجَلْ»، قال: قَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ حَقٌّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ الله لِمَا أَرَدْتَ، فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ نَلْقَى عَدُوَّنَا غداً، إِنَّا لَصُبُرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ، صُدُقٌ عِنْدَ اللِّقَاءِ، وَلَعَلَّ اللهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ، وسار بهم حتى التقوا عدوهم، فكانوا كما وعدوا، صُبرٌ في الحرب، وصُدقٌ في اللقاء[1].

(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ٤٠٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٤).

وكذا قاتلوا وصدقوا معه في معركة أُحد، فكان أكثر الشهداء من الأنصار[1]، وصبروا معه في الخندق، حين زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، فكانوا في غاية الثبات، لم تختلف لهم كلمة، ولم تزل لهم قدم.

ثم ساروا مع رسول الله ﷺ إلى فتح مكة، فكانوا هم كتيبته الخضراء وقوته الضاربة، قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ناداني رسول الله ﷺ، وهو متوجه إلى مكة، فقال: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، ادْعُ لِي الْأَنْصَارَ**»، فَدَعَوْتُهُمْ، فَجَاءُوا يُهَرْوِلُونَ، فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، هَلْ تَرَوْنَ أَوْبَاشَ قُرَيْشٍ؟**» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**انْظُرُوا، إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ غَداً أَنْ تَحْصُدُوهُمْ حَصْداً**»، وَأَخْفَى بِيَدِهِ وَوَضَعَ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ، وَقَالَ: «**مَوْعِدُكُمُ الصَّفَا**»[2].

ودخل رسول الله مكة فاتحاً، وأعلن على باب الكعبة عفوه عن قريش وإطلاقهم، فلا يُتْبعُ أحد بذنب، ولا يُسْأل عن سابقةٍ.

واجتمع أهل مكة من الغد، وتزاحموا بين يدي النبي ﷺ يبايعونه على الإسلام، والفرح يطفح على وجهه الأنور؛ فرحاً بإسلام قومه وهدايتهم.

ورأى الأنصارُ رسولَ الله ﷺ وسروره، وقريشاً وإقبالَهم وتقبلهم، وتحرك في نفوسهم الشحُّ برسول الله ﷺ، -والمحب بسوء الظن مولع- وخشي بعضُهم أن يرغب النبي ﷺ في بلده وقومه، فقال بعضهم لبعض: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، وَرَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَجَاءَ الْوَحْيُ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ الْوَحْيُ لَا يَخْفَى عَلَيْنَا، فَإِذَا جَاءَ فَلَيْسَ أَحَدٌ يَرْفَعُ طَرْفَهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى يَنْقَضِيَ الْوَحْيُ، فَلَمَّا انْقَضَى الْوَحْيُ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ**» قَالُوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**قُلْتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فَأَدْرَكَتْهُ رَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ؟**» قَالُوا: قَدْ كَانَ ذَاكَ، قَالَ:

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٣/ ٩٨).

(٢) «صحيح مسلم» (١٧٨٠).



«**كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالْـمحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْـممَاتُ مَمَاتُكُمْ**»، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَبْكُونَ وَيَقُولُونَ: وَاللهِ مَا قُلْنَا الَّذِي قُلْنَا إِلَّا الضِّنَّ[1] بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ، وَيَعْذِرَانِكُمْ**»[2].

وخرج الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعد الفتح مع رسول الله ﷺ في جيشه الكبير الذي تجاوز ثلاثة عشر ألفاً لقتال هوازن في حنين، فهُزم المسلمون في الجولة الأولى منها على كثرتهم، ووصف الله تعالى هذا المشهد بقوله: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾.

وتفرق الناس من حول رسول الله ﷺ، ولكنّ رسول الله ﷺ لم يَفِرَّ، وثبت هو ونفر قليل معه، فأمر عمه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وكان جَهْوري الصوت-: «**نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ** -أي الأنصار-»، فلما سمعوا النداء عطفوا إليه عطفة البقر على أولادها[3]، فإذا هم كلهم معه وحوله، ثباتاً وصدقاً، وتغيرت موازين المعركة، وهُزِمت هوازن وفرت من ميدان المعركة، تاركة كلَّ ما أحضرته معها من نفائس أموالها؛ من إبل وغنم وسلاح، وقسم النبي ﷺ الغنائم، وأعطى المؤلفةَ قلوبهم -وهم زعماء قريش والقبائل الحديثة العهد بالإسلام- يتألفهم على الدين، ورأى الأنصار الإبل تعطى بالمئات لأبي سفيان وابنيه يزيد ومعاوية، ولصفوان بن أمية، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وغيرهم، ولم يؤثروا هم بشيء، فقال بعضهم: يغفرُ الله لرسول الله؛ يعطيهم وسيوفنا تقطر من دمائهم.

(١) أي: شحا بك أن تفارقنا. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٠٤).
(٢) «صحيح مسلم» (١٧٨٠).
(٣) «صحيح مسلم» (١٧٧٥).

وبلغت الكلمة رسول الله ﷺ، فجمعهم في قُبّة وقال: «لَا يَدْخُلْ عَلَيَّ إِلَّا أَنْصَارِيٌّ»، ثم قال: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟»، فَسَكَتُوا، فقال: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالاً، فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَعَالَةً، فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَمُتَفَرِّقِينَ، فَجَمَعَكُمُ اللهُ بِي؟»، وَيَقُولُونَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ، فَقَالَ: «أَلَا تُجِيبُونِي؟»، قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ الله، وَلله وَلِرَسُولِهِ الـمَنُّ وَالْفَضْلُ، قَالَ: «أَمَا وَالله لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فَآسَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ[1] مِنَ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْماً لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْإِبِلِ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ الله إِلَى رِحَالِكُمْ؟ الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ[2]، وَلَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِياً وَشِعْباً، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهُمْ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ»، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ، حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ[3]، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ الله ﷺ قِسْماً وَحَظّاً، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ وَتَفَرَّقُوا[4].

ثم عاد النبي ﷺ في السنة العاشرة إلى مكة؛ ليحج بالناس حجة الوداع، فقدم المدينة بشر كثير من قبائل العرب قريبها وبعيدها، حتى تجاوز من ساروا مع النبي ﷺ مئة ألف.

(١) اللُّعاعة: البقية اليسيرة. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٥٤).

(٢) الدِّثار: هو الثوب الذي يكون فوق الشِّعار، يعني: أنتم الخاصة والناس العامة. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٠٠).

(٣) أخضلوا لِحاهم: بلُّوها بالدموع. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٣).

(٤) «مسند أحمد» (١٢٦٠٨)، و«صحيح البخاري» (٤٣٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٦١).

فحجّ النبي ﷺ بالناس، وأراهم مناسكهم، وبلّغهم واستشهدهم: «**اللَّهُمَّ، هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ اشْهَدْ!**»[1]، وودعهم فقال: «**لَعَلِّي لاَ أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»[2].

حتى إذا قضى حجه، سار الركب الشريف من مكة، وخرج رسول الله ﷺ وقد ودعته مكة نساؤها ورجالها، وشعابها وجبالها؛ عائداً إلى المدينة، ورأى الأنصارُ أهلَ مكة وهم يودعونه، وقد طفرت أشواقهم، والتاعت قلوبهم، وفاضت عيونهم لوداع رسول الله ﷺ.

وسارت معه هذه الجموع ترافقه وتسير معه، حتى إذا دنا من المدينة نزل بذي الحليفة في الوادي المبارك، فبات بها، وذلك حتى لا يطرق المدينة ليلاً، وحتّى يصل الخبر إلى أهل المدينة، فيتهيأوا لاستقبال أهلهم.

فيا ترى كيف كان شعور الأنصار تلك الليلة، وقد دنوا من مدينتهم، ورسول الله ﷺ معهم؟!

بل كيف كان شعورهم يوم سار النبي ﷺ إلى المدينة، ترافقه القبائل التي جاءت معه، وتودعه كل قبيلة إذا حاذت منازلها وأوشكت أن تفارقه؟ حتى أهل مكة ودّعوه حين أراد أن يرحل منها، إلا هُم، فقد أتوا معه من المدينة، وهاهم يعودون به إليها.

أيّ غِبطةٍ كانت تملأ نفوسهم، وهم يسيرون مع رسول الله ﷺ، فيرون القبائل تتفرق في الأودية والشعاب، ورسول الله ﷺ معهم في مسيرهم، يدخل كلَّ وادٍ دخلوه، ويسلك كلَّ شِعْبٍ سلكوه؟!

---

(١) «صحيح البخاري» (١٧٣٩).

(٢) «سنن الدارمي» (٢٣٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٤٠٧٨).

هل تذكروا يوم قال لهم: «**لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيـاً وَشِعْباً، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهُمْ**»؟

هل تذكروا قوله ﷺ لهم يوم قسم غنائم حنين: «**أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاءِ وَالْإِبِلِ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ الله إِلَى رِحَالِكُمْ؟**»؟

أين الإبل التي أعطيت؟ أين الغنائم التي قسمت؟! ذهبت كلُّها، وبقي للأنصار قَسْمهم ونصيبهم؛ رسولُ الله ﷺ، ها هو معهم يحوزونه إلى رحالهم، ويولجونه بين دورهم.

قُرةَّ عينٍ لهم يوم قالوا: رَضِينَا بِرَسُولِ الله قَسْماً وَنَصِيباً!، والله لشِسْعِ نعل رسول الله ﷺ يكون عندهم خير مما أعطي غيرهم وغَنِم.

يا لله ولمشاعر الأنصار ليلتهم هذه! كيف كانت تشع عيونهم، وهم ينظرون إلى المدينة أمامهم، ثم ينظرون إلى رسول الله بينهم؟!

كيف كانت الغبطة تَطفِر من قلوبهم، وهم يتذكرون وعد رسول الله ﷺ، وقد وعدهم فوفى لهم، وقال لهم فصدقهم: «**الْـمحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْـمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ**»؟



فضائل المدينة[1]



اختار الله المدينة من بين بقاع الأرض كلها لتكون مهاجَر نبيه، ومنطلق دعوته، وقاعدة دولته، ومأرِز دينه، ولذا تكاثرت فضائلها، وتعددت مناقبها، واحتفَّت بها دعوات النبي ﷺ، وأضاءَتها أنواره، وعَمَّتْها بركاته، وتنزلت عليها السكينة، وغشيتها الطمأنينة، وتكاثرت الفضائل لها كلَّها؛ لأهلها، ولأرضها، ومسجدها، ومنبرها، وحَرَمِها، وبقيعها، وثمارها، وجبالها، وآطامها، وعالِمها، وعظَّم الله حرمتها، وحبَّبها، وفضَّل سكناها، وطهرها، وأظهر طيبها، ونفى خبثها، وجعل مأرِز الإيمان إليها، ودفع وباء الطاعون وفتنة الدجال عنها، وتوعد نبيُّه ﷺ من آذى أهلها أو كادهم أو أخافهم.

فالمدينة حشد من الفضائل؛ ولذا تعددت أسماؤها لكثرة أوصافها ومناقبها، فهي المدينة، وطَيْبَة، وطابة، والمُطَيَّبَة، والحبيبة، والمباركة، والمنورة، والمجبورة، والمرحومة، والمحفوظة، والمحفوفة، والناجية، والمقدسة، ومدخل الصدق، ومهاجر الرسول ومضجعه، ومثواه، ولم أجد أكثر من أسماء هذه البلدة الشريفة[2].

---

(١) أفردت فضائل المدينة بالتصنيف، ومن ذلك كتاب: «فضائل المدينة» لخليل ملا خاطر، و«أحاديث فضائل المدينة» للدكتور صالح الرفاعي.

(٢) السمهودي في «وفاء الوفاء» (١/ ١٣)، وذكر لها أربعاً وتسعين اسماً.

فهي خِيرَة الله واختياره لنبيه، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾، ولا يختار الله لنبيه إلا الأفضل والأحب إليه، وقد أُريها ﷺ قبل أن يهاجر إليها، ورآها قبل أن يعرفَها، فقال ﷺ: «أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ»[1].

وقَالَ: «رَأَيْتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي[2] إِلَى أَنَّهَا اليَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ المَدِينَةُ يَثْرِبُ»[3].

وأمره الله بها: قال ﷺ: «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ القُرَى، يَقُولُونَ يَثْرِبُ، وَهِيَ المَدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ»[4].

وباركها الله بدعوة نبيه لها، كما بارك مكة بدعوة إبراهيم لها: قال ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْـمدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا بِمِثْلَيْ مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ»[5].

وقال ﷺ: «اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا»[6].

وقال: «اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَفِي ثِمَارِنَا، وَفِي مُدِّنَا، وَفِي صَاعِنَا بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةٍ»[7].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٥).
(٢) وَهَلي: أي ظني ووهمي. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٣٣).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٦٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٢).
(٤) «صحيح البخاري» (١٨٧١)، و«صحيح مسلم» (١٣٨٢).
(٥) «صحيح البخاري» (٢١٢٩)، و«صحيح مسلم» (١٣٦٠).
(٦) «صحيح مسلم» (١٣٧٤).
(٧) «صحيح مسلم» (١٣٧٣).



وقَالَ: «**اللهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ دَعَاكَ لِأَهْلِ مَكَّةَ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ وَرَسُولُكَ أَدْعُوكَ لِأَهْلِ الْـمدِينَةِ مِثْلَ مَا دَعَاكَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ، نَدْعُوكَ أَنْ تُبَارِكَ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ وَمُدِّهِمْ وَثِمَارِهِمْ**»[1].

والبركة في الصاع والمد أي: فيما يكال بها من قوت، قال النووي: صارت هذه البركة في الكيْل نفسه؛ فزاد مُدُّهم وصار هاشمياً مثل مُد النبي ﷺ مرتين أو مرة ونصفاً، وفي هذا كله ظهورُ إجابةِ دعوته ﷺ وقبولها[2].

ودعا بالبركة في ثمرها: فكَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاءُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِذَا أَخَذَهُ قَالَ: «**اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا**»[3].

وقال: «**مَنْ أَكَلَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ مِمَّا بَيْنَ لَابَتَيْهَا حِينَ يُصْبِحُ، لَمْ يَضُرَّهُ سُمٌّ حَتَّى يُمْسِي**»[4].

ورَغَّب في سكناها والصبر على جَهْدها ولأْوائها، فقال ﷺ: «**الْـمدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، لَا يَدَعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَبْدَلَ اللهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَلَا يَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لَأْوَائِهَا**[5] **وَجَهْدِهَا إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعاً، أَوْ شَهِيداً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[6].

وقال: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَدْعُو الرَّجُلُ ابْنَ عَمِّهِ وَقَرِيبَهُ: هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ، هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ، وَالْـمدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ**

---

(١) «مسند أحمد» (٢٢٦٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٣٧٣).

(٢) «شرح النووي على مسلم» (٩/ ١٤٢).

(٣) «صحيح مسلم» (١٣٧٣).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٠٤٧).

(٥) اللأواء: الشِّدّة وضيق المعيشة. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٢١).

(٦) «صحيح مسلم» (١٣٦٣).

رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ فِيهَا خَيْراً مِنْهُ، أَلَا إِنَّ الْـمدِينَةَ كَالْكِير، تُخْرِجُ الخَبِيثَ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَنْفِيَ الْـمدِينَةُ شِرَارَهَا، كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ»[١].

وقال: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَمُوتَ بِالْـمدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا؛ فَإِنِّي أَشْفَعُ لَهُ، أَوْ أَشْهَدُ لَهُ»[٢].

وأخبر أن أهل بقيعها يُحشرون معه فقال: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ، ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ ثُمَّ آتِي أَهْلَ الْبَقِيعِ، فَيُحْشَرُونَ مَعِي، ثُمَّ أَنْتَظِرُ أَهْلَ مَكَّةَ»[٣].

وفضَّل روضتها: فقال: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ»[٤].

ومنبرَها: فقال: «مِنْبَرِي عَلَى تُرعةٍ[٥] مِنْ تُرَعِ الجَنَّةِ»[٦]، و«قَوَائِمُ مِنْبَرِي رَوَاتِبُ فِي الجَنَّةِ»[٧]، أي: أنها ثابتة في الجنَّة، و«مِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي»[٨].

وحرَّمها كما حرم إبراهيم مكة: فقالَ ﷺ: «المَدِينَةُ حَرَمٌ مِنْ كَذَا إِلَى كَذَا، لَا يُقْطَعُ شَجَرُهَا، وَلَا يُحْدَثُ فِيهَا حَدَثٌ، مَنْ أَحْدَثَ حَدَثاً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٩].

وقال: «إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيِ الْـمدِينَةِ أَنْ يُقْطَعَ عِضَاهُهَا[١٠]، أَوْ يُقْتَلَ صَيْدُهَا»[١١].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٨٧١، ١٨٧٥)، و«صحيح مسلم» (١٣٨١).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٩١٧)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٤٢٧١).

(٣) «جامع الترمذي» (٣٦٩٢)، و«صحيح ابن حبان» (٦٨٩٩).

(٤) «صحيح البخاري» (١١٩٥)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٠).

(٥) الترعة في الأصل: الروضة على المكان المرتفع خاصة، فإذا كانت في المطمئن فهي روضة. ينظر: «النهاية» (١/ ١٨٧).

(٦) «مسند أحمد» (١٠٩٠٨)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٤٢٧٤).

(٧) «مسند أحمد» (٢٦٤٧٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٤٢٧٣).

(٨) «صحيح البخاري» (١١٩٦)، و«صحيح مسلم» (١٣٩١).

(٩) «صحيح البخاري» (١٨٦٧)، و«صحيح مسلم» (١٣٦٦).

(١٠) العِضاه: شجرُ أمِّ غيلان، وكلُّ شجرٍ عظيم له شوك، الواحدة: عِضة، وأصلها: عِضَهَة. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٥٥).

(١١) «صحيح مسلم» (١٣٦٣).



وقال: «**اللهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ فَجَعَلَهَا حَرَماً، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْـمدِينَةَ حَرَاماً مَا بَيْنَ مَأْزِمَيْهَا**[1]**، أَنْ لاَ يُهْرَاقَ فِيهَا دَمٌ، وَلاَ يُحْمَلَ فِيهَا سِلاَحٌ لِقِتَالٍ، وَلاَ تُخْبَطَ فِيهَا شَجَرَةٌ إِلَّا لِعَلْفٍ**»[2].

وأحب جَبَلها وتعاطى الحب معه: فقد أقبل ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، حَتَّى إِذَا أَشْرَفَ عَلَى المَدِينَةِ قَالَ: «**هَذِهِ طَابَةُ، وَهَذَا أُحُدٌ، جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[3].

واختار الله لها من الأسماء أطيبها: فقد طَعَنَ ﷺ بِمِخْصَرَتِهِ فِي الْمِنْبَرِ وقَالَ: «**هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ**»[4].

وقال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى سَمَّى الْـمدِينَةَ طَابَةَ**»[5].

وتوعد من أخاف أهلها أو كادهم: فقال: «**لَا يَكِيدُ أَهْلَ المَدِينَةِ أَحَدٌ، إِلَّا انْمَاعَ**[6] **كَمَا يَنْمَاعُ المِلْحُ فِي المَاءِ**»[7].

وقال ﷺ: «**مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْـمدِينَةِ، فَقَدْ أَخَافَ مَا بَيْنَ جَنْبَيَّ**»[8].

وحفظها الله من أعظم فتنة تجري على الأرض قبل قيام الساعة وهي فتنة المسيح الدجال؛ قَالَ ﷺ: «**لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ، إِلَّا مَكَّةَ، وَالمَدِينَةَ، لَيْسَ لَهُ**

---

(١) المأزِم: المضيق في الجبال حيث يلتقي بعضها ببعض ويتسع ما وراءه. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٨٨).
(٢) «صحيح مسلم» (١٣٧٤).
(٣) «صحيح البخاري» (٤٤٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).
(٤) «صحيح مسلم» (٢٩٤٢).
(٥) «صحيح مسلم» (١٣٨٥).
(٦) مَاعَ الشَّيْءُ يَمِيعُ وَانْمَاعَ، إِذَا ذَابَ وَسَالَ. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٨١).
(٧) «صحيح البخاري» (١٨٧٧)، و«صحيح مسلم» (١٣٨٧).
(٨) «مسند أحمد» (١٤٨١٨).



مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ، إِلَّا عَلَيْهِ المَلَائِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا، ثُمَّ تَرْجُفُ المَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَيُخْرِجُ اللهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»[1].

وقال: «لَا يَدْخُلُ المَدِينَةَ رُعْبُ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، لَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ»[2].

وقَالَ: «يَأْتِي الدَّجَّالُ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ المَدِينَةِ، فَيَنْزِلُ بَعْضَ السِّبَاخِ[3] الَّتِي تَلِي المَدِينَةَ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ، وَهُوَ خَيْرُ النَّاسِ -أَوْ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ- فَيَقُولُ أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ حَدِيثَهُ، فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا، ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ، هَلْ تَشُكُّونَ فِي الأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فَيَقُولُ: وَالله مَا كُنْتُ فِيكَ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي اليَوْمَ، فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلَا يُسَلَّطُ عَلَيْهِ»[4].

وعَنْ مِحْجَنِ بْنِ الْأَدْرَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَطَبَ النَّاسَ، فَقَالَ: «يَوْمُ الخَلَاصِ وَمَا يَوْمُ الخَلَاصِ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله مَا يَوْمُ الخَلَاصِ؟ فَقَالَ: «يَجِيءُ الدَّجَّالُ فَيَصْعَدُ أُحُداً فَيَطَّلِعُ فَيَنْظُرُ إِلَى الْـمدِينَةِ، فَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ أَلَا تَرَوْنَ إِلَى هَذَا الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ؟ هَذَا مَسْجِدُ أَحْمَدَ، ثُمَّ يَأْتِي الْـمدِينَةَ فَيَجِدُ بِكُلِّ نَقْبٍ مَنْ نِقَابِهَا مَلَكاً مُصْلِتاً[5]، فَيَأْتِي سَبْخَةَ الْجُرُفِ فَيَضْرِبُ رِوَاقَهُ ثُمَّ تَرْتَجِفُ الْـمدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، فَلَا يَبْقَى مُنَافِقٌ وَلَا مُنَافِقَةٌ، وَلَا فَاسِقٌ وَلَا فَاسِقَةٌ إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ، فَتَخْلُصُ الْـمدِينَةُ وَذَلِكَ يَوْمُ الخَلَاصِ»[6].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٨٨١)، و«صحيح مسلم» (٢٩٤٣).

(٢) «صحيح البخاري» (١٨٧٩).

(٣) السِّباخ: جمع سبخة، وهي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٣٣).

(٤) «صحيح البخاري» (٧١٣٢)، و«صحيح مسلم» (٢٩٣٨).

(٥) مصلِتاً: مجرِّداً السيفَ. ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٥).

(٦) «مسند أحمد» (١٨٩٧٥)، و«مستدرك الحاكم» (٨٦٣١).



وأنارها بنوره: قال أنس: فلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ الْـمدِينَةَ، أَضَاءَ مِنَ الْـمدِينَةِ كُلُّ شَيْءٍ[(١)].

وحفظها الله من وباء الطاعون أن يصيب ساكنيها: فقال ﷺ: «**عَلَى أَنْقَابِ المَدِينَةِ مَلَائِكَةٌ، لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ، وَلَا الدَّجَّالُ**»[(٢)].

وأحبَّ أهلها وفضَّلهم ودعا لهم: جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَكَلَّمَهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ**» مَرَّتَيْنِ[(٣)].

وقَالَ: «**آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**»[(٤)].

وقَالَ: «**الأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ**»[(٥)].

ومَرَّ بِبَعْضِ الْـمدِينَةِ، فَإِذَا هُوَ بِجَوَارٍ يَضْرِبْنَ بِدُفِّهِنَّ، وَيَتَغَنَّيْنَ، وَيَقُلْنَ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ ... يَا حَبَّذَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «**أَتُحِبُّونِي؟**». فَقَالُوا: إِي وَالله يَا رَسُولَ الله. فَقَالَ: «**وَأَنَا وَالله أُحِبُّكُمْ، وَأَنَا وَالله أُحِبُّكُمْ، وَأَنَا وَالله أُحِبُّكُمْ**»[(٦)].

---

(١) «مسند أحمد» (١٣٣١٢)، و«جامع الترمذي» (٣٦١٨).
(٢) «صحيح البخاري» (١٨٨٠)، و«صحيح مسلم» (١٣٧٩).
(٣) «صحيح البخاري» (٣٧٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٥٠٩).
(٤) «صحيح البخاري» (١٧).
(٥) «صحيح البخاري» (٣٧٨٣)، و«صحيح مسلم» (٧٥).
(٦) «سنن ابن ماجه» (١٨٩٩).



وقال: «الْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَالنَّاسُ دِثَارٌ، وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِياً وَشِعْباً، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهُمْ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ»(١).

ودعا بحبها وأحبها: فقَالَ: «اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْـمدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا»(٢).

وكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَنَظَرَ إِلَى جُدُرَاتِ المَدِينَةِ، أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا(٣).

وحافظ على آطامها(٤): فعن ابن عمر قال: نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ هَدْمِ آطَامِ الْـمدِينَةِ، وَقَالَ: «إِنَّهَا زِينَةُ الْـمدِينَةِ»(٥).

وأخبر أنها ملاذ الإسلام، ومأرِزه في آخر الزمان، فقَالَ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيباً وَسَيَعُودُ غَرِيباً كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْـمسْجِدَيْنِ، كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»(٦).

وبَشَّر بعالِمِها: فقال: «يُوشِكُ النَّاسُ أَنْ يَضْرِبُوا أَكْبَادَ الْإِبِلِ فَلَا يَجِدُونَ عَالِماً أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ الْـمدِينَةِ»(٧).



---

(١) «صحيح البخاري» (٤٣٣٠)، و«صحيح مسلم» (١٠٦١).
(٢) «صحيح البخاري» (١٨٨٩)، و«صحيح مسلم» (١٣٧٦).
(٣) «صحيح البخاري» (١٨٨٦).
(٤) آطام المدينة: أبنيتها المرتفعة كالحصون. ينظر: «النهاية» (١/ ٥٤).
(٥) «مسند البزار» (٥٩٥١)، و«شرح معاني الآثار» للطحاوي (٦٣٢٤).
(٦) «صحيح مسلم» (١٤٦).
(٧) «مسند أحمد» (٧٩٨٠)، و«جامع الترمذي» (٢٦٨٠)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٤٢٧٧).

حِرار قباء



حِرار[1] قباء هي المكان الذي نحسب أن الأنصار كانت تخرج إليه تنتظر قُدوم رسول الله ﷺ، وكانوا يخرجون من الصباح إلى أن يَتعَالى النهار، ويَشتدَّ حرُّ الشمس، فيرُدَّهم الحر إلى بُيوتهم، حيث كان من عادة المسافرين أن يدخلوا المدن صباحاً أو ضحى.



صورة قديمة لمسجد قباء

(١) الحرار: جمع حرة، وهي الأرض ذات الحجارة السود. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٠١).

ويبدو أنهم خرجوا أيام الجُمعة والسبت والأحد، وكذلك يوم الإثنين الذي نتحدَّث عنه، ولعلهم توقَّعوا أن النبي ﷺ خَرج من مكة يوم الخميس، فالمتوقَّع أن يصل قباء يوم الخميس أو الجمعة -من الأسبوع التالي- حيث لم يَحسِبوا مُدة البقاء في الغار، فهم قد حَسِبوا خُروجه من مَكة على أنه مَسيرٌ مُتصل، حيث إن مُدة السَّفر من مكة إلى المدينة ثمانية أيامٍ تقريباً بمقاييس ذلك العصر[١].

فكان الأنصار يخرجون بلهفٍ وشوقٍ، وينتظرون في حَرارة الشمس على تلك الحِرار الملتهبة قدوم رسول الله ﷺ.

وفي يوم الإثنين خرجوا كما كانوا يَخرجون كلَّ يوم، واستيأسوا أن يصل رسول الله ﷺ هذا الوقت، فعادوا إلى بُيوتهم، وإذا بالشُّخُوص تظهر من جنوب المدينة، من العُمق الذي يُحاذِي جَبل عَير[٢].

فإن النبي ﷺ انطلق صَباحاً من أرض يُقال لها: «**الجثجاثة**»[٣]، تبعد قُرابة (٢٠كم) عن المدينة، مَارّاً بطريق الظَبْي.

(١) تستغرق الفترة الزمنية لقطع المسافة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة عادةً عشرة أيام، وبخاصة أن النبي ﷺ سلك طريقاً غير مطروق، لكن يُلاحظ أن الركب النبوي وفَّر يومين، حيث استغرق ثمانية أيام بدلاً من عشرة أيام، وهذا طبيعي؛ لأن الركب قليل، سهل الحركة، خفيف المتاع، وقد واصل مسير الليل بالنهار بعد الانطلاق من غار ثَور، حيث مَكثوا فيه ثلاثة أيام. ينظر: بحث «التَّتبع المكاني والزماني لمعالم طريق الهجرة النبوية». د. عبد الله القاضي.

(٢) جبل كبير مشهور في قبلة المدينة، بقرب ذي الحليفة ميقات المدينة. ينظر: «معجم البلدان» للحموي (٤/ ١٧٢).

(٣) الجثجاثة: منطقةٌ واسعةٌ جنوب جَبلي حمراء الأسد وعَير الصادر، وفي موضعٍ منها نزل النبيُّ ﷺ في هجرته المباركة، وفيها صلَّى الصُّبح وتناول غداءه، ثم طلب من دليله أن يسلُك بهم طريقاً إلى بني عمرو بن عوف أهل قباء، دون الدخول للمدينة، فسلك بهم طريق الظَبي شرقي جبل عَير الوارد، والجثجاثة كانت طريق القوافل منذ القِدم، لمن أراد أن يسلك طريق الفرع، وقد سكنها بعض آل الزُّبير، وخاصَّةً بنو عبد الله بن الزبير: حمزة، وعباد، وثابت، والجثجاثة: نسبةً لنبات الجثجاث. المصدر: عزُّ الدين المِسكي.



صورة منطقة الجثجاثة التي مرَّ منها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أثناء الهجرة



صورة لطريق الظبي الذي دخل منه النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في هجرته

وتظهر مزارع العُصبة وجبل عَير

وأقبلوا من العُمق الجنوبي مُتَّجِهين شمالاً، جَاعِلين جَبل عَير عن يسارهم، وكانوا خمسة شُخوصٍ وثلاث جِمال، يَظهَرون عن بُعدٍ مُبيِّضِين[1]، يَزُول بهم السَّراب يُظهِرهُم ويُخفِيهم، ولم يكن على الحِرار أحدٌ ممن كان ينتظر، وإنما كان يهودي على حِصنٍ من حُصونهم لبعض شأنه، فنظر وكان قد عاش الحدث هذه الأيام مع الأنصار، حيث يرى خُروجهم، وانتظارهم، وترقبهم؛ فلما رأى الشُّخوص تلوح في السَّراب، صرخ من أعلى الحصن بأعلى صَوتهِ: يا مَعشر العَرب! هذا جَدُّكُم الذي تنتظرون[2]، ودَوَّى النداء من فوق الحِصن في قباء، فسُمع مثل الرَّجة في البيوت.

ولك أن تتخيل القُلوب المتلهِّفة، والنُّفوس المشُوقة، وكلٌّ واحدٍ يصرخ في بيتهِ ويُنادي أهله: جاء رسول الله ﷺ أعطوني السلاح، وخرجوا إلى رسول الله ﷺ، ودفعت البيوت بمَن فيها، وسَالت السِّكك بأهل الأحياء، حيث خَرجوا إلى حَرَّة قباء، وجعلت الشُّخوص تتضِّحُ شيئاً فشيئاً، وهم: رسول الله ﷺ، وصاحبه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومولى أبي بكر: عامر بن فُهيرة، وعبد الله بن أُريقط، وغُلام لأوس بن حِجر انضمَّ إليهم في الطريق لما أعْيا أحد جِمال أبي بكر، فأعطاه جَملاً مَكانهُ، وأرسل غُلاماً معهم.

استمر الرَّكب الميمون يسير في هذا الاتجاه، مُتَّجهاً إلى المدينة.

ونُلاحظ أن المدينة يَحضُنها جبلان: من الجنوب جبل عَير، ومن الشمال جبل أُحد.

فجبل عَير: مضطجع في جنوبها وظهرهُ مستوٍ مثل السيف، وجبل أُحد: مُنتصبٌ في شمالها وقِمَمُهُ كثيرة مثل الشُّعلة، والجَبلان يحفان المدينة كأنما يحتضنانها بحبٍّ.

(١) عليهم ثياب بيضاء، كساهم إياها الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حين لقيهم في الطريق عائداً من الشام.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٠٦).

وكان النبيِّ ﷺ في مَسيرهِ مُتَّجها شمالاً وتلقاء وجهه مكان المسجد النبوي، فلو اتَّجه ﷺ في استقامة سَيرهِ لوصل إلى عمق المدينة، حيث مكان المسجد النبوي، ولكنه انحرف يميناً، فتغير المسار من الاتجاه شمالاً إلى الانحراف يميناً، مُتَّجهاً إلى قباء عبر حيِّ العُصبة.

والعُصبة من أحياء قباء[1]، وأول ما استقبل النبيَّ ﷺ منها؛ حيث إنَّه ﷺ دخل قباء من جهة العُصبة، وهذه المنطقة عَمرَها المُهاجرون قبل وصول النبيِّ ﷺ كما جاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ المهاجرين الأوائل سكنوا العُصبة، وكان يؤمُّهم سالم مولى أبي حذيفة[2].



صورة جويَّة لمسجد العُصبة وسط نخيل قباء

(١) ينظر: «معجم المعالم الجغرافية» للبلادي (ص ٢١٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٩٢).

وهناك في العصبة أحد المساجد التاريخية يُسمَّى «**مسجد مُصبِّح**»، أو: «**مسجد بني أُنيف**»، وهم قومٌ من قبيلة «**بَلِيّ**»، حالفوا بني عمرو بن عوف من الأوس، وسكنوا عندهم، ثم جاء المهاجرون من مكَّة، فسكنوا عندهم، ثم جاء رسول الله ﷺ، فسلك من بينهم في طريقهِ إلى قباء.



مسجد بني أُنيف بالقرب من مسجد قباء

وكأنك بالركب النبوي، وهو يتهادى من هذه الفِجاج، ومن بين هذه الثنايا والحرار مُصعداً إلى قباء، حتى صَعد الثنية الواصلة إلى العُصبة، فانفسحت أمام ناظريهِ المدينة بحِرارها ونخيلها، فصافح بَصرهُ المدينة.

تلك المدينة التي أُريها ﷺ وهو في مكَّة، فرأى أرضها ونخيلها، ولم يعلم مكانها، فظن أنها هجَر أو اليمامة؛ لشهرتهما بالنخيل، فقال: «**أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، أَرْضاً ذَاتَ نَخلٍ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ**»(١)؛ فما هو شعور النبيِّ ﷺ وهو يرى بعينيه الآن ما أُريهُ في مكَّة؟!

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٢٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٢).



أيُّ يقينٍ يتلقاهُ قلبُ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بصدق موعود الله إذ وَعده؟

ها هي المدينة -التي أرادها الله مُهاجَراً له، وها هُو يَراها- وها هي بِئر عِذق التي تقع غرب مسجد قباء، والتي استقبلته أول ما وصل قباء، فاستراح فيها.



صورة من بئر عِذق

ولأنَّ وُصوله كان عند تَعالي النهار وارتفاع الضُّحى، أي: ما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة -وهو وقت اشتداد الحر في المدينة- فإنهُ استظلَّ تحت ظلِّ نخلة، وجلس -بأبي هو وأمي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- ووقف بجانبه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطب الناس ويُذَكِّرهم، وكان قد شَاب وشمط شَعر لِحيته، أما النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فهو أكبر من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سناً، إلَّا أنه كان على وجهه نضرة وبهاء، ويبدو أصغر من عمره.



موضع نزول النبيِّ ﷺ في قباء عند بئر عذق

ولذلك فإنَّ الناس عندما أتوا لرؤية رسول الله ﷺ؛ ولم يكونوا رَأوهُ من قبل، جعلوا يُسلِّمون على أبي بكر رضي الله عنه يحسبون أنه رسول الله ﷺ، فلمَّا انحسر الظلُّ عن النبيِّ ﷺ بادر الصديق رضي الله عنه يَبسُط رِداءَه يُظلِّ به النبيَّ ﷺ، فعرفه الناس.

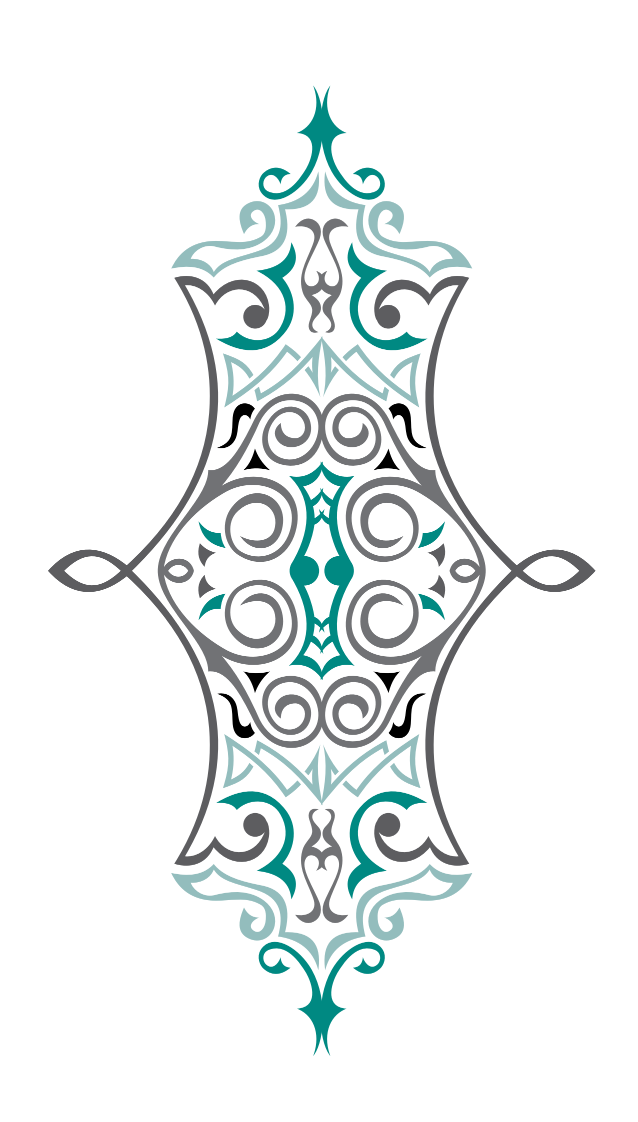
وكان ذلك يوم الإثنين (١٢) من ربيع الأول في السنة الأولى للهجرة، الموافق (٢٣) أيلول/ سبتمبر، والعجيب أن النبيَّ ﷺ وُلد أيضاً في يوم الإثنين (١٢) من ربيع الأول، وكذلك تُوفي في يوم الإثنين (١٢) من ربيع الأول[١].

(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (١/ ١٩١)، و«تاريخ معالم المدينة» (٢٤٩)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٢٩٥)، و«آثار المدينة» (١٦٦).



موقع حرار قباء







مسجد قباء





صورة نخيل منطقة العُصبة، ويظهر في الخلف مآذن مسجد قباء

قباء هي طرف المدينة الجنوبي الغربي، فهذا المكان هو الذي تلقى النبيَّ ﷺ واحتواه وآواه أوَّل ما قَدِم إلى المدينة.

وعندما تدْخُل إلى منطقة مسجد قباء، تستنطق المكان وتتخيل المشهد.

فتتخيل قُدوم النبيِّ ﷺ أوَّل ما قَدِم، ونزوله هنا أوَّل ما نزل، يَحُفُّ به المهاجرون الأولون الذين سَبقوه بالهجرة: عمر بن الخطاب، وسالم مولى أبي حذيفة، ومُصعب بن عُمير، وحَمزة بن عبد المطلب، وأبو سَلمة بن عبد الأسد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، تلك العُصبة الطيِّبة

التي آمنت به في مكَّة أوَّل مَن آمن، ثم هاجرت إلى المدينة أوَّل مَن هاجر، وجَلستْ هنا تنتظر قُدوم النبيِّ ﷺ، وها هو قد لحق بهم وقدم عليهم.

وأتخيَّل الأنصار الذين بايعوا النبيَّ ﷺ في العَقبة، وأتخيَّل الأوس الذين آووا المهاجرين إليهم، ورسول الله ﷺ بينهم يبدأ مشروعه الرِّسالي الأول.

وكان أول مشروع بدأ به النبي ﷺ بعد قدومه هو بناء المسجد، فلم يأتِ إلى قباء ليتخذ فيها جِنَاناً وبساتين -وقد كانت أرضاً ذات زروع ونخيل-، ولا أتى إليها ليبتني فيها قَصراً -وقد كانت بلاد حصون وآطام-، لأنَّ مُهمَّة هذا النبيِّ ﷺ ورسالتهُ هي صِلة الخلق بالخالق، وتوجيه البشرية إلى بارئها، والوجود إلى مَن أوجده، وتعظيم الله عَزَّوَجَلَّ بالسجود له، فبنى مسجداً يُسجد لله فيه.

وكأنه يقول: نحن عَبيدٌ لله وصِلَتُنا بالله العبودية، وأجلى مجال العبودية لله: السجود، فبنى لله مَسجداً.

ومن دلالات بِناء المسجد: أن النبيَّ ﷺ كان يُشارك في بنائه، فكان ﷺ يحمل الحَجر، فيقول من يراه من الصحابة: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، دَعني أحملهُ عنك، فيقول النبيُّ ﷺ له: «**دَعْهُ، وَاحْمِلْ غَيْرَهُ**»[1].

إنه بناء فريق، والنبي ﷺ يُقدِّم القُدوة، ولا يقول: لهم ابنوا! بل يحمل هو الحجر فيحملون، ويبنى فيبنون.

فحمل النبيُّ ﷺ الحَجر الأول، ووَضعهُ في قِبلة المسجد الشَّامية تجاه بيت المقدس، ثم قال لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**ضَعْ حَجَراً هُنَا**»، ثم قال لعُمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**ضَعْ**

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٨٠١، ٨٠٢)، و«الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (٣٤٨٨)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٧٧١٣).

حَجَراً هُنَا»، ثُمَّ الْتَفَتَ فَقَالَ: «يَا عُثْمَانُ خُذْ حَجَراً فَضَعْهُ إِلَى جَنْبِ حَجَرِ عُمَرَ»[1]، ونلاحظ أنه ﷺ بدأ بالمهاجرين: أبي بكر وعُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ وذلك ليُدخلهم في مشروع البناء، وليتحوَّل المهاجرون في المدينة إلى قوَّةٍ فاعلةٍ عاملة، ليسوا كَلاً ولا مُجرَّد ضُيوفٍ في ضِيافة الأنصار؛ ولكن قُوَّة بناء مُضافة إلى الأنصار.

ثم جعل الناس يَبنُون، حتى اكتمل بناء قبلة المسجد الشامية نحو بيت المقدس.

لم يكن بِناء النبيِّ ﷺ لمسجد قباء بناءً كاملاً، وإنما كان بناء تأسيس، أي بناء الحائط القبلي إلى الشام قبل أن تُحَوَّل القبلة، ولذلك لم يُذكر لنا أن النبيَّ ﷺ نَصب أعمدة، ولا أَظلَّهُ بسقف، وإنما أسَّس المسجد، ثم بَناه بعد ذلك أهل قباء، وهم بنو عمرو بن عوف؛ لكن هذا المسجد قد نال شرف تأسيس النبيِّ ﷺ له.

وإذا تكلمنا عن مسجد قباء، فإننا نتكلَّم عن أول مسجد صلى فيه النبي ﷺ بأصحابه جماعة ظاهراً، وأوَّل مسجدٍ بُني في الإسلام لجماعة المسلمين عامة، أما المساجد التي بُنيت قَبله، فكانت لخصوص الذي بناها، كمسجد أبي بكر الذي اتخذه في مكة في فِناء بيته، أو المساجد التي اتخذها المهاجرون أوّلَ ما قدِموا المدينة في أماكنهم، ولم ينقل لنا خبر بنائها، ولذا فإن أول مسجدٍ بَناهُ النبيُّ ﷺ وصلَّى فيه المسلمون مسجد قباء، فكانت له هذه الأولوية.

ولذا قال الله فيه: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾. إن بداية عُمْر الأمة مجتمعاً وكياناً كان ببناء هذا المسجد، وقد قام فيه -بأبي هو وأمي- أوَّل ما قام، ثم عندما تحوَّل ﷺ إلى المدينة، بقيت ذكرى هذا المسجد وحُبُّه عامرين في قلبه ﷺ، ولذلك لم ينقطع عنه.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٤١٨).



مسجد قباء

فكان ﷺ يأتي مسجد قباء راكباً وماشياً[(١)]، ويزوره في كل أسبوع، فظلَّ هذا المسجد عامراً بصلاة النبيِّ ﷺ طِوال حياتِهِ، وكأني بالنبيِّ ﷺ، وهو يتعاهد مسجد قباء، وأهلَها؛ ليُقدِّم لمسة وفاءٍ لهذا المكان وأهله من بني عمرو بن عوف، يذكر لهم سابقتهم، وحسن إيوائهم لمن هاجر إليهم.

فكان يزور قباء ضَحوة كل سبت، كأنما هو على موعدٍ معهم، فإذا القلوب المشُوقة تنتظره، والعيون المحبة ترصده، ولذلك فإن النبيَّ ﷺ ما إنْ يدخل إلى مسجد بني عَمرو بن عَوف -مسجد قباء- حتى يتواردوا إليه مِن نخيلهم وبيوتهم، يُريدون لقاء نبيِّهم ﷺ، فربما دخل بعضهم المسجد والنبيُّ ﷺ قد شَرع في الصَّلاة، فيُسلِّمون عليه وهو يُصلِّي، فلا تمنعهُ صَلاتهُ أن يَرُد التحيَّة عليهم إشارة بيده وهو في صَلاتهِ[(٢)].

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٩٣)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٩).

(٢) «سنن أبي داود» (٩٢٧)، و«سنن ابن ماجه» (١٠١٧).

وقد جعل ﷺ مسجد قُباء سَلوةً للمُهاجرين الذين خَرجوا من مَكَّة، وانقطعوا عن الكَعبة والعُمرة، فجعل النبي ﷺ من زيارة قُباء سَلوةً لهم، يقول ﷺ: «**مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاء، فَصَلَّى فِيهِ صَلَاةً، كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ**»[1]، وكأني بأبي بكر وعمر وحمزة ومُصعب وغيرهم من المهاجرين، كلما حَنَّت قُلوبهم إلى مَكَّة توضأوا في بُيوتهم، وأتوا مسجد قُباء، وصَلَّوا فيه ركعتين، فشَرِبت قُلوبهم الرِّيَّ بأداء عُمرة.

وعندما حُوِّلت القِبلة من الشَّام إلى بيت الله الحرام، أتى النبي ﷺ ومعه السابقون من المهاجرين، وفيهم أبو بكر وعُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى قباء ليَبني قِبلَتها مرةً أخرى، وبَنى القِبلة الثانية إلى بيت الله الحرام، فكان جِبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ يُريه -وهو في المدينة- سَمَتَ القِبلة إلى الكَعبة، فكان النبيُّ ﷺ يضع قِبلة مسجد قُباء إلى بيت الله الحرام، وهو يرى الكَعبة رأي عين، كما يُريه إياها جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ[2].

ما هذا الاحتشاد الملائكي!

وما هذا النزول من الملأ الأعلى لأجلِ قِبلة قُباء؟!

جِبرائيل رُوح القُدُس، ومُحمَّد ﷺ رسول الله يتشاركان في تحديد قبلة قباء.

ولذا فإنها أعدل قِبلة إلى الكَعبة، وهل أعدل من قِبلةٍ يتشارك فيها رُوح القُدُس جِبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ورسول الله ﷺ لِيَضعا سَمتَها؟!

وقد عَرف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هذا القَدر لمسجد قباء، فقد زَاره عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خلافتِهِ، فلما رآهُ تذكَّر هذه الذكريات الجميلة العَذبة، فدَعى بعَسِيبِ نخل، وجعل يمسح حِيطان مسجد قُباء، وهو أمير المؤمنين! إكراماً لهذا المسجد، ووَفاءً

---

(١) «سنن ابن ماجه» (١٤١٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٨٠).

(٢) «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٤٤)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٤/ ٣١٨).



لهذه الذكرى، وكان وهو يُحرِّك العَسِيب يقول: وَالله لَأَنْ أُصَلِّيَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ صَلَاةً وَاحِدَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَرْبَعاً، بَعْدَ أَنْ أُصَلِّيَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ صَلَاةً وَاحِدَةً، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْـمَسْجِدُ بِأُفُقٍ مِنَ الْآفَاقِ لَضَرَبْنَا إِلَيْهِ آبَاطَ الْإِبِلِ(١).

وإن لقُباء مناقب كما للمدينة مَناقب؛ فمسجد قُباء لأهل قُباء كمسجد المدينة لأهل المدينة، فكلاهما مسجدان بناهما رسول الله ﷺ وصَلَّى فيها.

ولأهل المدينة بِئر حَاء التي كان النبيُّ ﷺ يدخُلها، ويشرب من ماءٍ فيها طيِّب، ولأهل قباء بئر أريس، كان النبيُّ ﷺ يدخلها ويستظلُّ بظلِّها، ويغتسل من مائها.

ولأهل المدينة دار أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي نزلها النبيُّ ﷺ أوّلَ ما نزل المدينة، ولأهل قباء دار كُلثوم بن الهدم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي نزلها النبيُّ ﷺ أوّلَ ما نزل قباء.

ففي قباء أوَّل مسجد، وأوَّل دار، وأوَّل بئر(٢).



موقع مسجد قباء



(١) «مصنف عبد الرزاق» (٩١٤١)، و«تاريخ المدينة» لابن شبة (١/ ٤٦).

(٢) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١٧٣)، و«تحقيق النصرة» (٢٩)، و«وفاء الوفاء» (١/ ١٩٦)، و«تاريخ معالم المدينة» (١١٧)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٢٤٨)، و«آثار المدينة» (٨١)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٣٣)، و«طيبة المدينة النبوية» (٧٣).

دار كُلثوم بن الهدم وسَعد بن خَيثمة



هي دار الضيافة الأولى التي تلقَّتِ النبيَّ ﷺ أوَّلَ ما نزل قباء، وكان كُلثوم بن الهدم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَيد قباء، وسَيد بني عمرو بن عوف، وكانت داره تُقابل مسجد قباء من ناحيته الجنوبية إلى جهة اليمين.

فعندما قَدِم النبي ﷺ وصاحبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى قباء وقت اشتداد الضُّحى، نزل أوَّل ما نزل في بئر عذق، فجاءه أهل قباء فسلَّموا عليه، ثم قالوا لهما: قوما آمِنَينِ مُطمئنَينِ، فقام رسول الله ﷺ وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فنزلا في دار كلثوم بن الهدْم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

فإذا ذُكرت دار كلثوم بن الهدم، فإنها تُذكر للأوس في قباء، كما تُذكر دار أبي أيوب الأنصاري للخزرج في المدينة.

وعندما نتذكَّر كُلثوم بن الهدم نتذكَّر فضل الله على بعض عباده كيف يكون! فإن الله أكرم كُلثوماً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو في آخر حياتِه، فقد قدم النبيُّ ﷺ المدينة وكلثومُ شيخٌ كبير، فأكرمه الله بالإسلام، فأسلم والناسُ في جاهلية، ثم أكرمه بصحبة النبيِّ ﷺ، ثم بضيافته النبيِّ ﷺ.

إننا لنتذكَّر ضيافته للنبيِّ ﷺ في داره، فنتساءل: أيُّ رِفعة وأيُّ مكانةٍ نَالها كلثوم بن الهدم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عندما كان يبيت ﷺ في بيته، ويتشارك مع رسول الله ﷺ في

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢٣٣) (٣/ ٦٢٣).

نسمات الهواء الذي يتنفسه، والطعام الذي يأكله، والمجلس الذي يجلسه؟ أيّ قُرْبٍ من رسول الله ﷺ ذلك القرب؟! وأي حظوة عند النبي ﷺ تلك الحظوة؟! فهنيئاً له.

ولهذا الصحابي منقبةٌ أخرى عظيمةٌ؛ وهي اختيار النبيِّ ﷺ مِربَده[1] ليكون عرصة لمسجد قباء، فمسجد قباء بُني في مِربَد كُلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَنَال كُلثُوم بذلك شَرف الإسلام، وشَرف الصُّحبة، وشَرف ضِيافة النبي ﷺ، وشَرف أن يكون مِربَدُهُ مكاناً لأول مسجدٍ بُني في الإسلام.

فقد اجتمعت هذه المناقب، وحاز كل هذه الفضائل والمكرُمَات؛ رجلٌ يعيش آخرَ أيامه، قبل أن يُوَدِّع الحياة!

وحينئذٍ نتذكَّر قولَ النبي ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْراً اسْتَعْمَلَهُ**»، قالوا: كيف يَستعْمِلُه؟ قال: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ مَوْتِهِ**»[2]، فانظر إلى توفيق الله لكُلثُوم بن الهَدم سَيد قُباء: سَبْقَه للإسلام، وصُحبةُ النبيِّ ﷺ وضيافتُه، والتبرعُ بمِربَدِهِ مَسجداً وأيُّ مَسجد؟! إنه المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أوَّل يوم.

ثم كانت وفاة كُلثُوم بن الهَدم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد ذلك بقليل[3].

---

(١) المِربد: هو السقيفة أو العريش التي كانت تُجفَّف فيها التمور. ينظر: «تاج العروس» (٨/ ٨٢).
ومن العجائب والحِكم الإلهية أنَّ موضع المسجد النبوي كان مِربداً للتمر، وكذلك موضع مسجد قباء الذي كان للصحابي كُلثوم بن الهدم، كان -أيضاً- مِربداً.

(٢) «مسند أحمد» (١٢٠٣٦)، و«جامع الترمذي» (٢١٤٢).

(٣) توفي كلثوم بن الهدم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في السنة الأولى من الهجرة، قبل معركة بدر بقليل. ينظر: «أسد الغابة» (٤/ ١٩٥).

وكما كانت دار كلثوم بن الهدم دار ضيافة للرسول ﷺ، فقد كان ثمَّ دار ضِيافةٍ أخرى؛ هي دار سَعد بن خَيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، وكانت قُرْبَ مسجد قباء في جهتِهِ الغربية، تحت مكان المئذنة الرئيسة الآن، حيث اتسعت مساحة المسجد فضمت موضع بيت سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



موقع دارَي الصحابيين كلثوم بن الهدم وسعد بن خيثمة عند مسجد قباء

يُعد بيت كُلثُوم بن الهَدم بيت الضِّيافة والمبيت، وذلك أنه كان شيخاً كبيراً له زوجةٌ وخدم، فهو يقوم بضِيافة النبيِّ ﷺ، وإعداد الطعام، وتجهيز المبيت، أمَّا سَعد بن خَيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكان شاباً عزباً، فكان بيتهُ مفتوحاً للاستقبال؛ يجلس فيه النبيُّ ﷺ ويستقبل الناس، فيدخلون ويخرجون بلا تحرج، وكان يسمى منزل العزاب[2].

وهكذا كان النبي ﷺ يُوزِّع الأدوار، فيُشرِك الشُّيوخ والشباب، والمتزوج والأعزب، فكلٌّ لهُ دور ولهُ مُساهمة، فصار بيت سَعد بن خَيثمة مجلس الاستقبال

(١) ينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٩٣).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٢٣٣).

يستقبل فيهِ النبيُّ ﷺ وفود قبائل الأنصار، ووُفود اليهود الذين أَتوا ليتعرفوا عليه ﷺ، ويستشرفوا خبره، وكان فيمن أتاه منهم: حُيَيّ بنُ أخطب، وأخوه أبو ياسر، وعبد الله بن سلام، وقد وصف عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مشهد اللقاء الأوّل برسول الله ﷺ فقال: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ انْجَفَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ؛ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»(١).

قَضى النبيُّ ﷺ في هاتين الدارين مدة اختلف في تقديرها: فَقيل: أَرْبَعَة، وَقيل: أَرْبَعَة عشر، وَقيل: اثْنَان وَعِشْرُونَ (٢)، وعلى أيِّ الأقوال، فقد كانت هذه الأيام حافلةً باللقاءات، وتأسيس العلاقات، واستقبال القادمين والتواصل معهم، وهناك لَفتاتٌ عذبةٌ، منها:

أنَّ دار كُلثوم بن الهدم صارت في قِبلة مسجد قباء، كما صارت دار أبي أيوب الأنصاري في قِبلة مسجد المدينة (المسجد النبوي).

ويلاحظ أن بقاء النبيِّ ﷺ في بُيوت هؤلاء الكرام، لم يكن مخالطة عابرة، بل سَرَت فيها من رُوحِهِ إلى أرواحهم: شُعلة الهداية، وشُعلة البلاغ للرسالة، وشُعلة التَّوقد لإيصال هذا الدين.

أما كُلثوم بن الهدم فشَيخٌ كبيرٌ تُوفي سريعاً، ونال من الله كرامةَ الموتِ على أحسن العمل، بعد أن أدرك السبق إلى الإسلام، وشرف استضافة النبي ﷺ في بيته.

وأما سَعد بن خيثمة الشاب الذي كان النبيُّ ﷺ يجلس في بيته، فاشترك مع أبي أيوب في تَوقُّد هذه الشُّعلة التي اقتبسوها من النبيِّ ﷺ وهو يعيش في بيوتهم، ومن

(١) «مسند أحمد» (٢٣٧٨٤)، و«سنن ابن ماجه» (١٣٣٤، ٣٢٥١)، و«جامع الترمذي» (٢٤٨٥).

(٢) ينظر: «الدرر في اختصار المغازي والسير» (ص:٨٥)، و«السيرة الحلبية» (٢/ ٧٥).



ذلك أن سَعد بن خيثمة وأباه خيثمة اشتعلت في قلوبهم أشواق الجهاد في سبيل الله، فلما كانت غزوة بدر إذا بسَعد بن خيثمة وأبيه يتنافسانِ على الذهاب إلى المعركة، فيقول خيثمة لابنه سعد: يا بُني إني مُشتاقٌ للشهادة، فدَعني أذهب لعلَّ الله أن يرزقني الشهادة في وَجهي هذا، فيقول له ابنه سعد: يا أبتاه! إنها الجنَّة ولو كان غيرَها لآثرتُك به.

فكان الأبُ يريد الجهاد والشهادة، والابن كذلك! فاتفقا على أن يجعلا بينهما قُرعة ومَن تَخرج له يذهب للجهاد، فوُضعت القرعة واستهَما، فخرج السهمُ للابن: سعد بن خيثمة، فكان هو الذي ذَهب لبدر، فشهد المعركة وكان من شهدائها، أما أبوه خيثمة الذي كان مُشتاقاً للشهادة، فقد شارك في غزوة أُحد ورُزق الشهادة فيها أيضاً[(١)].

ومثلهم أبو أيوب الأنصاري الذي كان النبيُّ ﷺ في ضيافته، ثم مات مُجاهداً غَازياً[(٢)].

فانظر ماذا قَبس هؤلاء من رسول الله ﷺ يوم حلَّ ضيفاً في دُورهم، قَبسوا شُعلة بلاغ الدين، وشُعلة الجهاد من أجل الدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم[(٣)].

(١) «الجهاد» لابن المبارك (٧٩)، و«سنن سعيد بن منصور» (٢٥٥٨)، و«مستدرك الحاكم» (٤٨٦٦).

(٢) سيأتي تفصيله في مبحث «دار أبي أيوب الأنصاري». ينظر: «سنن أبي داود» (٢٥١٢)، و«جامع الترمذي» (٢٩٧٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٩٦٢).

(٣) ينظر في ذلك: «تحقيق النصرة» (١٥٣)، و«وفاء الوفاء» (١/ ١٩٥)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٥٤)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٢٨٥)، و«آثار المدينة» (٢٥).





موقع دار كلثوم بن الهدم وسعد بن خيثمة





مسجد الجُمعة





مسجد الجُمعة في بنائه القديم

بعد أن أقام ﷺ في قباء ما شاء الله له أن يُقيم، تحرَّك مَوكبه المبارك الميمون يوم الجُمعة، ولا تسأل عن جلال الموكب النبوي، وهو يسير من قباء مُتوجهاً إلى المدينة النبوية!

كان يُحيط بالنبيِّ ﷺ قُرابة (٥٠٠) من الأنصار من جميع قبائلهم يحملون أسلحتهم على عواتقهم؛ إعلاناً بالحفاوة والنُّصرة والحماية لرسول الله ﷺ.

سار الموكب النبوي من قباء إلى أن وصل إلى مكانٍ مُنخفضٍ يُسمى «**وادي رانوناء**»[(١)] وكان يَسكُن في جهة الوادي الأُخرى بنو سالم بن عوف من الخزرج، أمَّا أهل قباء فهم بنو عمرو بن عوف من الأوس، فلما مَرَّ النبي ﷺ بهذا الوادي وقف له سادتهم، وكان منهم عِتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجَمْعٌ من سادات بني سالم بن عوف.

فاستوقفوا رسول الله ﷺ، وقالوا: يا رسول الله، انزل عندنا حيث المنعة والقوَّة يا رسول الله، ما أتى أحدٌ عندنا إلا كان في حمايةٍ ومنعة، فانزل عندنا، فقال ﷺ: «**دَعُوها** -يعني الناقة- **فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**»[(٢)].

هنا تحرَّكت مشاعر المنافسة بين القبائل؛ -بني عمرو بن عوف من الأوس، وبني سالم بن عوف من الخزرج- فقالوا: يا رسول الله أقمتَ عند بني عَمِّنا أياماً، ثم تمرُّ من عندنا وتدعنا! صلِّ عندنا يا رسول الله، وكان الوقت قريباً من أذان الظهر وقد قارب وقت صلاة الجمعة، فحَاد النبي ﷺ في مكان هذا المسجد، وكان مُنهبطاً في الوادي، فصلَّى صلاة الجمعة؛ لتكون أوّلَ جمعةٍ يُقيمها رسول الله ﷺ في الإسلام في مكان مسجد الجمعة؛ مسجد بني سالم بن عوف[(٣)].

وفي هذا مشهدٌ من مشاهد التنافس بين الأنصار في الحفاوة برسول الله ﷺ وإكرامه، ومشهدٌ من مشاهد الحب لرسول الله ﷺ، حيث حرصوا على نزوله، وإصابة البركة بصلاته والصلاة معه.

---

(١) وَادٍ صَغِيرٌ بَيْنَ قُبَاءَ وَمَسْجِدِهِ ﷺ، يَصُبُّ مِنْ حَرَّةِ قُبَاءَ فِي وَادِي بَطْحَانَ جَنُوب مَسْجِدِ الْغَمَامَةِ، ينظر: «معجم المعالم الجغرافية» (ص:١٣٥).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٠٤).

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٩٤)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٠٤)، و«معرفة السنن والآثار» (٤/ ٣٢٠).

ومشهدٌ لمراعاة المشاعر النفسية؛ فإن بني سالم بن عوف جيران بني عمرو بن عوف، وأولئك أوس وهؤلاء خزرج، ولذا طيَّب النبيُّ ﷺ خواطرهم، وأجاب طلبهم؛ بالنزول عندهم، والصلاة بهم، ثم واصل مسيره.

وهذا هو النزول الوحيد المحفوظ في مسير النبي ﷺ بين قباء والمدينة، وتبلغ مسافة الطريق بين مسجد قباء ومسجد المدينة قرابة (٧ كم)[١].

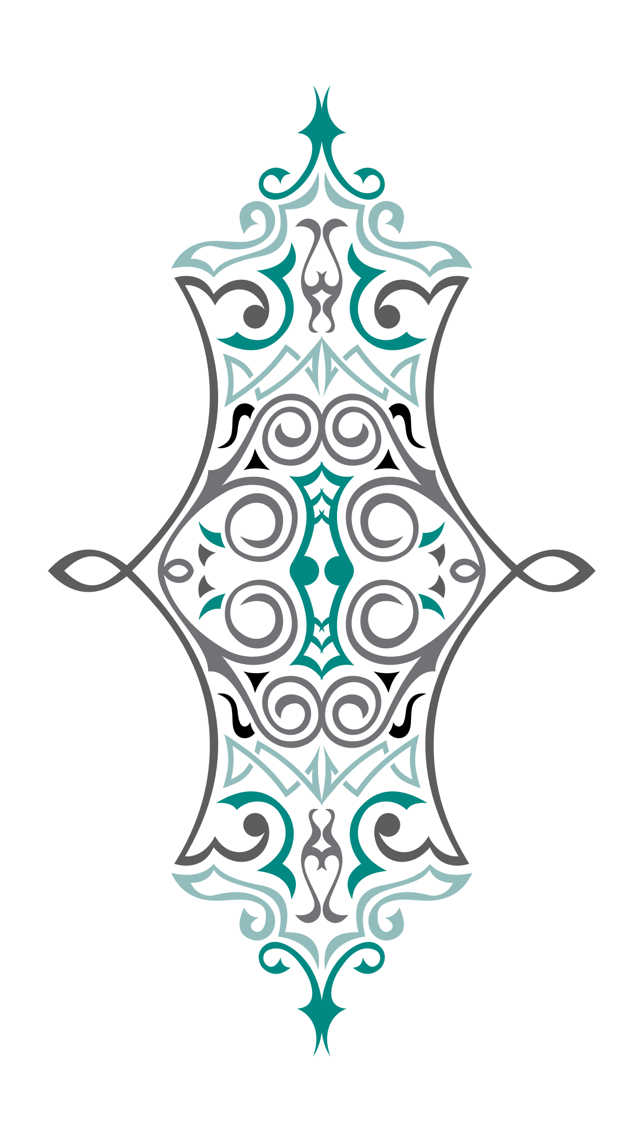


مسجد الجمعة في بنائه الحديث



موقع مسجد الجمعة

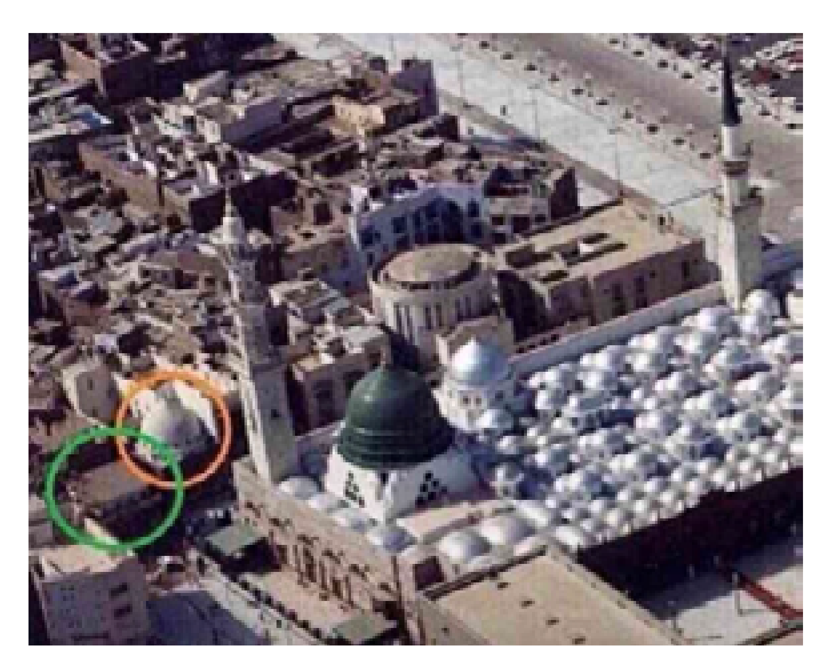
(١) ينظر في ذلك: «تحقيق النصرة» (٢٩)، و«وفاء الوفاء» (١/ ١٩٩)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (١٠٢)، و«آثار المدينة» (٨٨)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٣٨)، و«طيبة المدينة النبوية» (٩١).





دار أبي أيوب الأنصاري





صورة قديمة لموقع دار أبي أيوب الأنصاري قبل إزالتها

يَبعُد موضع هذه الدار الآن خُطواتٍ عن الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد النبوي، فهنا مكان الدار التي آوت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أوَّل ما وصل المدينة قادماً من قباء.

في هذه الدار أكل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أول طعامٍ، وأغفى أول إغفاءة، وجلس أول مجلس.

في هذه الدار تقاسم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ السُّكنى مع أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فكان له فيها مُدة سِتة أو سَبعة أشهر أوَّل مأوى وأوَّل سكن.

هذه الدار التي أكرم الله أبا أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بأن يكون ضَيفهُ فيها، أكرم ضَيف، وأعظم زائر صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.



مشهد قديم لبعض نخيل المدينة، ويظهر من خلفه المسجد النبوي

وكان خبر ذلك: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عندما وصل المدينة قادماً من قباء، وأحياء الأنصار يتلقونه، ويناشدونه النزول عندهم، فيقول: «**دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**»[1].

حتى إذا أتى دُور بني مَالك بن النَّجار، فجعلوا يطوفُون حول ناقة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قائلين: انزل يا رسول الله، فيُجيبُهم: «**دَعُوهَا، دَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ**» فأطلقوا خِطامَها، واختارت مكاناً فبَرَكَت فيه، وبقي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على ظهرها كأنما المشهد لم ينته بعد، وإذا بالناقة تتحرك وتثور قائمة، وتذهب وتدور، ثم تعود مرة أخرى إلى ذات المكان الذي كانت فيه كأنما تؤكِّد اختيار الله.

(١) «سنن سعيد بن منصور» (٢٩٧٨)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٣٥٤٤).

فلما بركت هذه المرة ألقت بصَدِرها وضربت برقبتها على الأرض، وكأنها تشير إلى أن هذا هو مكانها النهائي، فعرف رسول الله ﷺ ومَن معه أن هذا المكان هو خيرة الله، وأنَّ الله سُبحانه قد بَوَّأه هذا المنزل، فقال ﷺ: «**هَذَا الْـمنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»[(١)] فنزل رسول الله ﷺ، ونزل أبو بكر وأطاف به بنو النَّجار.

وهنا ثار التنافس بين الأنصار؛ عند مَن ينزل رسول الله ﷺ؟!

فكلٌّ منهم يقول: يا رسول الله؛ انزل عندي، بيتي قريبٌ هنا، وبينما هم مُنشَغِلون برسول الله ﷺ يَعرِضُون عليه النزول إذا خالد بن زيد -وكان شاباً في نحو الثلاثين من عمره- قد توجه إلى راحلة النبي ﷺ، فحلَّ الرَّحل وحمله، فَقَالَ النبي ﷺ: «**أَيُّ بُيُوتِ أَهْلِنَا أَقْرَبُ؟**»، فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ: أَنَا يَا نَبِيَّ الله، هَذِهِ دَارِي وَهَذَا بَابِي، قَالَ: «**فَانْطَلِقْ فَهَيِّئْ لَنَا مَقِيلاً**»[(٢)].

فانطلق أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورَحْلُ رسول الله ﷺ بين يديه، وكأنَّ كُنوز الدنيا قد حِيزت إليه، فأيُّ فخرٍ أعظم من أنَّ رسول الله ﷺ سيسكن معه في داره؟!

دخل أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيته وكأنِّي به يُنادي زوجته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا أمَّ أيوب قرَّةُ عينٍ لنا! رسولُ الله ﷺ سينزل عندنا، هيَّا هَيِّئي له مَقِيلاً.

ما أعذب الحُبَّ الذي يشعُّ من تلك العيون، ويملأ تلك القُلوب، الحَيُّ كله في حالة احتفاءٍ وفرح[(٣)].

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٩٧٤٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩١١). ومقيلًا: مكانا يقيل فيه، من القيلولة وهي النوم وسط النهار. ينظر: «عمدة القاري» (١٧/ ٥٣).

(٣) «سنن سعيد بن منصور» (٢٩٧٨)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٣٥٤٤).

يقول البَرَاء بن عازب: ما رَأَيْتُ أَهْلَ المدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهِ؛ حَتَّى رَأَيْتُ الوَلَائِدَ وَالصِّبْيَانَ يَقُولُونَ: هَذَا رَسُولُ الله ﷺ قَدْ جَاءَ[1].

هَا هُو رسول الله ﷺ قد نزل بفناء دار أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وانتشر الخبر، وإذا ببُنَيَّات الأنصار اللاتي يَسعَين في السِّكك لرؤية رسول الله ﷺ يجتمعن إليه، وعَبَّرت البُنيَّات الصَّغيرات عن الفرحة بطريقتهنَّ الخاصة، فجئن ومَعهُن الدُّفوف! إنه مشهد انفعال الحبِّ، بُنيَّاتٌ صغيراتٌ معهنَّ الدُّفوف، خرجن لاحتفاليةٍ ترحيبيةٍ برسول الله ﷺ، كأني أرى ذلك المشهد العفوي، والدُّفوف تُقرَع وأصوات الطفولة تُنشد:

نـحـنُ جـــوارٍ مــن بَـنـي الـنَّـجَّـارِ ... يــا حَــبَّــذا مُـحـمَّـدٌ مــن جَــارِ

وإذا بالنبيِّ ﷺ يُقبل عليهنَّ ويستمع لنشيدهن حتى إذا انقطع النشيد أقبل النبيُّ ﷺ عليهن، وقال لهنَّ: «**أَتُحِبِبْنَنِي؟!**» فقلن: نعم يا رسول الله، فقال ﷺ: «**وَأَنَا وَالله أُحِبُّكُنَّ، وَأَنَا وَالله أُحِبُّكُنَّ، وَأَنَا وَالله أُحِبُّكُنَّ**»[2].

ما أعظم هذا الحبَّ عندما يكون أول شَعيرةٍ عاطفية تُعلن في المدينة: «**وَأَنَا وَالله أُحِبُّكُنَّ**».

ثم خرج أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: يا رسول الله قُوما على بركة الله، فدخل رسول الله ﷺ دار أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واختار أن يسكن في أسفل الدار؛ حتى يَسهُل دخول الناس وخروجهم عليه، وسكن أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عُلْوِها، فتحرَّج أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يمشي على سقفٍ تحته رسولُ الله ﷺ، فقال: يا رسول الله لو تحوَّلتَ إلى العُلو؟ ونحن نكون في أسفل الدار، فإني أكره أن أعلو بيتاً أنت في أسفلهِ، فقال ﷺ: «**إِنَّ**

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٩٤١).

(٢) «سنن ابن ماجه» (١٨٩٩)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٠٨).

أَرْفَقَ بِنَا أَنْ نَكُونَ فِي السُّفْلِ لِمَنْ يَغْشَانَا»، فقبِل ذلك أبو أيوب، لكنه صار يتحرك بحذر، فيمشي على حواف الغرفة، حتى لا يكون في المكان الذي يعلو رسول الله ﷺ.

وفي إحدى الليالي انكسرت جَرَّةٌ فيها ماء فانسكب على أرض الغرفة، فخشي أبو أيوب رضي الله عنه أن يتسرَّب الماء، فيقطر على رسول الله ﷺ قال: فأخذنا قَطِيفةً ما كان عندنا من لحافٍ نلتحف به غيرها! وجعلنا نُجفِّف بها الماء، فلما أصبح قال: يا رسول الله لا أريد أن أعلو داراً وأنت في أسفلها، فرفق النبي ﷺ بأبي أيوب رضي الله عنه، وتحوَّل إلى العُلو ونزل أبو أيوب إلى أسفل الدار[1]، وكان يتولَّى خدمة النبي ﷺ وفِراشه.

وكَانَ يَصْنَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ طَعَاماً، فَإِذَا جِيءَ بِهِ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِهِ، فَيَتَتَبَّعُ مَوْضِعَ أَصَابِعِهِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَاماً فِيهِ ثُومٌ، فَلَمَّا رُدَّ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقِيلَ لَهُ: لَمْ يَأْكُلْ، فَفَزِعَ وَصَعِدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَحَرَامٌ هُوَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا، وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ**»، قَالَ: فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا تَكْرَهُ، قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤْتَى[2].

وترحلت سنوات العمر برسول الله ﷺ، فلحق بالرفيق الأعلى، وتبعه خلفاؤه الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وأبو أيوب رضي الله عنه يعيش بركة عمره بإيواء رسول الله ﷺ ومشاركته داره، فأين حلّ وارتحل أبو أيوب بعد ذلك؟!

مَن يظنُّ -مهما اتسع خياله- أن ذاك الشاب الذي حمل رَحْل النبيِّ ﷺ حين جاء مهاجراً إلى المدينة سيكون بعد خمسين سنة مع راية رسول الله ﷺ التي تقاتل هناك في أوروبا، فإذا بأبي أيوب الذي حمل رَحْل النبيِّ ﷺ يُحاصِر القسطنطينية مدينة هِرقل مع جيش المسلمين.

---

(١) «مستدرك الحاكم» (٥٩٣٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٥٣). يؤتى: أي تأتيه الملائكة والوحي. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٤/ ٩).



فإن الإسلام قد انتشر في إفريقيا وآسيا، وها هو يَقرع أبواب أوروبا بقبضة أبي أيوب التي حملت رَحْل النبيِّ ﷺ من قبل.

ثم هَا هُو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَحضُره الوفاة في أوروبا، فيقول ليزيد بن معاوية قائد الجيش، وكان ذلك في خلافة أبيه معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد أتاه يسأله ما حاجتك؟ فقال: حاجتي أني إذا مِتُّ، فاحملوني، ثم توغَّلوا بي في أرض العدو فإذا وصلتم أقصى مكانٍ يمكن أن تَصِلُوا إليه فادفنوني ثم عودوا[1]!

ومات أبو أيوب، وحُمل نَعشه واقتحم المسلمون به حتى وصلوا إلى تُخوم أسوار القسطنطينية، فحفروا لأبي أيوب ودَفنوه، ثم سارت الخَيل على قبره، وبذا تَشرَّفت أوروبا أن يحضن ترابها جسد الصحابي المجاهد أبا أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].



صورة لأسوار القسطنطينية

(١) «مسند أحمد» (٢٣٥٦٠).

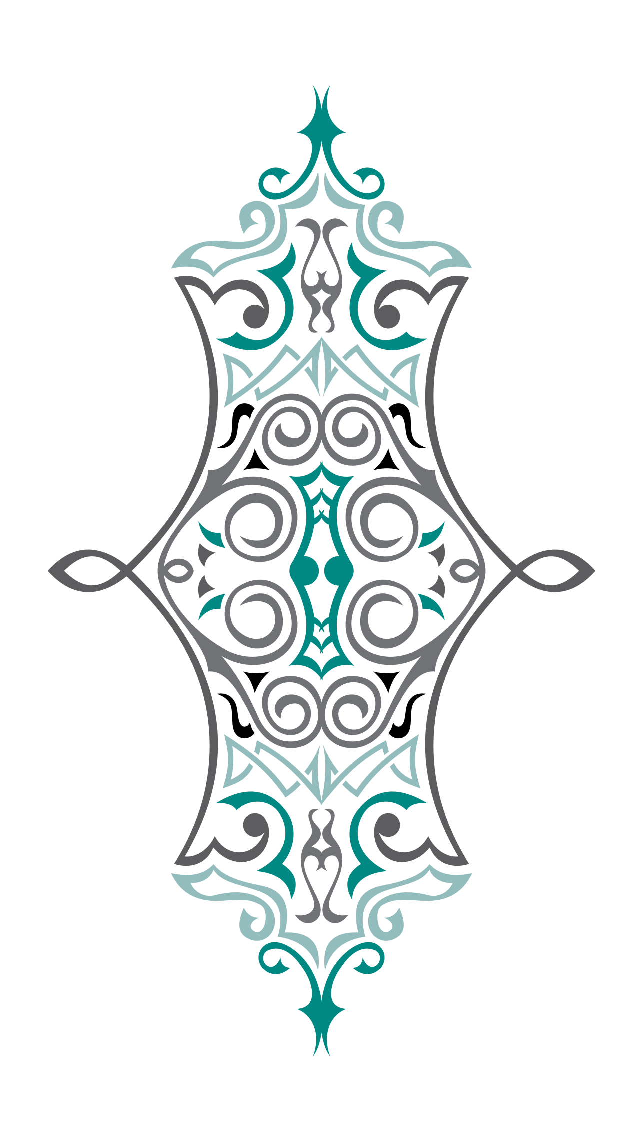
(٢) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (١/ ٢٠٤)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٦٧)، و«آثار المدينة» (٢٨)، و«طيبة المدينة النبوية» (٣٦٧).





موقع دار أبي أيوب الأنصاري







المسجد النبوي



اختيار الله:

كأنما نرمق عن قرب القصواء، وهي تخُبّ بالنبي ﷺ وأبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رِدْفه، وهي منحدرة به من عالية المدينة قد أتى من قباء إلى المدينة حتى دخلت مربداً في ديار بني مالك بن النجار فبركت فيه، والنبي ﷺ على رحله لم ينزل منها، ثم جعلت تتلفت كأنها تبحث عن شيء، أو تتعرف على شيء، ثم قامت مرة أخرى والرسول ﷺ على ظهرها، فجالت ثم رجعت إلى مكانها الذي بركت فيه أوّلاً، فبركت وتحلحلت[1] ورزَمت[2]، وضربت بِجِرانها[3] الأرض، وكأنها تقول: هذا المنزل والخيار، وكان مكان بروك ناقة النبي ﷺ هو مكان منبره من بعد في مسجده.

فلم يختر النبي ﷺ أين تبرك ناقته، وإنما كان ينتظر خيرة الله الذي سيبوئه مكاناً يبنيه مسجداً، فكما بوأ الله لإبراهيم مكان البيت: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾، بوأ الله لنبيه ﷺ مكان مسجده، حيث بركت ناقته؛ فنزل ﷺ، وقال: «**هَذَا الْـمنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ**».

(١) تحلحلتْ: أقامَت ولَزِمَت مَكَانَهَا وَلَمْ تَبْرح. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٣٩).
(٢) رزَمتْ: صَوَّتَت. والإِرْزَامُ: الصَّوْتُ لاَ يُفْتَح بِهِ الفَمُ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٢٠).
(٣) الجران: ما يصيب الأرض من صدر الناقة وباطن حلقها. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٦٣).



ثم قال لبني مالك بن النجار: «**يَا بَنِي النَّجَّارِ، ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا**»، وكان هذا الحائط لغلامين يتمين ورِثاه، فقال أهلهم: يا رسول الله لا نبغي به ثمناً، هو لك، ونحن نرضي اليتيمين، قال: «**لَا، ثَامِنُونِي بِهِ**»، وأبى إلا أن يقدر ثمنه، ويعطى الأيتام حقهم، فكان بداية النزول إعلاناً بحفظ الحقوق، ورعاية حق الأيتام والضعفاء.

يقول أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو يصف ذاك المكان: وكان في ناحية من هذا الحائط قبور مشركين، وفي ناحية منه خِرَب وبقايا جدر تهدمت، وفي ناحية منه نخل طوال، فأمر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ بالقبور فنبشت، وأمر بالخِرَبِ فسويت، وأمر بالنخل فقطعت وصارت جذوعاً[1].

بناء المسجد:

ثم بدأ العمل لبناء المسجد، فاستنفر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وكان أعظم الاستنفار لهم أن يعمل معهم بنفسه ويشاركهم العمل، وألقى رداءه؛ ليأخذ هيئة العامل معهم، فألقوا أرديتهم وشدوا أزرهم، وجدوا في العمل، وصار النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ينقل الحجارة معهم، فلما رآه أسيد بن حضير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ والحجر بين يديه، قال: يا رسول الله، دعني أحمله عنك، قال: خذ حجراً غيره[2].

وكان هذا عملاً اشترك فيه المهاجرون والأنصار، وفي هذا إعادة دمج وتمازج بين مكونات المجتمع الجديد، وكان مشهد البناء مشهداً مبهجاً، كأنما هو مهرجان عمل جماعي.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٨)، و«صحيح مسلم» (٥٢٤).

(٢) ينظر: «وفاء الوفاء» (١/ ٢٥٦).

هذا عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحمل لَبِنَتَيْن لَبِنَتَيْن؛ لأنه كان فتياً قوياً، والناس يحملون لبنة لبنة، فيأتيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وينفض التراب عن رأسه، ويقول: «**وَيْحَ ابْنِ سُمَيَّةَ! تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ**»، فيقول عمار: نعوذ بالله من الفتن، نعوذ بالله من الفتن[1].

وانظر هذا القرب النبوي من عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين ينفض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ التراب عن رأسه بيده الشريفة، ويختصه بهذا الدعاء، أيّ نشوةٍ وبهجةٍ غامرةٍ كان يحسها عمار واليد الكريمة تمسح على رأسه، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يدنو منه هذا الدنو، ويقترب منه هذا القرب، ويحتفي به هذا الاحتفاء؟!

وبقيت هذه الدعوة في وعي عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكان أكثر دعائه بعد ذلك: عائذاً بالله من الفتن.

ورأى الصحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقد علا التراب ثيابه وصدره، وهو يعمل معهم، فيقولون:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... لذاك منا العمل المضلَّلُ

وأحياناً يقطعون كلال العمل بأهازيج العمال إذا عملوا؛ لكنها أهازيج ذات معانٍ سامية، فيشاركهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أهازيجهم، ويرتجز معهم:

لاهمَّ إن العيش عيشُ الآخرة

فيقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**الْآخِرَة**»

فيقولون: فاغفر للأنصار والمهاجرة

فيقول: «**وَالمُهَاجِرَة**»[2]

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩١٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٢٨)، و«صحيح مسلم» (٥٢٤).

وكان في علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ دعابة، فرأى عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكان رجلاً جميلاً أنيقاً مترفهاً، إذا حمل اللبنة نحاها عن ثيابه حتى لا يعلق به ترابها، فإذا وضعها نفض كمه ونظر إلى ثوبه فإن أصابه شيء من التراب نفضه، فلما رآه علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ صار يرتجز وينشد:

لا يستوي من يعمر المساجدا

يظل فيها راكعاً وساجدا

ومن يُرى عن الغبار حائدا

وجعل عمار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يردد معه، فيردد الناس معه، ولا يدرون من يعني، فعرف عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه يعنيه، وانتبه لهذه المهازلة من علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[(١)].

وإنما قال ذلك علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مطايبة ومباسطة، كما هي عادة الجماعة إذا اجتمعوا على عمل[(٢)].

وهذه تبين الروح الجميلة التي كانت تغمر هؤلاء الذين يبنون المسجد بحيوية وأُنس واندماج.

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٩٧).

(٢) «وفاء الوفاء» (٢/ ٢١).



صورة من شجرة الدوم

وقد تم بناء سور المسجد على مراحل، فحفروا الأساس، ثم بنوه ثلاثة أذرع بالحجارة: ذراع في الأرض، وذراعان فوقها، حتى لا يؤثر السيل إذا جرى في أساس البناء، ثم بنوا فوق الحجارة باللَّبِن والطين، ثم أقاموا الجذوع، وكانت من جذوع النخيل التي كانت في المِرْبد، ومن جذوع نخيل الدوم[1]، فجعلوها أعمدة، وصفُّوها في قبلة المسجد، وكانت القبلة باتجاه الشمال إلى بيت المقدس، كان الارتفاع -كما قال النبي ﷺ- كعريش موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[2]، يعني لو مدّ الرجل الطويل يده لنال السقف، ولذا قيل: كان ارتفاعه قامة وبسطة.

---

(١) نخيل الدوم شجرة تشبه النخلة إلا أنها متفرعة الجذوع تنمو في بوادي المدينة، وثمرها صلب يسمى المقل. ينظر: «نور النبراس» (٤/ ٩١)، و«لسان العرب» (١٢/ ٢١٨).

(٢) «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٠٦)، و«فضائل المدينة» للجندي (٤٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٤٢).

ويظهر مما يستشف من الروايات أن الجدار لم يكن يصل إلى السقف، وإنما كان جداراً يقصر قليلاً عن السقف، بحيث يبقى بينه وبين السقف مساحة مفتوحة تسمح بالنور والهواء بقدر ذراع، -أي: نصف متر- فكان الجدار خمسة أذرع: ذراع في الأرض، وأربعة أذرع فوقها، وذراع هو فراغ بين الجدار والسقف، فيكون ارتفاع السقف عن الأرض خمسة أذرع، أي: مترين ونصفاً تقريباً.

وأما سقفه، فقد كان شقائق جذوع النخل عرضت بين الأعمدة، ثم صفّ بينها الخشب، ووضع عليه جريد النخيل وسعفه، فكان عريشاً، ووضع فوقه طبقة من الطين تسد خلله، وتحجب الحرارة والمطر، فإذا كان مطر غزير وكَفَ[1] السقف، ونفذ الماء إلى أرض المسجد.

وقد صلى النبي ﷺ الفجر في رمضان صبيحة إحدى وعشرين، وكان المطر قد نزل ليلتها، فرأى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أثر الطين على جبينه وأرنبة أنفه[2].

واستسقى مرة على المنبر، فما نزل منه حتى وكَفَ السقف، وصار الماء يتقاطر على وجهه ولحيته ﷺ[3].

وجُعلت للمسجد ثلاثة أبواب: باب على اليمين، وباب على اليسار، وباب إلى الجنوب؛ لأن القبلة في الشمال، وجعلت عضادات[4] هذه الأبواب من الحجارة، ولم يكن لها مصاريع تغلق، وإنما كانت فتحة شارعة ليس لها أغلاق، فكان الأعرابي

---

(١) وكَفَ: تقاطر. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٢٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٨١٣)، و«صحيح مسلم» (١١٦٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٩٣٣)، و«صحيح مسلم» (٨٩٧).

(٤) عضادتا الباب: جانبا الباب اللذان يحملانه عن يمين الداخل منه وشماله، يكونان من الخشب، وهنا من الحجارة لأنه لم يكن ثم باب. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١٥٧)، و«شرح أبي داود» للعيني (٢/ ٣٥٦).



يدخل المسجد براحلته ثم ينيخها فيه[١]، وكانت الكلاب تُقْبِل وتُدْبِر في المسجد؛ لأنه بلا أبواب[٢].



رسم تخيلي للمسجد النبوي في بنائه الأول

أما أرضه فقد فرشت ببطحاء العرصة الحمراء من وادي العقيق، وذلك لأن البطحاء في أرض المسجد تَشْرب ماء المطر وتَحْفظ تراب الأرض فلا يثور غُبارها، وقد ورد عن ابن عمر أنه قال: مُطِرْنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ مُبْتَلَّةً، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَأْتِي بِالْحَصَى فِي ثَوْبِهِ، فَيَبْسُطُهُ تَحْتَهُ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ الصَّلَاةَ، قَالَ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا**»[٣].

(١) «مسند أبي داود الطيالسي» (٢٤٤٩)، و«مسند البزار» (٨٥٥٥).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٤).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٥٨).



والأحاديث الصحيحة في ذكر الحصباء في المسجد كثيرة مثل حديث مُعَيْقِيبٍ، قَالَ: ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْـمسْحَ فِي الْـمسْجِدِ يَعْنِي الْحَصَى وقَالَ: «**إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلاً فَوَاحِدَةً**»[1]، وغيره.

وبقيت هذه الطريقة في فرش المسجد بالحصباء في الحرمين إلى وقت قريب، وكانت تسمى الحصوة، وكذلك أدركنا مساجدنا الطينية القديمة في مدينة الرياض تفرش بالحصباء.

وبنى ﷺ بيوته في الجهة الجنوبية الشرقية: بيت زوجاته عائشة وسودة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أطوار المسجد:

ثم بعد بضعة عشرة شهراً[2] من الهجرة نسخت القبلة، فتحولت من بيت المقدس شمالاً إلى الكعبة في مكة جنوباً، فترتب على ذلك أمور:

أولاً: أن الباب الجنوبي أُغلق، وفُتح مقابله باب من جهة الشمال.

ثانياً: أن المكان المسقوف شمال المسجد لن يُصلَّى فيه، فَسُقِفَ مكانٌ آخر في القبلة الجديدة جنوب المسجد، وصار المكان المسقوف ملحقاً في آخر المسجد يسمى «**الصُّفّة**».

ثالثاً: أنّ حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي كانت في مؤخَّرة المسجد، صارت في القبلة، فإذا خرج ﷺ منها سار إلى محرابه أمام الصفوف.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٢٠٧)، و«صحيح مسلم» (٥٤٦).

(٢) قيل: ستة عشر شهراً، وقيل: سبعة عشر شهراً. ينظر: «صحيح البخاري» (٧٢٥٢)، و«صحيح مسلم» (٥٢٥)، و«الاستذكار» (١/ ٢٠).



وكانت مساحة المسجد النبوي في بنائه الأول مساحة مربعة تقدر بنحو ستين ذراعاً في سبعين ذراعاً، وهي تقارب (٣٠ متراً) في (٣٥ متراً)(١).

وكان هذا البناء البسيط هو النواة الأولى لبناء المجتمع المدني، فقد جعله النبي ﷺ وعاءً للأعمال الجليلة من الشعائر والمهمات العامة، فهو مكان للصلاة، وللتعليم، ولعقد الاجتماعات، واستقبال الوفود، وسكنى الغرباء.

وبقي هذا المسجد على حاله، حتى فتحت خيبر وكثر المسلمون، وصار لهم سعة وغنى، فأجرى له النبي ﷺ توسعة أخرى وافية من الجهة الغربية.

وفي هذه التوسعة الثانية شارك من لم يشارك في التوسعة الأولى، وهو طلق بن علي وافد من بني حنيفة من أهل نجد، يقول طلق بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جِئْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَهُمْ يَبْنُونَ الْـمسْجِدَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ عَمَلَهُمْ أَخَذْتُ أُحْذِقُ الْمِسْحَاةَ، فَخَلَطْتُ بِهَا الطِّينَ، فَكَأَنَّهُ أَعْجَبَهُ أَخْذِي الْمِسْحَاةَ، وَعَمِلُوا، فَقَالَ: «**قَرِّبِ الْيَمَامِيَّ مِنَ الطِّينِ، فَإِنَّهُ أَحْسَنُكُمْ لَهُ مَساً وَأَشَدُّكُمْ مَنْكِباً**»(٢)، فجعل لطلق بن علي اليمامي خلط الطين؛ لأنه العمل الذي يتقنه، وتمت التوسعة بنفس الطريقة والنمط والتصميم السابق، فالجدران من الطين، والعمد من جذوع النخل، والسقف عريش مطين، وصارت مساحته ضعف المساحة الأولى.

وفي السنة الثامنة وضع المنبر، حيث كان النبي ﷺ طوال ثمان سنوات يخطب على الأرض متكئاً على الجذع الذي كان يصلي إليه، فلما اتسع المسجد وكثر الناس، وكبر النبي ﷺ احتاج إلى شيء يرفعه إليهم، فوضع له المنبر(٣).

---

(١) ينظر: «وفاء الوفاء» (٢/ ٣٧)، و«التحفة اللطيفة» (١/ ٢٢)، و«التعريف بتاريخ المسجد النبوي الشريف» (ص: ٢٠).

(٢) «مسند أحمد» (٣٩/ ٤٦٣)، و«صحيح ابن حبان» (١١٢٢)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٨٢٥٤).

(٣) «مسند أحمد» (٢١٢٤٨)، و«سنن أبي داود» (١٠٨١)، و«سنن ابن ماجه» (١٤١٤).

وفي السنة التاسعة التي تسمى «**عام الوفود**» كثر الوافدون على رسول الله ﷺ، فكان الغريب إذا وصل ورسول الله ﷺ بين أصحابه لا يعرفه من بينهم، فيقول: أيّكم رسول الله؟ أيكم ابن عبد المطلب؟! لأنه ﷺ لم تكن له شارة تميّزه، فلم يكن يجلس على عرش، ولا يلبس تاجاً، ولا يتميز بشارة خاصة، فإذا جلس بين أصحابه كان كأحدهم، لا يميزه إلا بهاء النبوة ووضاءتها، ولذا كان أصحابه يشيرون لمن سأل عنه: هو ذاك الأبيض المتكئ[(١)].

ثم اقترحوا عليه فقالوا: يا رسول الله، لو جعلنا لك دكاناً[(٢)] تجلس عليه؛ حتى يعرفك الغريب إذا جاء، فبنوا له دَكَّة من الطين في شرق المسجد حيث مكان جلوسه، ثم أزيلت بعد وفاته ﷺ[(٣)]؛ لانتهاء الحاجة إليها بعد وفاته.

وكان مصلى رسول الله ﷺ قُبالة الأسطوانة المخَلَّقة[(٤)]، في وسط جهة القبلة، ولم يكن في مصلاه ﷺ ما يميزه بفراش أو بناء أو تزويق أو ارتفاع عن مستوى الأرض، وإنما كان يصلي على أرض المسجد كما يصلي كل أصحابه عليها، لا يتميز مكانه عن أماكنهم إلا أنه أَمامَهم وإِمامُهم.

وهذا المكان هو موضع المحراب النبوي الآن لم يطرأ على موضعه تغيير، ولا تقديم ولا تأخير[(٥)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣).

(٢) الدُّكان: الدكة المبنية للجلوس عليها. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٢٨).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٦٩٨)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٥٨٤٣).

(٤) الأسطوانة المخلقة: أي المطيبة بالخَلوق -وهو طيب مركب بالزعفران- لأنها كانت تطيب به نحواً من ثلثيها، وهي في مكان الجذع الذي كان النبي ﷺ يصلي مقابله، وهي علمٌ على مكان صلاته. ينظر: «وفاء والوفاء» (٢/ ٤٣٩).

(٥) «التعريف بتاريخ ومعالم المسجد النبوي الشريف» (ص: ١٦٩).

ولم يكن في مسجد النبي ﷺ حين بنائه محرابٌ في قبلته؛ ولم يكن له منارة يرفع عليها الأذان، وعندما شُرع الأذان في السنة الأولى من الهجرة، كان بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يؤذن على سطح بيت، فعن عروة بن الزبير، عن امرأة من بني النجار، أنها قالت: كَانَ بَيْتِي مِنْ أَطْوَلِ بَيْتٍ حَوْلَ الْـمسْجِدِ، وَكَانَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُ عَلَيْهِ الْفَجْرَ، فَيَأْتِي بِسَحَرٍ، فَيَجْلِسُ عَلَى الْبَيْتِ يَنْظُرُ إِلَى الْفَجْرِ[1].

ثم وضعت المحاريب في المساجد لما كثرت، وتعددت اتجاهاتها إلى الكعبة، فصار المحراب في المسجد علامة على اتجاه القبلة، وتعييناً لمكان الإمام من المسجد.

كما جُعلت المنارة من مرافق المسجد، يُرفع عليها الأذان، وقد جرى للمسجد النبوي توسعات وتجديدُ بناء بعد ذلك[2]، ولكن بقي كل أثر فيه في مكانه، فالمنبر في مكان المنبر الأول، والمحراب عند السارية المخَلَّقة التي كان ﷺ يصلي إليها، والأعمدة في مكان جذوع النخل التي وضعت في المسجد أول مرة، ولا زال المسجد الشريف مثابة لقلوب المسلمين، تتشوق إليه، ولا تقضي منه وطراً مهما ترددت عليه، فيا لسعادة القلوب، وقرة العيون؛ حين تكون في روضة من رياض الجنة، في مسجد نبيها ﷺ بين منبره وقبره.

المرأة في المسجد النبوي:

وفي هذا المسجد كانت المدرسة الأولى للمرأة، وذلك بحضور النساء المسجد وشهودهن الصلوات مع رسول الله ﷺ وسماعهن القرآن من تلاوته في الصلاة،

---

(١) «سنن أبي داود» (٥١٩).

(٢) ينظر في أطوار توسعة المسجد في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم كتاب: «التعريف بتاريخ ومعالم المسجد النبوي الشريف».

وقد أكد النبي ﷺ على عدم منعهن من شهود المساجد والصلاة فيها فقال مخاطباً الرجال: «**لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ الله مَسَاجِدَ الله**»[1]، وقال: «**إِذَا اسْتَأْذَنَتِ امْرَأَةُ أَحَدِكُمْ فَلَا يَمْنَعْهَا**»[2].

فكانت النساء يحضرن الصلوات مع رسول الله ﷺ في المسجد كما أخبرت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كُنَّ نِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ يَشْهَدْنَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ صَلَاةَ الفَجْرِ مُتَلَفِّعَاتٍ بِمُرُوطِهِنَّ، ثُمَّ يَنْقَلِبْنَ إِلَى بُيُوتِهِنَّ حِينَ يَقْضِينَ الصَّلَاةَ، لَا يَعْرِفُهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الغَلَسِ[3].

وكان رسول الله ﷺ يراعي حضورهن المسجد فربما قَصَّر الصلاة لأن امرأة معها صبي يبكي ويقول: «**إِنِّي لَأَقُومُ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ**»[4].

وكان ﷺ إذا سلم قام النساء حين يقضي تسليمه، ومكث يسيراً قبل أن يقوم، قال ابن شهاب: فَأَرَى -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ مُكْثَهُ لِكَيْ يَنْفُذَ النِّسَاءُ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُنَّ مَنِ انْصَرَفَ مِنَ القَوْمِ[5].

وفي حضور النساء الصلاة في المساجد دورة تدريبية في إقامة الشعائر وحفظ القرآن، والذي كان يتعاهد به الرجال والنساء جميعاً.

وكان لهن مع هذا الحضور مشاركة في السؤال والاستفصال والإجابة على ما يسأله الرسول ﷺ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انْطَلَقَ رسول الله ﷺ يَمْشِي حَتَّى

---

(١) «صحيح البخاري» (٩٠٠)، و«صحيح مسلم» (٤٤٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٨٧٥)، و«صحيح مسلم» (٤٤٢).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٧٨)، و «صحيح مسلم» (٦٤٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٨٦٨).

(٥) «صحيح البخاري» (٨٣٧).

أَتى مَقَامَهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ وَمَعَهُ صَفَّانِ مِنْ رِجَالٍ، وَصَفٌّ مِنْ نِسَاءٍ، أَوْ صَفَّانِ مِنْ نِسَاءٍ وَصَفٌّ مِنْ رِجَالٍ، فَقَالَ: «**إِنْ أَنْسَانِي الشَّيْطَانُ شَيْئاً، مِنْ صَلَاتِي فَلْيُسَبِّحِ الْقَوْمُ وَلْيُصَفِّقِ النِّسَاءُ**» قَالَ: فَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ وَلَمْ يَنْسَ مِنْ صَلَاتِهِ شَيْئاً، فَقَالَ: «**مَجَالِسَكُمْ، مَجَالِسَكُمْ**». ثُمَّ حَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ**»، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الرِّجَالِ فَقَالَ: «**هَلْ مِنْكُمُ الرَّجُلُ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ فَأَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ وَأَلْقَى عَلَيْهِ سِتْرَهُ وَاسْتَتَرَ بِسِتْرِ الله**» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**ثُمَّ يَجْلِسُ بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا، فَعَلْتُ كَذَا**»، فَسَكَتُوا، فَأَقْبَلَ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: «**هَلْ مِنْكُنَّ مَنْ تُحَدِّثُ؟**» فَسَكَتْنَ، فَجَثَتْ فَتَاةٌ كَعَابٌ عَلَى إِحْدَى رُكْبَتَيْهَا وَتَطَاوَلَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ لِيَرَاهَا وَيَسْمَعَ كَلَامَهَا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُمْ لَيَتَحَدَّثُونَ، وَإِنَّهُنَّ لَيَتَحَدَّثْنَهُ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا مَثَلُ ذَلِكَ؟ إِنَّمَا مَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ شَيْطَانَةٍ، لَقِيَتْ شَيْطَاناً فِي السِّكَّةِ فَقَضَى مِنْهَا حَاجَتَهُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ**»[1].

وبهذا الحضور حفظت نساء المسلمات قرآناً وذكراً، وتلقين أدباً وعلماً، وكان على هذا تحفيز لهن في المشاركة في حمل همّ الدين والعمل له، فَكُنَّ خير عونٍ لرجالهن على الخير.

صيانة المسجد ونظافته:

طهارة المساجد ونظافتها عَهْدُ الله إلى أنبيائه، وأَمْرُه لعباده، وسنةٌ من سنن رُسله: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

ورَغَّب ﷺ في تنظيف المسجد وتطهيره، فقال: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ أُجُورُ أُمَّتِي حَتَّى الْقَذَاةُ يُخْرِجُهَا الرَّجُلُ مِنَ الْـمَسْجِدِ**»[2].

(١) «سنن أبي داود» (٢١٧٤).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٦١)، و«جامع الترمذي» (٢٩١٦).

وكان في المسجد النبوي حِفْش[1] تسكنه امرأة سوداء مهاجرة، تَقُمُّ المسجد وتلتقط منه العود والقذاة[2]، فكأنها مسؤولة النظافة والصيانة[3].

وأمر ﷺ بالاغتسال والطيب يوم الجمعة؛ ليكون الاجتماع في المسجد معطرا بأزكى الروائح، فعن عائشة قالت: كَانَ النَّاسُ أَهْلَ عَمَلٍ، وَكَانُوا عُمَّالَ أَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يكَنْ لَهُمْ مَنْ يَكْفِيهِمْ، فَيكونُ عَلَيهِم التَفَلُ، وَكَانُوا يَأْتُونَ الْجُمُعَةَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْعَوَالِي عَلَى حَالِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَيَأْتُونَ فِي الْعَبَاءِ، وَيُصِيبُهُمُ الْغُبَارُ، فَتَخْرُجُ مِنْهُمُ الرَّوائحُ، فَقَالَ لَهُم رَسولُ الله ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ اغْتَسَلْتُمْ لِيَوْمِكُمْ هَذَا**»[4].

وقال: «**الغُسْلُ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ، وَأَنْ يَسْتَنَّ، وَأَنْ يَمَسَّ طِيباً إِنْ وَجَدَ**»[5].

وكما رَغَّب ﷺ في نظافة المسجد، فقد نهى وشَدَّد عما ينافي ذلك مما يقذره وينافي الذوق فيه، لأن عرب البوادي والأرياف لم يكونوا يتحاشون البول والبصاق في الأماكن العامة وبين الناس، فكان ﷺ يربيهم على الذوق الجميل، وبخاصة نظافة المسجد وصيانته.

فقد دخل أعرابي المسجد، فجلس مع النبي ﷺ ثم قام فتنحى فَبَالَ فِي المَسْجِدِ، فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعُوهُ لَا تُزْرِمُوهُ**[6] **فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ،**

---

(١) الحِفْش: غرفة صغيرة تتسع لشخص واحد. ينظر: «جمهرة اللغة» (١/ ٥٣٧).

(٢) جَمْع القذي، وَهُوَ مَا يَقَع فِي الْعَيْنِ وَالْمَاءِ والشَّراب مِنْ تُراب أَوْ تِبْن أَوْ وَسَخ أَوْ غَيرِ ذَلِكَ. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٣٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٩٠٣، ٢٠٧١)، و«صحيح مسلم» (٨٤٧).

(٥) «صحيح البخاري» (٨٨٠)، و «صحيح مسلم» (٨٤٦).

(٦) أَيْ لاَ تَقْطَعوا عَلَيْهِ بَولَه. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٠١).

وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»[1]، ثم علّمه النبي ﷺ برفق ولطف تطهيرَ المسجد حسياً ومعنوياً، فدعاه بعد أن أتم بوله وقال له: «**إِنَّ هَذِه المَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا البَوْلِ، وَلَا القَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ الله** عَزَّوَجَلَّ، **وَالصَّلَاةِ وَقِراءَةِ القُرْآنِ**»، ثم أمَرَ رَجُلاً مِنَ القَوْمِ فَجاءَ بدَلْوٍ مِن ماءٍ فَشَنَّهُ عليه[2].

وقال جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أتانا رسولُ الله ﷺ في مسجدنا هذا وفي يدِه عُرجونُ بنُ طابٍ[3] فَرَأَى فِي قِبْلَةِ الْـمسْجِدِ نُخَامَةً فَحَكَّهَا بِالْعُرْجُونِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ؟**» فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ؟**» فَخَشَعْنَا، ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللهُ عَنْهُ؟**» قُلْنَا: لَا أَيُّنَا، يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي، فَإِنَّ اللهَ** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ **قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ، تَحْتَ رِجْلِهِ الْيُسْرَى، فَإِنْ عَجِلَتْ بِهِ بَادِرَةٌ فَلْيَقُلْ بِثَوْبِهِ هَكَذَا**» ثُمَّ طَوَى ثَوْبَهُ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: «**أَرُونِي عَبِيراً**» فَقَامَ فَتًى مِنَ الْحَيِّ يَشْتَدُّ إِلَى أَهْلِهِ، فَجَاءَ بِخَلُوقٍ فِي رَاحَتِهِ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ الله ﷺ، فَجَعَلَهُ عَلَى رَأْسِ الْعُرْجُونِ، ثُمَّ لَطَخَ بِهِ عَلَى أَثَرِ النُّخَامَةِ[4].

فانظر إلى غضبه حين رآها، وكيف تولى هو إزالتها، ثم وضع الخلوق مكانها وكأنما يمحوا بذلك الصورة الذهنية السابقة بصورة جميلة عطرة، ثم صارت سنة للمساجد أن تُعطر بالعبير والخلوق، ولذا قال جابر: فمِنْ هناك جعلتم الخَلوق في مساجدكم[5].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٢٠).

(٢) «مسند أحمد» (١٠٥٣٣)، و«صحيح ابن حبان» (٩٨٥). وشنَّه عليه: رشّه عليه رشّاً متفرقاً. ينظر: «النهاية» (٢/ ٥٠٧).

(٣) العرجون: هُوَ العُود الأصْفر الَّذِي فِيهِ الشَمَاريخ إذا يبس واعوج، و«ابن طاب» اسم لنوع من أنواع التمر منسوب إلى ابن طاب. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٠٣)، و«شرح أبي داود» للعيني (٢/ ٣٩٥).

(٤) «صحيح مسلم» (٣٠٠٨).

(٥) «صحيح مسلم» (٣٠٠٨).

وقال عبد الرحمن الهاشمي: أول ما خُلِّقت المساجد أن رسول الله ﷺ رأى في المسجد نخامة فحكّها، ثم أمر بخَلوق فلطخ مكانها، فَخَلَّق الناس المساجد(١).

وبهذه الرعاية النبوية أخذت المساجد هيئتها وهيبتها، تطهيراً وتطييباً، وعمارة وتعظيماً(٢).



موقع المسجد النبوي



(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٧٤٤١).

(٢) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١١٢)، و«تحقيق النصرة» (٣٨)، و«وفاء الوفاء» (١/ ٢٤٩)، و«تاريخ معالم المدينة» (٥٥)، و«آثار المدينة» (٩٢)، و«فصول من تاريخ المدينة» (٦١)، و«طيبة المدينة النبوية» (١١٧).



الصُّفَّة



ما هي الصفة؟

ومن هم أهلها؟

وما هي حال النبي ﷺ معهم؟

أما الصُّفة: فهي العريش الذي كان في قبلة المسجد حينما كانت قبلته إلى الشام أوّلَ ما بُني مسجده ﷺ، فصلى النبي ﷺ في هذا العريش بضعة عشر شهراً، فلما نسخت القبلة إلى الكعبة المشرفة، بنى النبي ﷺ في جنوب المسجد عريشاً آخر أوسع منه، وكان هو مكان صلاته في مسجده ﷺ، وبقي العريش الأول شاغراً ليكون هو الصفة، ولتكون له مهمة أخرى بقيت في تاريخ الإسلام محفوظة، وهي إيواء فقراء المهاجرين الذين لحقوا برسول الله ﷺ بعد ذلك.

أما أهل الصفة: فهم الذين هاجروا إلى رسول الله ﷺ بعدما هاجر إلى المدينة هو وأصحابه المهاجرون الأول، فأتوا إلى المدينة وليس لهم فيها أهل ولا مال يأوون إليه، فأسكنهم النبي ﷺ في هذه الصفة التي في مُؤَخَّر المسجد، في جهته الشمالية.

وكانوا نُزّاعاً من قبائل شتى؛ فيهم الغِفَاري، والأَسلَمِي، والسُلَّمي، والدَّوسي، والغَطَفاني، والقُرشي.

ونلاحظ أن هؤلاء من قبائل مختلفة، فليس هناك نسب يجمعهم، ولا رابطة تؤلف بينهم، ولكن النبي ﷺ أوجد بينهم رابطة عظمى ليست رابطة القبيلة، وإنما رابطة الإيمان والأخوة في الله، وقد اندمج هؤلاء على تنوعهم مع النبي ﷺ وأصحابه، وانصهرت علاقتهم بأقوى وأسمى رابطة، وهي الحبّ في الله والأخوة فيه.

أوى هؤلاء إلى هذه الصفة، وعاشوا فيها مع النبي ﷺ حياة فيها شظف العيش وقلة ذات اليد، فكان النبي ﷺ يقسم كل يوم مُداً[1] من التمر بين كل اثنين منهم، حتى أتوا إلى النبي ﷺ يوماً فقالوا: يا رسول الله، أحرق التمر بطوننا، فوقف النبي ﷺ يخطب فيهم، ويقول: «**وَالله لَوْ أَجِدُ خُبْزاً وَلَحماً لَأَطْعَمْتُكُمُوهُ، ولَكِنِّي لا أَجِدُ**»، ثم قال: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا غَدَا أَحَدُكُمْ فِي حُلَّةٍ وَرَاحَ فِي حُلَّةٍ، وَوُضِعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ صَحْفَةٌ وَرُفِعَتْ أُخْرَى، وَسَتَرْتُمْ بُيُوتَكُمْ كَمَا تُسْتَرُ الكَعْبَةُ؟**»، فقالوا: يا رسول الله، ونحن على ديننا اليوم؟ قال: «**وَأَنْتُمْ عَلَى دِينِكُمُ الْيَوْمَ**»، فقالوا: نحن يومئذ خير منا اليوم، نتفرغ للعبادة، ونُكفى المؤنة، فقال رسول الله ﷺ: «**لَأَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكُمْ يَوْمَئِذٍ**»[2].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لَقَدْ رَأَيْتُ سَبْعِينَ مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ، مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ عَلَيْهِ رِدَاءٌ، إِمَّا إِزَارٌ وَإِمَّا كِسَاءٌ، قَدْ رَبَطُوا فِي أَعْنَاقِهِمْ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَيْنِ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الكَعْبَيْنِ، فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ، كَرَاهِيَةَ أَنْ تُرَى عَوْرَتُهُ[3].

فاحتملوا رضي الله عنهم هذه الشدة واللأواء إيثاراً لصحبة النبي ﷺ، مع أنهم كانوا في قبائلهم وعند أهلهم يعيشون في كفاية وسعة؛ لكنهم تخلوا عن ذلك في سبيل الهجرة إلى رسول الله ﷺ، واحتملوا هذا الفقر وقلة الطعام والكساء؛ فعن فضالة

---

(١) المُد: هو بقدر ملء كفَّي الرجل المتوسط الخلقة. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣٠٨).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٤٧٦)، و«صحيح ابن حبان» (٦٦٨٤)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٨١٦٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٤٢).

ابن عبيد، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى بِالنَّاسِ يَخِرُّ رِجَالٌ مِنْ قَامَتِهِمْ فِي الصَّلَاةِ مِنَ الخَصَاصَةِ وَهُمْ أَصْحَابُ الصُّفَّةِ حَتَّى تَقُولَ الأَعْرَابُ هَؤُلَاءِ مَجَانِينُ[1].

وحكى لنا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعض ما مرّ به عندما كان في الصُّفّة، قال: إن كنت لأسقط ما بين حجرة النبي ﷺ ومنبره، فيظن الناس أني سقطت من الصَّرَع، وما بي إلا الجوع[2].

أما حال النبي ﷺ معهم؛ فإنه قد أقام في هذه الصفة أول جمعية خيرية في التاريخ، تعتمد على إيواء الفقراء وتأهيلهم، فكان النبي ﷺ يجلس معهم في الصفة يقرئهم القرآن، ويُعلمهم الإسلام، وكان يجوع كما يجوعون، فإذا كان عنده شيء واساهم به، فما كان يستأثر بشيء دونهم، ولذا لما قُدم عليه برقيق سألته ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن يَهَبَها واحداً منهم يكفيها مشقة العمل في بيتها، فقال لها: «**لَا أُعْطِيكِ خَادِماً وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تُطْوَى بُطُونُهُمْ مِنَ الْجُوعِ، وَلَكِنْ أَبِيعُهُمْ وَأَشْتَرِي بِثَمَنِهِم طَعاماً لأَهْلِ الصُّفَّةِ**»[3]. فحتى حاجة بُنَيّته في بيتها لم تكن تسبق حاجة أهل الصفة إلى قُوْتِهم.

ورآه أبو طلحة جالساً مع أهل الصُفة فقال لأم سليم: إني قد مررتُ برسول الله ﷺ وهو يُقرئ أهل الصفة سورة النساء، لقد سمعت صوته ضعيفا، أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟[4].

يا الله!! النبي ﷺ مع أنه مجهود من الجوع يجلس لهم يعلمهم.

وكان ﷺ يعلمهم ويحفزهم للتعلُّم، يقول أحدهم: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن في الصفة، فقال لنا: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟**»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله نُحِبُّ

(١) «جامع الترمذي» (٢٣٦٨).
(٢) «صحيح البخاري» (٧٣٢٤).
(٣) «مسند أحمد» (٥٩٦).
(٤) «صحيح البخاري» (٣٥٧٨)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٧٥).

ذَلِكَ، قَالَ: «**أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْـمسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ الله** عَزَّوَجَلَّ، **خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ**»[1].

وهذا نوع من المواساة والتحفيز؛ لتتحول الصفة من مجرد مأوى وسكن إلى حلقة علم ومدرسة تعليم.

وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لخلطته بهم يلمح من حالهم ما لا يعرفه غيره، ويبادرهم بما في نفوسهم قبل أن يقولوه، وكانت تجري لهم عجائب من ذلك مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، منها: أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَهِده الجوع يوماً من أيامه، فذهب لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسأله عن آية لعله يدعوه إلى طعام، فأجابه أبو بكر عنها، ولم يفطن لما في نفسه، فذهب وسأل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأجابه ولم يفطن لحاجته، قال: فمر بي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فعرف ما به فقال: «**أَبَا هِرٍّ**»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**الحَقْ**»، فدخل بيته وسأل: «**هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟**»، قالوا: عندنا قدح من لبن أرسله آل فلان، قال: «**أَبَا هُرَيْرَة! اذْهَبْ وَادْعُ أَهْلَ الصُّفَّة**»، قال أبو هريرة: فقلت في نفسي: وما يبلغ هذا اللبن في أهل الصفة؟ وسيأتي أهل الصفة، وسيقول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: اسقهم ويبدأ بهم، فماذا سيبقى لي من هذا اللبن بعد أهل الصفة؟ ولكن ما من طاعة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بُدّ، فذهب أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ودعاهم؛ قال: فأتى معي ثمانون، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**اسْقِهِمْ**»، فأعطيته الأول فشرب، ثم ردّه إلي، فأعطيته الثاني، فشرب، حتى طفت عليهم كلهم والإناء كما هو ملآن يترجرج في يدي، ثم عدت بالقدح إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فنظر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكأنه قرأ ما كان في نفسه، فقال: «**أَبَا هُرَيْرَة؛ بَقِيتُ أَنَا وَأَنْتْ، فَاشْرَبْ**»، قلت: بل اشرب أنت يا رسول الله، قال: «**اشْرَبْ أَنْتَ**»، فشربتُ، فلما انتهيت دفعته إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**اشْرَبْ**»، فشربتُ ثم دفعته إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**اشْرَبْ**»، فشربت حتى لا أجد له مسلكاً، ثم أعطيته النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فشرب الفضلة[2].

---

(١) «صحيح مسلم» (٨٠٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٥٢).

لقد شرب نبينا ﷺ فضلة أهل الصفة، فهل ثَمَّ إيثار ومواساة وتمازج مع هؤلاء الفقراء أروع وأجمل من تلك المواساة النبوية؟!

بقي أن تعرف أن هؤلاء الذين كانوا في الصفة يواسيهم النبي ﷺ ويعلمهم، قد أغمض الدهر عنهم عينيه، ثم نظر فإذا كل منهم أمير في مصر، أو إمام في بلد، أو داعية في قبيلة، وأصبح الغرباء الفقراء أمراء وأئمة ودعاة! إنهم نتاج التربية النبوية التي تجاوزت بهم الإغاثة والإيواء، إلى التربية والتنمية، وبذلك أُهّلت القدرات وفُعّلت الطاقات.

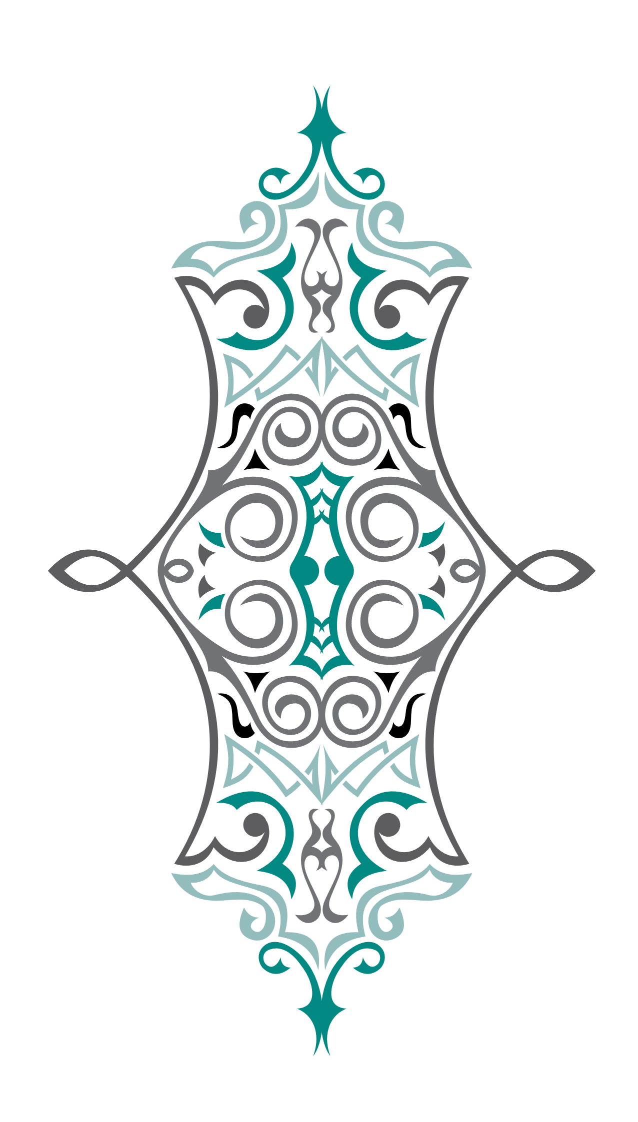
وكان تعامل النبي ﷺ مع أهل الصفة نموذجاً لتعامله مع الفقراء والغرباء[1].



رسم تخيلي للمسجد يبين مكان الصفة، وهي الجهة المسقوفة شمال المسجد

---

(١) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١٤١)، و«وفاء الوفاء» (٢/ ٤٨)، و«أهل الصفة بعيداً عن الوهم والخيال» لشيخنا صالح أحمد الشامي، و«أهل الصفة ودورهم في انتشار الإسلام» للدكتور تنيضب الفايدي.





بيت الرسول ﷺ



بيوتات النبي ﷺ التي عاش فيها، هي تلك البيوت التي أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً، هي البيوت المعطرة بأنفاس النبوة، وتلاوة القرآن، وتنزلِ روح القدس: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤﴾ فإلى بيت من بيوتات النبي ﷺ، إلى بيت عائشة الصديقة، البيت الذي آوى النبي ﷺ عشر سنين من عمره المبارك.

هو البيت الذي شهد إغفاءةَ نومِه، وقيام تهجده، وشهد تسابيح السَّحر، وقرآن الفجر، شهد النبي ﷺ وهو يفتق حيوية الحياة أُنساً وبهجة، وطيب عشرة مع أهل بيته، فقد كان ﷺ أعظم الناس خُلقاً، وكان أسعدَ الناس بحسن خُلقه أهلُ بيته.

فباسم الله نستأذن ونستأنس ونسلم..

فلو اقتربنا إلى بيت النبي ﷺ وجدناه ملتصقاً بالمسجد من الجهة الجنوبية الشرقية، ينفذ بابه إلى المسجد من حائط المسجد الشرقي، فهو أقرب إلى زاوية المسجد الشرقية الجنوبية، وعلى هذا الباب سترٌ هو مِسحٌ[1] من صوف، يستر هذه الحجرة

---

(١) مسح: كساء غليظٌ من الشَّعرِ. ينظر: «تاج العروس» (٧/ ١٢٢).

والبيت عن المسجد النبوي، فإذا أراد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يخرج كشف هذا الستر، فأشرق محياه على المسجد الشريف.

وعلى هذا الباب وقف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ آخر موقف في حياته، في آخر يوم من أيام عمره؛ ليلقي نظرة الوداع على أمته، ويودعها قبل أن يودع الحياة، ينظر إليهم كأن وجهه ورقة مصحف[(١)].

فإذا رفعنا الستر ودخلنا، وجدنا دار عائشة مكوَّنة من وحدتين متلاصقتين:

الحجرة، وهي الفناء المكشوف[(٢)].

والبيت، وهو البناء المسقوف.



رسم تخيلي للبيت النبوي

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

(٢) ينظر: تحقيق ذلك في كتاب أستاذنا د. محمد بن فارس الجميل حفظه الله: «بيوت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وحجراتها».



أما الحجرة فإنا ندخل إليها من المسجد، أي: بمجرد كشف الستر ونقل القدم من عتبة الباب، نكون في هذه الحجرة، وهي عند العرب: الفناء المحتجَر غير المسقوف.

سورها من الشمال والجنوب جريد النخل مصفوفة بعضها إلى بعض، مربوطة بحبال من صوف إلى خشبات منصوبة من العرعر حتى تشد إليها، أما جدارها الغربي فهو جدار المسجد، وأما جدارها الشرقي فهو جدار البيت.

أما مساحة هذه الحجرة المكشوفة فهي ستة أذرع في سبعة أذرع[(١)]، ما يقارب (٣ × ٥ , ٣ متراً)، ويبلغ مجموع مساحتها (٥ , ١٠ متراً).

فهذا الفناء المكشوف هو ما يسمى حُجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهو المكان الذي تقع فيه الشمس، ولذا تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يصلي العصر والشمس في حجرتها لم يظهر الفيء بعد[(٢)].

وهو فِناء البيت الذي يجلسون في دفْء شمسه شتاء، وفي برد ظله صيفاً.

في هذا الفِناء توضع البُرمة التي يُطبخ فيها الطعام، وهي قِدر من الفخّار أو من الحجارة؛ لأن النار لا توقد داخل البيت، وإنما توقد في الفِناء، وفيه أيضاً القربة المعلقة التي يُبرَّد فيها الماء.

والذي يجلس في هذه الحجرة لا يكون بينه وبين المسجد إلا هذا الستر الذي على الباب، ولذلك يسمع من كان في المسجد قريباً من الحجرة ما يكون فيها، يقول ربيعة بن كعب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنْتُ أَبِيتُ عِنْدَ حُجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ، يَقُولُ: «**سُبْحَانَ الله رَبِّ الْعَالَمِينَ**» الْهَوِيَّ[(٣)]، ثُمَّ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ**» الْهَوِيَّ[(٤)].

---

(١) ينظر: «الأدب المفرد» (٤٥١).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٤٥، ٥٤٦)، و«صحيح مسلم» (٦١١).

(٣) الهوي: طَائِفَة من اللَّيْل. ينظر: «الفائق في غريب الحديث» (٤/ ١١٩).

(٤) «سنن ابن ماجه» (٣٨٧٩)، و«جامع الترمذي» (٣٤١٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٣٢٠).



وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تصلي الضحى، فيَسمع مَن في ناحية المسجد القريبة منها صوت استنانها بالسواك إذا أرادت أن تصلي[1].

وذلك للقرب الشديد من المسجد وعدم وجود حواجز سوى هذا الستر.

أما بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فهو البناء المسقوف، ويسمى البيت: أي مكان البيات الذي يبيت فيه أهله، ويكون مسقوفاً، وله باب يغلق.

فإن سألت عن بنائه فهو على ذات الطراز الذي بني عليه المسجد، فأساسه من الحجارة؛ لأنهم يضعون الحجارة في أساس البناء، وهو جزء الجدار الأسفل مما يلي الأرض، إذ لو كان الأساس لَبِناً من الطين لأذابه جريان السيل فانهار، فيجعلون الأساس حجارة، ثم يبنى عليها بلَبِن الطين.

أما مساحة هذا البيت فهي عشرة أذرع في سبعة أذرع (٥ × ٣,٥ متراً) تقريباً، أي أن مساحته أقل من عشرين متراً[2]، وأما ارتفاعه فهو كارتفاع المسجد خمسة أذرع، يقول الحسن البصري: دخلت حجرات أمهات المؤمنين، فإذا رفعت يدي أصبت سقفها[3].

وأما سقفه فشقائق جذوع النخل، وعليها الجريد والإِذْخِر، وفوقه طبقة غليظة من الطين، وعليه حائط قصير جداً، وفي السطح ميزاب من الخشب لنزول ماء المطر منه.

وللبيت بابان: باب يفتح إلى جهة الغرب في زاويته الغربية الشمالية، يخرج هذا الباب إلى الحجرة، وهو مصراع[4] واحد من خشب العرعر المصفوفة إلى بعضها، ولا

---

(١) «صحيح البخاري» (١٧٧٦)، و«صحيح مسلم» (١٢٥٥). واستنانها أي تحريك السواك في فهما قبل الصلاة.

(٢) وقدرها أستاذنا محمد بن فارس الجميل في كتابه «بيوتات النبي وحجراتها» (ص:٤١) بـ(١٧,٥م)، سبعة عشر متراً مربعاً ونصف متر تقريباً.

(٣) «الأدب المفرد» (٤٥٠)، و«المراسيل» لأبي داود (٤٩٧)، و«الطبقات» لابن سعد (١/ ٣٨٨)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٣١٣).

(٤) المصراع: أحد البابين اللذين ينضمان جميعا إذا كان المدخل واسعا، وتسمى الدرفة، فإن كان ضيقا كفاه مصراع واحد. ينظر: «لسان العرب» (٨/ ١٩٩).

تكون عادة متطابقة منضدّة، وإنما يكون بينها فجوات طولية هي خَلَل الباب بسبب عدم استقامة الأخشاب، ولذا ربما حاولت بعض العيون التي لم تفقه بعد في الدين النظر من خَلَل الباب لترى ماذا في بيت رسول الله ﷺ، وهو سلوك كان النبي ينهى عنه ويحذر منه[١].

وباب آخر يفتح شمالاً في نهاية الجدار الشمالي عند الزاوية الشمالية الشرقية، وهو باب صغير يمكن تسميته باب خدمات، يُخْرج منه إلى البقيع والمناصع[٢].



رسم تخيلي للبيت النبوي

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٢٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٧).

(٢) المناصع: موضع في الشمال الشرقي من المسجد شمال البقيع، وكان فضاء تخرج إليه النساء بالليل لقضاء الحاجة على عادة العرب قبل أن تتخذ الكنف في البيوت. ينظر: «المعالم الأثيرة في السنة والسيرة» (ص:٢٧٩). وهي الآن داخلة في مساحة توسعة المسجد النبوي كما أفاد الأستاذ تنيضب الفايدي.



ومما يوضح هذا التفصيل لمرافق البيت حديث: «**صَلَاةُ الْـمرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا**[1] **أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهَا فِي بَيْتِهَا**»[2].

فإن سألتَ عن المتاع في هذا البيت، فإنك إذا دخلت من الباب رأيت على اليمين سرير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في الزاوية الجنوبية الغربية.

ولم يكن من عادة أهل المدينة اتخاذ الأسِرَّة وإنما كانت عادة قريش، فلما جاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المدينة بحثوا له عن سرير، فوجدوه عند أسعد بن زرارة، فوُضع له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ[3]، وعلى هذا السرير فراش من جلد حشوه ليف، وعليه وسادة واحدة من جلد حشوها ليف؛ فإذا جاء ضيف إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رمى له هذه الوسادة ليجلس عليها، كما في خبر عدي بن حاتم في قدومه على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قال: ثُمّ مَضَى بِي رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَتّى إذَا دَخَلَ بِي بَيْتَهُ تَنَاوَلَ وِسَادَةً مِنْ أَدَم مَحْشُوّةً لِيفاً، فَقَذَفَهَا إلَيّ فَقَالَ: «**اجْلِسْ عَلَى هَذِهِ**»، قُلْت: بَلْ أَنْتَ فَاجلِسْ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «**بَلْ أَنْتَ**»، فَجَلَسْت عَلَيْهَا، وَجَلَسَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْأَرْضِ، قُلْت فِي نَفْسِي: وَالله مَا هَذَا بِأَمْرِ مَلِكٍ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ صَنَعَ مَا صَنَعَ وَقَعَتْ عَلَيَّ غَضَاضَةٌ[4] وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ يُرِيدُ عُلُوًّا فِي الدُّنْيَا وَلاَ فَسَاداً[5].

وحين نام ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وزوجته ميمونة في طول الوسادة ونام ابن عباس في عرضها[6]، وكان نوم ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في فصل الصيف، ولذا نام مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في الحجرة، وليس في البيت، وعلى الأرض، وليس على السرير.

---

(١) المخدع: مكان صغير داخل الغرفة الكبيرة يكون كالخزانة. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٤).

(٢) «سنن أبي داود» (٥٧٠).

(٣) «تركة النبي» (ص١٠٤-١٠٥)، و«أنساب الأشراف» (١/ ٥٢٥).

(٤) غَضاضة: ذُلّ. ينظر: «لسان العرب» (٧/ ١٩٧).

(٥) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٨٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥/ ٣٤٣).

(٦) «صحيح البخاري» (٤٥٧٠)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣).

وليس في البيت فراش آخر للجلوس؛ ولذلك فإن النبي ﷺ إذا قام يتهجد من الليل يصلي على فراشه الذي ينام عليه مع زوجته، فيصلي وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا معترضة بينه وبين القبلة، فإذا أراد أن يسجد غمزها فتكف رجلها، وإذا قام مدت رجليها[(١)]، وقد يظن من يقرأ هذا الخبر أن ذلك لضيق المكان، وليس كذلك، ولكن لضيق الفراش.

وهناك أثاث قليل من ضرورات الحياة في ذلك الوقت، ومنه حصير صغير من السَّعَف يسمونه الخُمرة، يتسع للوجه واليدين إذا سجد عليه المصلي، وهو يشبه السجادة المستعملة الآن للصلاة، وكان يستعمل في ديارنا قديماً، فقد أدركنا كبار السن يصلون عليه، ويسمونه «**المـصَلَّ**».



صورة للحصير، وهو فراش ينسج من سعَف النخل

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٢، ٥١٣، ١٢٠٩)، و«صحيح مسلم» (٥١٢).

وهناك سَهْوة[١] في الجدار توضع فيها الأشياء الصغيرة عادة، ولما قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوك، أَوْ خَيْبَرَ، ورأى على سَهْوَة عائشة سِتْرٌ، فَهَبَّتِ الرِيحُ فَكَشَفَتْ نَاحِيَةَ السِّتْرِ عَنْ بَنَاتٍ لِعَائِشَةَ هي لُعَبُها، فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا عَائِشَةُ؟**» قَالَتْ: بَنَاتِي، وَرَأَى بَيْنَهُنَّ فَرَساً لَهُ جَنَاحَانِ مِنْ رِقَاعٍ[٢]، فَقَالَ: «**مَا هَذَا الَّذِي أَرَى وَسْطَهُنَّ؟**» قَالَتْ: فَرَسٌ، قَالَ: «**وَمَا هَذَا الَّذِي عَلَيْهِ؟**» قَالَتْ: جَنَاحَانِ، فقال متعجباً: «**فَرَسٌ لَهُ جَنَاحَانِ؟**» قَالَتْ: أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ لِسُلَيْمَانَ خَيْلاً لَهَا أَجْنِحَةٌ؟ قَالَتْ: فَضَحِكَ حَتَّى رَأَيْتُ نَوَاجِذَهُ[٣].



صورة للسَّهْوة وهي تجويف في جدار الطين

---

(١) السهوة: تجويف في الجدار الطيني الذي يكون عريضاً، فيكون فيه تجويف مرتفع في عرض الجدار لرفع الأمتعة الصغيرة، وقد رأيت مثاله في بيوتنا الطينية، وفي مساجد الطين أيضاً، ترفع فيه المصاحف. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٣٠).

(٢) أي: من جلد.

(٣) «سنن أبي داود» (٤٩٣٢)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٩٠١).



وفي البيت رفٌّ[1]، وهو خزانة من خشب، يوضع فيها التمر أو الشعير، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: تُوُفِّيَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ[2].

وكان فيه أصواع من شعير استلفها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من يهودي ورهنه درعه، قالت عائشة: تُوُفِّيَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعاً مِنْ شَعِيرٍ[3].

وفي البيت: الصَحفة[4]، والبُرمة[5]، والشَّنُّ[6]، والقدَح[7]، و الرَكْوَةُ[8]، ونحوها من متاع الناس حينها.



صورة للبُرمة، وهي قِدْر حجري

---

(١) الرف: خشب يرفع عن الأرض إلى جنب الجدار يوقى به ما يوضع عليه. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ١٢٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٩٧)، و «صحيح مسلم» (٢٩٧٣).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٩١٦).

(٤) الصحفة: صحن خشبي يشبع الخمسة ونحوهم. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ١٨٧).

(٥) البرمة: القدر المتخذة من الحجر. ينظر: لسان العرب» (٩/ ٣).

(٦) الشَّنُّ: القربة القديمة من الجلد تستعمل لحفظ الماء وتبريده. ينظر: «لسان العرب» (١٣/ ٢٤١).

(٧) القدح: آنيَةٌ للشُّرب. ينظر: «تاج العروس» (٧/ ٣٩).

(٨) الركوة: إِنَاءٌ صَغيرٌ مِن جلْدٍ يُشْرَبُ فِيهِ الماءُ، يشبه الدلو الصغير. ينظر: «تاج العروس» (٣٨/ ١٧٨).



ولم يكن في هذا البيت سراج للإضاءة؛ لأن وقود السراج الزيت؛ وهو قليل جداً، فإذا وجد فهم أحوج إليه إداماً للأكل[1]، قالت عائشة: بَعَثَ إِلَيْنَا آلُ أَبِي بَكْرٍ بِقَائِمَةِ شَاةٍ لَيْلاً، فَأَمْسَكَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَطَعْتُ، أَوْ أَمْسَكْتُ وَقَطَعَ، فقيل لها: أَعَلَى غَيْرِ مِصْبَاحٍ؟ فَقَالَتْ: لَوْ كَانَ عِنْدَنَا مِصْبَاحٌ لَائْتَدَمْنَا بِهِ -أي جعلناه إداماً لطعامنا- إِنْ كَانَ لَيَأْتِي عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ الشَّهْرُ مَا يَخْتَبِزُونَ خُبْزاً، وَلَا يَطْبُخُونَ قِدْراً[2].



(١) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١٢٠)، و«وفاء الوفاء» (٢/ ٥٢)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١١٣)، و«طيبة المدينة النبوية» (١٦٣).

(٢) «مسند أحمد» (٢٥٨٢٥).

الحياة في البيت النبوي



وهذا البيت النبوي على تقارب جُدُره، وتطامن سقفه، وصغر مساحته، وقلة متاعه، هو البيت الذي بناه ﷺ في السنة الأولى من الهجرة؛ ليسكنه مع أحب الناس إليه زوجته عائشة الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثم تتابعت عشر سنين وتغيرت فيها أحواله من القلة إلى الكثرة، ومن الضيق إلى السعة، ومع ذلك بقي في بيته هذا فلم يغيره، ولم يزد فيه، مع أنه قد فتح الله له البلاد، وأفاء عليه أرض بني النضير وآطامهم، فما اختار منها بستاناً يسكنه، ولا حصناً يتعالى فيه.

وكانت الأموال تجبى إليه فينثرها في المسجد ويقسمها حثواً في الثياب، ثم ينقلب إلى بيته وينام على سرير مرمول بحبال ليف؛ إذا نام عليه أثَّر في جنبه الشريف.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: دَخَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله؛ لَوِ اتَّخَذْتَ فِرَاشاً أَوْثَرَ مِنْ هَذَا! فَقَالَ: «**يَا عُمَرُ؛ مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ وَمَا لِلدُّنْيَا وَلِي؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[1].

إنّ النبي الذي عاش على هذه الحال من الإيثار والكفاف، لم يُحَرّم الطيبات، ولم يأمر أتباعه بمجافاتها، فهو الذي أنزل عليه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾، و﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

(١) «مسند أحمد» (٢٧٤٤)، و«جامع الترمذي» (٢٣٧٧)، و«صحيح ابن حبان» (٦٣٥٢).

ولذا توسع بعض أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فيما أحل الله لهم، وابتغوا الطيبات من الرزق.

ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تجافى عنها فلم يتخذها ولم يدخرها؛ حتى لا يُظن أنه أخذ على دعوته عوضاً دنيوياً، ولا أصاب حظاً من أموال الناس مقابل تبليغ رسالته، فقد كان إعلانه وإعلان الرسل قبله: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾، ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾.

ولذا عاش صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بين الناس، ثم لحق بالرفيق الأعلى؛ من غير أن يرزأ الناس شيئاً من دنياهم، أو يحتجز منها شيئاً يتمتع به دونهم.

كما أن أشواقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كانت هناك في منازله العلى في الجنة، فعن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال في حديثه الطويل في رؤيا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ودخوله الجنة: فقيل له: «**وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ، وَهَذَا مِيكَائِيلُ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ**»[(١)].

فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يعيش في هذه الدنيا، وهو في انتظار النقلة إلى منازله العُلَى في الجنة.

أتخيل حاله كحال من كان يشيد قصراً يوشك أن يُتمه، وهو ساكن في بيت صغير؛ فإن نظره إلى القصر الذي يشَيده وسينتقل إليه، وليس إلى البيت الذي يسكنه وسيغادره، وربما احتاج بيته هذا إلى إصلاح أو إضافة، فيقول: دعوه؛ فإنّا سننتقل عنه إلى بيتنا الآخر، فكيف بقصر في الجنة لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥)؛ مختصرا.

ولما عاد النبي ﷺ من سفر دخل حجرة أم سلمة رضي الله عنها، وكانت محاطة بالجريد، فلما سافر ﷺ بَنَتْها باللَّبِن، فلما قدم ﷺ قال لها: «**مَا هَذا البُنْيان؟**»، فقالت: أردت أن أكف أبصار الناس، فقال: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ، إِنَّ شَرَّ مَا ذَهَبَ فِيهِ مَالُ الْـمرْءِ المُسْلِمِ الْبُنْيَانُ**»[1].

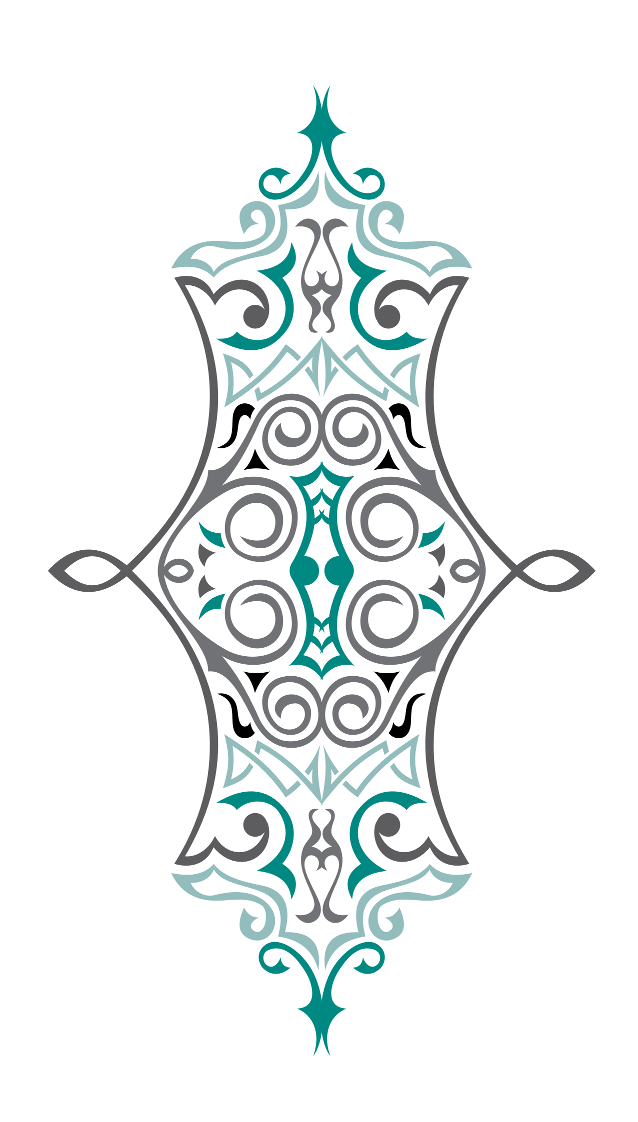
إن هذا يشعرك بحال التهيؤ للنقلة، وأنه ﷺ كان ينظر إلى كِلِّ ما في هذه الحياة الدنيا على أنها فترة انتظار في الظل، ثم سيغادر شجرتها ويتركها إلى الدرجة العالية الرفيعة في الجنة.



صورة الصحفة، وهي صحن خشبي



(١) «الطبقات» لابن سعد (١/ ٣٨٧)، (٨/ ١٣٣)، و«المراسيل» لأبي داود (٤٩٤).



نعيم البيت النبوي



هذه إطلالة على البيت النبوي، ذلك البيت الذي أذهب الله عنه الرِّجْس وطهره تطهيراً، إطلالة من كُوَّة فتحتها أُمُّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حينما توارد عليها السؤال من عدد من التابعين: ما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يصنع في بيته إذا كان عندك؟!

وتلقت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا السؤال بحفاوة واهتمام، وأشرعت نافذة على بيت النبوة؛ لنرى منها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في هذه الحالة الخاصة في بيته، ومع أهله، فإذا بها تصف حاله بهذا الوصف الوجيز البليغ: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إذا خلا في بيته ألين الناس، وأكرم الناس، كان رجلاً من رجالكم، إلا أنه كان ضحَّاكاً بسَّاماً، وما كان إلا بَشَراً من البشر، كان يكون في مهنة[(١)] أهله، يخصِف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة، ولا رأيته ضرب بيده امرأة ولا خادماً[(٢)].

إنها باقة معطَّرة من الصفات النبوية في البيت النبوي، أحسنت أُمُّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رصفها في هذه الجمل الوجيزة، وبهذا البيان البليغ.

---

(١) المهنة: الخدمة. ينظر: «فتح الباري» (٢/ ١٦٣).

(٢) ينظر: «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٧٤)، و«مسند إسحاق بن راهويه» (١٧٥٠)، و«مسند أحمد» (٢٥٣٤١)، و«صحيح البخاري» (٦٧٦، ٥٣٦٣، ٦٠٣٩)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٨)، و«صحيح ابن حبان» (٥٦٧٥، ٦٤٤٠)، و«فتح الباري» (٢/ ١٦٣)، (١٠/ ٤٦١).

لا أحسب أن أُمَّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين قالت: «ما كان إلا بشراً من البشر»، كانت تُقرِّر بشرية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأنه ليس مَلَكاً، ولكنها كانت تقرر معنىً أخصَّ من ذلك، وهو بشريته في التعامل الأُسَري، بحيث إنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يدخل بيته على أنه الزوج، ليعيش حياة السكن الزوجي مع أهله. فتجتمع معاني العظمة المحمدية في عظمة التعامل الزوجي، وأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يكن يعيش في بيته سَمْتَه الذي يلقى به الناس، ولكن يعيش بساطة الحياة الأُسرية وعفويتها، فلا ترى فيه زوجته إلا الزوج الوادَّ الرحيم، وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سيد ولد آدم وإمام البشرية، والعظيم الذي لا تمتلئ الأعين من النظر إليه مهابة وإجلالاً، ولكنه يعيش في بيته ومع أهله زوجاً أولاً.

و«كان يكون في مهنة أهله»؛ يَثِب إلى ذهني سؤال ثاقب يقول: وهل كانت أُمُّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تشكو كثرة العمل ومشقته، حتى تحتاج إلى عمل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ معها في بيتها، ومعونتها وخدمتها؟!

أَمَا البيت فكان غرفة متقاربة الجُدُر، متطامنة السقف، صغيرة المساحة، قليلة المتاع.

وأَمَّا العمل فيها فقد كان يتصرَّم الشهران بتمامهما وما أُوقِد فيه نار لطعام يُصنَع، فهل ثَمَّة عمل يحتاج إلى جهد؛ فضلاً عن أن يحتاج إلى معونة، بحيث يكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في بيته مشغولاً بمهنة أهله؟!

إن الجواب عن هذا التساؤل: أن نبيَّك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما كان يصنع ذلك لكثرة الشغل وجهد العمل، ولكن هناك معنىً أعمق، وهو المواساة والإشعار بالمشاركة التامة في الحياة الزوجية، وتحقيق أحد معاني السكن إلى الزوجة: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بَعَثَ إِلَيْنَا آلُ أَبِي بَكْرٍ بِقَائِمَةِ شَاةٍ لَيْلاً، فَأَمْسَكَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَطَعْتُ، أَوْ أَمْسَكْتُ وَقَطَعَ[1].

إن هذه الأعمال اليسيرة في المنـزل تصل إلى قلب الزوجة مشفوعة بمذكِّرة تفسيرية تَضِجُّ بمعاني الحب والمودة والرحمة، وتشعر الزوجة بالدنو القريب إلى زوجها، والامتزاج الروحي والعاطفي.

إن كون الرجل في مهنة أهله بأي عمل، وعلى أي صفة؛ رسالةُ حياة تقول: هو بيتنا جميعاً، كما هي حياتنا جميعاً. وإن معاني الالتحام الزوجي تنسجها هذه اللمسات المُعبِّرة، فيكبر في عين زوجته بقدر تواضعه، ويَعظُم في نفسها بقدر بساطته.



رسم تخيلي للبيت النبوي

(١) «مسند أحمد» (٢٥٨٢٥).

إننا نُطِلُّ من هذه النافذة على البيت النبوي، فنراه صغيراً في مساحته، بسيطاً في متاعه، ولكن الخلق النبوي العظيم جعله وعاءً كبيراً مُتْرَعاً بالأُنْس والبهجة، ترنُّ فيه الضحكات، وتشرق البسمات، ويتدفق ينبوع غامر من السعادة والإبهاج: «كان رجلاً من رجالكم، إلا أنه كان ضحَّاكاً بسَّاماً».

ليس في بيت النبوة التواقر المتكلَّف، ولا التَّزَمُّت المقيت، ولا التَّجَهُّم العابس، ولكنه حُبور الضحك وإيناس التَّبَسُّم، ومتعة الحياة الطيبة التي تملأ البيت حَبْرة وسروراً، حتى كأنما يعيش أهله في زاوية من الجنة[1].



صورة باب من خشبة العرر

(١) باختصار من كتاب «قصص نبوية» (ص: ١٨٩).



المنبر النبوي





الغابة، وتظهر فيها أشجار الطرفاء

تقع الغابة في شمال المدينة، وتبعد عنها (٢٥ كم)، ويكثر فيها شجر الطرفاء، وهو نوع من شجر الأثل، وللغابة وطرفائها خبر وقصة.

كان النبيُّ ﷺ إذا خطب في مسجده المُتقارب الجُدر ينتصب أمام أصحابه مُستنداً إلى جِذع، وهذا الجِذع هو أحد أعمدة المسجد القِبلية، في مكان «**السارية المخَلَّقة**»، ثم لما اتَّسع المسجد بعد فتح خَيبر، وكثر المسلمون، وكَبُر النبيُّ ﷺ وبلغ الستين من عمره، قُدِّم إلى النبيِّ ﷺ اقتراح، وكان الذي قدَّم هذا الاقتراح امرأةٌ من الأنصار، أتت النبيِّ ﷺ فقالت: يا رسول الله! إن لي غُلاماً نَجَّاراً فإن رأيت أن

آمُرَهُ فيصنع لك دَرجَاتٍ، تحمل عِظامك، وتَرقَى عليها إذا أردت أن تخطب الناس وتحدِّثهم! وكان اقتراحاً وَافَق حاجةً ورغبةً من النبيِّ ﷺ فقد كَثُر الناس، ولا يمكن أن يتطاول لهم حتى يراه ويسمعه من قرب ومَن بَعُد، وكان سِنّه قد كَبُر ﷺ، فيحتاج إلى شيء يحمله إذا قام، ويجلس عليه إذا جلس، فقال لها: «**افْعَلِي، مُرِيهِ إِنْ شِئْتِي**»[1]، فأمرت غلامها النَّجار أن يذهب إلى الغابة، فيقطع من أشجار الطَّرفَاء، يصنع منها مِنبَر النبيِّ ﷺ، فاختار من جذوعها بِخِبرَة النجَّار الذي يعرف كيف يختار ما يناسب احتياجه وصنعته.

وإن سألت عن المِنبَر الذي صُنع من أشجار هذه الغابة: فإنه مِنبرٌ بسيط في صنعته، صغير في حجمه، ليس فيه فَخامة عروش الملوك، ولا أُبَّهة مجالس المتعاظمين، وليس ثم زخارف، ولا نقوش، ولا تزويق، ارتفاع أعلى خشبةٍ فيه عن الأرض -والتي فيها الرُّمانة التي يضع النبيُّ ﷺ يده عليها إذا جلس- ذراعان (مِتر واحد)، والبَسْطَة التي كان يجلس عليها النبيُّ ﷺ، وهي الدرجة العُليا من المِنبَر عرضها ذِراعٌ، وعُمقها ذراع في ذراع (نصف متر في نصف متر).

أمَّا الدرجات: فكلُّ درجةٍ عرضها قُرابة شِبر أي: (٢٥ سم)، فله درجتان، ودرجة ثالثة هي مجلس النبيِّ ﷺ، وكان يسيراً في تصميمه، بحيث أُعِدّ بقدر الحاجة.

وأما الزخارف والتطعيمات فأبعد ما تكون عنه!

فلما فرغ النجار من صنعه أُتي بالمنبر، ومن حَفاوَته ﷺ بهذا المِنبَر أنه رَفعه بيده، وكان أول شيءٍ صَنعه حين وضع له أن صَلَّى عليه ﷺ[2].

قال سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وضِعَ فِي مَوْضِعِهِ هَذَا الَّذِي تَرَوْنَ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ ﷺ أَوَّلَ يَوْمٍ وُضِعَ، فَكَبَّرَ هُوَ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَكَعَ، ثُمَّ نَزَلَ الْقَهْقَرَى فَسَجَدَ وَسَجَدَ النَّاسُ

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٠٩٥)، و«سنن أبي داود» (١٠٨١).

(٢) «صحيح البخاري» (٩١٧).



مَعَهُ، ثُمَّ عَادَ حَتَّى فَرَغَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّمَا فَعَلْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي، وَلِتَعْلَمُوا صَلَاتِي**»[1].

وكان هذا في السنة الثامنة، وقد كثر المسلمون، وفيهم حديثو عَهد بالإسلام، فصَلَّى النبيُّ ﷺ على المِنبَر صلاةً تعليمية، حيث وقف على المنبر، فأراهم كيف يقف الإنسان في صَلاته، وكيف يركع، ثم رجع القَهقَرى ﷺ، فنزل وسجد في أصل المِنبَر؛ ليروا كيفية السُجود.

فلما صعده ليخطب عليه ﷺ يوم الجمعة أول خُطبة، حدث في ذلك المسجد مشهدٌ عجَبٌ من الجذع الذي كان يخطب إليه، واشتهر خبره، فقد قيل لسهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ كَانَ مِنْ شَأْنِ الْجِذْعِ مَا يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: قَدْ كَانَ مِنْهُ الَّذِي كَانَ[2].

والذي كان منه: أنه سَمع كلُّ مَن في المسجد له حَنيناً! يُشبه حَنين الناقة إذا أُخذ منها ولدها، وهو حنينٌ فيه لَوعَة وفَجِيعَة، قال أنس: فسُمِعت الْخَشَبَةَ تَحِنُّ حَنِينَ الْوَالِهِ[3].

فالذي يَحِنُّ ذلك الحَنين هو الجِذع الذي كان النبي ﷺ يتَّكئ عليه إذا خطب قبل أن يُصْنع له المنبر، وسُمِع له خُوار حتى ارتج المسجد بخواره، وحتى ظنوا انه تصدع وانشق، وإذا بالنبيِّ ﷺ يَنزل مِنْ المِنبَر ويتقدّم إلى الجِذع فيلتزمه ويقول لأصحابه: «**أَلَا تَسْمَعُونَ؟! إِنَّ هَذَا بَكَى لِمَا فَقَدَ مِنَ الذِّكْرِ**»[4]، ثم يُربِّت عليه، وكأنه يكلمه، فجعل صوته يخفت شيئاً فشيئاً كالصَّبي الذي يُسكَّت، وكأنَّما اللَّوعة تهدأ قليلاً قليلاً حتى سَكن.

---

(١) «صحيح البخاري» (٩١٧)، و«صحيح مسلم» (٥٤٤).
(٢) «مسند أحمد» (٢٢٨٧١).
(٣) «مسند أحمد» (١٣٣٦٣). الواله: هِي الَّتِي فقدت وَلَدهَا. ينظر: «الفائق في غريب الحديث» (٤/ ٧٩).
(٤) «مسند أحمد» (١٤٢٠٦)، وأصله في «صحيح البخاري» (٣٥٨٥).

وكان الحَسن البصري إذا حدث بهذا الحديث بكى وقال: يا عِبادَ الله! الْخَشَبَةُ تَحِنُّ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ شَوْقاً إِلَيْهِ -لمكانه من الله عَزَّوَجَلَّ- أَفَلَيْسَ الرِّجَالُ الَّذِينَ يَرْجُونَ لِقَاءَهُ أَحَقَّ أَنْ يَشْتَاقُوا إِلَيْهِ؟[(١)].

أَمَّا ما دَار من الحديث بين النبيِّ ﷺ وهذا الجِذع حتى سَكن؛ فالله أعلم به، وإن كانت بعض الروايات تقول: إن النبيَّ ﷺ وَعد هذا الجِذع كما وَعد المِنبَر، أن يكون معه في الجنَّة مُورِقَاً مُثمِراً يأكل منه أهل الجنَّة، وإنّ هذه كانت سَلوى لهذا الجِذع فسكن، ثم قال النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَوْ لَمْ أَلْتَزِمه لم يَزَل هَكَذا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[(٢)]، تحزنا على النبي ﷺ.

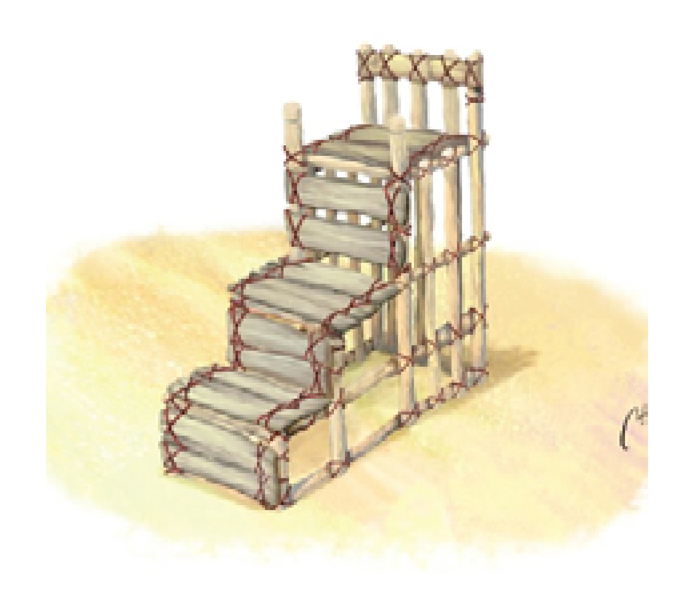
وبقي الجذع سارية في قبلة المسجد، فلما هدم المسجد وجددت أعمدته، أخذ ذلك الجذع أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وكان عنده في بيته حتى بلي وأكلته الأرضَةُ، وعَادَ رُفاتاً[(٣)].

قال السهيلي: وحديث خوار الجذع منقول نقل التواتر، لكثرة من شاهد خواره من الخلق، وكذا قال القاضي عياض[(٤)].

وعَظَّم النبيُّ ﷺ هذا المِنبر وشرَّفه، وبيَّن قدره ومكانته في الدنيا والآخرة ففي الدنيا: «**مَا بَيْنَ مِنْبَرِي وَبَيْتِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ**»[(٥)]؛ فهذا المِنبر حدٌّ لجنة الدنيا، وهي الروضة الشريفة، وعظَّم شأن الحلف عليه فقال: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى مِنْبَرِي آثِماً، تَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[(٦)].

---

(١) «الزهد» لابن المبارك (١٠٢١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٥٩).
(٢) «سنن ابن ماجه» (١٤١٥)، و«سنن الدارمي» (٣٩).
(٣) «مسند أحمد» (٢١٢٤٨)، و«سنن ابن ماجه» (١٤١٤)، و«سنن الدارمي» (٣٦).
(٤) ينظر: «الروض الأنف» (٢/ ٣٤٥)، و«الشفا» للقاضي عياض (ص: ٣٦٩٩).
(٥) «صحيح البخاري» (١١٩٥)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٠).
(٦) «موطأ مالك» (٢/ ٧٢٧)، و«سنن أبي داود» (٣٢٤٦).



رسم تخيلي للمنبر النبوي

أما في الآخرة، فيقول عنه ﷺ: «**وَمِنْبَرِي عَلَى تُرعةٍ مِنْ تُرَعِ الجَنَّةِ**»[1]، وقال: «**قَوَائِمُ مِنْبَرِي رَوَاتِبُ فِي الجَنَّةِ**»[2]، أي: أنها ثابتة في الجنَّة، وقال: «**مِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي**»[3].

ومِنْ على درجات ذاك المنبر كان يُشرِق النور، وينتشر الهُدى، وتُضاء فِجاج الدنيا بأنوار رسالته ﷺ، وكما كان ﷺ يُعلِّم الناس على هذا المنبر شعائر الدين كان أيضاً يُعلِّمهم عليه مشاعر الحبِّ! فقد احتفى هذا المِنبر بالمشاعر النبوية، والنبيُّ ﷺ يُعلنها ويُربيِّ الناس على إعلانها.

(١) «مسند أحمد» (٨٧٢١)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٤٢٧٤).

(٢) «مسند أحمد» (٢٦٤٧٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٤٢٧٣).

(٣) «صحيح البخاري» (١١٩٦)، و«صحيح مسلم» (١٣٩١).

كان ﷺ يخطب على مِنبره والناس حوله، فدخل الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهما صبيان صغيران متقاربان في العمر، كأنهما توأمان، وعليهما ثوبان أحَمران أتيا يَجذبهما الحُبُّ النبوي الأَبوي، وهما يقبلان يخطوان ويَعثران.

وهل كانا يعثران لصغر السنِّ أم لضيق القميصين؟! أم لرهبة المشهد لم يحتج النبي ﷺ إلى شيءٍ من هذه التفاسير؟! وإنما تجاوبت العاطفة وضَجَّ الحُبُّ، وإذا بالنبيِّ ﷺ ينزل من على المِنبر، ويحمل الصبيين، ثم يصعد ثانيةً إلى المنبر وهُما معه، ويقول للناس: «**صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ:** ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾، **نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا**»[١].

لقد كان النبيَّ ﷺ يُعلِن على المِنبَر هُدَاهُ قولاً وفعلاً، وكأنما يقول للناس بذلك المشهد: إن الحب كمال، والرحمة كمال.

وكانت البيئة العربية حينها تأنف من إظهار الرحمة والحب للأطفال، ويرون ذلك رقة وضعفاً، فجاء النبي ﷺ ليعلن مِنْ على منبره بهدي عملي، استواء الفطرة، وإعلان المشاعر، وليس مكابرتها والتنكر لها!

وكما شهد المنبر صلاة النبي ﷺ وخطبهُ، فقط شهد اللقاء الأخير، وخطاب الوداع من النبي ﷺ لأصحابه في مرضه الأخير، فقد وجد ﷺ يوماً من نفسه خِفّة، فخرج في مرضه الذي مات فيه متعطفاً[٢] بملحفة، قد عصب رأسه بعصابة دسماء[٣]، فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ وَيَقِلُّ الأَنْصَارُ، حَتَّى يَكُونُوا فِي النَّاسِ بِمَنْزِلَةِ المِلْحِ فِي**

---

(١) «سنن أبي داود» (١١٠٩)، و«جامع الترمذي» (٣٧٧٤).

(٢) أي: متوشحاً مرتدياً. ينظر: «فتح الباري» (٧/ ١٢٢).

(٣) دسماء: أَيْ سَوداء. ينظر: «النهاية» (٢/ ١١٧).



الطَّعَامِ، فَمَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ شَيْئاً يَضُرُّ فِيهِ قَوْماً وَيَنْفَعُ فِيهِ آخَرِينَ، فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ»، فَكَانَ آخِرَ مَجْلِسٍ جَلَسَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ[1].

فلما توفي ﷺ، وولي أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخطب على المنبر، قام على الدرجة الثانية، ووضع رجليه على الدرجة السفلى إذا قعد، هيبة لمجلس النبي ﷺ ومقامه، فلما ولي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام على الدرجة السفلى، ووضع رجليه على الأرض إذا قعد؛ توقيراً للنبي ﷺ ولأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلما ولي عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعل ذلك ست سنين من خلافته، ثم علا إلى موضع رسول الله ﷺ، وكسا المنبر كسوة قبطية، فكان أول من كساه، ثم تتابع الخلفاء على كسوته من بعده[2].

وبقي المنبر قروناً متطاولة بين يدي الأمة في مكانه الذي وضع فيه أول مرة، وقد كان المنبر يستجيش المشاعر، ويستثير الأشواق إلى من وقف عليه أول من وقف، وجلس عليه أول من جلس، ويستذكر من رآه عليه مرآه ومقاله.

خطب أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد وفاة النبي ﷺ على المنبر، وتذكر موقف النبي ﷺ ذاك فاهتاجت عواطفه، فبكى وقال: قَامَ رَسُولُ الله ﷺ عَامَ الأَوَّلِ عَلَى المنْبرِ، ثم بكى فقال: اسْأَلُوا اللهَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَداً لَمْ يُعْطَ بَعْدَ اليَقِينِ خَيْراً مِنَ العَافِيَةِ[3].

وقد كان منبره ﷺ مشع هداية، وفيض بركة، وبقية مما ترك محمد ﷺ، تحفظه الأمة، فتمس به ما مس جسده المبارك، تعبر بذلك عن حب، وتلتمس بركة وقربى.

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٢٨).
(٢) «الدرة الثمينة» (ص٩٧-٩٨)، و«إمتاع الإسماع» (١٠/ ٩٧).
(٣) «جامع الترمذي» (٣٥٥٨)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٦٥٠).

قال محمد بن إبراهيم بن الحارث: رأيت سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يأخذان برمانة المنبر ثم ينصرفان[1].

وقال يزيد بن عبد الملك بن قسيط: رأيت نفراً من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إذا خلا المسجد، قاموا إلى رمانة المنبر القرعاء، فمسحوها ودعوا، وكان يزيد يفعل ذلك[2].

وعن عبد الرحمن بن عبدٍ القاري: أنه نظر إلى ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وضع يده على مقعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من المنبر، ثم مسح بها وجهه[3].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: سألت أبي عن الرجل يمس منبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ويتبرك بمسه، ويقبّله يريد بذلك التقرب إلى الله جل وعز؟ فقال: لا بأس بذلك[4].

وبقي المنبر بين يدي الأمة، وتحت نظرها؛ ستة قرون، حتى احترق مع حريق المسجد سنة (٦٥٤هـ)، وباحتراقه فقدت الأمة آخر أثر من آثار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المنقولة وأثبتها وأصحها[5].

وكما أن القرآن أول كتاب لدى الأمة العربية، لا يعلم لها كتاب قبله؛ فإن منبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هو أول منبر في تاريخ العرب، لا يعلم لهم منبر قبله.

واليوم ونحن نرى المنابر في كل مساجد المسلمين على تباعد المكان، وتتابع آماد الزمان؛ هل نتذكر تلك المَرأة الكريمة التي بادرت بصناعة المنبر، فأصبح شَعيرةً من شعائر الإسلام؟!

---

(١) «الطبقات» لابن سعد (٥/ ٣٢٤)، و«التمهيد» (٢٣/ ٣١٥).
(٢) «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٥٤)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٥٨٨١).
(٣) «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٥٤).
(٤) «العلل ومعرفة الرجال» لعبد الله بن الإمام أحمد (٢/ ٤٩٢).
(٥) «فتح الباري» (١٣/ ٧٩).

إنَّ هذا يُقدِّم لنا درساً بليغاً، حيث إنَّ هذه المرأة لم تحقر نَفسها، ولم تتردد في تقديم مبادرتها، ولم تقل: كيف أُقدِّم اقتراحاً لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وبين يديه كبار الصحابة أبو بكر وعُمر وعُثمان وعَلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

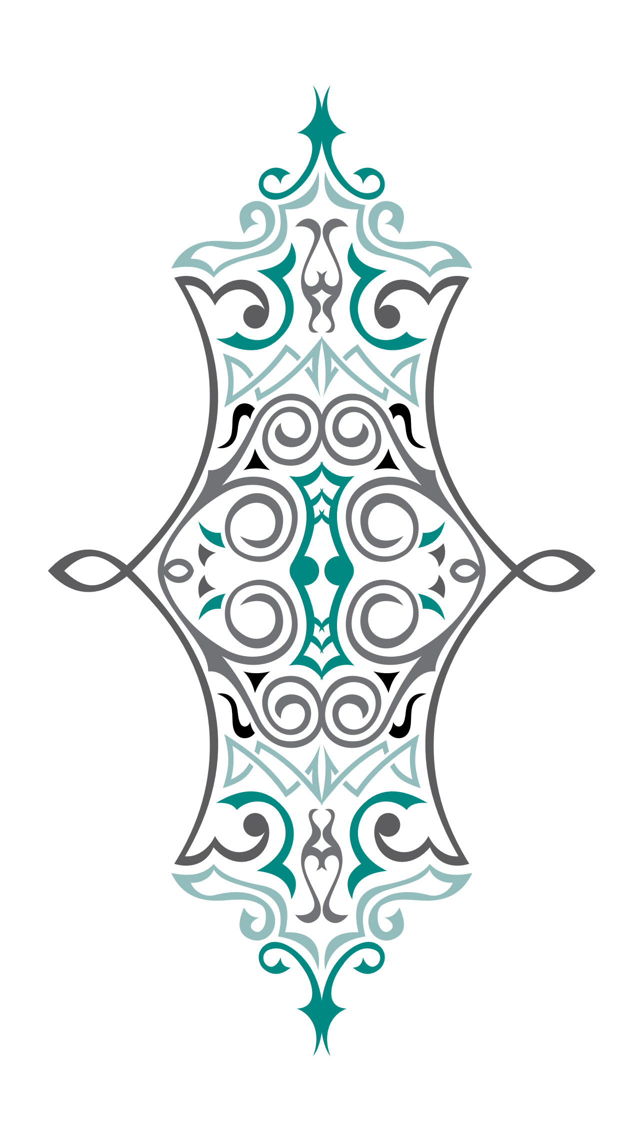
وهذا يبين أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَبَّى المُسلمين على المُبادرة، وإعلان الرأي، ولذا بَادرت تلك المرأة، وأعلنت رَأيها، وقدمت مبادرتها، فاحتفى بها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حتى صار هذا المِنبَر شَعيرةً من شَعائر الإسلام.

وإذا ذَكرنا مِنبَر النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فلا بدَّ أن نذكر هذه المرأة التي قدمت الاقتراح، ونذكر ذلك الغُلام النجَّار الذي صنعه بحب وإتقان، حتى بقي من بعده ستمئة سنة راسياً شامخاً تتعاقب الأجيال إليه، ويتتابع العلماء والخلفاء عليه، رضي الله عن ذاك الغلام النجار، فعلى يديه وباقتراح سيدته صُنع مِنبَر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، الذي نُصب في مسجده في الدنيا، وسيُنصب على حوضه في الآخرة[1].



---

(١) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١٢٦)، و«تحقيق النصرة» (٦٠-٦٤)، و«وفاء الوفاء» (٢/ ٣-٨)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٥١٦)، و«آثار المدينة» (١٨٠)، و«فصول من تاريخ المدينة» (٧١).



سُوق المدينة





صورة قديمة لسوق المَناخة في المدينة النبوية

سوق المَناخة، هو سوق المدينة الذي خَطّه رسول الله ﷺ لأهلها، وضرب فيه برِجْلِه المُباركة، وقال: «**هَذا سُوقُكُمْ لَا يُضَيَّقُ وَلَا يُفْرَضُ عَلَيْهِ خَرَاجٌ**»[1].

وعندما ننظر إلى هذا السوق نعجب من أن النبيَّ ﷺ جعله مساحةً رحبةً واسعةً تمتدُّ من مسجد الغمامة جنوباً -وكان يُسمَّى المُصلى- إلى ثَنِيّة الوداع شمالاً، وهي

(١) «سنن ابن ماجه» (٢٢٣٣)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٥٨٦).

مسافة تصل إلى (١١٠٠متر)، وهي مسافة واسعة جداً على المدينة، وهي البليدة الصغيرة في ذلك الوقت.

إن هذه المساحة الواسعة التي فرضها النبيَّ ﷺ، تبين لنا أنه كان يُعيد تأهيل المدينة؛ لتُصبح مكان جذبٍ اقتصادي، وانتزعَ احتكار السيطرة الاقتصادية من قبضة اليهود، وأشركَ فيها أهل المدينة أنصارهم ومُهاجريهم.

كما أنَّ النبيَّ ﷺ عندما خطّ هذا السوق، حَوَّل المُهاجرين إلى طاقةٍ فاعلةٍ في المدينة، فهم أهل التجارة والضرب في الأسواق.

ومن أهم ما نلاحظ في رعاية النبي ﷺ لأمر السوق بعد ذلك:

١- تعزيز القيم الدينية والأخلاقية في التعامل التجاري، ومن ذلك:

قدم رسول الله ﷺ من بعض نواحي المدينة، فدخل السوق والناس على جانبيه، فمرَّ بجَدْي أَسَكَّ -وهو الذي يكون معيباً بصغر أذنيه وانكماشهما- فتناوله رسول الله بأذنه، ثم رفعه للناس، فقال: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**».

وكان عجيباً أن يعرض عليهم النبي ﷺ شراء تيس ميت مشوّه الخِلقة، قد فقد قيمته التجارية، وهان على أهله، حتى ألقوه في السوق، فلم يعبأ به أحد، فاستلفت هذا السؤال انتباههم، وأجابوا قائلين: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟!

فأعاد عليهم السؤال قائلاً: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**»، قالوا: لا، فأعاد عليهم السؤال ثالثة: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**»، فازداد عجبهم لتكرار هذا السؤال، وقالوا: لا والله، لو كان حيّاً لكان عيباً فيه أنه أَسَكّ، فكيف وهو ميت؟!



حينها قابل النبي ﷺ هذه النفوس المتلهِّفة لمعرفة ما بعد هذا السؤال المتتابع، فألقى إليهم بالحقيقة التي يقررها؛ لتستقر في أعماق وجدانهم؛ قائلاً: «**فَوَاللهِ، لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ!**»[1].

إن اختيار النبي ﷺ هذه القضية، وهي هوان الدنيا على الله؛ لتكون موعظة في السوق، وبهذا الأسلوب الرائع، له مغزاه الدقيق، فإنّ السوق مظنة الانغماس في الدنيا، والذي قد يُنْسي النظر إلى الآخرة، فربما تجرَّأ الإنسان، وهو في هذه الحالة على أنواع من التعاملات المحرَّمة، كالغش، والكذب، والأيمان المنفِّقة للسلع، واللغو والخصومة، ونحو ذلك، وأعظم ما يعصم من ذلك ترائي الآخرة نصب العين، ووضع الدنيا في حجمها الحقيقي، وموازنة زائل الدنيا بالباقي الخالد عند الله، وتَذكُّر المُنْقَلَب إليه، والوقوف بين يديه، وهوان الدنيا عليه؛ وهو ما لفت النبي ﷺ إليه في موعظته تلك.

وعن رفاعة الزرقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه خرج مع النبي ﷺ إلى البقيع، والناس يتابيعون، فنادى: «**يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ**»، فَاسْتَجَابُوا لَهُ، وَرَفَعُوا إِلَيْهِ أَبْصَارَهُمْ، فقَالَ: «**إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فُجَّاراً إِلَّا مَنِ اتَّقَى، وَبَرَّ، وَصَدَقَ**»[2].

وقال ﷺ: «**الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا**»[3].

٢- وكما كان يتعاهد السوق بالتربية، فقد كان يتعاهده بالرقابة، فقد دخل السوق ومَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ[4] مِنْ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: «**يَا صَاحِبَ**

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٥٧).

(٢) «جامع الترمذي» (١٢١٠)، و«صحيح ابن حبان» (٤٩١٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٢١١٠)، و«صحيح مسلم» (١٥٣٢).

(٤) الصُّبْرَةُ: الطَّعَامُ المُجْتَمِعُ كَالْكُومَةِ، وَجَمْعُهَا صُبَرٌ. ينظر: «النهاية» (٣/ ٩).

الطَّعَام، مَا هَذَا؟»، قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ؟**»، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا**»[(١)].

وكان ينهى عن البيوع التي تفضي إلى الغرر أو الضرر والغبن؛ فقال ﷺ: «**لَا تَلَقَّوُا الرُّكْبَانَ، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ**»[(٢)].

ونهى عن الملابسة[(٣)]، والمنابذة[(٤)]، وبيع الحصاة[(٥)].

والركبان الذين نهى عن تلقيهم: هم القادمون من البادية أو النواحي خارج المدينة، لبيع بضائعهم بها، فكان السماسرة يتلقونهم في الطريق، ويشترون منهم قبل أن يصلوا إلى السوق، فنهى ﷺ عن ذلك، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُتَلَقَّى الرُّكْبَانُ، وَلَا يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ، فقيل: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، مَا قَوْلُهُ: «**لَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ**»؟ قَالَ: لَا يَكُونُ لَهُ سِمْسَاراً[(٦)].

وذلك أن السمسار قد يغرر بالقادم من بعيد، فيشتريها منه بأقل من سعرها ويغبنه في ثمنها، ثم إن السمسار إذا اشتراها سيبيعها بأسعار السوق التي تربحه، فنهى النبي ﷺ عن ذلك حفظاً لحق القادم الغريب أن يخدع في ثمن بضاعته، ولتحريك

---

(١) «صحيح مسلم» (١٠٢)، و«جامع الترمذي» (١٣١٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٢١٥٠)، و«صحيح مسلم» (١٥١٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٨٤)، و«صحيح مسلم» (١٥١١). والمُلَامَسَةُ: لَمْسُ الرَّجُلِ ثَوْبَ الْآخَرِ بِيَدِهِ بِاللَّيْلِ أَوْ بِالنَّهَارِ، وَلَا يَقْلِبُهُ إِلَّا بِذَلِكَ. ينظر: «إكمال المعلم» للقاضي عياض (٥/ ١٣١).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٨٤)، و«صحيح مسلم» (١٥١١). والمُنَابَذَةُ: أَنْ يَنْبِذَ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ بِثَوْبِهِ، وَيَنْبِذَ الْآخَرُ إِلَيْهِ ثَوْبَهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بَيْعَهُمَا مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَلَا تَرَاضٍ، والنبذ هو الرمي والإبعاد. ينظر: «إكمال المعلم» (٥/ ١٣١)، و«النهاية» (٥/ ٦).

(٥) «صحيح مسلم» (١٥١٣). والحصاة: أَن يَقُول: إِذا نبذت إِلَيْك الْحَصَاة فقد وَجب البيع. ينظر: «الفائق في غريب الحديث» (١/ ٢٨٧).

(٦) «صحيح البخاري» (٢٢٧٤)، و«صحيح مسلم» (١٥٢١).

الأسعار في السوق؛ فإن صاحب البضاعة الغريب إذا أتى سيبيعها سريعاً ليرجع، فتحدث الوفرة ورخص السعر.

وثمة معنى آخر لطيف في النهي عن تلقي الركبان: وهو أن الركبان إذا تلقاهم السماسرة في الطريق، واشتروا منهم، رجعوا من الطريق بأثمان بضائعهم، أما لو باعوها في السوق، فإنهم سيشترون في الغالب بأثمان ما باعوه ما يجدونه في السوق مما يحتاجونه، وبذلك تنشط حركة السوق، ويرزق الله عباده بعضهم ببعض.

وفي هذا السوق ظهرت براعة الصحابة وبخاصة المهاجرين منهم، وظهر اقتدارهم التجاري، فحوَّلوا المدينة إلى مكان تفاعلٍ اقتصادي، وفيه تحوَّل المهاجرون من مهاجرين فقراء إلى أصحاب أموال، فنمت ثروات عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وغيرهم من أثرياء المهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والذين صاروا ذوي أموالٍ واسعة، ونفقات عريضة.

إن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كما بنى مسجده لدين المسلمين وعبادتهم، فقد ضَرب هذا السوق لتجارتهم واقتصادهم، فأقام دِينهم ودنياهم[1].

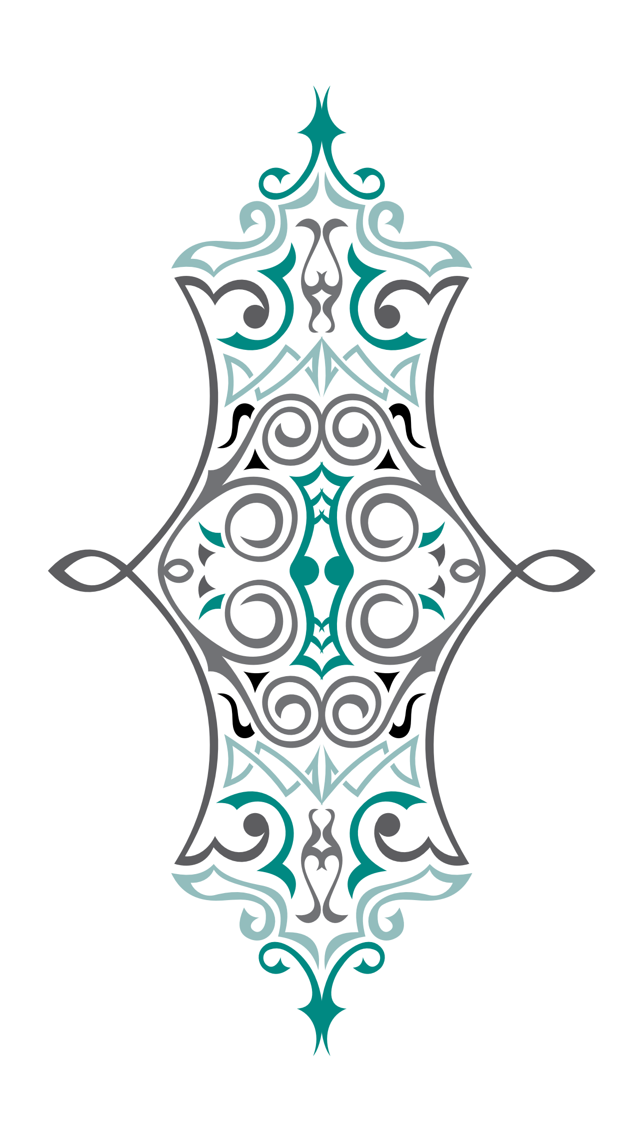


موقع سوق المناخة

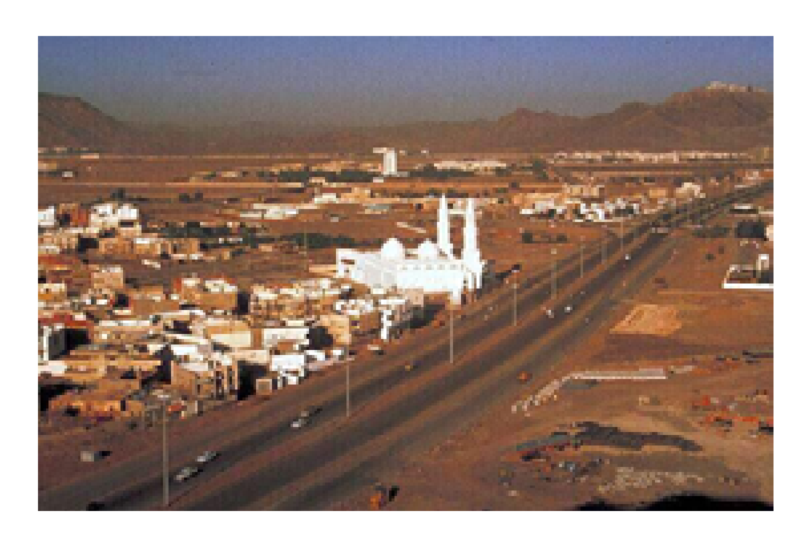


---

(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٢/ ٢٥٦)، و«آثار المدينة» (١٦٣).



مسجد القِبلتَين



صورة قديمة لمسجد القبلتين

مسجد بني سَلِمة الذي عُرف بمسجد القِبلتين[1] يقع في دِيار بني سَلمَة، وهذا المكان حَافل بالأحداث، وأحداثهُ حافلة بالدلالات.

يقع مسجد بني سَلِمة في الشمال الغربي للمدينة، ويبعُد عن المسجد النبوي قُرابة (٣,٥ كم)، وعنه أخبارٌ عذبة ودلالاتٌ بليغة.

منها: أن النبي ﷺ أتى يوماً من المدينة إلى بني سَلِمة، لزيارة امرأةٍ منهم، هي أمُّ بِشر بن البَراء بن مَعرور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ ليُعزِّيها في مُصابٍ لها، فقدَّمت له طعاماً تُضيِّفهُ به،

(١) «تاريخ المدينة» لابن شبة (١/ ٧٨).

فبقي عندها حتى أصاب من طعامها، فلما فَرِغ دخل وقت صلاة الظهر، فصَلَّى النبي ﷺ بقومها بني سَلِمة في هذا المسجد[1].

وفي تلك الصلاة تَنَزَّل الوَحي على قلب رسول الله ﷺ بأن يتوجه في صلاته شطر المسجد الحرام، فبعد أن صلى بهم ركعتين من صلاة الظهر نزل عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

وكان ﷺ في أول صلاته مُتَّجِهاً صَوب المسجد الأقصى إلى الشمال، فلما تَنَزَّل عليه الوحي استدار جنوباً إلى جِهة المسجد الحرام، واستدار معه أصحابه بانسيابيةٍ عجيبة حتى كأنما تنزل وحي الله على قلوبهم جميعاً، بحيث تتحوَّل الصُّفوف من جهة الشمال إلى جهة الجنوب، لقد كانوا يَتَّبِعُون نبيَّهم ﷺ بكامل الانقياد، وحُسن التَّلقي والتجاوب التام مع الفعل النبوي، ولذا حصل هذا الدوران أثناء الصلاة بلباقة ولياقة تامة، وكان مَوطِن هذا الحدث هو هذا المسجد.

ولذا سمي مسجد القِبلتين؛ لأنه المسجد الذي صلي فيه صلاة واحدة إلى القبلتين جميعاً.

فهم في أول الصلاة كانوا متجهين إلى القبلة الأولى، بيت المقدس، وفي آخر الصلاة توجهوا إلى القبلة المحكمة، الكعبة البيت الحرام، وبذا أخذ المسجد اسمه وشهرته[2].

ومن اللطائف الجميلة في منازل بني سلمة: أنهم دعوا النبي ﷺ ليشهد عندهم احتفاليةٍ جميلة فقالوا: يا رسول الله، عندنا جَزور نريد أن ننحرها، ونُحبُّ أن تَشهدنا،

---

(١) «الطبقات» لابن سعد (١/ ٢٤١)، و«وفاء الوفاء» (١/ ٢٧٨).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٢٦)، و«فتح الباري» (١/ ٥٠٣).

وكان نحر الجَزور يُعدّ مناسبة لها وقعها وجمالها، لقلة اللحم في طعامهم وتشوفهم له، فقال ﷺ: «**أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، فصلَّى العصر في مسجده، ثم أتى يمشي إليهم في يوم صائف حار، فوجد الجَزور لم تُنحر بعد، فلما وصل نحروها واحتبسوا رسول الله ﷺ ليطعم منها، فقطعوا من لحمها وطبخوه، فطعِمَ منه رسول الله ﷺ، وتم ذلك كلُّه قبل أن تغرب الشمس[1].

يا لهذا التجاوب العجيب مع مشاعر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَرحاً وحُزناً، فمن أجل نحر ناقة يقطع النبيُّ ﷺ كلَّ هذه المسافة؛ حتى يُشارك بني سَلِمة مشاعر الفرح والابتهاج، فيأتي ﷺ من مسجده إلى بني سَلِمة؛ ليشهد هذه الاحتفالية، ويُشاركهم هذا الفرح، ويُطيِّب قلوبهم بأن ينتظر حتى يأكل من طعامهم!

كما شهد مسجد بني سَلِمة بعض الدلالات على أحكام الصلاة التي تتعبَّد بها الأمّة إلى الآن ومنها: أن إمام بني سَلِمة الذي كان يُصلي بهم وهو مُعاذ بن جبل، وكان يُصلِّي العِشاء مع النبيِّ ﷺ بالمدينة، ثم يقطع بعزيمة الشباب هذه المسافة إلى أن يصل إلى قومِهِ، وهم ينتظرونه فيُصلِّي بهم العشاء، وكان إذا صلى بهم استغرق في صلاته وأطال القراءة، فقد كان من قراء الصحابة الذين جمعوا القرآن حفظاً.

فأتاهم ذات ليلة بعد أن صلى مع النبيِّ ﷺ، فلما صلى بهم صلاة العشاء التي هي نافلة بالنسبة له استفتح سُورة البقرة وأطال القراءة، وإذا برجلٍ منهم ينصرف من الصلاة، ويُتم صلاته منفرداً؛ ليلحق بعمله، فلمَّا فرغ مُعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخبروه بذلك، فقال: ذاك منافق! وبلغت الكلمة ذلك الرجل، وإذا به تأخذه الحميَّة لإيمانه، فيذهب مبادراً إلى النبيِّ ﷺ فوجد معاذاً عنده، فقال: يا رسول الله، إنَّ معاذاً يُصلي معك، ثم يأتينا فيُصلي بنا وقد أصابنا الكلل من العمل ونحن نعمل على نواضحنا، وإنَّه أطال

(١) «صحيح مسلم» (٦٢٤).

بنا الصلاة وإنِّي ترَكتُ ناضحي يعمل، فانصرفتُ وتركتُ الصلاة، ولحقتُ بعملي، فزعم أنِّي منافق! وإذا بالنبيّ ﷺ يغضب، ويُقبِل على مُعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ معاتباً: «**أَفَتَّانٌ أَنْتَ يَا مُعَاذُ؟! إِذَا صَلَّيْتَ بِهِمْ فَاقْرَأْ:** ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾»[1] ثم أقبل النبيُّ ﷺ يُداوِي قلب هذا الصحابي الذي اتُّهم بالنِّفاق وحاشاه، فقال له: «**يَا ابْنَ أَخِي**» وما أعذبها من كلمة تَذرِف من بين شَفتي النبيِّ ﷺ يقولها لهذا الشابِّ الذي اتُّهم في إيمانه، فيناديه النبي ﷺ: «**كَيْفَ تَصْنَعُ يَا ابْنَ أَخِي إِذَا صَلَّيْتَ؟**».

وكأنِّي بهذا الشاب، وقد أخذته النشوة بهذا اللطف النبوي، حيث يخصه بالسؤال عن دعائه، والذي يتضمن تبرئته من النفاق، فقال للنبيِّ ﷺ: يا رسول الله أما إني لا أحسنُ دَندنتك ولا دَندنة مُعاذ -أي لا أُحسِن دُعاءكما الذي تدعوان به-، ولكني أسأل الله الجنَّة، وأستعيذ به من النَّار، فقال له النبيّ ﷺ: «**حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ**»، أي كلُّ أدعيتنا حول سؤال الجنة والاستعاذة من النَّار.

ثم قال هذا الشاب لرسول الله ﷺ: لئن أتانا عدو ليُعلَمَنَّ مَنِ المؤمن ومَنِ المُنافق!، وما أسرع ما جاءت معركة أُحد، ثم انتهت المعركة، فإذا هو أحد شُهدائها، فقال عنه معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد صدق وبرَّ[2].

كانت أشواق بني سَلِمة تَتُوق إلى رسول الله ﷺ وكانوا يَشعُرون أن هذه المسافة البعيدة بينهم وبين مسجد النبيِّ ﷺ تَقطَعُهم عن لُقيَاه، والصلاة خلفه كل صلاة، فَهمُّوا أن ينتقلوا من مكانهم لينزلوا عند رسول الله ﷺ في المدينة، وسَمِع بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**يَا بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ**»[3]، وكرِه أن يُعرُوا المدينة.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦١٠٦)، و«صحيح مسلم» (٤٦٥).

(٢) «سنن أبي داود» (٧٩٣)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٦٣٤).

(٣) «صحيح البخاري» (١٨٨٧)، و«صحيح مسلم» (٦٦٥).

وهذه بَراعةٌ من النبيِّ ﷺ وحُسن سياسة، حيث لم يشأ أن تتجمَّع المدينة وتنكمش حول المسجد، ولكنَّه ﷺ أراد أن تكون المدينة عامرة بفِجاجِها ورِباعها، جنوبها وشمالها، وشرقها وغربها، فتتسع بذلك، ولو قدِم عدو لم يجدها مُنكَشِفة، فأمرهم أن يَثبُتوا في مكانهم بقوله ﷺ: **«دِيَارَكُم تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»**.



صورة حديثة لمسجد القبلتين «مسجد بني سَلِمة»

ولذلك فقد بقي بَنو سَلِمة يُشكِّلون الجبهة الشمالية الغربية للمدينة، كما كان بنو عبد الأشهل يُشكِّلون الجبهة الشمالية الشرقية، وكما كان بنو عمرو بن عوف يُشكِّلون الجبهة الجنوبية، وكان المسجد النبوي وما حوله مركز المدينة وواسطتها.

كما أن النبيَّ ﷺ لاحظ في ذلك مَلحظاً دعوياً أيضاً؛ فلو أن كلَّ مؤمنٍ من أهل المدينة انتقل إلى ما حول النبيِّ ﷺ لانتقل المؤمنون كلهم حول المسجد، وعَرِيت الأماكن الأخرى منهم، فلا يكون فيها إلا المنافقون، أو مَن يَشُقُّ عليهم التحول، وبذلك يقلُّ التفاعل والاندماج بين شرائح المجتمع، وهل تتحقَّق الدعوة إلا بالاندماج والتفاعل وامتزاج أفراد المجتمع؟!

فيَسري الإيمان من قلوبٍ إلى قلوب ومن نفوسٍ إلى نفوس، وهكذا كان، ولذلك بقي هذا المجتمع المدني يتمدَّد ويتَّسع بإيمانه وبرجاله، وتفتت النفاق وتقلص المنافقون، وبقيت المدينة تَنسَاح وتتمدَّد وتَعمُر ورسول الله ﷺ يَمُدُّ رُواقها بقوله: «**دِيَارَكُم تُكْتَبْ آثَارُكُمْ**»[1].



موقع مسجد القبلتين



(١) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١٧٨)، و«تحقيق النصرة» (١٤١)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ٤٦)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٣٨)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٦٨)، و«آثار المدينة» (١٣١)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٤٠)، و«طيبة المدينة النبوية» (٢٣٥).

غزوة بدر



اضطهدت قريش المسلمين في مكة فهاجروا منها وتركوا وراءهم دورهم وأموالهم، وخرج رسول الله ﷺ من مكة وقد أَهْدَرت قريش دمه، وجعلت الرَّصَد أمامه والطَّلَب خلفه، وظلت قريش في حال عداوة معلنة مع النبي ﷺ، واستمرت على لجاجتها معلنة العداوة، متحفزة للقتال، ولم يعقب ذلك صلح ولا هدنة، وكانت هذه العداوة متمثلة في مظاهر، **منها:**

١- استيلاء بعض قريش على أموال المهاجرين التي تركوها وبخاصة دورهم في مكة.

٢- احتباس بعض المسلمين في مكة وعدم تمكينهم من الهجرة.

٣- استضعاف المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، حتى ما كان أحد يعرف بإسلامهم خشية من أذى قريش لهم لو أظهروا شيئاً من دينهم.

وقد كان الرسول ﷺ يريد من قريش إن لم تتبعه أن تخلّي بينه وبين الناس، فإن ظهر عليهم دخلوا فيما دخل فيه الناس إن أرادوا، وإن هم أصابوه فقد كفاهم إياه غيرهم، وهذا هو العرض الذي ذَكَّرهم به عتبة بن ربيعة يوم بدر، وذكرهم به النبي ﷺ يوم الحديبية فقال: «**مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ؟ فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنِ اللهُ أَظْهَرَنِي عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ**»[١].

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٠/ ١٥).

ولكن قيادة قريش الغالية في العداوة والمتمثلة في أبي جهل ومن معه ألحّت على العداوة والعدوان وأن تكون القوة التي تتولى الصد عن الرسالة وتحارب الرسول ﷺ ومن معه، ولذا فإن النبي ﷺ بعد أن استقر في المدينة وأقام الدولة وتلقى الإذن من الله بقتال من قاتله وأخرجه من بلده: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، بدأ بالتصدي لقريش ورد عدوانها وكف ظلمها، فأرسل سرية عبد الله بن جحش تعرض لعير قريش في وادي نخلة بين مكة والطائف.

ثم سار إلى عير لقريش متوجهة إلى الشام يقودها أبو سفيان، وكان عددها ألف بعير، ولكن فاتته العير ولم يدركها، وتسمى غزوة العُشيرة، فلما عادت العير من الشام إلى مكة استنفر ﷺ من معه من أصحابه لاعتراض القافلة في طريق رجوعها، وهذه المناوشة لقريش لم تكن لتحصيل مال مقابل مال أُخِذ، ولكنها مواجهة لعدو معلِنٍ للعداوة، مستمر في البغي والصد عن الدين، ولذا قال الله تعالى واصفاً حال العدوان المستمر من قريش: ﴿أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فهي مواجهة في مقابل العداوة المعلنة والبغي المتواصل، ولذا نفر المسلمون لمواجهة هذا البغي: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.

ومما يوضح ذلك أن المسلمين لم ينفروا إلى أي قافلة عابرة، وإنما تقصدوا عير قريش كطريقة لصد العدوان.

وقد سبقت معركة بدر غزوة وُدَّان وفيها وادع النبي ﷺ قبيلة بني ضَمْرة على ألا يقاتلوه ولا يظاهروا عليه فقبل منهم وكف عنهم، وهذا مما يبين أن حروب النبي ﷺ كانت لكف العدوان، وأن قريشاً وغيرها لو أعطت ذلك لما عرض لها.



واستنفر النبي ﷺ أصحابه لاعتراض العير وقال: «**مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِراً فَلْيَنْفِرْ**»، فاستأذن أناس أن يأتوا بظهرهم من عالية المدينة، فقال: «**لَا، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِراً**»[1] وذلك حتى لا يؤخره انتظارهم فتفوتهم القافلة في رجوعها كما فاتتهم في خروجها.

وكان التقدير فيما يظهر أن يباغتوا عير أبي سفيان على بدر إذا وردت هناك لترتوي وتعرض ما معها في سوقها الموسمي.

فكان ذلك سبب معركة بدر التي جعلها الله فرقاناً بين الحق والباطل؛ ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾.

وعلامةً على أن هذه الدعوة ودولتها في المدينة صارت قوة ظاهرة، وأن هذا أمر قد توجه وظهرت غلبته، وليُغلبنّ مُغالب الغلّاب[2].

وارتبطت بمعركة بدر أماكن مشهورة منها:

السُّقْيا: للتجهيز والانطلاق.

وذَفِران: للمشورة والقرار.

وبدر: للمواجهة والقتال.

والصفراء: لتقسيم الغنائم والقصاص من مجرمي الحرب.

فاسمع لمعركة بدر، وحديث أحداثها، ومواقع وقائعها.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٩٠١).

(٢) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (١/ ٢١٤).





موقع منطقة بدر





السُّقيا



استنفر ﷺ الناس لاعتراض القافلة وقال لهم: «**هَذِهِ عِيرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُهُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللهَ يُنْفِلُكُمُوهَا**»[(١)]، وعسكر خارج المدينة في مكان يقال له بئر أبي عنبة، ويعرف اليوم بمسجد السُّقيا في العنبرية، وذلك ليلحق به من هو على أهبة اللحاق، وليستعرض جيشه ويرد من يستصغره، وصلى هناك ودعا لأهل المدينة فقال: «**اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَكَ وَعَبْدَكَ وَنَبِيَّكَ دَعَاكَ لِأَهْلِ مَكَّةَ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ وَرَسُولُكَ أَدْعُوكَ لِأَهْلِ الْـمدِينَةِ مِثْلَ مَا دَعَاكَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ، نَدْعُوكَ أَنْ تُبَارِكَ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ وَمُدِّهِمْ وَثِمَارِهِمْ. اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْـمدِينَةَ كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ، وَاجْعَلْ مَا بِهَا مِنْ وَبَاءٍ بِخُمٍّ. اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ حَرَّمْتُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا كَمَا حَرَّمْتَ عَلَى لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ الحَرَمَ**»[(٢)].

واتُّخِذَ في مصلى النبي ﷺ مسجدٌ من المساجد العمرية، وذكر السمهودي أنه وقَف على أساسه العمريّ وأنه بني وجُدِّدَ في وقته[(٣)]، والمسجد اليوم قائم في العنبرية عند محطة سكة حديد الحجاز، وبناؤه بحجارة سود على الطراز العثماني، ويبعد عن المسجد النبوي (٤كم).

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٠٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٢)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٣٨١).
(٢) «مسند أحمد» (٢٢٦٣٠).
(٣) «وفاء الوفاء» للسمهودي (٣/ ٤٩).



صورة لمسجد السقيا

ثم خرج صلى الله عليه وآله وسلم في ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً بعد مضي بضع ليال من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، فنزل سَجسَج وهي بئرٌ في الروحاء ثم ارتحل منها حتى إذا كان قريباً من الصفراء أرسل صلى الله عليه وآله وسلم فِرَقَ استطلاع ترقب الطريق وتتبّع أخبار القافلة التي كان من المتوقع أن تنزل على مياه بدر، فأرسل صلى الله عليه وآله وسلم بسبس بن عمرو، وعدي بن أبي الزغباء الجهنيان إلى بدر، ولم يرسل أحداً من قريش أو الأنصار مبالغة في الإخفاء، فلو أرسل أحداً من المهاجرين أو الأنصار لعرفهم أهل الماء، ولكن أرسل رجلين من قبائل أخرى لا يُعْرفان، فأتوا ماء بدر واستقوا منه، وعلموا من حال أهل الماء أنهم ينتظرون قافلة أبي سفيان، وأنها لم تصل بعد إليهم، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالخبر.

وأما أبو سفيان فقد كان يسير بحذر ويتلمس الأخبار، فقد أفلت في ذهابه ولذا عاد حذراً في رجوعه يخشى أن يرصد في طريق عودته، فَعَلم بخروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين معه لاعتراضه، فانحرف عن طريق بدر وسلك طريق الساحل، وأحسبه قد

تتبع الخبر وعرف الجيش وعدده ومكانه، ولذا أرسل رسولاً إلى قريش يستصرخهم لينجدوه لو قد تبعه الجيش، وجاء الصريخ إلى قريش يستغيثهم ويستنفرهم.

وتذكر كتب السير أن أبا سفيان وصل إلى بدر يتحسس الأخبار فوجد أثر إبل الجهنيين، ففَتّ أبعارها فوجد فيها نوى تمر يثرب، فعرف أن المسلمين يتعقبونه، فانحرف إلى طريق الساحل واستنفر قريشاً[1].

ويظهر أنها قصة غير صحيحة؛ لأن وجود نوى تمر يثرب في أثر بعيرين في بدر لا يمكن أن يرتب عليه أبو سفيان استنفار قريش، ولكن الذي يظهر أن أبا سفيان بلغه خبر خروج النبي ﷺ في طلب عيره في ذهابه، ولأبي سفيان شهرته في القبائل وعلاقاته في المدينة وغيرها، ولذا فالأقرب أنه عاد متوجساً متحسساً، وله عيونه في المدينة من المشركين واليهود، ولذا علم بالخبر وكثرة الجيش وتوجهه إلى بدر مبكراً؛ فأرسل إلى قريش يستنفرهم، ووصلت قريش إلى بدر بعد عشرة أيام من مسيرها، وهذه المدة لا تكفي لو كان أبو سفيان لم يعلم بذلك إلا حين وصل بدراً، مع أن النبي ﷺ إنما خرج من المدينة بعد بضعة أيام من رمضان وكانت المعركة في السابع عشر منه.

ويبدو أن هذا النداء والاستغاثة من أبي سفيان قد لاقت تحفزاً عند ذوي العداوات المستكنة، ووجدوها فرصة للمواجهة والقضاء على الرسول والرسالة، ولذا تجهزت قريش على وجه السرعة وخرجت إلى بدر في حال من التحفز والإعداد والتباهي، فسارت بخيلها وخيلائها، وأخذوا معهم المغنيات والخمور لاحتفال ما بعد النصر، وكأنها معركة محسومة لهم سلفاً.

---

(١) ينظر: «مصنف عبد الرزاق» (٩٧٢٧)، و«مغازي الواقدي» (١/ ٤١)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٦١٨)، و«الطبقات» لابن سعد (٢/ ١٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٣).

وكان أكثر المندفعين إلى هذه المواجهة هو الأشد عداوة أبو جهل بن هشام، والذي وجدها فرصة مواتية لمعركةٍ يَقِلُّ فيها عدد المسلمين وعُدتهم، وظن أنه سرعان ما يتم القضاء عليهم عند المواجهة، ولذا استنفر الناس وألح على المواجهة.

أما أبو سفيان فعندما أدرك أنه نجا بالقافلة وأمن في طريقه أرسل إلى قريش يحثهم على الرجوع، وأنه قد أحرز أموالهم ولا حاجة بهم لإكمال المسير، فرجعت بنو زهرة كُلُّهم ورأوا أنهم قد سلمت رجالهم وأُحرزت أموالهم فلا حاجة بهم إلى قتال، ولكن أبا جهل استثار بقية الجيش وحفَّزَهُ لمواصلة المسير والوصول إلى بدر، وإعلان النصر، ولديه قدرة قيادية فائقة يسيطر بها على آراء الجماعة حوله، ويقودهم إلى حيث يريد. وهكذا واصلت قريش مسيرها ليقضي الله أمره، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[1].



موقع مسجد السقيا



(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٣/ ٤٧)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (١٩١)، و«آثار المدينة» (١٣٦)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٥٦)، و«طيبة المدينة النبوية» (٢٧٧).

ذَفِران



ذَفِران واد على الطريق بين المدينة وبدر، يبعد عن المدينة (١٢٠كم)، وعن بدر (٣٠كم)، وهي اليوم معروفة مشهورة باسمها، نزله النبي ﷺ في طريقه إلى بدر، وكان به مسجد في أول ذَفِران وآخَرُ في آخِره[1] حيث صلى رسول الله ﷺ، وظاهرٌ من ذلك أنه نزله واستقر فيه حيث كان رسله يتحسسون الأخبار.



صورة من ذَفِران

وفيما كان نازلاً في ذَفِران بلغه خبر نفير جيش قريش، وأنه قد توجه إليه، وأوحى الله إليه يَعِدُهُ إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير، ورغب كثير من المسلمين في العير

(١) «وفاء الوفاء» (٣/ ١٧٥).

لأنها كسب بلا قتال[1]: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

فجمع ﷺ الصحابة وأخبرهم واستشارهم في المواجهة، فتكلم أبو بكر فأحسن، وتكلم عمر فأحسن[2]، وتكلم المقداد بن الأسود، فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْكِ الْغِمَادِ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير[3].

ثم كرر ﷺ طلب المشورة، فعرف الأنصار أنه يعنيهم؛ لأنهم ربما رأوا أن واجب النصرة عليهم لرسول الله ﷺ إذا كان في المدينة، وأنه ليس عليهم أن يخرجوا من بلادهم إلى عدو يقاتلونه، فلما كرر طلب المشورة قال سعد بن عبادة: كأنك تريدنا يا رسول الله؟، قال: «**نَعَمْ**»، قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «**سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ مَصَارِعَ الْقَوْمِ**»[4].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٥).

(٢) «مسند أحمد» (١٣٢٩٦)، و«صحيح مسلم» (١٧٧٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٦٠٩).

(٤) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦١٥)، وجزء منه في «صحيح مسلم» (١٧٧٩).

إن رسول الله ﷺ قد خرج بأمر من الله، ووُعد إحدى الطائفتين، وبُشِّر، وأُري مصارع القوم، ومع ذلك يشاور أصحابه هذه المشاورة، ويحرص على أخذ آراء جَميعِهم، فقد سمع كلاماً حسناً من جمع من المهاجرين، ولكنه كرر حتى يُشْرِك الأنصار في المشاورة، ويشعرهم بأهمية رأيهم ويسير بقرار جماعي.

وهذه سنته وهديه كما قال أبو هريرة: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ[1]، فكيف إذا كان بأمر قتال يتحمل الجميع مسؤولية الرأي فيه؟

إن جعل الجيش شريكاً في القرار في مثل هذه المواقف هو من إشعارهم بتحمل المسؤولية، وترسيخ القناعة لديهم، ولهذا أثره في معنوية الجيش وتحفزه.

وأرى الله نبيه في منامه جيش المشركين قليلاً، فأخبر أصحابه، فكان في ذلك تثبيتاً لهم حتى قويت قلوبهم واجترأوا على حرب عدوهم[2]؛﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وسار المسلمون من ذَفِران إلى بدر وهم في غاية التحفز والجاهزية والاستعداد، فلما وصلوا قريباً من بدر أرسل ﷺ علي بن أبي طالب والزبير وسعداً إلى ماء بدر يستطلعون الخبر.

فوجدوا غلامين لقريش جاءا يستقيان الماء فأتوا بهما إلى رسول الله وهو يصلي فسألوهما، فقالا: نحن سقاة قريش، فضربوهما لعلهم يعترفون أنهم لأبي سفيان، فلما أوجعوهما قالا: نحن لأبي سفيان. فلما أتم ﷺ صلاته أقبل عليهم وقال: «**إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا، صَدَقَا، وَاللهِ إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ**».

---

(١) «مسند أحمد» (١٨٩٢٨)، و«جامع الترمذي» (١٧١٤).

(٢) «تفسير الطبري» (١٣/ ٥٦٩).

ثم سألهما فقال: «**أَخْبِرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ؟**» فقالا: هم وراء هذا الكثيب، قال: «**كَم الْقَوْمُ؟**»، قالا: كثير، قال: «**مَا عِدَّتُهُمْ؟**»، قالا: لا ندري، قال: «**كَمْ يَنْحَرُونَ كُلَّ يَوْمٍ؟**» قالا: يوماً تسعة ويوماً عشرة، فقال: «**الْقَوْمُ فِيمَا بَين التِّسْعمِئَة وَالْأَلْفِ**»، ثم قال لهما: «**فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ؟**» قالا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، وأبو جهل ابن هشام، وأمية بن خلف، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود، فقال: «**هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَلْقَتْ إِلَيْكُمْ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا**»[(١)].

وسارع المسلمون في اليوم التالي، فنزلوا على أدنى ماء من بدر، فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**بَلْ هُوَ الرّأْيُ وَالحَرْبُ وَالْـمكِيدَةُ**»، فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتنزله، ثم نغور ما وراءه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال ﷺ: «**لَقَدْ أَشَرْت بِالرّأْيِ**» وفعل ما أشار به[(٢)].

وفي كلام الحُباب ما يبين فقه الصحابة وتمييزهم بين أوامر النبي ﷺ، وأن منها ما هو شرع فالواجب تجا هه السمع والطاعة، وما هو تدبير لهم فيُبدون فيه رأيهم ومشورتهم، وفي هذه التقدمة من الحباب حسن أدب مع النبي ﷺ وتلطف في عرض الرأي عليه.

وهكذا أخذ المسلمون موقعهم في ميدان المعركة، ومشى ﷺ وجعل يشير بيده ويقول: «**هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَهَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ إِنْ شَاءَ اللهُ**».

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦١٧).
(٢) «مستدرك الحاكم» (٥٨٠١).



قال عمر: فو الذي بعثه بالحق ما جاوز أحد منهم عن موضع يد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ[1].

وبنى الصحابة عريشاً لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليكون غرفة القيادة، وكان معه وحوله في العريش أبو بكر وسعد بن معاذ، وبذلك سبق المسلمون إلى مكان المعركة واختاروا أماكنهم وأخذوا أهبتهم.



صورة لمسجد العريش في بدر

وإذا كان المسلمون قد حسموا أمرهم وأخذوا أهبتهم فإن قريشاً لم يكونوا جميعاً على قناعة بالمواجهة بعد أن نجت العير، ولذا فلم يكونوا على كلمة سواء، وكان هذا من بداية الخذلان وشتات الأمر، إذ الجميع لا يشتركون في القناعة، خاصة بعد أن رجع بنو زهرة من عرض الطريق لقناعتهم بعدم المواجهة.

وارتحلت قريش حين أصبحت، فأقبلت تتحدر من كثيب العقنقل، فلما رآها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**اللهُمّ، هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ أَقْبَلَتْ بِخُيَلَائِهَا وَفَخْرِهَا، تُحَادّك وَتُكَذّبُ رَسُولَك، فَنَصْرُكَ الّذِي وَعَدْتنِي، اللهُمّ، أَحِنْهُمْ الْغَدَاةَ**»[2].

(١) «صحيح مسلم» (١٧٧٩).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٣٣)، أحنهم: أي أهلكهم.

ورأى رسول الله ﷺ عتبةَ بن ربيعة في القوم على جمل أحمر فقال: «**إِنْ يَكُنْ فِي أَحَدٍ مِنْ الْقَوْمِ خَيْرٌ فَعِنْدَ صَاحِبِ الجَمَلِ الْأَحْمَرِ، إِنْ يُطِيعُوهُ يَرْشُدُوا**»[1]، واتخذت قريش مكانها في الجانب الآخر من بدر في العدوة القصوى.

ولما اطمأنت قريش في مكانها بعثوا عمير بن وهب الجمحي، فقالوا: اُحزُر لنا أصحاب محمد، فجال بفرسه حول معسكر المسلمين ثم رجع، فقال: ثلاثمئة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد، فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئاً فرجع إليهم، فقال: ما وجدت شيئاً، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضحُ يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فَروْا رأيكم[2].

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك أتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك؟ قال: ترجع بالناس قال: قد فعلت، أنت علي بذلك فأت ابن الحنظلية -يعني أبا جهل- فإني لا أخشى أن يشجر[3] أمر الناس غيره[4].

ثم قام عتبة خطيباً فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل

---

(١) «مسند أحمد» (٩٤٨).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٣٤).

(٣) أي يخالف بينهم. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٤٦).

(٤) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٣٤).

ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

وانطلق حكيم إلى أبي جهل فحدثه بما أرسله به عتبة، فقال أبو جهل: انتفخ سَحره[١]، والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أَكَلَةَ جزور[٢]، وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه.

وبلغت كلمةُ أبي جهل عتبة فأحفظته وقال: سيعلم مصفر استه[٣] غداً من انتفخ سَحره، أنا أم هو، وعزم على أن يكون أول مبارز في المعركة، وهذا ما كان أبو جهل يريده منه، ويدفعه إليه[٤].

وواضح أن أبا جهل ومن وافقه لم يكن دافعهم مجرد تخليص العير، لأنها قد خَلَصت ونَجَت، ولكنَّ إيغالهم في العداوة جعلهم يرون هذه فرصة سانحة للقضاء على الرسول والرسالة، وأن هذه المواجهة بهذا التفاوت الكبير في القوة قد لا تتكرر ولذا فإن عليهم الدفع باتجاه المنازلة.

وأبو جهل قائد قريش اليوم وقد واتته الفرصة في القضاء على المسلمين قبل أن يستفحل أمرهم، فَلِمَ لا ينتهز هذه الفرصة وتكون له المكانة في قريش بعد انتصاره على المسلمين.

ولأبي جهل عبقريته في القيادة، والتي جعلته يسير بالجميع في الاتجاه الذي يريده، ويتغلب على الرأي المخالف الذي كان يراه عتبة ومن معه.

---

(١) سحره: رئته، أي انتفخت من الخوف. ينظر: «الروض الأنف» (٥/ ١٢٥).
(٢) أي مجموعة قليلة يطعمهم كلهم جزور واحد، وهو عدد يقدر بمئة رجل.
(٣) كلمة تقولها العرب تريد بها أنه مترفه متعطر لا شأن له في القتال. ينظر: «الروض الأنف» (٥/ ١٢٦).
(٤) «مسند أحمد» (٩٤٨).

ولذا حسم المشركون أمرهم على المنازلة، وكان من صنع الله أن أراهم المسلمين قليلاً حتى يندفعوا للقتال مستهينين بعدوهم.

وأرى الله المسلمين عدوَّهم قليلاً حتى ينشطوا للقاء بمعنوية عالية:﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

وحل الظلام وكلا الفريقين متحفز للقاء متهيئ للمعركة، وفي الليل كان المسلمون في العدوة الدنيا مما يلي المدينة والمشركون بالعدوة القصوى، فأنزل الله مطراً لَبَّد الأرض وأنعش النفوس، قال علي: أصابنا من الليل طش[1] من المطر -يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر- فانطلقنا تحت الشجر والحَجَف[2] نستظل تحتها من المطر، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح[3].

وكانت الأرض التي نزلها المسلمون كثيباً تسوخ فيه الأقدام، فكان نزول المطر إطفاءً لغبارها وتلبيداً لرملها، ثم كان النوم الذي به راحة الأبدان لتستعيد نشاطها، والنوم قبيل المعركة أمان وسكينة من الله لهذه النفوس، فإن الخائف المذعور لا يمكن أن ينام، فَغَشَّاهم الله النعاس أَمَنَة مِنه وسكينة لنفوسهم:﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

---

(١) أي: المطر الخفيف. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٢٤).
(٢) جمع الحجفة، وهي التُّرسُ المعمول من الجلد تستر صاحبه. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٤٥).
(٣) «مسند أحمد» (٩٤٨، ١٠٢٣)، و«صحيح ابن خزيمة» (٨٩٩).

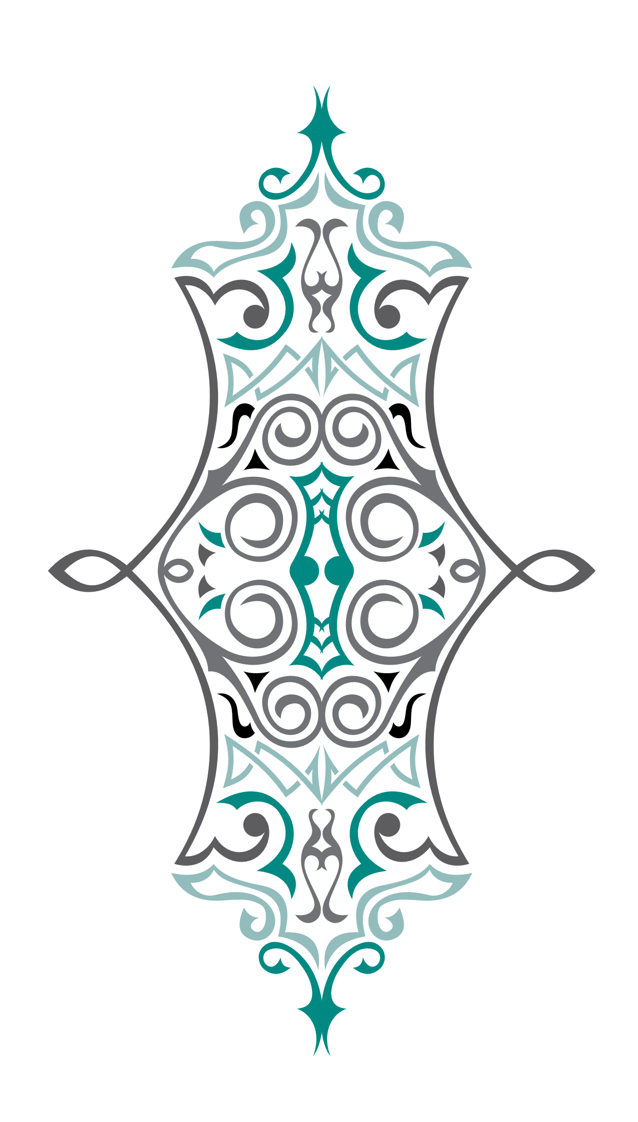
ومرت على المسلمين في بدر ليلة ندية رخية، غشيهم فيها النعاس، وتنزلت عليهم السكينة، لكن عيناً واحدة لم تنم تلك الليلة، وهي عين رسول الله؟ الذي بات قائماً بين يدي الله يصلي ويدعو ويستغيث، والصلاة في الأوقات العصيبة ملجأ كان يهرع إليه رسول الله ﷺ، فقد كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1].



موقع ذفران



(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٣/ ١٧٥).





معركة بدر



كانت بدر ماءً لقبيلة غفار بأسفل وادي الصفراء تبعد عن المدينة (١٥٥كم)، وعن مكة (٣١٠كم)، وتبعد عن البحر قرابة (٤٥كم)، وبها آبار وعين جارية، ولذا تنزل بها القوافل القادمة من الشام ومصر إلى مكة، وبها سوق من أسواق العرب الموسمية يقام في موسمه كل عام[١].

طلع الفجر على المسلمين في بدر، فنادى رسول الله ﷺ الناس، فجاؤوا من تحت الشجر والحجف، فصلى بهم ثم خطب وحض على القتال، وقال قبل بدء المعركة: «**مَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامٍ فَلَا يَقْتُلْهُ، وَمَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، عَمَّ رَسُولِ الله فَلَا يَقْتُلْهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهاً**»[٢].

وذلك أن أبا البختري كان له سعي في نقض صحيفة المقاطعة.

وأما العباس فكان بطانة نصح لرسول الله ﷺ، وعيناً له في مكة على قريش.

ثم صَفَّ رسول الله أصحابه، وذهب يُعدل صفوفهم بِقِدْح[٣] كان في يده، وكانت أوامره واضحة بضرورة الانضباط والتزام الطاعة وألا يتصرف أحد إلا بأمر منه.

---

(١) ثم صارت اليوم بلدة كبيرة عامرة. ينظر: «معجم البلدان» (١/ ٣٥٧-٣٥٨)، و«معجم المعالم الجغرافية» (ص: ٤١).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٢٩).

(٣) القدح: هو عود السهم، وهو عود دقيق مستقيم.



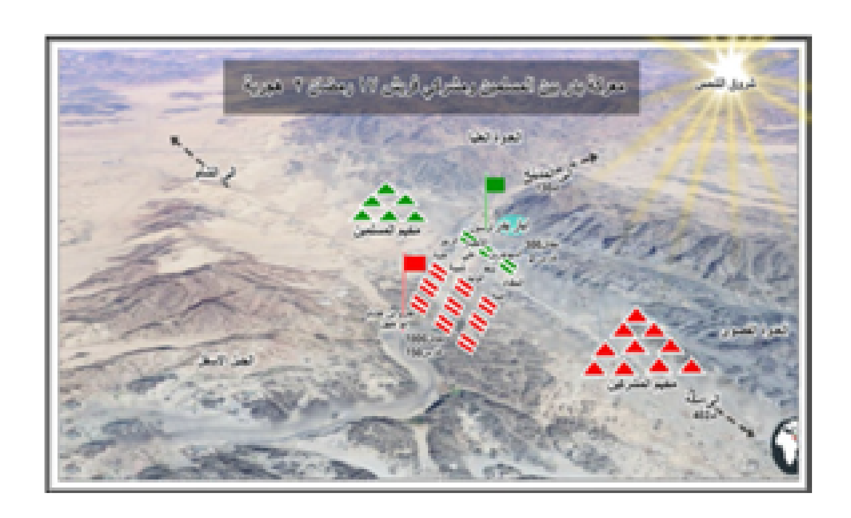
فقال لهم: «**لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ**»(١)، كما أمرهم أن لا يحملوا حتى يأمرهم، فقال: «**إِنْ اكْتَنَفَكُمْ الْقَوْمُ فَانْضَحُوهُمْ عَنْكُمْ بالنَّبْلِ**»(٢) وفي رواية: «**إِذَا أَكْثَبُوكُمْ**(٣)**، فَارْمُوهُمْ بِالنَّبْلِ، وَلاَ تَسُلُّوا السُّيُوفَ حَتَّى يَغْشَوْكُمْ**»(٤).

وهكذا كانت الصورة واضحة في أذهان الصحابة بانتظار الأوامر، ثم رجع ﷺ إلى العريش ومعه أبو بكر، وقام يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: «**اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**»(٥) ولم يزل يدعو رافعاً يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فوضعه عليه أبو بكر، ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعدك، وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ثم انتبه، فقال: «**أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَتَاكَ نَصْرُ الله. هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعَنَانِ فَرَسٍ يَقُودُهُ، عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ**»(٦)، ثم خرج من العريش وهو يثب في الدرع، ويقول: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾(٧) ثم جعل يحرض الناس على القتال ويبشر الناس بالجنة ويبشرهم بنزول الملائكة، والناس في مصافهم لم يحملوا على عدوهم بعد.

---

(١) «صحيح مسلم» (١٩٠١).
(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٢٥-٦٢٦).
(٣) أي: اقتربوا منكم. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٥١).
(٤) «صحيح البخاري» (٢٩٠٠)، و«سنن أبي داود» (٢٦٦٤).
(٥) «صحيح مسلم» (١٧٦٣).
(٦) «صحيح البخاري» (٣٩٩٥). وينظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٢٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٨١). النقع: الغبار. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٠٩).
(٧) «صحيح البخاري» (٤٨٧٥، ٤٨٧٧).





وبدأت المعركة بخروج عتبة بن ربيعة والذي أراد أن يُظهر شجاعته، وقد حَميَ لكلمة أبي جهل عنه، فبرز بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فلما توسطوا بين الصفين طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، فقال عتبة: أكفاء كرام، إنما نريد قومنا، ثم نادى مناديهم: يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «**قُمْ يَا عُبيدة بْنَ الحَارِثِ، وَقُمْ يَا حَمْزَةُ، وَقُمْ يَا عَلِيُّ**»، وهكذا دفع ﷺ بأقرب الناس إليه، عَمِّه وابني عمه!

فكان عبيدة تجاه عتبة، وحمزة تجاه شيبة، وعلي تجاه الوليد، فأما حمزة وعلي فلم يمهلا صاحبيهما فقتلاهما من فورهما، وأما عبيدة وعتبة فاختلفا ضربتين أثبت كل منهما صاحبه، فكرَّ حمزة وعلي على عتبة فأجهزا[١] عليه، واحتملا عبيدة جريحاً[٢].

وكانت بداية المعركة بقتل من خرج من المشركين للمبارزة فاتحة النصر، فأوهنت المشركين وأضعفت عزائمهم.

---

(١) أي أَسْرعا قَتلَه. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٢٢).

(٢) «مسند أحمد» (٩٤٨)، و«سنن أبي داود» (٢٦٦٥).

ثم تزاحف الناس، وأخذ رسول الله ﷺ حفنة من الحصباء ورمى بها قريشاً وقال: «**شَاهَتِ الْوُجُوهُ**»، ثم أمر أصحابه، فقال: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ**»، فقال عمير بن الحمام: يَا رَسُولَ الله، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ؟، قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**» قَالَ: لَا وَالله يَا رَسُولَ الله، إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**»، فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ[١].

وكان أول شهيد من المهاجرين مهجع مولى عمر بن الخطاب رُمي بسهم فقتله، وأول شهيد من الأنصار حارثة بن سراقة رُمي بسهم وهو يشرب من الحوض فأصاب نحره فقتله.

واقتتل الناس قتالاً شديداً وكان ﷺ في المقدمة يباشر القتال بنفسه، فعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله، وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً[٢].

وشهدت المعركة بطولات نادرة للمسلمين، ومدداً من الله لهم، فعن عبد الرحمن بن عوف قال: بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بِغُلَامَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ -حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا- فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ: يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ الله ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الأَعْجَلُ مِنَّا، فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الآخَرُ، فَقَالَ لِي مِثْلَهَا، فَلَمْ

---

(١) «صحيح مسلم» (١٩٠١). والقرن: جعبة من جلد. ينظر: «النهاية» (٤/ ٥٥).

(٢) «مسند أحمد» (٦٥٤).

أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، قُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي، فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا، فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَأَخْبَرَاهُ فَقَالَ: «**أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟**»، قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ، فَقَالَ: «**هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟**»، قَالَا: لَا، فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ: «**كِلَاكُمَا قَتَلَهُ، سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الجَمُوحِ**»، وَكَانَا مُعَاذَ ابْنَ عَفْرَاءَ، وَمُعَاذَ بْنَ عَمْرِو بْنِ الجَمُوحِ[1].

وتنزّل نصر الله على أوليائه، ونزلت أمداد السماء إليهم تثبيتاً وتأييداً، ودفاعاً ومشاركة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾، قال ابن عباس: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِياً، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: «**صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ**»، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ[2].

قال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون[3].

ولم يمض كبير وقت حتى حلت الهزيمة بالمشركين وانطلق المسلمون وراءهم يقتلون ويأسرون[4].

---

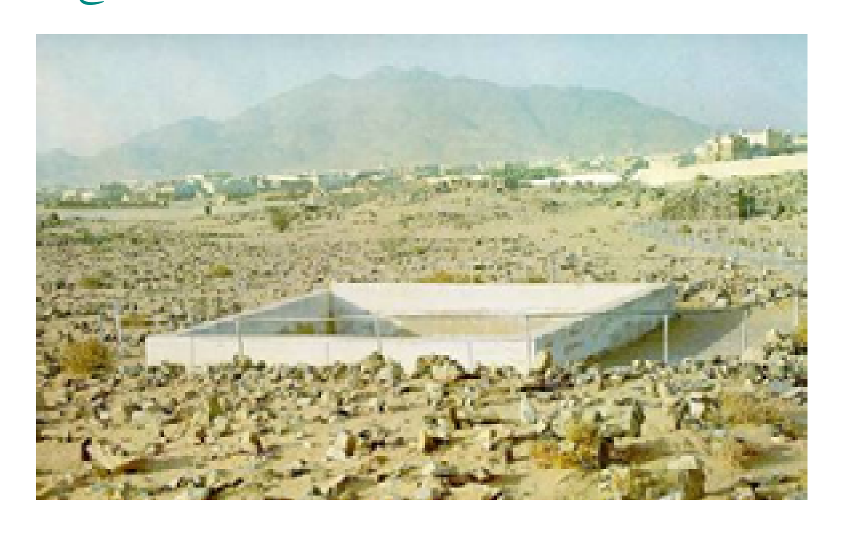
(١) «صحيح البخاري» (٣١٤١)، و«صحيح مسلم» (١٧٥٢).

(٢) «صحيح مسلم» (١٧٦٣).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (١١٣٧٧)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٤٥٤).

(٤) باختصار وتصرف من كتاب «من معين السيرة» (٢١٩-٢٢١)، لشيخنا صالح أحمد الشامي حفظه الله.

وانتهت المعركة سريعاً، وأحسبها كانت ساعة في أول النهار ثم انهزم المشركون، وقُتل من قُتل منهم، وأُسر من أُسر، وفَرَّ بقية الجيش لا يلوون على شيء، وتناثرت في ميدان المعركة جثث سبعين قتيلاً فيهم ملأ قريش وصناديدهم أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وغيرهم، وأَسَر المسلمون سبعين أسيراً، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.



مقبرة بدر، وفي داخل السور الأبيض قبور شهداء معركة بدر



موقع معركة بدر



الصفراء



وادي الصفراء من أودية الحجاز الضخمة، كان كثير القرى ولكن اندثر أكثرها اليوم، وقرية الصفراء لاتزال عامرة كثيرة المزارع والنخيل، وتُعرف اليوم بقرية الواسطة تبعد عن المدينة (١٤٠ كم)، وعن بدر قرابة (٣٠ كم).

وقد مر بها النبي ﷺ غير مرة، وكان بها مسجد يقال إن رسول الله ﷺ صلى فيه[(١)]، وقد نزلها النبي ﷺ في رجوعه من بدر وكان من خبر ذلك:

أن رسول الله ﷺ أقام ببدر بعد انتصاره ثلاثة أيام. جمع فيها الأسرى وكذا الغنائم، كما أمر ببضعة وعشرين رجلاً من قتلى صناديد قريش فسحبوا إلى قليب في بدر فألقوا فيها.



صورة من الصفراء

(١) «وفاء الوفاء» (٣/ ١٧٦)، و«معجم المعالم الجغرافية» (١٧٦).

ولما كان اليوم الثالث أمر براحلته فَشُد عليها رحلها فظنوا أنه منطلق لحاجة، فانطلق حتى وقف على شفا القليب، فقال: «**يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ، يَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا أُمَيَّةُ بْنَ خَلَفٍ، وَيَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ** -فعدَّد من كان منهم في الْقليب- **هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقّاً**»، فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال: «**وَالّذِي نَفْسُ مُحَمّدٍ بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»[1].

وتغير وجه أبي حذيفة بن عتبة عند طرح أبيه في القليب، فعَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**كَأَنَّكَ كَارِهٌ لِمَا تَرَى؟**»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ أَبِي كَانَ رَجُلاً سَيِّداً حَلِيماً، فَرَجَوْتُ أَنْ يَهْدِيَهُ اللهُ إِلَى الإِسْلامِ، فَلَمَّا وَقَعَ بِالْـمَوْقِعِ الَّذِي وَقَعَ بِهِ أَحْزَنَنِي ذَلِكَ، فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ لأَبِي حُذَيْفَةَ بِخَيْرٍ[2].

إن هذا الموقف الشديد على النفس هو من مواقف امتحان القلوب للتقوى، ولكن خرجت قلوب الصحابة صحاحاً ثابتة الإيمان راسخة اليقين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

وأرسل ﷺ عند الانتصار عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية -في المدينة- كما بعث زيد بن حارثة بشيراً إلى أهل السافلة، ثم تابع ﷺ طريقه إلى المدينة ومعه الأسرى والغنائم.

وقال رسول الله ﷺ في أسارى بدر: «**لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيّاً، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى**[3] **لَتَرَكْتُهُمْ لَه**»[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧٤).
(٢) «صحيح ابن حبان» (٧٠٨٨)، و«مستدرك الحاكم» (٤٩٩٥).
(٣) النتنى: واحدهم: نَتِن، سماهم نتنى لكفرهم. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٤).
(٤) «صحيح البخاري» (٣١٣٩).



وهذا الحديث تعبير عن الوفاء، والاعتراف بالجميل، فقد كان للمطعم مواقف تذكر بخير، فهو الذي دخل الرسول ﷺ في جواره حينما عاد من الطائف، كما كان من أشد القائمين على نقض الصحيفة يوم حصر المسلمون وبنو هاشم.

وهذا يدل على الوفاء والتقدير لمواقف الرجال النبيلة -ولو كانوا مشركين-.

وفرَّقَ رسول الله ﷺ الأسرى بين أصحابه، وقال لهم: «**اسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْراً**»، قال أبو عزيز بن عمير وهو أحد الأسرى: فكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل، والتمر أزوادهم، وذلك لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا[1].

ثم بعد ذلك فاداهم النبي ﷺ بحسب يُسرهم، ففيهم من كان فداؤه أربعة آلاف درهم، ومنهم من كان دون ذلك، ومنهم كان فداؤه أن يعلّم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة، فإذا أجادوها فهو فداؤه، ومنهم من منَّ الرسول عليهم بلا فداء لعسرهم ومنهم أبو عزة الجمحي، وأخذ عليه العهد ألا يظاهر عليه في مشهد بعد فأعطاه ذلك.

واستأذن الأنصار رسول الله ﷺ فقالوا: ائْذَنْ لَنَا فَلْنَتْرُكْ لِابْنِ أُخْتِنَا عَبَّاسٍ فِدَاءَهُ، قَالَ: «**وَالله لَا تَذَرُونَ مِنْهُ دِرْهَماً**»[2].

ويظهر أدب الأنصار مع رسول الله ﷺ في قولهم لرسول الله: ابن أختنا، لتكون المنة عليهم في إطلاقه، بخلاف ما لو قالوا: عمك؛ لكانت المنة عليه ﷺ، وهذا من قوة الذكاء وحسن الأدب في الخطاب، وإنما امتنع النبي ﷺ عن إجابتهم، لئلا يكون في الدين نوع محاباة[3].

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٤٥)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥/ ٢٩٦٧)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٩٧٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٠١٧).

(٣) «سبيل الهدى والرشاد» (٤/ ١٣٥).

وسار ﷺ واحتمل معه عبيدة بن الحارث بن المطلب جريحاً قد قطعت رجله في المبارزة يوم بدر، فوضع رسول الله ﷺ رأسه على ركبته، فقال: يا رسول الله لو رآني أبو طالب لعلم أني أحق منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل[1]

فلما نزل ﷺ بالصفراء توفي بها عبيدة[2]، وكان في الثالثة والستين من عمره، وهو أسن من شهد بدراً من المسلمين، ودفن هناك فقبره بالصفراء، ولا يعرف تعيينه.

وفي الصفراء قسم رسول الله ﷺ الغنائم بين الجيش بعد أن تنازعوا في قسمتها، فانتزعها الله منهم وجعلها في يد نبيه فيما أنزل عليه في سورة الأنفال، فقسمها ﷺ بينهم بالسوية، وأعطى لورثة الشهداء وذويهم نصيبهم من الغنائم[3].

وفي الصفراء أمر النبي ﷺ بقتل النضر بن الحارث، وكان شديد العداوة والأذى لرسول الله ﷺ بمكة، وفي عِرْق الظبيَّة[4] أمر بقتل عقبة بن أبي معيط وهو كذلك ممن كان شديد الأذى والعداوة لرسول الله ﷺ في مكة، وهو الذي ألقى سلا الجزور على ظهره وهو ساجد يصلي في ظل الكعبة.

فأمر بقتل هؤلاء من بين الأسرى، لأنهما أشبه بما نسميه اليوم «مجرمي الحرب»، وأما بقية الأسرى فكانوا محل إحسانه ورفقه، ولذا أسلم كثير منهم بعد ذلك[5].

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٤)، و«تاريخ الرسل والملوك» (٢/ ٤٤٥-٤٤٦)، و«أسد الغابة» (٣/ ٤٥٠).

(٢) «مستدرك الحاكم» (٤٨٦٢).

(٣) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٢٧٥٧)، و«السيرة النبوية» لأبي شهبة (٢/ ١٧٦).

(٤) مَوضِعٌ عَلَى الطَّرِيقِ مِنْ الْمَدِينَةِ إلَى مَكَّةَ، قُبَيْلَ الرَّوْحَاءِ بِثَلَاثَةِ أَكْيَالٍ تَقْرِيباً. ينظر: «معجم المعالم الجغرافية» (ص: ٢٠٤).

(٥) بلغ عدد من حفظت أسماؤهم من الأسرى الذين أسلموا قرابة العشرين. ينظر: «نور النبراس» (٤/ ٣٩٨).



ولما ارتحل ﷺ من الصفراء إلى المدينة، دخلها ظافراً منتصراً بخير منقلب، وقد أناله الله ما وعده، وأعطاه ما هو خير له، وهو نصره وإظهاره، وإحقاق الحق وقطع دابر الكافرين[1].

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وجاءت أم حارثة بن سراقة وكان ابنُها حارِثَةُ أول من قتل من الأنصار في بدر، وعمره تسعة عشر عاماً أصابه سهمُ غَرْبٍ[2] في أول المعركة، فأَتَتْ رسولَ الله ﷺ، فقالت: أَخْبِرْنِي عن حارِثَةَ لَئِنْ كان أصاب خيراً احْتَسَبْتُ وصَبَرْتُ، وإن لم يُصِبِ الخيرَ اجْتَهَدْتُ في الدعاءِ فقال النبيُّ ﷺ: «**يَا أُمَّ حارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ فِي جَنَّةٍ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى، وَالفِرْدَوْسُ رَبْوَةُ الجَنَّةِ وَأَوْسَطُهَا وَأَفْضَلُهَا**»[3].



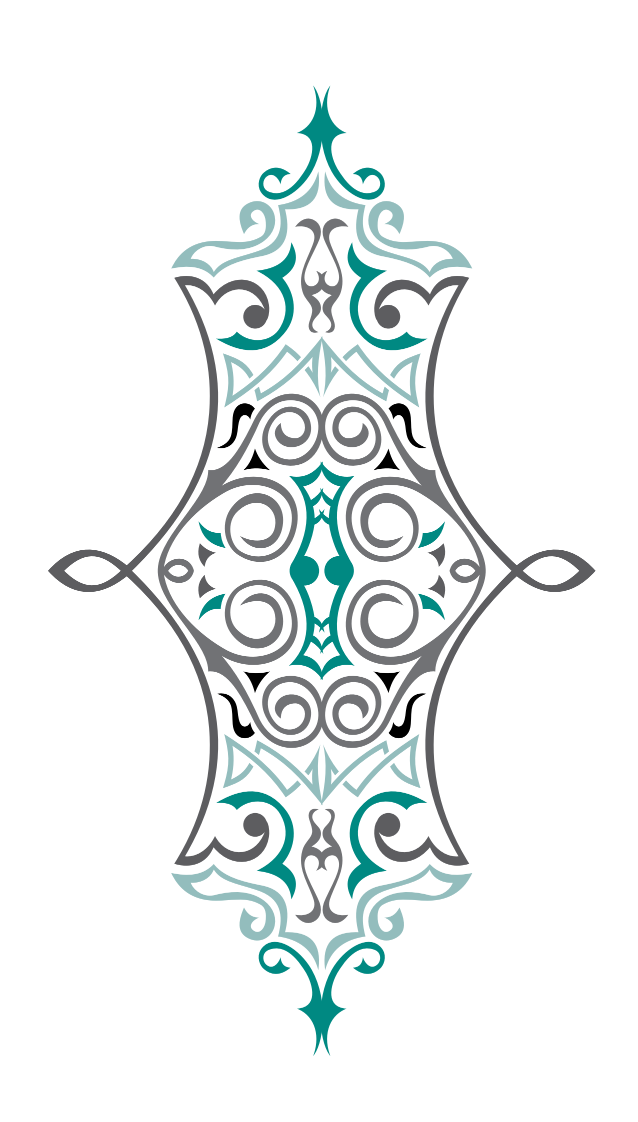
موقع الصفراء



(١) ينظر في ذلك: «تحقيق النصرة» (١٦٢)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ١٧٦).

(٢) أي سهمٌ لا يُعْرَف رَامِيه. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٥٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٨٠٩).



ما بعد بدر



١ - وبهذا النصر عرف العرب أنه طليعةُ الظهور، وتمكُّن هذا الدين، وأن أمر القضاء عليه ليس قريب المنال، ولذا تراجع طموح عبد الله بن أبي ابن سلول وغيره من مشركي الأوس والخزرج الذين كانوا قد شَرِقُوا بالرسولِ والرسالة، وتجاهروا بالإعراض عنها ورفضِها، فلما تحقق هذا النصر غير المتوقع في نظرهم قال عبد الله ابن أُبي ابن سلول: هذا أمر قد تَوَجَّهَ، فأظهر الإسلام واستبطن النفاق، وصار للمسلمين بعدُ في المدينة مكابدةٌ مع دسائس المنافقين وإرجافهم.

وبالمقابل شرِق اليهود بهذا النصر، وبخاصة يهود بني قينقاع، وكانوا أشجع اليهود وأقربهم منزلاً إلى رسول الله ﷺ، فمنازلهم لا تبعد عن المسجد النبوي إلا (١,٥ كم).

فأعلنوا شِقَاقهم وجاهروا بعداوتهم، وقالوا لرسول الله ﷺ: يَا مُحَمَّدُ، لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَراً مِنْ قُرَيْشٍ كَانُوا أَغْمَاراً، لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا[١].

فكان ما كان بعدُ من حصارهم وهزيمتهم وإجلائهم.

٢ - بعد معركة بدر أزيل الصفُّ الأول من أعداء الدين، وهم ملأُ قريش وصناديدها: أبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، والنضر بن الحارث، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعُقبة بن أبي معيط.

(١) «سنن أبي داود» (٣٠٠١).



وبذهابهم ذهب أحد حواجز الصدود عن دين الله، وهم كبار قريش الذين كانوا يقودون الحالة التجارية والسياسية والدينية في مكة.

ولما زال الصف الأول من هؤلاء الصناديد، ظهر في صف القيادة غيرهم، كما قال الأسود ابن المطلب يرثي قتلى بدر:

ألا قد ساد بعدهم رجال ... ولولا يوم بدر لم يسودوا[1]

وظهر في القيادة الجديدة لقريش أبو سفيان بن حرب، والذي لم يعرف بسابق عداوة قبل بدر، وأما بعد بدر فعداوته عداوة طالب ثأر، فقد قُتل في بدر ابنه حنظلة، وأسر ابنه عمرو.

ولذا فبواعثه في العداوة ليست كباعث أبي جهل وأمية بن خلف وهذا الضرب من الأعداء الذين كانوا يعادون النبي ﷺ لدينه ودعوته أولاً.

فمعركة بدر ذهبت بقيادات قريش كما ذهبت معركة بُعاث بقيادات الأوس والخزرج.

ليتقدم لصف القيادة مواهب شابة أكثر قدرة على مرونة التفكير، وتقبل التغيير.

٣- لقد كان موقف المسلمين مع النبي ﷺ قبل معركة بدر من مواقف الصدق واليقين والإيمان، وهو منقبة لأمة محمد ﷺ، وكرامة لهذا النبي ولهذه الأمة.

وشتان بين موقف بني إسرائيل مع موسى يوم قالوا: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، وقول الصحابة: لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ.

وتَعَنُّتِ بني إسرائيل على موسى في ذبح بقرة، وسخاء الصحابة بدمائهم ونثرها بين يدي رسول الله ﷺ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ[2].

---

(١) ينظر: «مغازي الواقدي» (١/ ١٢٤)، و«سيرة ابن هشام» (١/ ٦٤٨).

(٢) «صحيح مسلم» (١٩٠١).



ولذا صارت بدر منقبةً لكل من شهدها، وفضيلةً لا ينتقص من فُضِّل بها، وقال ﷺ عن حاطب بن أبي بلتعة: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْراً، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1].

وجاء جبريل إلى النبي ﷺ، فقال: «**مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟**» قَالَ: «**مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ**»، قَالَ: «**وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْراً مِنَ المَلَائِكَةِ**»[2].

٤- ليس في خروج النبي ﷺ بالمسلمين لقريش في بدر على قلة العدد والعدة ما يعتبر مغامرة، أو تهوراً أدى نتيجة غير متوقعة، كما يظن بعض المغامرين والمتعجلين، ولكن لمعركة بدر خصائصها وظروفها وملابساتها الخاصة بها، والتي قدرها الله على غير تقدير البشر وحسبانهم.

فهي معركة تمت بأمر الله، ووعد الله، وبشرى من الله، ومدد من الله.

فهي أمر من الله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

وبوعد من الله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ وبشرى من الله، فإن النبي ﷺ قال وهو في الطريق إلى المعركة: «**وَاللهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ**»[3].

وبمدد من الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٩٩٢).

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦١٥)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣٤).



ولذا قال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يَضربون[1].

فأجرى الله أمره وقدره لتقع هذه المعركة على هذا النحو غير المتوقَع، فتكون فرقاناً بين الحق والباطل، ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾.

فتَجْتَثُّ رؤوسَ أهل الكفر والعناد، وتخفض رؤوس أهل الكيد والتربص.

ولذلك فلا يمكن اتخاذها معياراً بينما هي حدث استثنائي، والدليل على ذلك أن المسلمين في معركة الخندق كانوا بنفس النسبة مع المشركين تماماً، فكانوا في بدر (٣٠٠)، وفي الخندق (٣٠٠٠)، والمشركون في بدر (١٠٠٠) وفي الخندق (١٠,٠٠٠)، فالنسبة هي هي ولكن النبي ﷺ لم يخرج في الأحزاب ولم يواجه، وإنما ادخر المسلمين وتحصن بهم وحازهم إلى مأمنهم.

ولذا فلا يصح اعتبار هذه الحال أصلاً وإغفال كل الدلالات الظاهرة على اعتبار توزان القوة، علماً بأن سورة الأنفال والتي نزلت بعد معركة بدر نزل فيها التخفيف: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ﴾، فلم يُفرَض على المسلمين المواجهة مع كل عدو مهما كان عدده وقوته، ولكن تكون المواجهة مع اعتبار توازن القوة.

٥- ورد أن رسول الله ﷺ لما أقبل إلى المدينة تلقاه المسلمون بالروحاء يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين، فقال سلمة بن سلامة بن وقش -وكان فيه دعابة-: ما الذي تهنئوننا به؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعقلة نحرناها وأتينا، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «**يَا ابْنَ أَخِي لَا تَقُلْ ذَلِكَ، أُولَئِكَ الْـمَلأُ الْأَكْبَرُ مِنْ قُرَيْشٍ، أَمَا لَوْ رَأَيْتُهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ بِمَكَّةَ لَهِبْتَهُمْ**»[2].

(١) «تاريخ الطبري» (٢/ ٤٥٤)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٩١٢٥).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٠١).

أي أن هؤلاء هم الأشراف والرؤساء، وأنهم عتاة قريش وطغاتها وأقواها قوة، وليسوا رعاعاً ولا أوباشاً، ولا ضعافاً مهازيل، وإلا لما كان التغلب عليهم نصراً، ولا هزيمتهم فرقاناً وفتحاً.

وهذا يبين أن أعداء الرسول والرسالة كانوا سادة ذوي مكان ومكانة، ولهم مواهبهم وإمكاناتهم وقدراتهم، فأبو جهل من دهاة العرب في القدرة القيادية، ولديه شخصية مؤثرة يستطيع بها أن يجمع الآراء على رأيه، وعتبة بن ربيعة كان رجلاً محنكاً ذا رأي سديد راشد وسيادة ومكانة.

وأبو البختري بن هشام كان سيداً ذا مروءة ونبل وكرم، ومكانة وشرف، ولذا قال ﷺ عنه: «**مَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامٍ فَلا يَقْتُلْهُ**»[1].

فليس الخلل في مواهبهم وقدراتهم، ولكن في أهوائهم، ولذا وضعوا قدراتهم ومواهبهم في المكان الخاطئ، وسخروها في محادة الله ورسوله.

وهذا من الابتلاء الذي تواجهه دعوات الأنبياء، فيمتحن به إيمان أتباعهم، فإنَّ تجاوزَ سيطرةِ هؤلاء الملأ ونفوذِهم لا يكون إلا من متطلِّب للحق ومُطمئنٍّ القلبِ بالإيمان.

وهكذا نجد فيمن يواجهون الدين ويعادونه على مر العصور أذكياء ونوابغ وأصحاب قدرات ومواهب ثم يسخر كل ذلك في الصد عن الدين ومحاربة أهله، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

٦- بُدئت معركة بدر بدرسٍ أخلاقي، وخُتمت بدرس أخلاقي، وكان النبي الذي بُعث متمِّماً لمكارم الأخلاق يتعاهد تتميمها في ظرف المعركة الاستثنائي.

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٢٩)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ١٤٠).



أما أول هذه الدروس فكان قبل بداية المعركة، ونفوس المسلمين مشحونة بمرارة الظلم الذي لقوه من قريش في مكة، وبالتحفُّز للمواجهة، وإذا النبي ﷺ يعلن الحماية والخفارة لرجل من المشركين جاء بسلاحه من مكة إلى بدر لقتال المسلمين، ومع ذلك يقول النبيُّ ﷺ: «**مَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيِّ بْنَ هِشَامٍ فَلا يَقْتُلْهُ**»[1].

إن النبيَّ ﷺ يلفت إلى أن هذا الرجل له سابقةٌ أخلاقية وتميُّزٌ عن غيره من المشركين في المروءة والنُّبل، فقد كان في مكة من أكفِّ المشركين للأذى عن رسول الله ﷺ، وكان له موقفٌ مشكور في القيام بنقْض الصحيفة الظالمة التي كُتبت لمقاطعة بني هاشم، فذكر له النبيُّ ﷺ هذه السابقة، وأعلن له الحماية، فلا يُقتل، وإن كان مشركاً وجاء مقاتلاً.

وثاني الدروس الأخلاقية في مدرسة بدر، كان بعد نهاية المعركة، عندما قطف المسلمون من ثمار النصر سبعين أسيراً، وكانت نفوس المسلمين لا تزال تستذكر الألم المُمِضَّ لظلم هؤلاء وأذيَّتهم في مكة، واستضعافهم لضعفاء المسلمين، وجراءتهم على النبي ﷺ، ففي القلوب غيظ، وفي النفوس كمد، وإذا النبيُّ ﷺ ينظر إلى هؤلاء الأسرى بين يديه، ثم يقول: «**لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيّاً، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَه**»[2]. لقد أعلن النبيُّ ﷺ أن هؤلاء جميعاً كانوا سينالون حريتهم لو أن المُطْعِم بن عَدِيٍّ قال لرسول الله ﷺ: يا محمد دعهم لي! إذاً لتركهم له النبي ﷺ بالرغم من كل سوابقهم الإجرامية، ولكظم كل نوازع التشفِّي والانتقام منهم، كلُّ ذلك تقديراً لكلمةٍ يقولها المُطْعِم فيهم، أو شفاعة يشفعها لهم.

---

(١) ينظر: «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ١٤٠)، و«الاستيعاب» (٤/ ١٤٥٩)، و«المنتظم» (٣/ ١١١).

(٢) «مسند أحمد» (١٦٧٣٣)، و«صحيح البخاري» (٣١٣٩، ٤٠٢٤)، و«سنن أبي داود» (٢٦٨٩).



بقي أن نتذكر أن المُطْعِم بن عدي عاش ومات مشركاً ولكنه كان صاحب نجدةٍ ومروءة، ومن مروءته جواره للنبي ﷺ لما عاد من الطائف.

وكان يجمع إلى نبله ذلك حكمة وسداد رأي، فقد جمع قريشاً بعد هجرة النبي ﷺ، ثم قال لهم: إنكم قد فعلتم بمحمد ما فعلتم، فكونوا أكفَّ الناس عنه[1].

لقد كان المُطْعِم مشركاً، ولكنه مشركٌ نبيلٌ، فقلَّده النبيُّ ﷺ بكلمته تلك وساماً عظيماً في يوم عظيم[2].

٧- قال رسول الله ﷺ قبل بدء المعركة: «**مَنْ لَقِيَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَا يَقْتُلْهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهاً**»[3].

إن النبي ﷺ بين سبب الكف عنه وهو أنه استكره على الخروج، إنه لم يقل: فلا يقتله فإنه عمي، ولكن ذكر العذر له وهو الاستكراه، وذلك أن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقي بمكة مخالطاً للمشركين، ولكنه كان عيناً عليهم لرسول ﷺ، يراسله بما يكيدون له، ولذا لم يكن له بُدٌّ من الخروج معهم، إذ لو رفض الخروج لاكتشف أمره.

ولما طلب الأنصار من رسول الله ﷺ أن يضعوا عنه فداءه لم يقبل ذلك وأخذ منه فداءه مستوفى، ومن أسباب ذلك؛ ألا تكتشف قريش دوره مع رسول الله ﷺ.

والظاهر من حاله أنه كان مسلماً يكتم إيمانه، ويجاهد مع رسول الله ﷺ بالقيام بالدور الخطير وهو مراقبة حال قريش من داخلهم، وتنبيه المسلمين على كل ما يرصدونه لهم، ولذا أنذرهم بقريش وهي تعد لغزوة أحد ولغزوة الأحزاب، وكان يؤدي دوره في غاية السرية والكتمان.

---

(١) ينظر: «تاريخ الطبري» (١١/ ٥٣٥)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٥٣١)، و«الاستيعاب» (١/ ٢٣٣)، و«البداية والنهاية» (٥/ ١٢٨)، و«الإصابة» (٥/ ٧٧٠)، و«فتح الباري» (٦/ ٢٤٣)، (٧/ ٣٢٤).

(٢) ينظر: كتاب «قصص نبوية» للمؤلف (ص: ٦٩).

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٢٩)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ١٤٠).



وهذا يبين كيف كان النبي ﷺ يستوفى إعداد العُدة وتدبير المواجهة، ومن أهم ذلك كشف مخططات الأعداء ومكائدهم وهي في طور التدبير والتخطيط، فيستعد لها، ولا يفاجأُ بها، وهذه مهارة في القيادة وإدارة المواجهة مع الأعداء، واستيفاء الأخذ بالأسباب.

وإذا كان رسول الله ﷺ الذي يأتيه الوحي من السماء له عيونه الخفية بين أعدائه، ورجال استخباراته واحتياطاته البالغة في تدبيره، فكيف بمن يتقحم المواجهة مع العدو قبل أن يستوفى إعداده ولا يستكمل عدته بحجة أنه موعود بالنصر مادام على الحق؟!

إن الجهاد إعداد واستعداد، وليس مغامرة غير محسوبة العواقب.



البقيع



يقع البقيع شرقي المسجد النبوي ويسمى بقيع الغرقد لكثرة شجر الغرقد فيه، وفيه مقابر الصحابة ومَن بعدهم من أهل المدينة، وكانت الجنائز يصلى عليها خارج المسجد في مصلى الجنائز شرق المسجد غير بعيد عنه، ثم تحمل إلى البقيع.



صورة حديثة لمقبرة البقيع

وأول من دفن به من الأنصار أسعد بن زرارة الأنصاري، ومن المهاجرين عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أول من مات بالمدينة من المهاجرين[1] فقالوا: يا رسول الله أين ندفنه؟، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**ادْفِنُوا عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ بِالْبَقِيعِ؛ يَكُنْ لَنَا سَلَفاً، فَنِعْمَ**

---

(١) ينظر: «بقيع الغرقد» د. محمد أنور البكري وحاتم عمر طه (ص:٥٢).

السَّلَفُ سَلَفُنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ»[(١)]، قال قدامة بن موسى: كان البقيع غرقداً، فلما هلك عثمان بن مظعون دفن بالبقيع وقطع الغرقد عنه[(٢)].

وعن المطلب بن حنطب قال: لَمَّا مَاتَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، أُخْرِجَ بِجَنَازَتِهِ فَدُفِنَ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً أَنْ يَأْتِيَهُ بِحَجَرٍ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ حَمْلَهُ، فَقَامَ إِلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ، وَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ، ثُمَّ حَمَلَهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَأْسِهِ، وَقَالَ: «**أَتَعَلَّمُ بِهَا قَبْرَ أَخِي، وَأَدْفِنُ إِلَيْهِ مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِي**»[(٣)].

وكان ﷺ يشهد الجنائز فيصلي عليها ويتبعها ويحضر دفنها، وقد تصل الجنازة إلى البقيع ولم يكتمل حفر القبر فيجلس النبي ﷺ وأصحابه حوله فيحدثهم بما يناسب الحال: قال البراء بن عازب: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رؤوسنا الطَّيْرُ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» -مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثاً- ثم قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، نَزَلَتْ عَلَيْهِ الْـمَلَائِكَةُ...**» فذكر الحديث في احتضار المؤمن والكافر وفتنته في القبر[(٤)].

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الغَرْقَدِ، فَأَتَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا قَدْ كُتِبَ شَقِيَّةً أَوْ**

---

(١) «تاريخ المدينة» لابن شبة (١/ ٩٩).

(٢) «تاريخ المدينة» لابن شبة (١/ ١٠٠).

(٣) «سنن أبي داود» (٣٢٠٦).

(٤) «مسند أحمد» (١٨٥٣٤)، و«سنن أبي داود» (٤٧٥٣).

سَعِيدَةً» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ؟ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: «**أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ الشَّقَاوَةِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾[1].

ثم توالى دفن الصحابة فيه وممن دفن فيه في حياة النبي ﷺ بناته رقية، وأم كلثوم، وزينب، وابنه إبراهيم.

وكان هؤلاء الأصحاب الكرام الذين توفوا في حياة النبي ﷺ هم الذين عاشوا معه حال الشدة والعسر، وأعطوا جهدهم وجهادهم، وثبتوا وصبروا ثم ترحلوا ولم يتعجلوا من أجرهم شيئاً، ولذلك بقوا في وجدان رسول الله ﷺ يتذكرهم ويزورهم ويدعو لهم، وكم دفت خطواته في حلكة الظلام ليقف بين قبورهم في هدوء الليل وسكون المدينة فيسلم عليهم ويدعو لهم ويتذكر قرب اللحاق بهم، وهذا الوفاء النبوي منه ﷺ لمن تقدمه من أصحابه، فيتعاهدهم بزيارة قبورهم حتى قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ كلما كانت ليلتي منه يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَداً مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ**»[2].

ولعل ذلك كان في آخر حياته بعد فتح مكة فكان ﷺ يخرج إليهم بعد صلاة التهجد فيسلم عليهم ويدعو لهم، وانظر إلى قولها: «كلما كانت ليلتي منه»، فهي لا تصف أمراً طارئاً، ولكنْ وظيفة راتبة متكررة.

وربما ذهب إليهم في أول الليل كما في حديث عائشة قالت: لما كَانَتْ لَيْلَتِي الَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا عِنْدِي، انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ، وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ، فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ،

(١) «صحيح البخاري» (١٣٦٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٩٧٤).

وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلَى فِرَاشِهِ، فَاضْطَجَعَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا رَيْثَمَا ظَنَّ أَنْ قَدْ رَقَدْتُ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْداً، وَانْتَعَلَ رُوَيْداً، وَفَتَحَ الْبَابَ فَخَرَجَ، ثُمَّ أَجَافَهُ رُوَيْداً، فَجَعَلْتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي، وَاخْتَمَرْتُ، وَتَقَنَّعْتُ إِزَارِي، ثُمَّ انْطَلَقْتُ عَلَى إِثْرِهِ، حَتَّى جَاءَ الْبَقِيعَ فَقَامَ، فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ، فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ، فَهَرْوَلَ فَهَرْوَلْتُ، فَأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ[1]، فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلْتُ، فَلَيْسَ إِلاَّ أَنِ اضْطَجَعْتُ فَدَخَلَ، فَقَالَ: «**مَا لَكِ يَا عَائِشُ، حَشْيَا رَابِيَةً؟**[2]»، قُلْتُ: لاَ شَيْءَ، قَالَ: «**لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «**فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، فَلَهَدَنِي[3] فِي صَدْرِي لَهْدَةً أَوْجَعَتْنِي، ثُمَّ قَالَ: «**أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟**»، قُلْتُ: مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ، نَعَمْ، قَالَ: «**فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي، فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ، فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ**»، قُلْتُ: كَيْفَ أَقُولُ لَهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**قُولِي: السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ**»[4].

وعن أبي هريرة قال: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى الْـمَقْبُرَةَ، فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**»، قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**» فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ**

---

(١) الإِحْضَارُ: الْعَدْوُ. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٧/ ٤٣).

(٢) «حَشْيَاءَ رَابِيَةً»: أَيْ مَا لَكَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكَ الْحَشَا؟ وَهُوَ الرَّبْوُ وَالنَّهِيجُ الَّذِي يَعْرِضُ لِلْمُسْرِعِ فِي مَشْيِهِ، وَالْمُحْتَدِّ فِي كَلَامِهِ مِنِ ارْتِفَاعِ النَّفَسِ وَتَوَاتُرِهِ. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٩٢).

(٣) لهدني: دفعني. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٧/ ٤٤).

(٤) «صحيح مسلم» (٩٧٤).



مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: **«فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الحَوْضِ أَلا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقاً سُحْقاً»**[(١)].

وقد استمر الدفن بالبقيع منذ زمن النبي ﷺ إلى يومنا هذا ودفن فيه أمهات المؤمنين جميعاً إلا خديجة وميمونة، وبنات النبي كلهن، ومن العشرة المبشرين: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، ويقال دفن فيه ما يقرب من عشرة آلاف صحابي وصحابية، وأحسب أن العدد أقل من ذلك فقد استشهد كثير من الصحابة في حروب الردة وفي فتوح البلدان، وانتشروا في بلاد الإسلام في القارات الثلاث: آسيا، وأوروبا، وأفريقيا، فيبعد أن يكون كل هذا العدد بقي في المدينة[(٢)].

ثم تتابع دفن الأولياء والعلماء والعبّاد والزهّاد والمجاورين في البقيع جيلاً إثر جيل إلى يوم الناس هذا، وكان قد طرأ على قبور البقيع في الأزمنة المتأخرة وضع شواهد وقباب وبناءات كثيرة، ثم يسر الله إزالتها، وأعيدت القبور إلى حالها الأولى، سويةً ليس عليها بناء مشيد، ولا فيها قبر مشرف، عملا بوصاة النبي ﷺ التي بعث عليها علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **«لَا تَدَعِ قَبْراً مُشْرِفاً إِلَّا سَوَّيْتَهُ»**[(٣)]، فسويت القبور كما كانت في زمن النبي ﷺ وأعيدت على هديه وسنته.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٩).

(٢) ينظر: كتاب «عنوان النجابة في معرفة من مات بالمدينة المنورة من الصحابة»، لمصطفى العلوي الرافعي، ومجموع من ذكر أسماءهم لا يتجاوز (٢٣٠) صحابي.

(٣) «صحيح مسلم» (٩٦٩).

وقد أزيل ما بين البقيع والمسجد من الأبنية وصار قريباً بارزاً، ولذا فإن الجنائز تحمل من المسجد إلى البقيع على الأعناق لقرب المسافة، وكأنما عاد البقيع إلى حاله في عهد النبي ﷺ حين كان الواقف فيه يرى بيوت النبي ﷺ حول مسجده لا يحجبه عنها شيء[1].



صورة قديمة لمقبرة البقيع، وفيها القباب والشواهد المشرفة



موقع مقبرة البقيع

(١) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (٢٢٨)، و«تحقيق النصرة» (١٢٣)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ٧٧)، و«تاريخ معالم المدينة» (٢٤٧)، و«آثار المدينة» (١٧٥)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٦٥)، و«طيبة المدينة النبوية» (١٩٥)، وكتاب «بقيع الغرقد» د. محمد أنور البكري وحاتم عمر طه.



حِصن كَعب بن الأشرف





صورة جوية لحصن كعب بن الأشرف

كان هذا الحصن وِعاءً لحدثٍ ضخمٍ يكشف لنا يَقظة القيادة النبوية، وكيف أن كَرم الخُلق وسماحة النفس لا يعنيان ترك أفاعي الأعداء تتسرَّب إلى المجتمع المسلم وتَنفُث سُمومَها، فَلِكُلٍّ تعاملٌ يليق به.

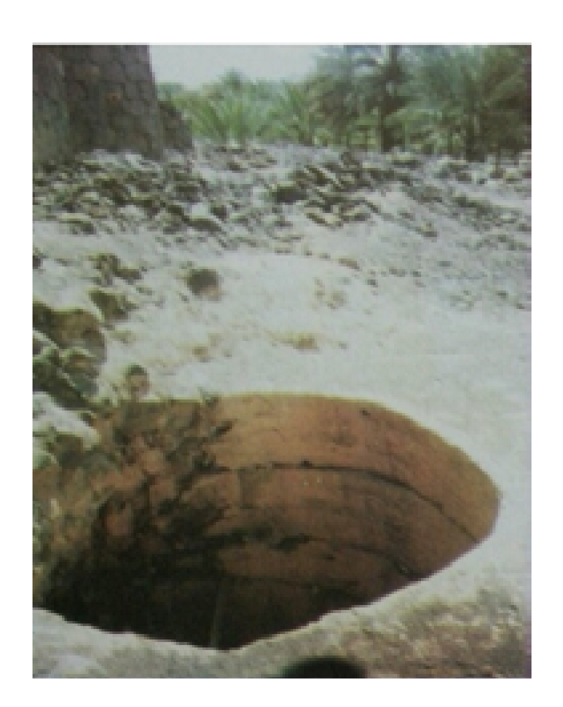
أما مكان الحصن: ففي عُمق ديار بني النضير من اليهود في أقصى نقطة جهة الجنوب من ديارهم، على مكانٍ مرتفعٍ من الأرض.

وقراءة تضاريس المكان، والتجوُّل داخل جدران الحصن، هي تفسيرٌ مَرئي لقوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾، وعندما ننظر إلى تلك الجُدر نعجب لضخامتها فعرض الجِدار قُرابة المتر.

تكشف لنا هذه التحصينات دخيلة النفس اليهودية وما فيها من ذُعرٍ وجُبن، بحيث إنها لا تشعر بالأمان إلا داخل مثل هذه الحصون.

فإذا تجوَّلنا داخله، فسنرى قوة تلك التحصينات في ضخامة الجُدر ووفرة الإعدادات، فتجد خوخةً بين الحُجرات كأنها مَسارِبُ خفيَّة، يمكن أن ينتقل فيها التموين بمرونةٍ أثناء الحصار، كما أن هناك بئراً داخل الحصن تمونه بالماء.

وهي ظاهرة في الصورة المرفقة للحصن:



صورة لبئر حصن كعب بن الأشرف

وهذه التحصينات موجودةٌ عند اليهود قبل أن يأتي النبي ﷺ فهذا الحِصن عُمرهُ قُرابة (١٥) قرناً من الزمان! فهو حِصنٌ جَاهليّ، ومع ذلك يشعرك أن اليهود كانوا في حال تَحفُّز وتهيُّؤ لمواجهة قادمة؛ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾.

أما صاحب الحصن كَعب بن الأشرف، فلم يكن أَشْرف ولا شريفاً، وهو عربي الأرومة، فأبوه من قبيلة طيء أصاب دَماً في قومِهِ، فأتى إلى بني النضير وحالفهم وشَرُف فيهم[1]، فتزوَّج منهم، فجاء ابنه كعب عربي الأب يهودي الأم، فجمع جرأة العرب، ومكر اليهود.

وهو يهودي الديانة؛ لأن اليهودية تتبع ديانة الأم، ولذلك لَحِق باليهود من جِهة أمِّهِ، فصار يهودياً نَضيرياً من بني النضير.

وكان كعب سيداً في قومِهِ بني النضير، كما يتَّضح من هذا المكان الثراء الذي كان يتمتع به كَعب، فهذه النخيل التي تظهر حول الحصن تَابعةٌ له، وكذلك البيوت المُلحقة بالحصن، وهذه الرِّباع والأموال كلُّها له!

وكانت شخصيتهُ وهيئته شخصية زعيم، وُصفت لنا هيئته: فإذا هو رجلٌ طويلٌ جَسيمٌ جَميلٌ، لكنَّ في داخلهِ نَفساً خَبيثة، ظهر هذا الخبث عندما قَدِم النبيَّ ﷺ إلى المدينة، وكان هو وغيرهُ من اليهود في حال ترقُّبٍ وانتظار لا يدرون ما سينتهي عليه أمر هذا النبيِّ فربما يغلبه قومه، وربما يختلف مع الأنصار الذين آووهُ، فلم يظهروا عداوة سافرة، بل اشتركوا مع غيرهم من اليهود في اتفاقية صحيفة المدينة، والتي تنص على الدفاع المشترك عن المدينة، وأنهم جميعاً ضد أي عدوان تتعرض له.

فلمَّا انتصر النبي ﷺ في بدر وفُرِقَ بين الحقِّ والباطل يوم الفرقان شعر كعب -وغيره من اليهود- أنهم الآن أمام مواجهةٍ حقيقية، وأمام نبيٍّ يعلو شأنه، ويتوجه أمره، فعندها كاشفَ كعبُ بن الأشرف بالعداوة، وأول مظهرٍ من مظاهر عداوته أنه جعل يَرثِي قتلى بَدر من المشركين.

(١) «أنساب الأشراف» للبلاذري (١/ ٢٨٤).

ولم يكتفِ كعب برثاء قتلى بَدر من قريش، وإنما شَدَّ رِحالهُ مُتوجِّهاً إلى مكة، فأتى إلى قُريش المكلُومة بعد بَدر؛ ليزيد حرارة الثأر في نفوسهم، وجعل يَعدهُم ويُمنِّيهم، ويُحرِّضهم على أخذ الثأر من مُحمد ﷺ.

ولما التقى برجالات قريش، قال له أبو سفيان: ديننُا خيرٌ أم دينُ مُحمد؟! وأنتم أهل كتابٍ وعلم! فمَن هو على الحق نحن أم محمد؟!، قال: بل دينكم أحقُّ!. وفي مِثله من اليهود أنزل الله تعالى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ وحرَّض قريشاً على الأخذ بالثأر، وقِتال النبيِّ ﷺ، ووعَدهم وواعدَهم على النصر إن جاؤوا المدينة يُقاتلون مُحمداً ﷺ.

فتمَّ هذا العهد بين كعب بن الأشرف وبين قُريش وهم مُتعلِّقون بأستار الكعبة، زيادةً في توثيق المُعاهدة.

ثم عاد إلى المدينة بوجهٍ كَالِح مُسفِر بالعداوة، كأنما يُعرِّض للنبي ﷺ بنقض العهد؛ لأنه شعر أنه تَقوَّى بقريش التي ينتظر قُدومَها لأخذ الثأر من النبيِّ ﷺ.

إن كَعباً لم يكتفِ بالتخابر مع العدو، وإنما انتقل إلى مرحلةٍ أخرى، وهي التَّآمر معه، وإذا كان التخابر مع العدو جريمةً يعاقب عليها بالإعدام، فكيف بالتآمر والتحالف معه وإغرائه واستدراجه؟! إنها جرائم مُضاعفة، وكعب قد أعلنها، ولم يستتر بها؛ لأنه أراد أن يُسفر بالعداوة.

وأنا أتعجَّب عندما يذهب كَعب إلى قُريش، وهي المفجُوعة بعد هزيمتها في بَدر، فقلوبهم مَليئةٌ بالحَنق والغَيظ على رسول الله ﷺ، مما يدل على أن غيظه أكبر من غيظهم، وعدواته أشد من عداوتهم.

ثم عندما عاد من مكَّة استعلن بعداوته، وجعل يهجو المسلمين والمسلمات.

وكان من وسائله في استفزاز المسلمين أنه نظم القصائد التي يستثير فيها النَّعرة العربية، وهي التشهير بنساء المسلمين! خاصَّةً قَرابة النبيِّ ﷺ، كأم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب، وصَفيَّة عَمَّة النبيِّ ﷺ وغيرهنَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ، وهي مناوشةٌ استفزازية، وهذا التَّصرف من زعيم من زعماء بني النضير، يُعتبر نقضاً للعهد من بني النضير كلِّهم؛ لأنه لم يُنقل إلينا أنهم أخذوا على يديهِ، ولا أنكروا عليه، لكن النبيَّ ﷺ لم يكن يُحبُّ توسيع المواجهة، ولا تعميم العداوة، وإنما حصر المواجهة مع هذا الشخص الذي أعلن العداوة بوضوح.

ورأى ﷺ أنه لا يمكن أن تُترك هذه الأفعى تنفُث سُمومَها هنا وهناك، وأنَّ هذه العداوة مُنذرةٌ بِشَرٍّ سيتفاقم إذا لم يقض عليها في مَهدها، لذلك عَرَض النبيُّ ﷺ على أصحابهِ قائلاً: «**مَنْ لِكَعْبِ بنِ الأَشْرَفِ؟ فإنَّه قَدْ آذَى اللهَ ورَسُوْلَهُ**».

فنفر لذلك رهطٌ من الأوس وكانوا على صِلةٍ وقُربَى مع كعب بن الأشرف، ومنهم مُحمد بن مَسلمة، وكان كعب بن الأشرف خَاله، وأبو نائلة، وكان صديقاً لكعب في الجاهلية وأخاه من الرضاعة؛ لأن هؤلاء هم الجهة المأمونة لكعب، وقد قيل: من مأمنه يؤتى الحذِر.

فقال محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ: يا رسول الله! أتُحبُّ أن أقتلهُ؟، قال ﷺ: «نَعَمْ»، فقال: ائذن لي أن أقول فيك قولاً، أي: أن أتكلم عنك بكلام ظاهره غير مرضي؛ ولكنه من باب المكيدة؛ لأنَّ هذا اليهودي صاحب مكائد، ولذلك سَيُعامَل بنفس الأسلوب، ولأنه صاحب مكر، فليُمكر به، وليُعامل بحسب الاستراتيجية التي يَعملها؛ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.



فقال له ﷺ: «قُلْ مَا شِئْتَ»؛ فكوَّن محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الفريق، وأعدَّ الخُطَّة، ومَشى ﷺ مع هذه الكتيبة التي كانت مُكوَّنة من خمسة أفراد، وهم: محمد ابن مسلمة، وأبو نائلة، وعباد بن بشر بن وقش، والحارث بن أوس، وأبو عبس بن جبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فانطلقوا من المدينة النبوية مُتوجِّهين إلى هذا الحصن الذي كان يَبعُد عن المسجد النبوي قُرابة (٦كم)، وخرج النبي ﷺ يُشيِّعُهم إلى بَقيع الغَرقد، ويدعو لهم: «انْطَلِقُوا عَلَى اسْمِ اللهِ»[(١)].

أمَّا ما هي خُطَّة هذا الفريق، وكيف وصلوا إليه؟

فهذا خبرٌ عجيب يُبين لنا أنَّ الكيد لابد أن يُقابل بالكيد، ولكن بكيدٍ أبرع منه، ويُقابل المكرُ بمكرٍ، ولكن بمكرٍ أذكى منه، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

رضي الله عن هؤلاء الرَّهط الذين أتوا يَتوغلون في ديار يهود، وأرواحهم على أكُفِّهم يُخاطِرون بها ويُغامِرون، إن الثمن كان هو رِضَا الله ورضا رسوله ﷺ وهو ثمنٌ غالٍ يرخص كلّ ما يقدم في سبيله[(٢)].



موقع حصن كعب بن الأشرف

---

(١) «مسند أحمد» (٢٣٩١)، و«صحيح البخاري» (٢٥١٠)، و«صحيح مسلم» (١٨٠١).

(٢) ينظر في ذلك: «المدينة بين الماضي والحاضر» (٢٩)، و«آثار المدينة» (٦٥)، و«طيبة المدينة النبوية» (٣٦٠).

مقتل كعب بن الأشرف اليهودي



جاءت هذه العُصبة إلى كعب بن الأشرف، وهو السَّيد في قومه الغنيُّ في ماله، أتوا إليه وهم يَتصنَّعُون علامات الضَّجر، فقال له محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أبا سعيد! إنَّ هذا الرجل -أي: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- قد عَنَّانا[1]، ورمتنا العرب عن قوسٍ واحدة أي: حاربتنا العرب كلها، قال: إيه! والله لَتمُلُّنه، قالوا: وقد طلب منا صدقة، فقال: أيضاً، والله لتمُلُّنه!، فقال مُحمد بن مَسلَمة: نريد أن ننتظر لنرى ما يكون من أمرنا وأمره، ولقد أتينا لتقرضنا وَسْقاً أو وَسْقين[2]، فقال لهم: وأين طعامكم؟ قالوا: استنفد طعامنا هو وأصحابه! فلم يعد عندنا من طعام، فقال لهم: وأنا ليس عندي إلا التمر، إن شئتم أقرضتكم التمر، قالوا: نعم، فقال: تَرهنوني نساءكم، فقالوا: كيف نَرهَنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟! وكانوا بهذا يستثيرون غروره، فقال: إذن تَرهَنوني أبناءكم، فقالوا: كيف ذاك، وإذا كَبُر الواحد منهم قال له الناس: أنت لا تساوي وَسقاً من طعام؛ لأنَّ أباك رَهنك بمقدار ذلك؟! فتصبح عاراً عليهم يعيرون به، ولكن نرهنك السلاح، وفي هذا ذكاءٌ منهم؛ لأنه لو قَبِل بِرهْن السلاح لن يستغرب إنْ هم جاؤوه مُسلحين، فابتلع الطعم وقال: نعم[3].

---

(١) مِنَ الْعَنَاءِ وَهُوَ التَّعَبُ. ينظر: «فتح الباري» (٧/ ٣٣٨).

(٢) الوسق ستون صاعاً.

(٣) «صحيح البخاري» (٤٠٣٧)، و«صحيح مسلم» (١٨٠١).



صورة لبقايا جُدران الحصن، ونلاحظ ضخامة تلك التحصينات

فتواعدوا أن يأتوه بالسلاح رَهناً، حتى يُعطيهم وَسقَين من تمر، ثم جاؤوا إليه في الليل واختاروا المجيء ليلاً؛ ليسهل انسحابهم قبل أن يشعر بهم قومه، وكانت ليلةً قَمراء في الخامس عشر من شهر ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة، وكان مُحمد ابن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُخبرهم بالحِيلة التي سوف يستخدمونها معه، فقال: سَأشمُّ رأسه، فإذا أمسكتُ رأسه واستمكنتُ منه، فدُونكم فاضربوه، فلمَّا وَقفوا بفناء الحصن أخذوا يُنادونه، فناداه أخوه من الرضاعة: أبو نَائِلة: يا كعب انزل إلينا، وكان كعب حَديث عَهد بعُرس، فلما قام التَحف بمِلحَفته، ونزل إليهم متوشحاً سيفه يَفُوح مِنه العطر، وكان يزيد من العطر على شَعره الطويل حتى يَسيل العِطر على وَجهه، فأرادوا إبعاده عن الحصن، فقالوا له: ما رأيك أن نَتماشى في هذا الشِّعب؟ وهو شِعب يسمى «**شعب العَجُوز**»، يسيل في وَادي بُطحَان، قريباً من حصنه.

فاستدرجوه ومَشى معهم، فأدخل مُحمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يده في رأسه يَشُمُّها، وقال: ما رأيت عِطراً مثل هذا! بأيِّ عِطرٍ تتعطَّر يا كَعب؟، وأخذ يُدخِل يده في فَروَة رأسه وكان غَزير الشعر، فازداد غروره، وقال: وكيف لا وعندي أعطر نساء العرب؟،

فقال له مُحمد: دَعني أشمُّه، فأمسك مُحمد برأسه، ثم تركه ليُبالِغ في إيناسه! فلمَّا أبعدوا قليلاً عن الحِصن قال له: دعني أشمه، فأدنى إليه رأسه، فأمسكه بِكلتَا يديه، فلمَّا استمكن منه قال: دُونكم دُونكم، فأخرجوا سيوفهم وضربوه بها جميعاً، فاختلفت تلك السيوف وركب بعضها بعضاً، ولم تصنع به شيئاً، وأُصيب الحَارث بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بضَربة من أحد السيوف، قال مُحمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وتذكَّرتُ مغولاً[1] كان معي، فأخرجتهُ فضربتُ به في بطنه إلى أسفلها، فصاح صيحة مرعبة دوّت في سكون الليل، ففزع لها اليهود، وأشعلت النار على حصونهم لمعرفة سبب هذه الصيحة.

فألقوه صريعاً في الشعب، ثم رجعوا مسرعين، وسلكوا طريقاً يتجاوز دُورَ اليهود، فلا يمر بها؛ ولكن يحاذيها، وهذا الطريق الذي أخذه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ينتهي إلى منطقةٍ تُسمَّى «**أُمية بن زَيد**» ثم توجَّهوا إلى ناحية الشرق، وهذه الطريق مُحاذيةٌ لديار بني قريظة، فلم يدخلوا منازلهم، ثم توجَّهوا إلى منطقةٍ تسمَّى «**بُعَاث**»، وهي اليوم تُسمَّى «**المبعُوث**» ثم إلى حَرَّة العُريض، ثم إلى مسجد الإجابة «**مسجد بني معاوية**»، ومنه إلى بَقيع الغرقد، حتى انتهوا إلى المسجد النبوي.

وهذا الطريق الوَعِر الذي أخذوه، قد أطال بهم طريق الرُّجوع، بحيث إنَّ مسافة الرُّجوع كانت قُرابة (١٠كم) في حين أن مسافة الذَّهاب كانت (٦ كم) بالإضافة إلى أنه كان معهم جَريح، وهو الحارث بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد انقطع بهم في الطريق، فرجعوا إليه وحملوه إلى أن وصلوا إلى البقيع، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُصلي ويدعو لهم.

فلمَّا وصلوا البقيع جعلوا يَرفعون أصواتهم بالتكبير؛ تعجيلاً بالبشرى لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فتلقَّاهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهو يقول: «**أَفْلَحَت الْوُجُوهُ**»[2]، تلك الوُجوه التي ضَحَّت بأحلاف الجاهلية، فكان الإسلام عندهم أعلى وأغلى من هذه العلاقات وهذه

---

(١) المغول: خِنجَر صغير. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٧٩).

(٢) «مستدرك الحاكم» (٥٨٤٠).

القَرابات، فلمَّا أتوا النبيَّ ﷺ والحارث معهم جَريح بصق النبيُّ ﷺ من رِيقته الشريفة على جُرحه، فالتأم من ساعته! فقام الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمشي صَحيحاً لا يشكو شيئاً وعاد هؤلاء الخمسة، وهم يُنشدون:

وكــانَ الـلـهُ سَـادِسُـنـا فَـأُبْـنَـا ... بـأنـعَـمِ نِـعـمـةٍ وأعَـــزِّ نَـصـرِ

وَجَـــاءَ بِـــرَأْسِـــهِ نَـفَـرٌ كِـــرَامٌ ... هُـمُ نَاهِيكَ مِـنْ صِـدْقٍ وَبِـرِّ[1]

فقد قَدَّموا مُراد رسول الله ﷺ على كل العلاقات والصِّلات التي كانت قائمة في الجاهلية، فتكوَّنت بينهم وبين النبيِّ ﷺ علاقةٌ أخرى؛ إنها العلاقة الواصلة بالسماء!

واستيقظ اليَهود على هذه الفجيعة، وهي مَقتل سَيدهم في شِعب العَجُوز، فدبَّ فيهم الرُعب وشَعَروا أن النبي ﷺ لا يُمكن أن يتجاهل مثل هذه المؤامرات، أو يتعامل معها بسذاجة، ولكنه الكريم اليَقظ، ولذلك أتوا النبيَّ ﷺ وهم في حال ذُعر وقالوا: يا مُحمد؛ إن سَيِّدنا قد قُتل غِيلة، فَذَكَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَا كَانَ يَهْجُوهُ فِي أَشْعَارِهِ وَيُؤْذِيهِ، وكأنه ﷺ يقول: إن هذا هو جَزاء كل مَن يفعل مثلما فعل، فلمَّا رأوا تلك القُوة في مَوقف النبيِّ ﷺ ألانوا القول وجددوا عرض السِّلْم، فعَرض عليهم النبيُّ ﷺ أن يُجدِّد العَهد معهم، وكأنه يقول لهم: دعونا نفتح صفحةً جديدة، فَقَبِلوا بتجديد العَهد وكُتب العهد تحت نَخلةٍ في دار رملة بنت الحارث من بني النَّجار[2]، وأطفئت بمقتل كعب فتنة كادت أن تحرق المدينة، وتجر إليها فتناً لا ينطفئ شررها، ولا يتناهى ضررها، وليس أخطر على الجماعة أن يكيد لها من هو فيها أو قريبٌ إليها.

---

(١) «مستدرك الحاكم» (٣/ ٤٣٤-٤٣٥).

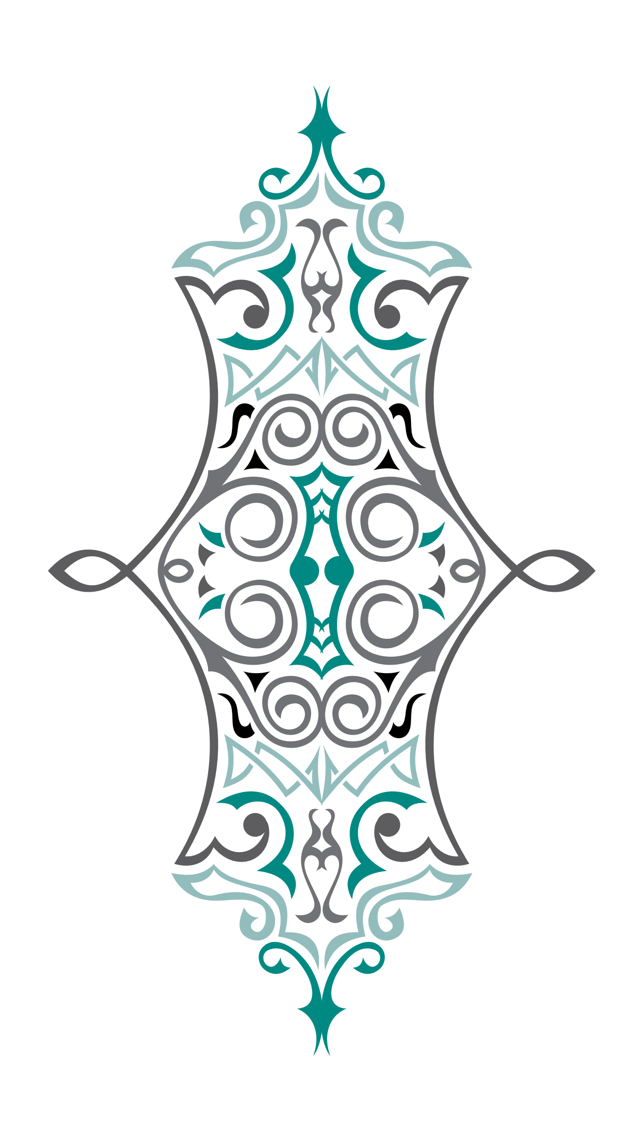
(٢) «مسند أحمد» (٣٩/ ٥٠٥)، و«سنن أبي داود» (٣٠٠٠)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٨٦٢٨)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٥٤). وينظر: «مغازي الواقدي» (١/ ١٩٢)، و«تاريخ المدينة» (٢/ ٤٥٩-٤٦٠).

وحتى تتضح أهمية المبادرة إلى هذه الخطوة، دعونا نتساءل: ماذا لو جاءت مَعركة أُحد، وكان كَعب بن الأشرف مَوجُوداً بمَكره وكَيده وشدة عَداوته كيف ستكون الحال؟

لا نحسب إلا أن المسلمين سَيعيشون كَرباً كالكرب الذي عاشوه عندما غَدر بهم بنو قريظة في غزوة الأحزاب، فأتاهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم والمتوقع أنه لو كان حيّاً، لقام بتأليب بني النضير وبني قريظة، وإغرائهم بنقض عهدهم مع النبيِّ ﷺ، والانضمام إلى جيش المشركين كما وعدهم، لكن يقظة النبي ﷺ وحُسن قيادته ومبادرته العازمة الحاسمة، جعلته يَدفِن تلك العداوات، وهي في مَهدِها ويطفئ تلك النار قبل أن يتطاير شررها، ويتسعر لهبها[1].



(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (١/ ٢١٦).



غزوة أُحد



سميت غزوة أحد بذلك لأنها وقعت عند جبل أُحد شمال المدينة، وكان الجبل وآكامه وشعابه مشاهد وشواهد على أحداث هذه الغزوة، ففي سفحه كان ميدانها، وعلى أكمة الرماة كانت حمايتها، وفي شعبه كان حصنها وقلعتها.

وعند زيارة أُحُد وما حوله تتحدث شواهد المكان عما جرى فيها، وتقرأ على سهول أرضه وصخور جباله ما أنزل الله عنها، حتى كأنما يحضر الماضي، ويتمثل التاريخ، وتُحدِّث الأرض أخبارها.

وسبب هذه الغزوة أن قريشاً رجعوا من معركة بدر موتورين بمقتل زعمائهم وأكابرهم، ولذا تعاقدوا على أخذ الثأر لمن قُتل منهم، وكان أكثرهم سعياً في ذلك هم أقارب هؤلاء القتلى، كعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب وامرأته هند بنت عتبة بن ربيعة، وجبير بن مطعم، وغيرهم.

وقد استعدوا لهذه المعركة غاية الاستعداد، وأخذوا أهبتهم، فهم الذين سيحددون ساعة المعركة بعد أن يكملوا استعدادهم ويستكملوا عتادهم، ولم يكن ذهابهم إلى أحد كذهابهم لبدر، والذي كان على عجل لإنقاذ القافلة لمَّا جاءهم خبر اعتراضها، ولذا جمعوا لمعركتهم هذه من الأموال والرجال أضعاف ما جمعوا لبدر.

وقد جعلت قريش قافلة أبي سفيان التي نجتْ من المسلمين وما فيها من أموال -وكانت ألف بعير وخمسين ألف دينار- جهازاً لهذه المعركة.

وجمعت من رجالها وأحلافها ثلاثة آلاف مقاتل[1]؛ فلما ساروا إلى المدينة أرسل العباس بن عبد المطلب رسالة عاجلة إلى رسول الله ﷺ، يخبره فيها بنفير قريش وعديدهم وعتادهم، وأرسلها مع رجل من قبيلة غفار، وشرط عليه أن يوصلها في ثلاثة أيام؛ ففعل، وبلغت الرسالة رسول الله ﷺ وقريش في الطريق[2]، فتهيأ رسول الله ﷺ لذلك، وكان لكل مكان في أُحد وفي طريقه إليه حدثه وحديثه.

فمع غزوة أُحد وأماكن أحداثها..



(١) «سيرة ابن هشام» (٣/ ٦٨)، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ٢٦٧).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ٢٦٨).



مسجد الدرع (١)





مسجد الشيخين أو البدائع أو الدرع

«**أجَمة الشيخين**» أو «**البَدائع**» أو «**الدِّرع**» كلُّها مُسمياتٌ لهذا المكان، الذي كان يَومها فضاءً فَسيحاً رَحباً ويسمى: «**الشَّيخين**»، نِسبةً إلى شيخين من اليهود، كانا يَسمُران في هذا المكان في الجاهلية.

وهو المكان الذي نزل عنده رسول الله ﷺ وهو متوجه إلى معركة أحد، وكان ذلك عصر يوم الجمعة، ومعه الجيش الذي سيسير به إلى أُحد.

بعد أن تحرك من مسجده ﷺ في المدينة، حيث بدأت المُشاورات في أمر مُلاقاة المشركين، وكان رأي النبيِّ ﷺ الذي أشار به على أصحابهِ: أن يبقى المسلمون في المدينة، فإذا دخلها المشركون تم قتالهم، وكان هذا رأي عبد الله بن أبي ابن سلول أيضاً!

وكانت هذه فكرةٌ نبويةٌ راشدةٌ مُباركة؛ لأنّ قريشاً ليسوا أهل ريف، وإنما تَعوَّدُوا أن يعيشوا في الشِّعاب بين الجِبال والأودية ولم يَتعوّدُوا الريف، فإذا دخلوا المدينة بأزِقَّتِها ونَخيلها وحِرَارِها، فسوف تمتَص كثافتهم البشرية، فيتشتت جيشهم بين السِّكك والمزارع التي لا يُحسنون التَّصرف فيها وسينقطع التواصل بينهم، فلا يمكنهم تنفيذ خطة سابقة، ولا إعداد خطة جديدة.

وأهل المدينة يَعرفون سِككها ومَزارعها ونخيلها، وسيُصبِحون كلُّهم جيشاً الرِّجال والنِّساء والصِّغار والكبار وسيصبح جيش قُريش في مَتاهة، وبذلك يتحقَّق الانتصار عليهم.

وكان ﷺ رَبَّى أصحابه على الاستقلالية، وإبداء الرأي، وإعلان المشُورة، وهذه التربية النبوية جَرَّأت الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على إبداء رأيهم، فقالوا: يا رسول الله، بل نخرج إليهم نُنَاجزهم فلا يدخلون علينا فيها[١].

وكانت تُحرِّكُهم في ذلك أشواقهم للجهاد، وكأن تلك الأشواق لا يستوعبها قِتال المدن، بل تريد الفضاء الذي يسمح بإظهار البطولات وبالكرِّ والفرِّ والاستبسال، وكان هذا رأي شباب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وبخاصة الذين فاتتهم معركة بدر، فلم يشهدوها.

ويستوعب النبيُّ الكريم ﷺ هذه الآراء ويحتويها، فالمشورة تجعل الجميع شُركاء في القرار، وتُشعر الجميع بتحمُّل المسؤولية، ولذلك لا نجد في القرارات النبوية أيَّ تَلاوُمٍ بعدها ولا نجد أحداً يقول: أنا كنت قلت كذا، وأنا كنت أرى كذا، فقد

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٣٢٨١).



تمَّ التَّشاور، وأُخذ الرأي من الجميع، ولذلك يقول أبو هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو يَصف حالات الشُّورى النبوية-: ما رأيتُ أحداً أكثر مشورةً لأصحابِهِ من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ [(١)].

تمَّت المشُورة في المسجد النبوي، وغَلب رأي الأكثرية بالخروج إليهم عند أُحُد، وإذا بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يدخل بيته وقد اتخذ قراره، وهو قرار الأكثرية فَلَبِس دِرع الحَرب والخَوذة، وحمل سِلاحه، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في المسجد لا يَدرُون ماذا سيقرِّر النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وجلس بعضهم يقول: كأنَّنا أكرهناه!، أي: كأنه قد تَحوَّل إلى رأينا وترك رأيه، وندم بعضهم على حمل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على رأيهم، وقالوا: ليتنا تركنا النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وما رأى.

وبينما هم يتشاورون وأرادوا أن يَعرِضوا على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الرجوع إلى رأيه إذا بسِتر حُجرته يُكشف، وإذا بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخرج إليهم دَارِعاً[(٢)]، فقالوا: يا رسول الله! كأننا أكرهناك، فإن شِئت أن نبقى كما رأيت بقينا؟، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَةَ الحَرْبِ أَنْ يَضَعَهَا، حَتَّى يَفْصِلَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ**»[(٣)] فقد تمت مرحلة: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾، وبدأت مرحلة: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾.

وتحرك الجيش النبوي من المدينة فتجاوز ثَنية الوداع، وهي المنفذ إلى شمالي المدينة، ثم سار الجيش إلى أن مَرَّ بمنطقةٍ تُسمى «**الشَّوط**»[(٤)] وكان مكاناً هَابِطاً في الأرض خارج المدينة، وكان هذا المكان المُنخفض فُرصةً للنفوس الموبُوءة أن تكيد كيدها[(٥)] وهكذا كانت نفس عبد الله بن أُبيٍّ ابن سَلول، ففي هذا المكان أتمَّ أمراً يبدو

---

(١) «مسند أحمد» (١٨٩٢٨)، و«جامع الترمذي» (١٧١٤).

(٢) أي لابساً درعه. ينظر: «النهاية» (٢/ ١١٤).

(٣) «مسند أحمد» (١٤٧٨٧)، و«صحيح البخاري» تعليقا (٩/ ١١٢).

(٤) وللباحث د. فهد بن مبارك الوهبي بحث حول منطقة الشوط وتحديدها، وما جرى فيها.

(٥) «مصنف عبد الرزاق» (٩٧٣٥).

أنه قد بيّته قبل الخروج من المدينة، ففي أثناء سَير الجيش بغاية الحماس والقوة إذا بعبد الله بن أُبيِّ يُنادي على مَن حَوله من المُنافقين، ويقول: أُشير عليه -أي النبي ﷺ- ألَّا نخرج من المدينة، فيدَع رأيي ويَتبع رأي الصِّبية والغِلمان، فأرى ألَّا نخرج معهم ونعود! عُودوا ودَعُوهم يذهبون، وإذا بثُلث الجيش من المنافقين، وأصحاب العَزائم الواهنة، ينسحبون إلى المدينة مع عبد الله بن أُبيِّ، الذي تظاهر بالغضب لأن النبي ﷺ لم يأخذ برأيه، بل أخذ برأي غيره ممن يرى الخروج.



منطقة الشَوط حيث انخذل عبد الله بن أبي بن سلول بمَن معه من المُنافقين

ولك أن تتخيل ذلك الارتباك الذي حَدث لجيش المسلمين وقتها، فقام أصحاب الحماسة والعزيمة يلومونهم، ومنهم عبد الله بن رَواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذي أقبل إليهم قائلاً: كيف تتركون رسول الله ﷺ؟ كيف تَدَعُونا؟! فرفضوا قوله وقَفَلوا راجعين! وهم يقولون: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ﴾.

إن عبد الله بن أُبيِّ اختار هذا المكان بعنايةٍ وخُبث، فهو لم يُعلن ذلك في المدينة عندما تحرَّك الجيش بل أعلنه في المكان الأنكى والأكثر ضَرراً، بعدما خرج الجيش من المدينة؛ لأنه إذا تَحرك الجيش بحماسٍ، ثم حصل بعد ذلك الانسحاب أثَّر ذلك في مَعنويات الجيش، وأحدث الارتباك، بعكس ما لو جلس ولم يخرج، ولذلك كان

من الكبائر العظيمة ومن السَّبع المُوبقات: التَّولي يوم الزحف[1]، وعقوبة ذلك أعظم بكثيرٍ من عُقوبة التخلف عن الجهاد؛ لأن الذي يتولَّى عند الزحف يَفُتُّ في عزائم الجيش، فيكون سَبباً من أسباب الهزيمة، وهو ما اختاره عبد الله بن أُبيٍّ حيث انسحب بعد الزحف.

وتجاوز المسلمون مع رسولهم ﷺ هذه الخَلخَلة، ومَضى الجيش الذي كان ألفاً فصار (٧٠٠).

ووَصل النبيُّ ﷺ إلى هذا المكان قبل صلاة العصر وعَسكر في مكان هذا المسجد الذي سُمِّي بعد ذلك بـ: «**مسجد الدِّرع**»[2].

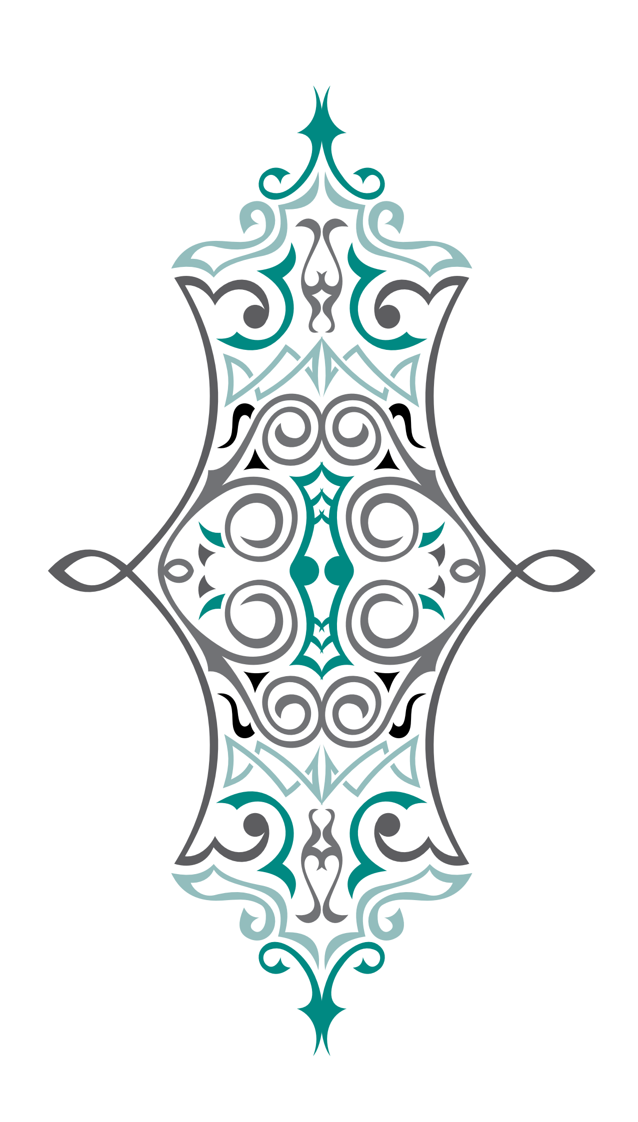


موقع مسجد الدرع



(١) «صحيح البخاري» (٢٧٦٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩).

(٢) ينظر في ذلك: «تحقيق النصرة» (١٥٤)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ٦٣)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٣٣)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٣٧٤)، و«طيبة المدينة النبوية» (٢٥٣).



مسجد الدِّرع (٢)



نَزل النبيُّ ﷺ عند مسجد الدرع؛ ليكون المُعسكر الأول للتهيؤ قبل دخول المعركة ومعه ﷺ (٧٠٠) من الصحابة يستعدون لمُنازَلة المشركين غداً، وكأنك ترى الصحابة مُنتشرين في هذا المكان عصر يوم الجمعة وليلة السبت[١] وكلُّ واحدٍ منهم يُهيِّئ نفسه، ليكون شهيداً غداً، كلُّ واحدٍ منهم مشروع شهادةٍ في سبيل الله بين يدي رسوله ﷺ.

في هذا المكان الذي يَبعُد عن المسجد النبوي قُرابة (٤كم) جرت وقائع غاية في العجب، تأخذ بمجامع القلوب، وتجعلك تتساءل: أيُّ مشاعرٍ في نفوس هؤلاء الرجال؟! وأيُّ إيمانٍ ذاك الذي يملأ قلوبهم؟!

فهذا النبي ﷺ في هذا المكان يَفرِز الجيش، فيَرُدُّ الصغير الذي لا يتحمَّل لِصغَره، أو الكبير الذي لا يُطيق لعجزه، فالصغير يُرَدُّ، والكبير يُعذَر، فيَرُدّ عبد الله بن عُمر وكان عُمره (١٤) عاماً، وأُسامة بن زيد، والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولكن السؤال: ما الذي جاء بهؤلاء الصِّبية؟ ولماذا أتوا أصلاً؟ ما هذه الروح التي تشتعل في نُفوس الصِّبية، بحيث حملوا السلاح، وصحبوا الجيش مستعدّين للقتال لولا أنّ النبيَّ ﷺ ردَّهُم؟!

---

(١) «وفاء الوفاء» (٣/ ٦٤).

لقد صار مجتمع المدينة رجالاً ونساءً، وصغاراً وكباراً، يعيشون هَمَّ قضيةٍ كبرى، قضية هذا الدين وحبِّ هذا الرسول ﷺ، واتِّباع هذه الرسالة، فهذا رَافع بن خَديج يُؤتى به إلى النبيِّ ﷺ وعمره (١٤) عاماً، فمِن المُفترض أنْ يُردّ فيعرض على النبي ﷺ مُؤهِّلاته، فيقول: ولكني أَرمِي يا رسول الله، فيُقال للنبيِّ ﷺ: إنه رَامٍ[١]، فيُقبلُ ويُتجاوز عن صغر السِّن؛ مُراعاةً للمهارة العسكرية التي عنده، فكأنِّي أرى ذلك الفتى يشعر بنَشوةٍ، ويَظهر الفرح على وجهه، حتى يتباهى أمام رفاقه الذين سيرجعون.

وكان من رفاقه: سَمُرة بن جَندب، وكان عمره كذلك (١٤) عاماً، فذهب سَمُرة إلى زوج أمِّه الذي ربَّاه، واسمه: مُرِّي بن سِنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان له كأبيه، وقال: يا أبتي! أرأيت رسول الله ﷺ رَدَّني وقَبِل رَافِعاً مع أني لو صَارعت رافِعاً لصرعته؟![٢]، فتعجَّب مُري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من هذه الروح، وهذا الاندفاع! فذهب إلى النبيِّ ﷺ وأخبره بذلك، فرأى النبي ﷺ رَافِعاً وسَمُرة أمامه، فطلب منهما أن يتصارعا، فاستحضر سَمُرة كلَّ ما عنده من قوَّةٍ حتى صَرع رافعاً، فقَبِل النبي ﷺ الاثنين: قَبِل رافعاً لمَهارته في الرَّمي، وقَبِل سَمُرة للياقته وقُدرته الجسدية.

كيف كَبُرت هذه النفوس، حتى أصبحت الأعمار الصغيرة تَحمِل نُفوساً كبيرة.

إنّ هذا المكان يروي كثيراً من العجائب لو تحدَّثت أرضه لنطقت بالأعاجيب التي حَدَثت في تلك الليلة -ليلة السبت- حيث كانت مشاعر هؤلاء الصحابة تعرج بهم إلى الملأ الأعلى، وأشواقهم ترفرف بهم في فراديس الجنة، وكلٌّ منهم يتخيل أنه سيدخل المعركة، وقد تكون إحدى خُطواته هي آخر خطوةٍ له في الدنيا وأول خُطوة له في الجنة.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٤٢٤١).

(٢) «مستدرك الحاكم» (٢٣٥٦)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٧٨١٠). وينظر: «مغازي الواقدي» (٢١٦/١)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٥٠٥-٥٠٦).

وممَّا يُبيِّن هذا الشُّعور: أن عَمرو بن الجَموح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو شيخٌ أعرجُ شديد العرج أتى بعرجته مع أولاده الأربعة، فقال أولاده لرسول الله ﷺ: إنَّ أبانا شيخٌ شديد العرج، ويريد أن يُقاتل معك، فقلنا له: يا أبانا؛ نحن نكفيك! فأبى علينا، وكان هذا الشيخ واقفاً معهم، فقال: يا رسول الله! إني أريد أن أطأ بعرجتي هذه الجنة! لو دَخلتُ الجنَّة بعرجتي هذه هل أمشي بها صحيحة؟، فقال له النبيُّ ﷺ: «**نَعَمْ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكَ تَمْشِي بِرِجْلِكَ هَذِهِ صَحِيحَةً فِي الجَنَّةِ**»[1]، فاستجاب للهفة الشيخ وأشواقه، وسمح له بالذهاب رغم إعاقته.

وهناك عبد الله بن حَرام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في ناحيةٍ من ذلك المكان، يحدث ابنه الوحيد العزيز جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، الذي سيتولَّى من بعده مسؤولية بَناته، فيقول له: يا بُني! إنني لا أراني إلا مقتولاً غداً أوّلَ مَن يُقتل، وإني لا أَدَعُ أحداً أعزَّ عليَّ منك إلا رسول الله ﷺ[2].

ولابدّ أن نقف مع هذا الحبّ للنبيّ ﷺ، فإن كلَّ كلامنا يتقاصر عند هذه الكلمة العَفوية التي خرجت من فَم عبد الله بن حرام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو يُودِّع ابنه الوحيد في آخر أيام حياته، فحُبُّ النبيِّ ﷺ قد بلغ في نُفوسهم مبلغاً جعله أحبَّ وأعزَّ من كلِّ عزيزٍ عليهم؛ من الأبناء كلهم ومن الابن الوحيد، بل من أنفسهم التي أتوا بها لينثُرُوها رخيصةً بين يدي رسول الله ﷺ! فمشاعر الحُبِّ للنبيِّ ﷺ مشاعرٌ مُتأجِّجَة ترسم منهج حياةٍ تلد مثل هذه البطولات، وتُنجِب مثل هذه المواقف العجيبة!

---

(١) «مسند أحمد» (٢٢٥٥٣).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٥١).

وأكمل عبد الله حَديثه لابنه الوحيد، يوصيه بأن يقضي دَينَه، وأن يستوصي بأخوَاتِهِ خيراً، وكأنه يطوي آخر صفحات العُمر، وأيام الحياة، فلم يبقَ عنده من شؤون الحياة إلا دَينَه أن يُقضَى، وبَناتِهِ أن تُرعى، وأمَّا هُو فأشواقهُ هناك في الملأ الأعلى!

ثم نسأل: ما الذي جعله يجزم أنه سيكون في أوّل من يُقْتَل؟!

والجواب بوضوح: أنه عزم على أن يخوض مستنقع الموت، حين يحمى وطيس المعركة، وحيث يمكن الإثخان في العدو، وتقل فرص السلامة أيضاً.

فَأَثْبَتَ فِي مستنقع الْـموْت رجله وَقَالَ لَهَا من تَحت أخمصك الْحَشْر

وفي مكانٍ آخر، وفي سُكون الليل يناجى عبد الله بن جحش صَديقه سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا -وكان سعد يُعرَف بإجابة الدعوة- فخَلا به، وقال: تَعال فلندع الله عَزَّوَجَلَّ، أنت تدعو وأنا سأؤمِّن، ثم أدعو وأنتَ تُؤمِّن، فبدأ سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فدعا، وقال: اللهم إذا لَقِينا عَدوَّنا غداً فارزقني فَارساً شَديداً حَردُه[1] ألقاهُ فأُقاتِله فأقتُله وآخذُ سَلبه، فقال عبد الله بن جحش رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: آمين، ثم دعا عبد الله فقال: اللهم إذا لقينا عدونا غداً، فارزقني فارساً شديداً حَردُه ألقاهُ فأقاتِله فيَقتُلني فيَجدع أنفي ويَقطع أذني، ثم ألقاك فتقول لي يا عبدي، فيمَ ذلك؟ فأقول لك: يا رب فيك وفي رسولك صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، فتقول لي: صَدقت!، فقال سعد: آمين، يقول سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: فلقد رأيته بعد المعركة، وإن أنفه قد جُدع، وأُذنَه قد قُطعت، وعُلِّقت في خَيط على شجرة[2].

وكأنه بدعوته قد رسمت نهايته، وصدق الله فيما دعا، فصَدقه الله فيما قضى!

(١) حرده: غيظه وغضبه. ينظر: «تاج العروس» (٨/ ١٧).

(٢) «مستدرك الحاكم» (٢٤٠٩).

إن هؤلاء الذين يؤمنون بالغيب كأنه رأي العين، ويجعلون حياتهم الدنيا وما فيها ثمناً لموعود الآخرة، هم الذين كانوا في جاهليتهم يقولون: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾، ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾، وأنه ليس بعد الدنيا أخرى، وليس بعد الموت بعث!

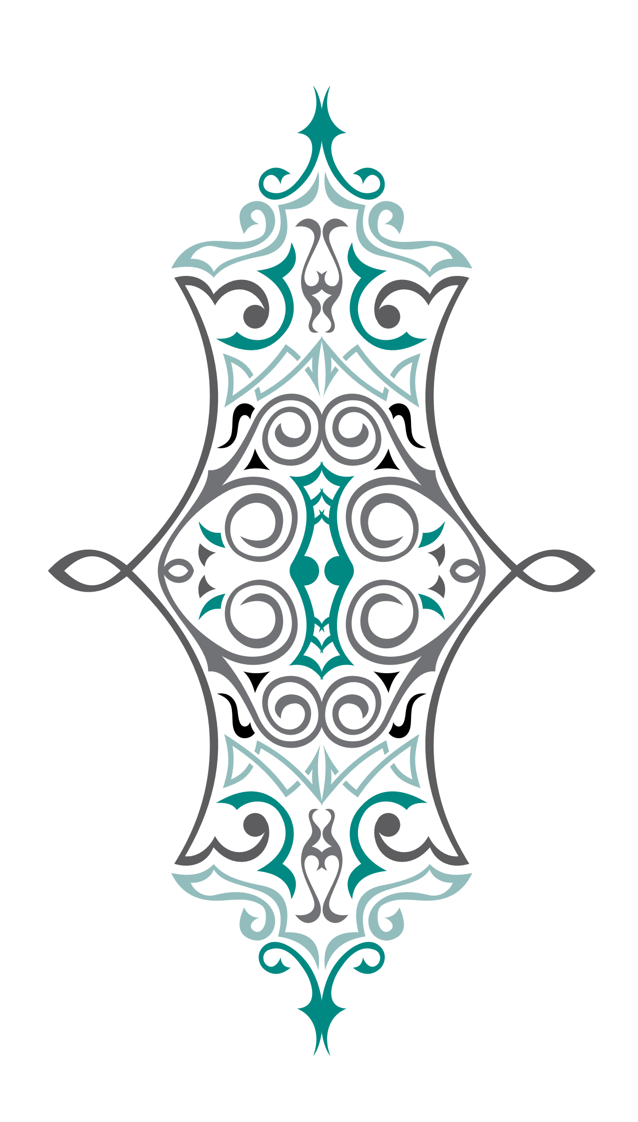
فكيف تحول اعتقادهم، وترقَّى إيمانهم، وصاروا بهذه الحال بعد تلك الحال؟!

إن هذه إحدى دلائل نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وعجائب دعوته، وتأثير رسالته في تصحيح تصورات الناس وإعادة نشأة الأمم.

أخـوك عيسى دعـا ميتاً فقام له ... وأنت أحييت أجيالاً من الرمم[1]



(١) «نهج البردة» لأحمد شوقي (ص٧٦).



الزَّحف إلى أُحد



صورة جوية تُوضح جبل أحد وجبل الرماة ومقبرة شهداء أحد

في صَبيحة يوم السبت، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتهيأ بعد صلاة الفجر للمسير إلى أُحد، كانت المفاجأة في خطة السير.

لقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شمال المدينة، ولو استمر في سَيره شمالاً بخطٍ مستقيم، فإنه سيلتقي بمعسكر المشركين على بُعد كيلومتر واحد تقريباً، فتكون المدينة خلفه والمشركون أمامه، وهو ما كان المشركون يتوقعونه، ولذا فإنا نحسب أنهم قد تهيأوا لذلك، وأعدوا خطتهم على هذا التصور، ولكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يذهب في استقامة سَيره كما كان متوقعاً، وإنما نادى في أصحابه رضي الله عنهم، وقال: «**مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا**

عَلَى الْقَوْمِ مِنْ طَرِيقٍ لَا يَمُرُّ بِنَا عَلَيْهِمْ؟» فقام أحد الصحابة الذين يَعرفون هذه المنطقة بسككها ودروبها ونخيلها، وقال: أنا يا رسول الله[١].

وهنا تبدو البراعة العسكرية عند النبي ﷺ؛ حيث لم يقُل هذا الكلام عصر الأمس ولا في الليل، وإنما قاله بعد الفجر مباشرة! وأعلن خبر تغيير المسار عندما أراد أن يسير، حتى لا يصل الخبر إلى قريش من خلال عيونهم من المنافقين أو غيرهم، وبدلاً من أن يسير النبي ﷺ في اتجاه استقامته الذي كان متوقعاً إذا به يأخذ اتجاه اليمين، ويدخل من بين النخيل.

وهكذا تَسرَّب جيش النبي ﷺ في هذه الطُرقات الضيقة بين نخيل بني حارثة التي تقع شرق جَبل الرُّماة، حيث إنَّ جيش النبي ﷺ قليلٌ نسبياً، فجيش بهذه القلَّة يَسهُل عليه أن يَتسرَّب في هذه المسارب من بين النخيل بلباقةٍ وسهولة، ولذلك تسرَّب بدون أن يراه أحدٌ من قريش، إلى أن خرج من وادي قَناة؛ ليجعل جبل أُحد على يمينه وخلفه، وجبل الرُّماة على يَساره.

وكان يسير بين النخيل، وكأنه يمشي في سِردابٍ لا يراه أحد، ولذا كان خُروجه على قريش من خلفهم غايةً في المفاجأة.

ولك أن تتخيل جيش المشركين وهم في مكانهم يتوقَّعون أن جيش النبيِّ ﷺ سيأتي مُواجِهاً لهم؛ لأنه خرج من المدينة متوجهاً إلى شمالها، فإذا هو يلتف عليهم من خَلفهم، ولك أن تتخيل الآن الارتباك الذي حدث في جيش المشركين، فهم في حاجةٍ إلى إعادة الخُطة، فلم يسمح لهم النبي ﷺ أن يَصنعوا الحدث، ولا أن يصنعوا رَدَّة فِعل النبي ﷺ وإنما هو مَن صنع الحدث، وتحكم في ردة فعلهم.

ومن مَهارته ﷺ أنه جَنَّد مظاهر الطبيعة؛ لتُصبح جُنداً من جُنوده، فهذا الموقع الذي اختاره النبي ﷺ فيه عبقريةٌ مَكانية، حيث اختار ﷺ مكاناً يُشبه القلعة العسكرية، فجَبل أُحد يحميه عن يمينه ومن خَلفه، وجبل الرُّماة يَحميه من شَمالِه.

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٥)، و«وفاء الوفاء» (١/ ٢٢٠).

وكانت هناك ثَغرةٌ خلف جبل الرُّماة، هي مسيل وادي قناة، وكانت تُمثِّل نقطة ضعف، فجعلها النبي ﷺ نقطة قوة، وذلك باحتلال قمَّة جبل الرُّماة الشرقية، بحيث لا يستطيع أَحدٌ من المُشركين أن يَلتفَّ من خلفه، وهذا المكان الذي خلف جبل الرُّماة مكانٌ ضَيق هو مسيل الوادي، يَسهُل السيطرة عليه مِمَّن يَقِفُون فوق جبل الرُّماة، فإذا وَقَفُوا عليه ومعهم النَّبل، فلا تستطيع الخَيل أن تَمرُ من هذا الوادي الضيق.

فوَضَع النبي ﷺ خمسين رجلاً معهم النَّبل، بقيادة عبد الله بن جُبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال لهم: «**كُونُوا عَلى هَذَا الجَبَلِ احمُوا ظُهُورَنَا وَلَا تَنْزِلُوا إِلَيْنَا وإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**»، وقوله: «**تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ**» لأن الطَّير تنزل على جُثث القتلى لتأكل منها، فكأنه ﷺ يقول لهم: لو أننا قُتلنا وأصبحنا جُثَثاً، وبدأت الطَّير تأكل من لُحومِنا، فلا تنزلوا إلينا.

ثم قال: «**وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ، فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**»[(١)].

وهذا تحذير صريح من النبيِّ ﷺ لهم ألَّا ينزلوا في أيِّ حالٍ، سَواء رأوا انتصاراً أو هزيمة.

ثم بعد ذلك قَسَّم النبيُّ ﷺ الجيش، وهو ﷺ في التقسيم يُراعِي رفع المعنويات وإثارة التنافس، فأعطى رَاية المُهاجرين لمُصعب بن عُمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بني عبد الدار، وأما الأنصار، فجعل راية الأوس مع أُسيد بن حُضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من سَادَاتِهم، وراية الخزرج مع الحُبَاب بن المُنذِر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من سَادَاتِهم[(٢)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٣٩).

(٢) «مغازي الواقدي» (١/ ٢٢٥).

وأصبح الفريقان في حالة تأهُّبٍ للمُواجهة، فقد تَراصت الصفوف، ونظر الفريقان إلى بعضهما، وإذا بالنبيِّ ﷺ قُبيل أن تبدأ المعركة يُهيِّئ نفوس أصحابه بشُحنةٍ مَعنوية، تزداد بها قوة الجيش، فقد استلَّ النبيُّ ﷺ سَيفَهُ ذُا الفَقَار وهو السيف الذي غَنِمَه في بَدر، فعَرضهُ على أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، وقال: «**مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ؟**»، فامتدَّت الأيدي، وتَدَافَع الصحابة، يُريد كلٌّ منهم أن يَظفَر بسَيف النبي ﷺ الذي فيه قُوَّته وبَركته ﷺ، فلمَّا رأى النبيُّ ﷺ تَدافُعهم، قال: «**مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّيْفَ بِحَقِّهِ**»؟ فتراجع الصحابة! فهم لا يَدرُون ما حقُّه! ويَخشون أن يُقصِّروا في هذا الحقِّ، فقام رجلٌ هو شُعلة من الشَّجاعة والجُرأة؛ اسمه أبو دُجَانَة سِمَاك بن خَرشَة، فقال: يا رسول الله وما حقُّه؟، قال ﷺ: «**حَقُّهُ أَنْ تَضْرِبَ بِهِ حَتَّى يَنْحَنِي، وَأَلَّا تَكُونَ فِي الْكَيُّول**[1]» فقال: أنا يا رسول الله آخذهُ بحقِّه[2]، فأخرج أبو دُجَانَة من كِنانَتِه عِصَابَة حمراء ربط بها رأسه، فلمَّا رأى الأنصار أنه قد عَصَبَ رأسهُ بتلك العِصابة، قالوا: أَخْرَج أبو دُجَانَة عِصابة الموت! ثم أخذ السيف وجعل يَتبختر بين الصُّفوف، ويُنشِد أناشيد الحرب، فقال النبي ﷺ وهو يرى تَبختُرهُ واستعراضهُ لقوَّته: «**إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ هَذِهِ الْمِشْيَةَ إِلَّا فِي هَذَا الْـمكَان**[3]»، وأخذ أبو دُجَانَة يُنشِد:

أنــا الــذي عــاهَـدَنـي خَلِيلِي	**ونـحـنُ بالسَّفحِ لَـدى النَّخيلِ**
ألّا أقــومَ الــدَّهـر فـي الكيولِ	**أضـرب بسيفِ الله والـرَّسـولِ**[4]



(١) الكيول: مؤخَّرة الجيش. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢١٩).

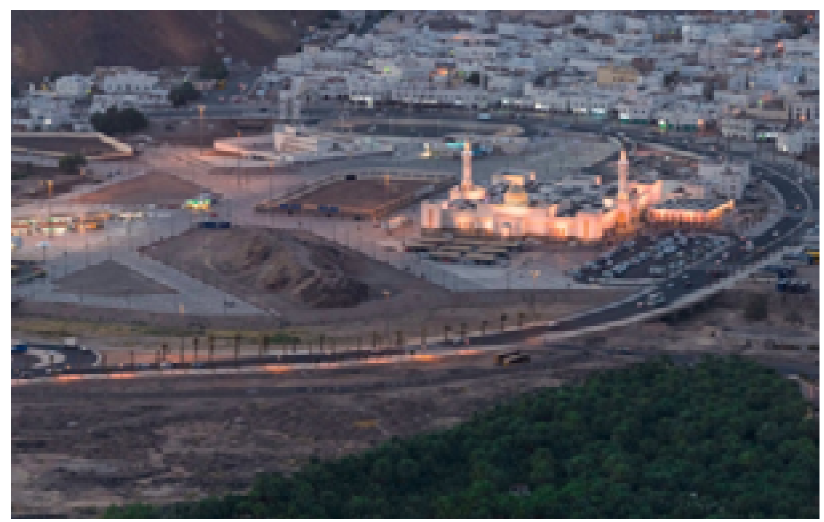
(٢) «مسند أحمد» (١٢٢٣٥)، وأصله في «صحيح مسلم» (٢٤٧٠).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٦٥٠٨)، وله أصل في «سنن أبي داود» (٢٦٥٩). وينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٧).

(٤) «السنن الكبرى» للبيهقي (١٨٤٧٤). وينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٨).

معركة أُحد





ساحة شُهداء غزوة أُحد

لقد تجلّت العبقرية العسكرية للنبي ﷺ في تعطيل فاعلية الكثرة العددية لجيش المشركين، حين صفَّ النبيُّ ﷺ جيشه بين جَبلي أُحد والرُّماة في بطن وادي قناة، بطريقةٍ تجعل عددهم فَاعلاً، ولا يقابلهم من جيش المشركين إلا ما يماثل عددهم، وأما باقي جيش المشركين على كثرته فمعطل الفاعلية.

ولو كتب لأحد أن يطلَّ على هذا المشهد من علو، فإنه سيرى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النبيِّ ﷺ، وسيرى في صفِّ المشركين أخاه عُتبة بن أبي وقاص، وسيرى في صفِّ المسلمين أبا حُذيفة بن عُتبة بن رَبيعة، وفي صفِّ المشركين أخته

هِند بنت عُتبة بن رَبيعة، وفي صفِّ المسلمين حَنظلة بن أبي عامر الأوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي صفِّ المشركين أباه أبا عامر الفاسق الأوسي.

يا لله كيف حصل هذا الانفصال بين ذوي القربى حتى وقف بعضهم في صفِّ السعادة والإسلام والصِّراط المُستقيم، ووقف بعضهم في صفِّ الشَّقاء والكُفر والضَّلال؟!

وهذا يُبيّن لنا أن الله يَخلُق ما يشاء ويختار، هؤلاء أنعم عليهم بالهداية واصطفاهم لصُحبة نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كما اصطفى نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للرسالة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



قبر سيد الشهداء حمزة قديماً



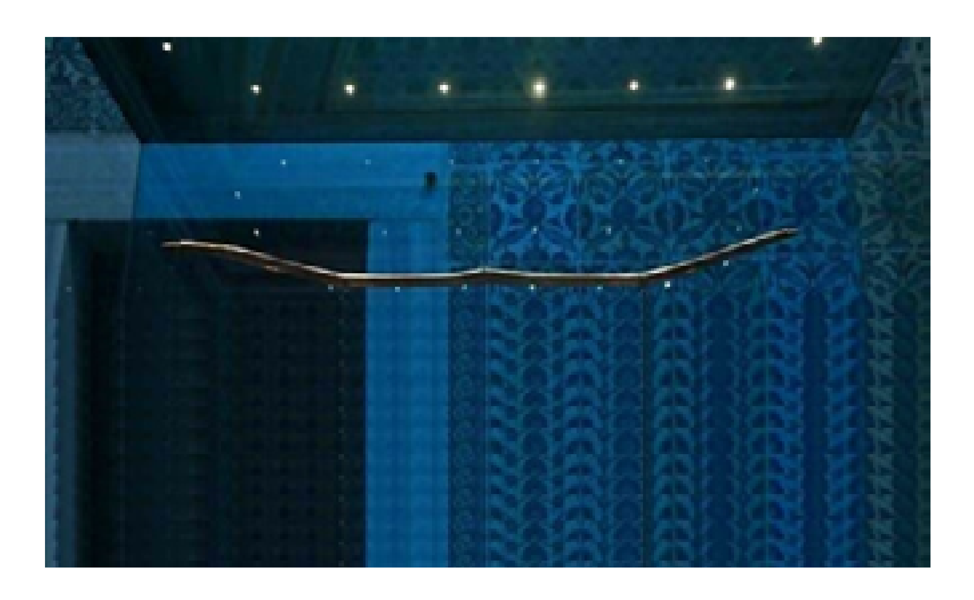
مقبرة شهداء أحد بعد إزالة القباب والمشاهد، وإعادتها كما كانت

ولما صحب هؤلاء الصَّحب الكِرام النبيَّ ﷺ، واستأنفوا الحَياة معه بعلاقاتٍ وقِيمٍ جَديدة، قطعوا كلَّ ارتباطات الجاهلية، فمن اصطفَّ في مُواجهةٍ وحربٍ لله ورسوله ﷺ قَطَعُوا صِلتَهم به، وهَا هِي السيوف تتقابل، فتقطع تلك القُربى، إذا كانت تحارب الله ورسوله ﷺ.

إنه مشهدٌ عجيبٌ يُبيِّن أيَّ نوعٍ كان هؤلاء الرجال، وهُم مع النبيِّ ﷺ، وكيف بنى النبي ﷺ نفوسهم، وكيف بَنَوا علاقاتهم.

وكعادة العرب تبدأ الحرب بالمُبارزة، فيتقدَّم حَامِل لِواء بني عبد الدَّار طلحة بن أبي طلحة ومعه اللواء، ويطلب المُبارزة، وإذا طُلبت المبارزة، فإن السَّهم الأول في كِنانة رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي سارع إليه بضربة من سيفه، وألقاه بها كما يُلقَى الثوب البالي.

فتقدَّم الرجل الثاني من بني عبد الدار يحمل لِواء المُشركين، فألحقه سَعد بن أبي وَقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمَن قَبله.



قوس عربي في متحف طوبكابي سراي بإسطنبول ينسب لزمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

وتتابع تِسعةٌ من بني عبد الدار يحملون لِواء المشركين، وفُرسان المسلمين يُلقُونَهم وَاحداً تِلو الآخر حتى تَراكم التِّسعة، وبقي لواء المشركين يحمله عبدٌ منهم اسمهُ صَوَاب، فلمَّا جُرح وسقط اللواء منه، جعل يقول بلهجتِهِ الحَبشية: اللهم هل أعزرت، اللهم هل أعزرت؟، ثم تَبِعَهُم قَتيلاً وسقط لِواؤهم[1]، وتَذكَّر المشركون هزيمة بَدر وشُغِلوا بأنفسهم، وإذا بالكثافة العددية تَتشتت في هذا المكان وتنسحب، وإذا بالمسلمين يَتبَعُونهم حتى قال الزُّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم[2] هند بنت عتبة وصواحبها مشمّرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير[3].

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٧٨)، و«الروض الأنف» (٥/ ٤٤٠).

(٢) خدم المرأة: خلاخيلها في رجليها.

(٣) «سيرة ابن إسحاق» (ص٣٠٦)، و«مستدرك الحاكم» (٤٣١٦)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٤٩).

فقد انكشف مُعسكرهم، وتبعهم المسلمون، وإذا بالصفِّ الإسلامي الذي كان مُصطَفّاً يتناثر وهو يتبع المشركين قَتلاً وسَلباً، وقد ظهرت غَنائمهم ومَتاعهم، وتركوا الذَّخائر التي أتوا بها من مكَّة، ورأى الرُّماة على الجبل جيش المسلمين يتقدَّم ويجمع الغنائم، ويَقتل في المشركين المُنسَحِبين، ورَأوا أنَّ الهزيمة قد حَلَّت بالمشركين، وأنَّ النصر قد أَحرزهُ المُسلمون، فنزلوا ليُصيبوا كما أصاب غيرهم من الغنائم، فقام زعيمهم عبد الله بن جُبير يُذكِّرهم بوصية رسول الله ﷺ، فقالوا له: إنَّ المعركة قد انتهت، وإنّ النصر قد حصل والغنائم الآن تؤخذ! فلننزل ولنصب من الغنائم، فنزل منهم أربعون رجلاً، ولم يبقَ إلا عبد الله بن جُبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه عشرة رماة[1].

وكان على ميمنة جيش المشركين خالد بن الوليد قبل إسلامه، ولم يكن قد اشترك في المعركة؛ فليس أمامه إلَّا الجبل، وعليه الرُّماة المسلمون، ومع أنه كان قائد الفرسان، فهو طوال المعركة لم يُقاتل، وقد حاول خلال المعركة أن يَلتفَّ حول الجَبل فلم يستطع؛ لأن النَّبل كانت تُصيب خَيلَه فتنفر وتفر، فلما انكشف الجبل ونزل الرُّماة، ولم يبقَ منهم إلا هذا العدد القليل أدرك خالدٌ بِحنكَتِه العسكرية الفرصة، والتفّ سريعاً حول الجبل، وتغَلَّب على البقية من الرماة فقتلوا جميعاً، وأما بقية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فلم يشعروا بالالتفاف، ولم يروا ما حصل خلف الجبل، وهكذا أتاهم خالد من خلفهم، وإذا بالمسلمين الذين كانوا في حالة هجومٍ على مَن انسحب من المشركين يُفاجئون بجيش المشركين يُهاجمهم من الخلف.

(١) «مغازي الواقدي» (١/ ٢٣٠).



جبل الرُّماة ويُعرف أيضاً بجبل عينين

فأصبح المسلمون في حالة دفاعٍ مُرتبك، فرجعوا يُواجهون مَن أتى إليهم من جيش خالد، وإذا بالمشركين المنهزمين يعودون، فأصبح معسكر المسلمين بين المشركين المُهاجمين مع خالد، والذين أتوهم خلفهم، وبين المشركين الذين عادوا إليهم، فأطبق عليهم المشركون، وحصل ما كان النبيُّ ﷺ يُحذِّر المسلمين منه، وهو أن يلتفّ عليهم المشركون من خلفهم.

ولما صار الهجوم يأتي من أكثر من اتجاه، تفرق المسلمون، وتشتت جمعهم، وإذا ذلك الصف الذي كان كالبنيان المرصوص، يتناثر في هذه الساحة في حال ذهول وارتباك، وقد انتشرت إشاعةٌ بأنّ رسول الله ﷺ قد قُتل، فكان لها وقعها في نفوس من سمعها من الصحابة.

وإذا كان المسلمون قد تَفرَّقوا، وأُصيب منهم مَن أُصيب، وانهزم منهم مَن انهزم، فإنَّ رسول الله ﷺ كان هو الصَّامد الثابت كالجبل الذي يلجأ الناس إليه، وكان الشُّجاع من الصحابة هو الذي يقترب منه ﷺ.

كان ﷺ في الخلف يَحُوطه الأشِدَّاء من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حتى لم يبقَ معه إلا سعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عُبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان ممَّن رأى النبي ﷺ كَعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: كُنتُ أول مَن رأى النبي ﷺ، فعَرفته عندما نظرتُ إلى عينيه تَبرُقان تحت المغفر، وكان لعينه ﷺ بريق وإشعاع، وليس فيها انهزامٌ ولا انطفاء ولا ذعر، فلمَّا عَرفه كَعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاح بأعلى صوته: يا مَعشر المسلمين أبشروا! هذا رسول الله ﷺ[(١)]، فأشار إليه النبي ﷺ أن يُخفض صَوته؛ لأن المشركين متفرقون في البحث عنه، وجاء جمع من الأنصار، فأحاطوا برسول الله ﷺ، وأتى مَن سَمِع من المُشركين، فكثفوا هجومهم، واشتدَّ الهجوم على هذا الجَمع، وهنا ظهر الحبُّ الصادق الخالص لهذا النبيِّ الكريم ﷺ[(٢)].

فلمَّا هجم المشركون على رسول الله ﷺ وحوله هذا العدد القليل، قال ﷺ: «**مَنْ يَصُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّة؟**»، فقام طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: أنا يا رسول الله، قال له: «**كَمَا أنْتَ**»، فقام رجل من الأنصار وقال: أنا، فقاتلهم حتى قُتل، ثم هجم عليهم المشركون، فقال النبيُّ ﷺ: «**مَنْ يَصُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّة؟**»، فقام أنصاري آخر فقاتل حتى قُتل حتى تَتابع سبعة من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «**مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا**»[(٣)].

فلما بقي رسول الله ﷺ وطلحة بن عبيد الله، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لِلقَوْمِ؟**» قال طلحة: أنا، فقاتل طلحة قتال مَن قُتلوا جميعاً حتى ضربت يده فقطعت أصابعه[(٤)]، وقد كان النبيُّ ﷺ يَدَّخِر بُطولته لأشدِّ المواقف وأخطرها.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٠٠).

(٢) «مسند أحمد» (٢٦٠٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١٧٨٩).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (٤٣٤٢).

لقد شهد هذا المكان نوادر البطولات، وأصدق التضحيات، ولو استنطقنا جباله وأحجاره لحدَّثتنا بالأعاجيب.

وأبو دُجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الآخر، يُغطِّي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بظَهره[1] فيقع النَّبل في ظَهره، فتَشُدُّه حلقات الدِّرع، فيُصبح ظهر أبي دُجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كظهر القُنفذ من كَثرة السِّهام!

وقتادة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَحمي النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ويرفع رأسه، فيجعل عينيه بَصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وعندما رَفع عينيه في أحد المرات أصابه السهم، فسالت عَينه على وجهه! فردَّها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في مكانها، فعادت أحسن ما كانت[2]، ولذلك يقول أحد أبنائه:

أنا ابنُ الذي سَالَتْ عَلَى الخَدِّ عَينُهُ ... فرُدَّتْ بِكَفِّ المصطفى أحسَنَ الردِّ[3]

ويقف طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والسهام تُوجّه للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فلا يجد ما يَردُّ به السِّهام إلا يده، فيردَّها بيده فيصيب السهم يده! فكانت يد طلحة شَلَّاء؛ لأنه وَقى بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ[4]، فيا له من شرف أن كانت يده فِداءً ووقاء لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ما الذي يمكن أن تقوله هذه الأرض التي تعطَّرت بالدماء، حين نُثرت عليها فداءً لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟! فهذا الثَّبات حَمَى موقع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وحَمَى قيادة الجيش، وإذا بالمسلمين يثوبون إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهو يُناديهم: **«إِلَيَّ عِبَادَ الله! إِلَيَّ عِبَادَ الله»**، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ وإذا بالجمع المُشتت يلتقي عند النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ويعيد احتشاده.

---

(١) «سيرة ابن إسحاق» (ص:٣٢٨)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٣).
(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٨٢)، و«مستدرك الحاكم» (٥٢٨١)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٣).
(٣) «الاستيعاب» (٣/ ١٢٧٥)، و«عيون الأثر» (٢/ ٢٣).
(٤) «صحيح البخاري» (٤٠٦٣)، و«سنن ابن ماجه» (١٢٨).

كنتُ أتساءل وأنا أتجوَّل في ميدان المعركة، وأقول: إن جيش المشركين (٣٠٠٠) مقاتل، فكيف لم يستطع أن يُبيد (٧٠٠)، وهم في حالة الارتباك والمصيبة الأولى؟!

والإجابة: أنَّ السبعين شهيداً الذين استشهدوا لم يُقتلوا بالمجان! فهؤلاء الشهداء سَقطوا بعد أن أبلوا غاية البلاء، وبعد أن أنكوا في العدو غاية النِّكاية! وبعد أن عرف المشركون من خلال قِتالهم أن الوصول إلى مُسلم فضلاً عن الوصول إلى رسول الله ﷺ ليس بالأمر الهيِّن!

ولنُجمِل حال السبعين شهيداً في حال واحدٍ منهم؛ لنعلم أنهم ما كانوا لُقمةً سائغةً ولا طعاماً هَنيّاً! لقد قدّم هؤلاء الشهداء أروع البطولات وأصدقها، ولم يُقتلوا إلا بعد أن قاتلوا وأوجعوا، وقد دفع المشركون ثمناً باهظاً حتى استُشْهِد هؤلاء السبعون، وهذا مشهد لواحدٍ منهم، وهو صورة لبقية مشاهدهم، وهو أنس بن النضر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي مرَّ على بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في وقت ارتباك جيش المسلمين وتفرقهم، وقال لهم -وهم في حالة فجيعة وذهول-: ما لكم؟، قالوا: سَمِعنا أن رسول الله ﷺ قد قُتل، قال: فما طيب الحياة بعده؟! قُوموا فمُوتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ![1]، ثم استقبل الجبل متوجِّهاً إلى جموع المشركين مُستبسلاً يتشوَّق للشهادة! يقول: واهٍ واه، إني لأجد ريح الجنَّة دُون أُحد[2].

وكأنما أبواب الجنَّة قد فُتحت له، وكأنما الملائكة تناديه، وكأنما نسائم الجنَّة تَهُبُّ عليه، فهو في حال اندفاع لا يلوي على شيء؛ حتى قال سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما استطعت ما يفعل، فقاتل أشدَّ القتال وبعد المعركة وُجِد شهيداً سعيداً، يقول أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) «مغازي الواقدي» (١/ ٢٨٠)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٨٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٠٤٨).



فما عَرفه أحد إلا أخته ببنانه ولقد وجدنا في جسده بضعاً وثمانين، ما بين ضَربةٍ بسيف، أو طعنةٍ برمح، أو رميةٍ بسهم[1].

فهم لم يصلوا إليه إلا بعد أن وصلهم جهاده وقتاله وبَسالته، وبعد أن احتمل جسده أعظم ما يحتمل، وبذلك عرف المشركون أن ثمن قتل مسلم ثمنٌ باهظٌ جداً، وأنَّ قتل واحدٍ منهم يحتاج لشجاعاتٍ مضاعفةٍ وتضحياتٍ كبيرةٍ.

ولذلك فإنّ المشركين اكتفوا بنصر سريع مختطف، أمَّا النبيُّ ﷺ لما اجتمع أصحابه حَوله بدأ يحصنهم، ويُصعِد بهم إلى الشِّعب، وهو مكان أكثر تحصيناً، وأشد حماية، فإلى شِعب الجِرار..[2].



موقع معركة أحد



(١) «صحيح البخاري» (٢٨٠٥).

(٢) ينظر في ذلك: «تحقيق النصرة» (١٣٣)، و«وفاء الوفاء» (١/ ٢١٧)، و«فصول من تاريخ المدينة» (٢٠١).



انسحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الشِّعب





صورة لشِعب الجِرار الذي انسحب إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته

هذا الشِّعب الذي انسحب إليه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته، لو وَصفناه وَصفاً عسكرياً لقُلنا: إنَّه القلعة التي احتمى بها النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يُواجه قُريشاً ويُدافِعُهم في آخر مراحل معركة أحد.

أمَّا إنْ وَصفناه وَصفاً شُعورياً، فهو الحضن الحاني الذي احتوى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم.

أوى إليه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم فآواه، وعطف عليه وكأن هذه الجبال أذرعٌ حَانية، تُطَوِّق النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم وجيشه وتدفع عنهم عُدوان الكائدين والمشركين.

وذلك أنه ﷺ جمع الجيش الذي تفرق في ميدان المعركة، ثم أعاد ﷺ الاستراتيجية نفسها التي بدأ بها القتال يوم وضع الجيش بين جبل أُحد وجبل الرُّماة، فانسحب بهم إلى عُمق الشِّعب، فصار الجيش بين جبلين، كأنما هو في قلعة حصينة لا يمكن أن يواجههم العدو إلا من جهة واحدة مما عَطَّل فاعلية الكثرة العددية للمشركين، وهي براعةٌ في الاستفادة من تضاريس المكان، وتحويل هذه الجبال بصخورها وشِعَابها إلى جُندٍ يُقاتل معه ﷺ.

ولذا وَقَفَ أبو سُفيان على الجبل المقابل بعيداً عنهم، وبدأ يُناوِش جيش المسلمين مُناوَشةً كلامية، فسأل بأعلى صَوتِهِ: أفيكم مُحمَّد؟! أفيكم ابن أبي قُحَافَة؟ أفيكم عُمر؟، والنبيُّ ﷺ يقول: «**لَا تُجِيبُوهُ**» وذلك مُبالغة في تَبكِيتِهِ وإهانته.

ثم رفع صوته وقال: أمَّا هؤلاء فقد قُتِلوا، فلم يُطق عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَبراً، فقال: هذا رسول الله ﷺ يَسمَعُك، وهذا أبو بكر، وهذا أنا عُمر! وقد أبقى الله لك ما يَسُوؤك.

هنا صَرخ أبو سُفيان، وهو يقول: يومٌ بيومِ بَدر، والحرب سِجال!، فقال النبيُّ ﷺ: «**أَجِيبُوهُ**»، فقالوا: ماذا نقول؟!

قال: «**قُولُوا: لَا سَوَاءَ، قَتْلَانَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ**».

فجعل أبو سُفيان يقول: اعل هُبل!، فقال النبي ﷺ: «**أَجِيبُوه**»، قالوا: ماذا نقول؟ قال: «**قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلّ**» ثم قال: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال النبيُّ ﷺ: «**أَجِيبُوه**»، فقالوا: ماذا نقول؟ قال: «**قُولُوا: اللهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُم!**» فرَدُّوا عليه، وضَجَّت هذه الجِبال تُردِّد نِداءَهم: الله مَولانا ولا مَولى لكم.

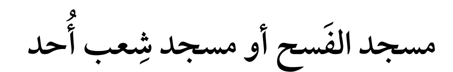
ثم قال أبو سفيان: إنكم ستجدون مُثْلَة لم آمر بها ولم تسؤني، وموعدكم بدر عام قابل[1].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٣٩).

أمَّا إن سألت عن نبيِّك صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فإنه قد وصل إلى هذا المكان وهو مُثخَنٌ بالجِراح، وكان عُمرهُ الشريف المُبارك ستاً وخمسين سنة، وتَصوَّر مشهد النبيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقد وَاجَه المشركين في ميدان المعركة، وهُشِمَت البَيضَة[1] على رأسه عندما ضَربه ابن قَمِئَة بالسيف فوَقَاه الله بتلك البَيضَة، وضَربَه كذلك على عَاتِقه، فوَقَاه الله بالدِّرعَين ورمي بحِجَارة، فأصابت زَرَدَ المِغْفَر، فغَاصَت حَلقَتان من حَلقَاته في وَجْنَة النبيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وشُجَّ جَبينُهُ، ونزف الدَّم من جَبِينِهِ ومن وَجْنَتِهِ من أثر حَلقات المِغْفَر على وجهه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

أتى النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى هُنا مثخناً بالجِراح، ولكنه كان يُشعُّ بالقوة على مَن حَوله أين ذهب النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من هذا الشِّعب؟! لقد آوى إلى مكانٍ سُمِّي بعد ذلك بـ: «**مسجد الفسح**».



مسجد الفَسح أو مسجد شِعب أُحد

(١) البيضة: هي غطاء الرأس الحديدي، وهي المغفر والخوذة. ينظر: «النهاية» (١/ ١٧٢).

ولَمَّا كان وَجهه ﷺ الأزهر مصاباً بالجِراحات، فقد تنافس أبو بكر وأبو عُبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيُّهم يَنزِع حَلقتي المِغفَر من وَجه النبي ﷺ، يقول أبو عُبيدة للصِّديق أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أقسمتُ عليك أن تتركني أُخرج الحَلقتين[1]، فتركهُ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأنَّ أبا عُبيدة يريد أن يُخرِجهما بطريقة رفيقة بالنبيِّ ﷺ من دون أن يؤلمه، فكيف صنع؟!

إن أبا عُبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يَنزع الحَلقة بيده، وإنما جعل ينضنضها[2] برفق بين شَفتَيه وأسنانه، فلم تَخرج الحلقة من وجه النبيِّ ﷺ حتى نَزعَت ثنيَّة أبي عُبيدة معها، فلم يشعر بأن ثَنيتهُ قد ندَرَت[3]؛ لكنه شَعَر أن هناك حَلقةً باقيةً في وجهه ﷺ لم تخرج بعد، فأراد أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يستخرجها، فأقسم عليه أبو عُبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثانيةً أن يَتركهُ له ليُخرجها، ثم أهوى بشفتيه على مكان الحَلقة الثانية يَنزعها بأسنانِه برفق، فجعل يُكمِل نَزعها برفق، فما خرجت حتى نزعت ثَنِيَّتهُ الأخرى، فكان أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد ذلك أحسن الناس هتماً[4].

والتساؤل هنا إذا كان هذا فِعل الحَلْقَة فِيمن أخرجها، فكيف بفعلها فيمن غَارت في وَجهه ﷺ؟!

وتدفق الدم على وَجهه الشريف! فجعل ﷺ يمسح الدم عن وجهه، ويتساءل عن هؤلاء الذين شجوا وجهه وهو يدعوهم للهدَاية، ويَستنقذهم من النار، فقال: «**كَيفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا وَجْهَ نَبِيِّهِم؟**»[5].

(١) «مسند أبي داود الطيالسي» (٦)، و«مستدرك الحاكم» (٤٣١٥).
(٢) ينضنضها: يحرّكها. ينظر: «النهاية» (٥/ ٧٢).
(٣) نَدرت: وقَعَتْ. ينظر: «النهاية» (٥/ ٣٥).
(٤) الهَتم: انقطاع الثنايا. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٤٣).
(٥) «صحيح مسلم» (١٧٩١).

وما أن خرجت هذه الكلمة من بين شفتيه ﷺ، حتى خَاف أن يُعاجَلُوا بالعُقوبة لعَتَبه عليهم، وإذا به ﷺ يستدفع العذاب عنهم، فيقول وهو يمسح الدم عن وجهه: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[1].

وتأمل بلاغة الاستعطاف النبويِّ، فإنه ﷺ لم يدْع عليهم فينتصر، ولم يقتصر على العفو حتى دعا لهم، ولم يقتصر على الدعاء لهم حتى أضافهم إلى نفسه، فقال: «**لِقَوْمِي**»، على جهة الشفقة، ولم يقتصر على ذلك حتى جعل لهم جهلهم بحاله كالعذر، وإن لم يكن عذراً، وهذا غاية الفضل والكرم التي لا يشارَك فيها ولا يوصل إليها[2].

يا لله ولهذه الرحمة النبوية والرأفة المُحمدية يستدفع عنهم العذاب، وجِراحُهُ تَنزِف مِن أَذَاهُم!!

وجاءت ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَغسِل جِراحهُ بالماء الذي أتى به عَليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المِهراس[3]، ليغسل جرح النبي ﷺ، ويزيل أثر الدم، فجعل عليٌّ يسكب الماء وفاطمة تغسل الدم، فلا يزداد جُرحه مع سَكب الماء إلا نزيفاً، فعَالجتهُ فاطمة بطريقةٍ أخرى فأخذت قطعة من حَصير، فأحرقتها وجاءت برماد الحصير، وهذا الرماد يكون مثل البُودرَة الناعمة المُعقَّمَة، فأخذت هذا الرماد وحَشت به جُرح النبيِّ ﷺ فتوقف النزيف[4].

يا لهذا النبيِّ ﷺ الذي تمتد إليه كفُّ ابنته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والتي لا تزال عَروساً في سَنة زَواجها الأولى، فتغسل دماءه، وتُضمِّد جِراحَه، وتَراهُ وهو في حالة الإثخان التي لا يحب كلُّ أبٍ أن تَراه ابنته عليها! لكن كل الآلام يحتملها النبيُّ ﷺ في بَلاغ الدعوة، واستنقاذ الأُمة أن تقع في النار! وكان جَسدهُ القوي قد أرهق وضعف، ولذا فقد صَلَّى في هذا المكان صَلاة الظهر جالساً! وكذلك أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ صَلُّوا وراءه

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٧٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٢).

(٢) «المفهم» (٣/ ٦٥٠).

(٣) المهراس: هو مجتمع الماء بين الحجارة في آخر الشعب. ينظر: «لسان العرب» (٦/ ٢٤٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٩٠٣)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٠).



جلوساً في هذا المكان الذي يسمى: «**مسجد الشعب**»، أو «**مسجد الفسح**»[(١)].

وهنا نتساءل: ما الذي جعل أبا سفيان يعلن سريعاً نهاية المعركة والانسحاب من ميدانها، ويعدهم بدراً العام القابل؛ بحيث لم تتجاوز المعركة إلا نحو الساعتين وربما أقل! فقد بدأت صباحاً وانتهت قبل الظهر؟!

والجواب عن هذا التساؤل: أن أبا سفيان آثر الانسحاب السريع حيث أدرك الثأر، ورأى أنه حقق النصر، ولم يرد الاستمرار في المعركة؛ لأنه يخشى أن تتغير موازين القتال في الجولة الأخرى، فيتحول النصر إلى هزيمة، ولذا آثر الانسحاب السريع محافظة على هذا النصر المختطف.

ويشبه حاله حال فريق مباراة كرة القدم، إذا سجل أحد الفريقين هدفاً، وأوشك وقت المباراة على النهاية، ثم سجل الفريق المتنافس هدف التعادل بصعوبة، فإن أمنية هذا الفريق الذي أحرز هدف التعادل أن تنتهي المباراة سريعاً، حتى يحافظ على تعادله قبل أن تحدث مفاجأة تغير النتيجة.

وهكذا كان حال أبي سفيان أراد إنهاء المعركة سريعاً حتى لا تتغير نهايتها التي انتهت عليها[(٢)].



موقع شعب الجرار

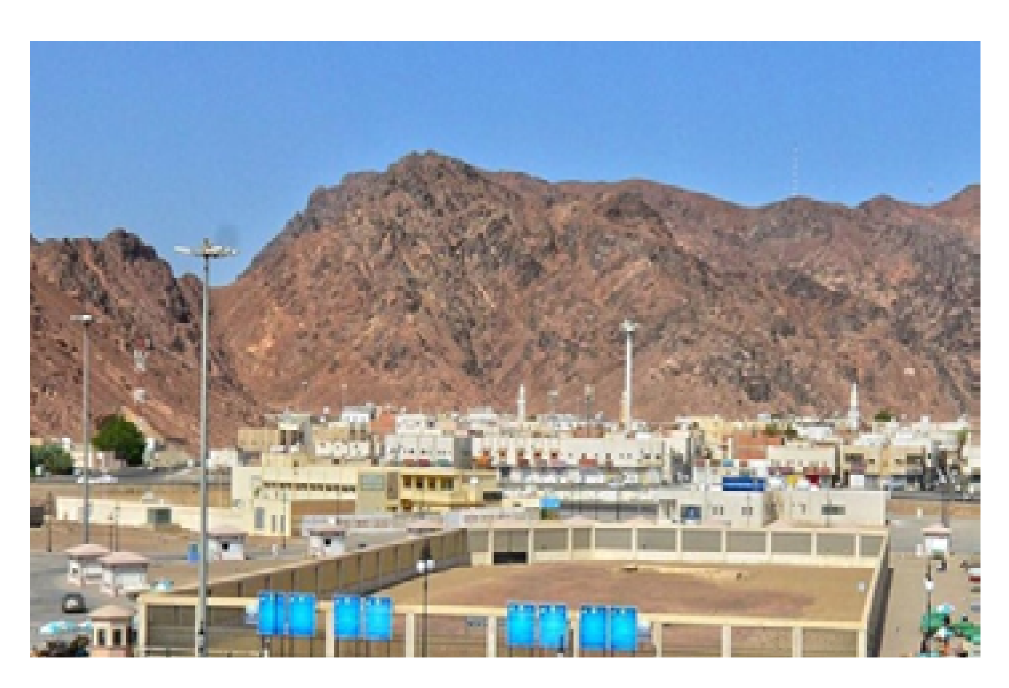
---

(١) «وفاء الوفاء» (٣/ ٥١).

(٢) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (١/ ٢٢١)، و«فصول من تاريخ المدينة» (٢٠٩)، و«طيبة المدينة النبوية» (٢٩٣).

شهداء أُحد





مقبرة شهداء أحد

مِن شهداء أُحد: حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَمُّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وكان مَوضع مصرعهِ قريباً من الثَّغرة التي نَفَذ منها خالد بن الوليد ومَن معه خلف جَبل الرُّماة من جهة الشرق، والتساؤل هنا: ما الذي جاء به إلى هذا المكان تحديداً، ومعه بقية مَن استشهدوا، مع أنَّ ميدان المعركة كان هناك غرب جبل الرماة.

إن هذا يُبيِّن لنا البَسالة التي وَاجَه بها المسلمون جيش خالد، لقد اندفعوا بقُوَّةٍ، فغيروا مواقعهم ليواجهوا جيش خالد، وليصدُّوا الهجوم المباغت من الخلف، وصمدوا حتى تناثرت جُثثهم في هذا المكان!

تَقدَّم حَمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وواجه أحد فُرسان قريش، ويُسمى سباع بن عبد العزى الخزاعي، وكان وحشي بن حمير يترصد له ولا يتطلب غِرَّتَه؛ لأن سيده جبير بن مطعم قال له في مكة: إن قتلت حمزة، فأنت حرّ، لأنه قتل عمه طعيمة بن عدي في بدر، فاختبأ له خلف صخرةٍ في طرف الجبل من جهته الشرقية، ينتظر فُرصةً سانحة حتى يقتل حَمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحَربَته عن بُعْدٍ، لكن حَمزة كان يتقاتل مع سِباع ويقول له: تَقدَّم، فما إن تقدَّم سِباع حتى ضَربهُ حَمزة، فكان كأمس الذاهب[1]، وبسقوط سِباع انكشف حَمزة وبرز، فخرج وَحشي من وراء الصخرة وجعل يهز حربته، وهذه الطريقة وهي الرمي بالحربة تقاتل بها الحبش وتمهر فيها، فنظر وَحشي إلى حَمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوجده كالجَمل الأورق الهائج لا يقف له أحد، ورأى دِرعه قد انكشف عند أسفل بَطنه، فعرف أن هذه نقطة الضعف! فهزَّ الحَربة وأرسلها، فأصابت حَمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أسفل بَطنه حتى خرجت من ورائه، ومع أن حَمزة مُصاب، فقد تحامل على نفسه ومشى خُطوات، يقول وَحشي: وَذَهَبَ لِيَنوءَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ[2]، فحَمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يصل إليه، فقد سقط لتصل إليه بعد ذلك الجموع المُتعطشة للتشفي والانتقام فتبقر بطنه، وتجدع أنفه وتُمثِّل بجُثَّته.

ويصل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى حَمزة ويقف عليه وقد مُثِّل به، وكان حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بمكان، فهو أخو النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الرضاعة، وعَمُّهُ وعم الرجل صنو أبيه،

(١) «صحيح البخاري» (٤٠٧٢).

(٢) «مسند أبي داود الطيالسي» (١٤١٠)، و«صحيح ابن حبان» (٧٠١٦).

وهو السَّابق إلى الإسلام من أهل بيتهِ، والسابق إلى النُّصرة، والسابق إلى الهِجرة، فوقف ﷺ على جُثمانه، وعَلاهُ من الحُزن ما لم يَعلُه من قبل! وبكى حتى شَهِق ﷺ من البُكاء، ولا أعلم أن النبيَّ ﷺ شَهِق من البكاء إلا في هذا الموقف!! وقال: «**لَنْ أُصَابَ بِمِثْلِكَ أَبَداً، مَا وَقَفْتُ مَوْقِفاً قَطُّ أَغْيَظَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا**»[1].

ويتفقد النبيُّ ﷺ أحد الشهداء، فيسأل عنه وهو لا يعلم بحاله، فيقول: «**انْظُرُوا مَا صَنَعَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ؟**»، فيقول أُبيُّ بن كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أنا يا رسول الله أنظره لك، فوجده في رَمَقِه الأخير، فسلم عليه وقال: إنَّ رسول الله ﷺ أرسلني أنظر إليك، فقال: عليك وعلى رسول الله ﷺ السلام! بَلِّغ رسول الله ﷺ سَلامي وأخبرهُ أني أجد رِيح الجنَّة!! وأقرِئ الأنصار مِنِّي السلام وأخبرهم أنه لا عُذر لكم إن خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ وفيكم عَينٌ تَطرُف[2].

وكان في جَسده (١٢) طعنة نَفذت إليه، ثم فاضت روحه شهيداً سعيداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

هنا شَهيدٌ آخر وهو عبد الله بن حرام والد جَابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فقد جاء ابنه جابر من المدينة، ووقف عليه بعد استشهاده، وجعل يبكي ويَكشف وجهه والصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يَنهونَهُ، ورسول الله ﷺ وَاقف لا يَنهاه! حتى رُفع، فقال له النبي ﷺ: «**تَبْكِينَ أَوْ لَا تَبْكِينَ، فَمَا زَالَتِ الْـمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ**»[3].

وذاك شَهيدٌ آخر يسأل عنه النبيُّ ﷺ يقول: «**إِنَّ صَاحِبَكُمْ حَنْظَلَةَ تُغَسِّلُهُ الْـمَلَائِكَةُ، فَسَلُوا صَاحِبَتَهُ**».

---

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٩٦)، و«مستدرك الحاكم» (٤٨٨١).
(٢) «مغازي الواقدي» (١/ ٢٩٣)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٩٥)، و«الروض الأنف» (٦/ ١٩).
(٣) «صحيح البخاري» (١٢٤٤).

وكان هذا الشهيد قد تزوج ليلة المعركة، من جَمِيلة بنت عبد الله بن أُبي ابن سَلول، وبقي معها ليلةً واحدة هي ليلة العُرس، وفي الصباح سَمِع ضَجِيج المعركة، فخرج إليها عاجلاً، فسألوها، وقالوا: إنَّ رسول الله ﷺ يَسألكِ عن حَنظلة يقول: «**مَا شَأْنُهُ؟**»، قالت: إنه خرج وهو جُنُب قبل أن يَغتسل[1].

لقد أتى من هناك ليُكمل أفراح عُرسهِ في الجنة، فَزفَّتهُ الملائكة بعد أن غسلته بين السماء والأرض.

وأَمَرَ النبيُّ ﷺ أن يُدفن الشهداء في مَصارعهم، وقال: «**أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ!**»[2]، وحُفِرت قُبورهم، وكانت قُبوراً جَماعية؛ الشَّهيدان في قبر، والثلاثة في قبر، فلما حُفرت القبور أتى النبيُّ ﷺ المَوضع الذي سيُدفن فيه حَمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان إلى جانبه رجلٌ من الأنصار، فرأى ﷺ امرأةً أتت من بعيدٍ تَعدُو، فعرفها وكانت عَمَّتهُ صَفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فكره النبي ﷺ أن تَرى عَمَّتُهُ جُثمان أخيها حَمزة وقد مُثِّل به، فقال: «**رُدُّوا الْـمرْأَةَ**»، فذهب إليها ابنها الزُّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعدُو ليردَّها وكانت امرأة جَلدة قَوية فدَفعتهُ، فسقط أرضاً فقال لها: إن رسول الله ﷺ يَأمُركِ أن تقفي مكانك، وإذا بها وهي مُندفِعة تَثبت مكانها في الحال! لأنَّ الأمر من رسول الله ﷺ، فأعطت ابنها الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثَوبين مَعها، وقالت: إني قد عَلمتُ أن أخي قُتل، وقد أَتيتُ بثوبين، فكَفِّنُوه فيهما، وأتى الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالثوبين، وإذا حَمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجانبهِ أنصاري مِثلهُ بحاجة إلى كِساءٍ ليُكَفَّن، فكرهوا أن يُكفِّنُوا حَمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ثَوبين ويَدَعوا الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجانبِهِ، فقَسموا الثوبين بينهما، وإذا بأحد الثوبين أكبر من الآخر، فعملوا قُرعة بينهما، فأصاب حَمزةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثوبُ القَصير، فكانوا إذا غَطُّوا رَأسهُ بدت رِجلاه وإذا غَطوا رِجليه بدا رَأسه!، فغطي رأسُه، ووُضِع على رِجليهِ من ورق الشجر[3].

(١) «صحيح ابن حبان» (٧٠٢٥)، و«مستدرك الحاكم» (٤٩١٧).
(٢) «صحيح البخاري» (١٣٤٣).
(٣) «مسند أحمد» (١٤١٨).



ووُرِي هؤلاء الشُهداء الثرى، واحتضنت الرِّمال الدافئة أجسادهم الطاهرة، وبقيت مَصارعهم في هذا الوادي.



قبر سيد الشهداء حمزة، وعبد الله بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا داخل سور مقبرة شهداء أحد

وكان من بين الشهداء عبد الله بن حَرام، وعَمرو بن الجَموح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكانا متصافيين في الدنيا، فدفنا في قبر واحدٍ، فجاء جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعد سِتة أشهرٍ من استشهاد أبيه، وأحبَّ أن يُعاد دفن أبيه في قبرٍ مستقل، فجاء وحَفر القبر، قال: وأخرجتُ أبي، فإذا هو على حَالته لم يُفقَد منه شيء إلا شَحمَة أُذُنِه![1].

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يتعاهدهم، فلما اقترب وفاته جاء وسلّم عليهم، ودعا لهم كالمودع للأحياء والأموات، ثم لَحِق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالرفيق الأعلى[2]، وبعد (٤٦) سنة جاء سَيلٌ جارف في هذا الوادي، فكشف عن قُبور الشُهداء، وذلك في خِلافة مُعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أَمَرَ بنقل الشهداء إلى سَند[3] من الأرض، فأتى أبناء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ ليحمِلوا

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٥١).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٠٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢٢٩٦).

(٣) مكان مرتفع من الأرض حتى لا تغمرها السيول مرة أخرى. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٠٨).



جُثث الشهداء، فوجدوا الشهداء بجِراحهم ودمائهم وكأنما دفنوا الساعة، فحملوهم يتثنون بين أيديهم، ونقلوهم إلى مقبرة الشهداء المعروفة اليوم فهُم في ذات المكان منذ عام (٤٦) للهجرة[١].



موقع مقبرة شهداء أحد



(١) «مصنف عبد الرزاق» (٩٦٠٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٢٩١).



حَمراء الأسد





صورة لجبال حمراء الأسد

تَبعُد حمراء الأسد عن المَسجد النبوي نحو (١٥كم)، ولعلَّ تَسمِيتها بالحمراء؛ لأن جبالها وتربتها حَمراء كما يظهر للعيان.

وهذا المكان هو أول مراحل الطريق إلى مَكَّة.

أمَّا الحَدث الذي كان هذا المكان بِساطَه فحَدثٌ عَظيم، ولعَظمتهِ تَنزَّلت آيات القُرآن تَروي ما حَدث فيه، وهو أحد ارتدادات معركة أحد وتداعياتها، وكان في يوم الأحد بعد يوم من مَعركة أُحد التي وقعت يوم السبت.

وذلك أن أبا سُفيان بعد أن ظَفر بذلك النَّصر المُختطف عاد مُسرعاً إلى مكَّة، والعجيب أنَّه من سُرعتهِ لم يتوقف إلا في منطقة الرَّوحَاء التي تبعُد عن المدينة نحو

(٧٠ كم) تقريباً، وهذه المسافة لا يقطعها السَّائر المُتأنِّي، وإنما يصل لها الهارب المسرع، فلما وَصلوا إلى الرَّوحَاء وشَعروا بالأمان بدأوا مُراجعة حِساباتِهم، فقال بعضهم لبعض: لَا مُحَمَّداً قَتَلْتُمُوهُ، وَلَا الْكَوَاعِبَ أَرْدَفْتُمْ، وَبِئْسَ مَا صَنَعْتُمُ ارْجِعُوا[1].

وهذه الأفكار جاءتهم في منطقة الأمان بالنسبة لهم، وهو تفكيرٌ لا يصل إلى حدِّ التنفيذ، وذلك أنه قد بَدا لهم من رسول الله ﷺ وجَيشِهِ في بَدر وأُحد من الصبر والثبات والاستبسال في الجِهاد ما يمنعهم من إعادة الكرة؛ ولكنهم أرادوا أن يُوصِلُوا رسالة بهذا المشروع الذي يتدارسونه، وكأنه مشروع تحت التنفيذ.

فتعرض أبو سفيان لركبٍ من الأعراب عَابرين، فاستوقفهم وطلب أن يذهبوا مُسرعين إلى النبيَّ ﷺ، ويخبروه أنهم راجعون إليهم ليستأصلوهم، ووعد أبو سفيان هؤلاء الأعراب أنه سَيملأ حَقائبهم زَبيباً، إذا أقَبلوا في مَوسِم عُكاظ ولذلك انطلقوا مُسرعِين؛ ليَلقَوا رسول الله ﷺ ويُبلِّغُوه الرسالة، ويقولوا له: إنَّ أبا سُفيان ومَن مَعه قد جَمعوا لكم فاخشوهم.

وصلت الرسالة للنبيِّ ﷺ ومعه العِصابة المُؤمنة التي قاتلت معه في أُحد، وقد عادت بالجِراح في أجسادها والفجيعة في قلوبها، فلما وصلهم هذا الإنذار: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾، تلقَّى النبيُّ ﷺ ومَن معه ذلك بالاعتصام بالله، ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾.

وإذا بالنبيِّ ﷺ يستنفر الناس للخروج، وأذن مؤذنه: ألا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس -أي يوم أُحُد-[2].

---

(١) «السنن الكبرى» للنسائي (١١٠١٧).

(٢) ينظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٣٣٤)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٥٣٤)، و«تاريخ خليفة بن خياط» (١/ ٧٣)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣١٤).

وكأنما يُوجِّه رِسالةً لعبد الله بن أُبيٍّ ابن سلول، ومَن تخلَّفوا معه، ولم يخرجوا إلى أُحد أنكم لستم أهلاً لصُحبَتِنا، ولَستم على مُستوى الموقف الذي سَنقفه، وكما كنا في غنى عنكم في أحد، فنحن في غنى عنكم اليوم أيضاً، فخرجوا معه جميعاً ليَبدأوا جولة جهادٍ جديدة.

وخرج هؤلاء الجَرحى المكلومون وهم يَتحامَلُون على أنفسهم، ويسيرون مع رسول الله ﷺ بجراحاتهم وآلامهم، ولكن الضَّعف في هذه الأجساد لم يَنل من قُوة العَزائم، حتى إن أحد الأنصار من بني عبد الأشهل يقول: كنتُ أنا وأخي قد شهدنا أُحداً وأصابتنا جراحات، فلمَّا سمعنا النفير لهذه الغزوة، قلت لأخي: أندعُ غزوةً يغزوها رسول الله ﷺ لا نشهدها؟! وكنتُ أنا وأخي جَريحين؛ لكني كنتُ أقلَّ منهُ جراحاً، فقمتُ أنا وإياهُ نسير فإذا تعب حملته، حتى لحقنا برسول الله ﷺ[1].

وصل ﷺ إلى حمراء الأسد ومعه هؤلاء السَّبعمئة الذين شهدوا أُحداً، إلا واحداً أتى معهم وهو لم يشهد أُحداً، وهو جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فقد قال للنبي ﷺ: إني لم أشهد أُحداً لأن أبي استبقاني، وإني أريد أن أشهد معكم خروجكم، فقدَّر النبيُّ ﷺ أشواقهُ وأذن له،[2] وكأنما كان هذا الكلام تزكيةً وشهادةً من النبيِّ ﷺ له، فكان هذا أول مسيرٍ لجابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع النبيِّ ﷺ في غزاةٍ يغزوها.

انتشر جيش النبيِّ ﷺ في هذا المكان، وقد أمرهم النبيُّ ﷺ بإظهار القوَّة والكثرة، فكانوا يوقدون في كلِّ ليلة (٥٠٠) شعلة من نار، وكأنما هذا الوادي الملتهب في الليل يُعلن أنه مَن أتانا فنحن مُستعدُّون لملاقاتهِ، ومَن أراد مُنازلتنا فنحن مُستعدُّون لقتاله فهذه الفجاج مُلتهبة، وهؤلاء الصحابة المُتحفزون، وهم من وقدة الحماس

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٠١)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣١٤).
(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣١٣).

أعظم اشتعالاً من النار التي كانوا يوقدونها، ومع ذلك فإن النبيَّ ﷺ استعمل سلاح الحرب المعنوية على أبي سُفيان ومن معهُ، فكان يرسل سرايا الرعب إلى قلوبهم، فهم يُناوشون جيش النبيِّ ﷺ بالمناورة المعنوية وهم في الروحاء.

فقد أتاه مَعبد بن أبي مَعبد الخُزاعي، وكانت قبيلة خُزاعة جهاز الاستخبارات النبوي، وكانوا عَيْبة[1] نصحٍ للنبي ﷺ مسلمهم وكافرهم.

وكان معبد يومئذ مشركاً، فقال: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم، ثم سار ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، فلما رأى أبو سفيان معبداً، قال: ما وراءك يا معبد؟، قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قطّ، يتحرقون عليكم تحرقاً!، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويحك! ما تقول؟، قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل[2].

وبذا قذف الرعب في نفس أبي سفيان ومَن معهُ، وهم الذين قد جرَّبوا لقاء النبيِّ ﷺ وجيشهُ، وعرفوا ضراوة المواجهة، ولذا قال صفوان بن أمية: فإن القوم قد حَرِبوا، وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان، فارجعوا[3]، فرجعوا إلى مكة، ومضت الحرب المعنوية التي واجهها مَن اعتصموا بالله وقالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ وقد أحدث النبي ﷺ بهذا النفير إلى حمراء الأسد هزيمةً معنوية في جيش المشركين، وتعزيزاً لنفوس المسلمين، وبناء معنويّاً لها.

---

(١) أي خاصته وموضع سرّه. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٢٧).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٠٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٣١٥).

(٣) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٠٤).

وتنزَّلت آيات القرآن تحكي خبر هذا النفير إلى هذا المكان: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

وظفر رسول الله ﷺ في وجهه ذلك بأبي عَزة الجمحي، وكان تخلف عن جيش المشركين، فأدركه المسلمون في حمراء الأسد قبل لحاقه بقومه، وكان رسول الله ﷺ أسره ببدر، فقال: يا محمد لقد عرفت مالي من مال، وإني لذو حاجة، وذو عيال، فامنن عليّ، فمنّ عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أَحَداً[1]، ثم إن أبا عَزة نقض ما كان عاهد عليه الرسول ﷺ، وخرج مع المشركين إلى أحد.

فلما ظفر به بعد أحد قال: يا محمد أقلني، فقال رسول الله ﷺ: «**وَالله لَا تَمْسَحْ عَارِضَيْكَ بِمَكَّةَ بَعْدَهَا وَتَقُولُ: خَدَعْتُ مُحَمَّداً مَرَّتَيْنِ، اضْرِبْ عُنُقَهُ يَا زُبَيْرُ**»، فضرب عنقه[2].

وهذا يقدم درساً بليغاً أن السماحة والعفو ليست سذاجة أو غفلة، ولكنها مروءة وكرم وفضل يوهب لمن يليق به.

أما إذا كانت إغراءً بمزيد من الكيد، وإعادة الكرة بالعداوة؛ فهذا ليس موضعها ولا محلها.

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع الندى

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٦٦٠)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٢٨٤٠)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٢٨٠).
(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٠٤)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٨٠٢٩).

وهكذا كان مع أبي عَزة في أسره مرة أخرى، والذي سيفسّر العفو باقتداره على الخديعة، ومهارته في المكر، ولا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين[١].



موقع حمراء الأسد



(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٤/ ٦٤)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٤٦١)، و«فصول من تاريخ المدينة» (٢١٣).



مسجد الأسواف[1]





صورة حديثة لمسجد الأسواف «أبي ذر»

حيِّ الأسواف قريبٌ من المسجد النبوي، فهو يبعُد عنه قُرابة (٦٠٠متر) في الجهة الشمالية الشرقية، وفيه المسجد الذي يُسمَّى «**مسجد الشُّكر**»، أو «**مسجد السَّجدة**»، أو «**مسجد الأسواف**».

ولهذا المسجد مع نبيِّنا ﷺ قصَّةٌ عظيمة، ووعدٌ إلهيٌّ بزيادة الرِفعة والتشريف والتكريم، وفيض إلهي وعطاء غامر من الله لأمَّة مُحمد ﷺ التي آمنت به.

(١) ويُعرف حالياً بمسجد أبي ذر الغفاري، وهي تسميةٌ حديثة.

وفي «**حيِّ الأسواف**»؛ حدثت قصَّة عبد الرحمن بن عوف عندما أتى مُهاجراً من مكَّة، فآخى النبيُّ ﷺ بينهُ وبين الصحابي سَعد بن الربيع الأنصاري الخزرجي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان سعد من أكثر الأنصار مالاً، وكانت مزارعهُ في هذا الحي، فلما نزل عنده عبد الرحمن بن عوف قال له بنُبلٍ وكرم وإيثار: يا أخي؛ إنني أكثر الأنصار مالاً، وسأقسِم مالي بيني وبينك نصفين! ولي زوجتان، فانظر إليهما واختر أعجبهما إليك، فأطلِّقها وتتزوَّجها!، ولكن هذا الكرم من سَعد بن الرَّبيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تلقتهُ نفسٌ كريمة -هي نفس عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- الذي قال له: بارك الله لك في مالك وأهلك، ولكنْ دُلَّني على سوق المدينة، فدلَّهُ على سوق اليهود «**سوق بني قينقاع**»، فذهب عبد الرحمن وجعل يَصْفِقُ في هذا السوق ويتاجر، حتى أصبح بعد ذلك من أثرياء الصحابة[1].

والأسواف: هي مكان النخل الذي كان سعد بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يريد أن يقسمهُ، وأن يهب نصفهُ لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكن سعد بن الربيع لم يكتفِ بالكرم بالمال، بل أتبعهُ الكرم بالنفس، فقد استشهد في معركة أُحد، ولفظ آخر أنفاسه، وهو يتلقى السلام من رسول الله ﷺ، وقد ترك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد استشهاده زوجةً وبنتين، وكانت العرب لا تورِّث البنات، فكانت كلُّ أموالهِ ستذهب إلى قرابتهِ من الرجال، ولن يبقى شيءٌ لزوجته ولا لبناتهِ!

فجاءت امرأة سعد بن الرَّبيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى رسول الله ﷺ بابنتيها من سعد، فقالت: يَا رَسُولَ الله، هَاتَانِ ابْنَتَا سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، قُتِلَ أَبُوهُمَا مَعَكَ فِي أُحُدٍ شَهِيداً، وَإِنَّ عَمَّهُمَا أَخَذَ مَالَهُمَا، فَلَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالاً، وَلَا يُنْكَحَانِ إِلَّا وَلَهُمَا مَالٌ، فَقَالَ: «**يَقْضِي الله**

(١) «صحيح البخاري» (٢٠٤٨).

فِي ذَلِكَ»، فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: «أَعْطِ ابْنَتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ، وَأُمَّهُمَا الثُّمُنَ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ»[1].

ولم يكتفِ النبي ﷺ ببيان القسمة؛ ولكنه تولاها بنفسه، وحضر إلى «**الأسواف**» يقسم للبنات نصيبهن، وللأم نصيبها، وللعم نصيبه.

فعن جابر رضي الله عنه قال: خَرَجْتُ أُرِيدُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي مَسْجِدِهِ، فَلَمْ أَجِدْهُ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ لِي: هُوَ بِالْأَسْوَافِ عِنْدَ بَنَاتِ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، أَخِي بَلْحَارِثِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ يَقْسِمُ بَيْنَهُنَّ مِيرَاثَهُنَّ مِنْ أَبِيهِنَّ، وَكُنَّ أَوَّلَ نِسْوَةٍ وَرِثْنَ مِنْ أَبِيهِنَّ فِي الْإِسْلَامِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ الْأَسْوَافَ، وَهُوَ مَالُ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي صُورٍ مِنْ نَخْلٍ[2]، قَدْ رُشَّ لَهُ فَهُوَ فِيهِ، فَأُتِيَ بِغَدَاءٍ مِنْ خُبْزٍ، وَلَحْمٍ قَدْ صُنِعَ لَهُ، فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَكَلَ الْقَوْمُ مَعَهُ، ثُمَّ بَالَ، ثُمَّ تَوَضَّأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلظُّهْرِ، وَتَوَضَّأَ الْقَوْمُ مَعَهُ، ثُمَّ صَلَّى بِهِمُ الظُّهْرَ، ثُمَّ قَعَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ مَا بَقِيَ مِنْ قِسْمَتِهِ لَهُنَّ حَتَّى حَضَرَتِ الصَّلَاةُ، وَفَرَغَ مِنْ أَمْرِهِ مِنْهُنَّ، فَرَدُّوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضْلَ غَدَائِهِ مِنَ الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ، فَأَكَلَ، وَأَكَلَ الْقَوْمُ مَعَهُ، ثُمَّ نَهَضَ، فَصَلَّى بِنَا الْعَصْرَ، وَمَا مَسَّ مَاءً وَلَا أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ[3].

ونلاحظ هنا استغراق النبي ﷺ واهتمامه بميراث بنات سعد بن الربيع رضي الله عنه، فهو يتعامل معهنّ كوليٍّ لهن، وكأنّما يقول ﷺ: هؤلاء بناتي أنا أتولَّى أمرهنَّ، وأقسم المال لهنَّ، وقد جلس لذلك من الضحى إلى ما بعد صلاة العصر.

(١) «مسند أحمد» (١٤٧٩٨)، و«جامع الترمذي» (٢٠٩٢).
(٢) أي: الجماعةُ مِنَ النَّخْل. ينظر: «النهاية» (٣/ ٥٩).
(٣) «مسند أحمد» (١٥٠٢٠).

ونحن لا نستطيع أن نتحقَّق من المكان الذي صلَّى فيه النبيُّ ﷺ الظهر والعصر؛ لكنَّنا نعرف المكان الذي صلَّى فيه النبيُّ ﷺ ركعتين، وأطال فيهما ودعا، ثم سجد سجود الشكر وهذا المسجد «**مسجد السجدة**» أو «**مسجد الشكر**»، قد اشتهرت تسميته بمسجد أبي ذرٍّ الغفاري، والعجيب أن هذه التسمية قديمة من القرن السابع، وقد ذكرها المطري المتوفي عام (٧٤١هـ) في كتابه «**التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة**»، وقال: لا أعلم لهذه التسمية أصلاً، ثم جاء مؤرِّخو المدينة من بعده وكرَّروا الكلام نفسه، وإلى الآن ما زال يُطلق عليه هذا الاسم! وإنما هو مسجد الأسواف، أو مسجد السجدة، أو مسجد الشكر.

أمَّا خبر صلاة النبي ﷺ في هذا المكان، وسجودهِ سجدة الشُّكر فيه فقد روى خبرها عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كنتُ في رحبة المسجد -يعني فناء مسجد النبي ﷺ-، فرأيتُ رسول الله ﷺ خارجاً من الباب الذي يلي المقابر -الباب الشرقي- قال: فتلبثتُ قليلاً ثم تبعتهُ، فتوجَّه إلى الأسواف، فدخل حائطاً من حيطان الصدقة، وكأني بعبد الرحمن بن عوف الذي تابع النبيَّ ﷺ شعر أنه يريد خلوةً يتعبَّد فيها لربِّه، ولذلك تابعهُ عن بُعد، فرأى النبي ﷺ يدخل هذا الحائط، فيتوضأ ثم يُصلِّي ركعتين.

صَلَّى النبيُّ ﷺ ودعا في صلاتهِ ولا نستيقن بم دعا هناك؛ لكن نكاد نربط بينهُ وبين البشرى التي تلقَّاها، وسجود الشكر الذي سجده فقد صلَّى ركعتين، ثم سجد سجدةً طويلة حتى أشفق عليه عبد الرحمن بن عوف الذي كان يرمقهُ عن بُعد، وظنَّ أنّ النبيَّ ﷺ قد قُبض في سجوده ذلك، فلما انصرف ﷺ من سجوده، اقترب منه عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما شعر النبيُّ ﷺ به قال: «**مَنْ؟ عَبْد الرَّحْمَن؟!**» قال: لبَّيك، يا رسول الله، إني رأيتك سجدت سجوداً أطلتهُ، فخفتُ عليك حتى ظننت أنَّ الله

قد قبضك في سجودك، فقال: «**إِنَّ جِبْرِيلَ بَشَّرَنِي أَنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيَّ سَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ**»[1].

إنها الحفاوة النبوية بهذا الفيض الإلهيِّ الغامر لكلِّ مُسلمٍ يُصلِّي على النبيِّ ﷺ أو يسلم عليه، وقد تلقَّى النبيُّ ﷺ هذا العطاء الإلهي بسجود شكرٍ، أطالهُ حتى ظنَّ عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن روحه قد قُبضت.

ويا لله ماذا كان دعاؤه في سجوده، ومحامده لربه، وثناؤه عليه، وامتنانه له في ذاك السجود الطويل الطويل؟

إنني أظنُّ أن بين سجود الشكر الذي سجده النبيُّ ﷺ، وبين صلاته التي دعا فيها ارتباطاً، وأن النبيَّ ﷺ دعا في صلاتهِ تلك لكلِّ مَن صلَّى وسلَّم عليه من أمَّته، وأنه سأل ربَّه أن يتفضَّل ويتكرَّم على كلِّ من صلَّى وسلَّم عليه، فأكرمهُ ربُّه وجاءته البشرى في مُصلَّاه.

إن معنى صلاتنا على النبيِّ ﷺ، أنا نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يزيد قدرهُ الشريف شرفاً، وأن يزيد ذكره الرفيع رِفعةً، ومقامه العالي علواً، وأن يزيده ثناء وتكريماً في الملأ الأعلى.

وما أجمل ما يقول ابن القيم: من صلَّى على النبيِّ ﷺ، فإنه يسأل الله أن يزيده تشريفاً وكرامةً ورِفعة، وإن الجزاء من جنس العمل، فإنَّ الله يُجازي من صلَّى على نبيِّه ﷺ، وسأل له التكريم والتشريف والرِفعة يُجازيه من جنس عمله، فيُشرِّفه ويُكرمه ويرفع قدره ويوليه فضله[2].

---

(١) «مسند أحمد» (١٦٦٢)، و«مسند أبي يعلى» (٨٤٧)، و«شعب الإيمان» (١٤٥٦).

(٢) «جلاء الأفهام» (ص١٦٤، ٤٥٤).

وهل ثمَّة تشريف ورفعة أعظم من أن نشعر ونحن نُصلِّي على نبيِّنا الكريم ﷺ، أنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ يذكرنا نحن العبيد الفقراء؟، فيُشرِّفنا إذا صلَّينا على نبيِّه فيُصلِّي علينا، وإذا سلَّمنا على نبيِّه فيُسلِّم علينا في الملأ الأعلى.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على نبيِّنا مُحمد، وعلى آله وأصحابه ومن اتبعه[١].



موقع مسجد الأسواف



(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٤/ ١١)، و«تاريخ معالم المدينة» (٢٣٧)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٣٢٦)، و«آثار المدينة» (١٣٩)، و«طيبة المدينة النبوية» (٢٨٥).

بئر ومزرعة سَلمان (١)





طريق مزرعة سلمان الفارسي «الميثب أو الفقير» بالمدينة المنورة

الحديث عن بئر سلمان وغِراس سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حديثٌ عن العظمة النبوية في بِناء الشخصية، بحيث نَقل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صحابته ليكونوا في مقدِّمة القيادة، وأعاد تأهيلهم حتى تجاوزوا أصعب ظروف الحياة، واستعادوا لياقتهم واستواءهم النفسي.

إن الحديث عن غِراس سلمان وبئره، حديثٌ عن ملحمةِ طلبِ الهداية، فحياة سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلُّها كفاح في تطلُّب الهداية، والبحث المُضني الدائم في الوصول إليها.

حكى سلمان قصَّة معاناته ورحلته من بدايتها لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فذكر له: أنه كان رجلاً من أهل فارس، من بلدة «جِيٍّ»[(١)]، وكان أبوه دِهْقاناً[(٢)]، وكان يحبُّه كأشدِّ ما يحبُّ الآباء أبناءهم، حتى إن هذا الحبَّ تحوَّل إلى احتواءٍ وحماية، حالت بين سلمان والاتِّصال بالعالم الخارجي، وكان يُوكل إليه -وهو صغيرٌ- مهمَّةً كبيرة مقدَّسة عندهم، وهي إبقاء النَّار مُتَّقدة؛ لأنَّهم كانوا يعبدون النَّار التي هي عندهم إله النور، فوكَّلوا إلى سلمان هذه المهمَّة كنوعٍ من التأهيل الديني، ولعله كان يتساءل حينذاك عن حقيقة هذا الإله الذي يحتاج إلينا ليبقى على قيد الحياة، ويحتاج إلى رعايتنا، فكيف يرعانا؟!

وشبَّ سَلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الرعاية المُحيطة به، حتى احتاج أَبُوه إلى بناء ضَيعَةٍ له، وكان يشرف على بنائها ويتعاهدها، فشُغل يوماً واحتاج أن يرسل ابنه سَلمان وهو فتى، ليشرف على عملها في غيابه، فقال له: اذهب إلى الضَّيعة فإني قد شُغلت، ولا تتأخر عليَّ فتشغلني عليك.

وذهب الفتى سلمان وفي طريقه إلى الضيعة التي أوكل إليه أمر العناية بها، رأى مجموعةً من نصارى الشام يتعبَّدون، فلفتت نظره على صغر سنه هذه العبادة التي لم يعهدها، وهذا مؤشر على يقظة ذهنية كان يتمتع بها، ولذا وقف وسألهم عن عبادتهم فأخبروه، فإذا هي عبادة لربٍّ في السماء بيده كلُّ شيءٍ، وإليه أمر كل شيء، وليست كعبادة النَّار التي لو غفل عنها لانطفأت، وحصلت المقارنة السريعة عنده، فبقي عندهم إلى المساء يسألهم ويتعرف على دينهم، حتى تبيّن حقيقة عبادة الله وحده، وبطلان ما كان يُنَشَّأُ عليه من العبادة الزائفة والدين الباطل.

وخلال هذه الفترة كان أبوه ينتظره وقد شُغل عليه، فلمَّا عاد في المساء سأله أبوه: أين كنت؟ هل ذهبت إلى الضيعة؟ فقال: لا، بل مررت بأناسٍ من أهل الشام على دين،

---

(١) مدينة قديمة بأصفهان. ينظر: «آثار البلاد» (ص:٢٩٦).

(٢) رئيس القرية ومقدم أصحاب الزراعة، وهو فارسي مُعَرّب. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٤٥).



فوقفت عندهم وسمعتُ منهم، فإذا دينهم خيرٌ من ديننا، فقال له أبوه بهلع: احذر منهم، فأنت على دينٍ خيرٍ من دينهم! فقال سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا بل دينهم خيرٌ من ديننا.

فلمَّا رأى الأب أن يقظة ذهنه ستشغله عن دينه، أعاده إلى الحياطة والحماية الشديدة، فوضع القيد في رِجله وحبسه، فسرَّب سلمان إلى هؤلاء النصارى رسالةً يسألهم: أين دينكم؟ فقالوا: في الشام، قال: فإذا جاءكم ركبٌ يريد أن يذهب إلى الشام فأخبروني، فجاءهم ركبٌ بعدها يريد أن يذهب إلى الشام، فأخبروه، فاحتال على قيده، فحلَّه، ثم لحق بهذا الركب، وسار معهم إلى الشام.

وفي الشام بدأت ملحمةٌ أخرى من حياة سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد سألهم عن أعلم أهل دينهم؟ فدلُّوه على قسيس هو أعلمهم، فأتاه سلمان وهو لا يزال فتىً صغيراً، وقال له: أتيتُ لأكون معك وعلى دينك، فأذن لي في ذلك؟ فأبقاه القسيس عنده.

يقول سلمان: فوجدتُه رجل سوء، يأمرهم بالصدقة، ثم يأخذها فيكنزها عنده، فأبغضته أشدَّ البُغض، فلما مات أتى النصارى إليه، فقلت لهم: سأخبركم عن شأنه إنه يأمركم بالصدقة ثم يكنزها، وتعالوا أريكم كنزه، فدلَّهم على قِلالٍ من ذهبٍ يكنز فيها هذا القسيس صدقاتهم، فلمَّا اكتشفوها نبشوا قبره وصلبوه، ثم رجموه بالحجارة! وأتوا برجلٍ آخر ووضعوه مكانه.

قال سَلمان: فوجدتُه رجلاً صالحاً زاهداً عالماً، فلزمتهُ وتعلَّمتُ منه، فلما حضرتهُ الوفاة قلتُ له: إنه قد حضر بك من أمر الله ما أرى! فبمَن توصيني أن ألحق بعدك؟

قال: يا بُنيَّ! لم يعد على الأرض ممَّن هم على ديننا -وهو دين عيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الصافي الذي لم يُحرَّف- إلا أنا وأنت ورجلٌ بالموصل، فإذا أنا مِتُّ فالحق به.

فلما مات ذلك القسيس ذهب سَلمان إلى الموصل بوصايةٍ من هذا القسيس، فوجد رجلاً صالحاً عالماً فلزمهُ.

أدرك سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هؤلاءِ القسس وقد شابوا وكبروا، فهم في أُخريات حياتهم، فلا تعجب أيضاً أن هذا القسيس الثالث قد حضرهُ الموت، فقال له سَلمان: إني قد لزمتُك، وإنَّه قد حضر بك من أمر الله ما أرى فبمَن توصيني؟ فقال له: لا أعلم أحداً على ما أنا عليه إلا رجلاً في عمُّورية[١] في أرض الروم، فإن شئت فالحق به.

فلما مات الرجل ذهب سلمان إلى عمُّورية، وهناك لقي ذلك القسيس، فصحبه بقية عمره، فلمَّا حضره الموت قال له سلمان: إني قد كنتُ مع صاحبك، ثم حضرك من أمر الله ما أرى، فإلى مَن توصيني من بعدك؟!

قال: يا بنيَّ! إنه قد أظلَّك زمن نبيٍّ يُبعث في أرض العرب يُبعث في أرضٍ ذات نخل، وله ثلاث علامات: لا يأكل الصدقة، ويأكل الهدية، وبين كتفيهِ خاتم النبوة، فاذهب إلى أرضه لعلك تدركهُ.

وكان سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد شبَّ في عمُّورية وصار رجلاً يعمل، فاجتمع عنده غُنيمات وبقرات، فجعل يسأل عن أرض العرب، فلقي ركباً من العرب من قبيلة «كَلْبٍ»، فقال لهم: هل أعطيكم غُنيماتي وبقراتي أُجرةً على أن تُوصلوني إلى أرض العرب، فقالوا له: نفعل، ولَمَّا وَصلوا إلى أرض العرب حيث وادي القُرى[٢] طمِعوا فيهِ هُو، فأخذوا غَنمهُ وبَقرهُ، ثم باعوه عبداً لرجل يهوديّ في وادي القرى شمال المدينة.

يا الله! هذه الخريطة الواسعة: من أصفهان إلى الشام، ثم إلى الموصل، ثم إلى عمُّورية، ثم إلى وادي القُرى كل ذلك بحثاً عن الهداية، والعبادة الحقة للإله الحق!!

قال سلمان: فلما رأيتُ الأرض ذات نخل قلتُ: لعلها هذه، وفرح سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه في أرض نخل، وجعل يعمل تحت الرِّق عند هذا اليهودي، فبينما سلمان عنده، إذ

(١) تقع مدينة عمّورية في منطقة الأناضول الواقعة في الجزء الجنوبيّ الغربيّ من مدينة أنقرة في تركيا حاليا.

(٢) يعرف اليوم بوادي العلا: مدينة عامرة شمال المدينة على قرابة (٣٥٠ كيلًا)، كثيرة المياه والزرع. ينظر: «معجم المعالم الجغرافية» (ص:٢٥٠).

جاءه يهوديٌّ من بني قُريظة يزوره، فرأى سلمان، فأعجبه شبابه وقوته، فاشتراه وأخذه معه من وادي القرى إلى المدينة، فلما رأى الأرض ذات نخل وحِرار كما وصفها صاحب عمُّورية قال: فرجوتُ أن تكون هي.

وأخذه اليهودي إلى مزرعة في ذلك المكان الذي صار يعرف بعد ذلك بـ: «**بئر وغرس سَلمان**» وجعله عاملاً يشتغل في نخلهِ يسقي النخل، ويؤبرها، ويخترف ثمرها.

وبينما كان سَلمان في أعلى نخلةٍ يلتقط تمرها، في موسم آخِر التمر، وهو موسم يوافق شهر أيلول -سبتمبر- وسيِّدُه أسفل النخلة إذا بيهودي آخَر يَقدُم فَزِعاً، فيخاطب سيده وهو منزعج: أرأيتَ بَني قَيلة (وهم الأنصار: الأوس والخزرج)، فقال: ما لهم؟ فقال: إنهم مجتمعون هناك في قباء على رجلٍ أتى إليهم من مكَّة، يزعُم أنه نبيٌّ العرب.

وكان يقول ذلك بفجيعة وانزعاج، وكان اليهوديان أسفل النخلة، وسَلمان في أعلاها، فلما سمع ذلك أحسَّ ببرودة شديدة في جسمه، ورعدةٍ في أعضائه، وكاد أن يسقط من أعلى النخلة! فنزل مسرعاً وأقبل على ذاك اليهودي يسأله: ماذا قلت؟ أتى من ماذا؟! وإذا بسَيّده يَضربهُ ضربة عنيفة على صَدره، ويقول: وما أنت وذلك؟ وأعاده إلى النخلة ليتم عمله؛ لكن بعد أن وصلت إليه المعلومة، واستقرت في وعيه[١].

يا لله ولمشاعر سَلمان، فهو يشعر أنَّه اقترب من النُّور الذي طالما رحل إليه، وعثر على الهدى الذي طالما بحث عنه.

ولذلك ما أن حلَّ الظلام، حتى جمع سَلمان شيئاً من تمر، فذهب إلى قباء، وأتى النبيِّ ﷺ وقال له: إني قد سَمعتُ أنَّك قد أتيت ومعك قومٌ مساكين، وعندي صدقة، ورأيت أنَّك أحقُّ بها أنت وأصحابك، يقول سَلمان رضي الله عنه: فأخذ النبي ﷺ التمر، وقَرَّبهُ إلى أصحابهِ، وجعل سَلمان يرقُب فعل النبيِّ ﷺ، فرأى من معه أكلوا منه ولم يأكل هو شيئاً، فرجع سَلمان وهو يقول: هذه واحدة.

(١) «مسند أحمد» (٢٣٧٣٧).

ثم مضت أيام إلى أن اجتمع عنده شيءٌ من طعام، فذهب به إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في قباء، فقالوا له: إنه قد ذهب إلى المدينة، فذهب إليه في المدينة، وأحضر الطعام للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقال: هذه هديةٌ أتيتُ بها إليك أنت وأصحابك، فوضع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الطعام، وأكل منه هو وأصحابه، فقال سلمان: هذه الثانية.

وبقي أن يرى خاتم النبوة بين كتفيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قال سَلمان: فأتيتُ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقد تَبِع جنازةً إلى البقيع، وكان مِن عادة العرب أنهم يَلبسُون الرِّداء على ظهورهم فوق القميص، قال: فجلس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وجلس أصحابه حَوله، وجعلتُ أَدُور حَوله من خلفه لعلي أرى خاتم النبوة، فشعر بي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وعَرف عمّ أبحث فألقى رِداءه، وما أن رأى سَلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الخاتم -وهو العلامة الثالثة- حتى انفرط زِمام العاطفة في نفسِهِ، فانكبَّ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُقبِّلهُ ويحتضنهُ، وكأني به يقول: أخيراً قد وصلتُ إلى النور وها قد غمرني الضِّياء، فهنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ[(١)].



موقع مزرعة سلمان



(١) ينظر في ذلك: «الـدرة الثمينة» (١٠٢)، و«وفـاء الوفاء» (٤/ ٧٠)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٤٢٢).

بئر ومزرعة سَلمان (٢)



أسلم سَلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول قُدوم النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المدينة؛ لكنه بقي تحت الرِّق، ففاتت عليه معركتا بَدر وأُحُد، وجعل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُحفِّزه، ويبعث فيه أشواق الحرية، ويقول: «**كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ، كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ**»؛ يعني: اشترِ نفسك من هذا اليهودي، وكأني بسلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلَّما قال له النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذلك يقول في نفسه: مِن أين ذلك؟! وكيف ذلك؟ ولكنه استجاب لأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فذهب إلى اليهودي، وقال له: إني أريد أن أُكاتبك وأشتري نفسي، فتحرَّكت أطماع اليهودي، وطلب منه ثمناً مُبالغاً فيه جداً، وهو أشبه بثمن تعجيزي، وذلك أن سَلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان رجلاً فَتيًّاً قوياً ذا بَسطةٍ في الجسم، فهو رقيق ثمين فغَالى اليهودي في ثمن كتابته، وقال لسلمان: أُكاتبك على ثلاثمئة نخلة تغرسها لي وتُثمر وتعطيني أربعين أوقية[١] من ذهب، فأخبر سلمان بذلك النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فقال لسلمان: «**كَاتِبْهُ**».

فكيف غرس سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غِراسه؟!

وكيف أدى ذهبه؟!

لقد استنفر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الأنصار وقال لهم: «**أَعِينُوا أَخَاكُمْ**»، فجعل الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحملون له من فسائل نخيلهم حتى اجتمع عنده ثلاثمئة فسيلة.

(١) الأوقية تساوي أربعين درهماً.

ثم قال النبيُّ ﷺ لسَلمان: «**اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ**[١] **لَهَا، فَإِذَا فَرَغْتَ فَأْتِنِي أَكُونُ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ**»، فجعل سَلمان يحفر لكلٍّ واحدة ويضع الفسيلة بجانبها، ثم أخبر النبيَّ ﷺ فخرج.

فجاء النبيُّ ﷺ إلى مكان الغراس، فكان يجلس على حوض كل فسيلة، ويقول: «**نَاوِلْنِي يَا سَلْمَان**»، فإذا وضع سَلمان الفسيلة جعل النبيُّ ﷺ يُسوِّي التُراب حولها بيده الشريفة! فكلُّ هذه الفسائل سَوَّاها النبي ﷺ بيده، فكانت هذه اليد المُباركة هي التي تغرس لسَلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما كاتب عليه.

يقول سَلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فغرس النبيُّ ﷺ بيده ثلاثمئة فسيلة، فوالذي بعثه بالحقِّ ما مات منها واحدة! وهذا ليس معتاداً لدى أهل النخيل[٢]؛ فإن الغراس يسلم بعضه ويموت بعضه، أمَّا ما غرسهُ النبيُّ ﷺ بيده، فقد علق كلُّهُ ونما، ولم يمت منه شيء!

ثم إن جميع الفسائل قد أثمرت في العام الذي يليه، وبذلك أدى سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما عليه من غراس النخيل.

أما الدُّفعة الثانية وهي الأربعون أُوقية من ذَهب، فكانت مبلغاً ضخماً لا يدركه كسب سلمان، فأُهديت إلى النبي ﷺ مثل بَيضَةٍ من ذَهب، فما إن وَقعت في يده ﷺ حتى سأل: «**أَيْنَ الْفَارِسِيّ الْمِسْكِين الْمُكَاتَب؟!**»، فدَعوا سَلمان، فقال ﷺ: «**خُذْ يَا سَلْمَان، فَأَوْفِ مِنْهَا دَيْنَك**».

فأخد سَلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تلك البيضة الذهبية، وسأل: وما تأتي هذه في أربعين أوقية؟، فقال له النبي ﷺ: «**أَدِّ مِنْهَا يَا سَلْمَان؛ فَإِنَّ اللهَ سَيُؤَدِّي عَنْكَ**».

---

(١) أي: احفر. ينظر: «غريب الحديث» للحربي (٢/ ٣٦١).

(٢) المعتاد أن الفسائل إذا غرست تتلف نسبة منها لا تقل عن (١٠٪).



قال سَلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فو الله! لو وُزن بها جبل أُحد لوزنته، وجعل يقطع منها لذلك اليهودي حتى أوفاه أربعين أوقية!! ونال سَلمان بذلك حرِّيته[١].

ولئن كان خبر سَلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل الحرِّية عَجباً، فإن خبره بعد الحرِّية عجبٌ أيضاً.

فسلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان تحت السُّخرة والرِّق إذا به بعد الحرِّية يتأهل سريعاً للمشاركة الاجتماعية الفاعلة؛ رأياً وعملاً في حياة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ففي غزوة الخندق كان سَلمان في مجلس القيادة! يُشارك في اتخاذ القرار الصحيح تجاه غزو قريش وأحزابها، وقد أعدُّوا عُدَّتهم وجَمعوا أحزابهم.

سَلمان الذي كان رقيقاً يعتني بالنخل أصبح الآن داخل غرفة القيادة يُشارك في اتخاذ القرار، بل هو الذي أشار على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بحفر الخندق، فاتخذ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ القرار بناءً على مَشورة سَلمان!

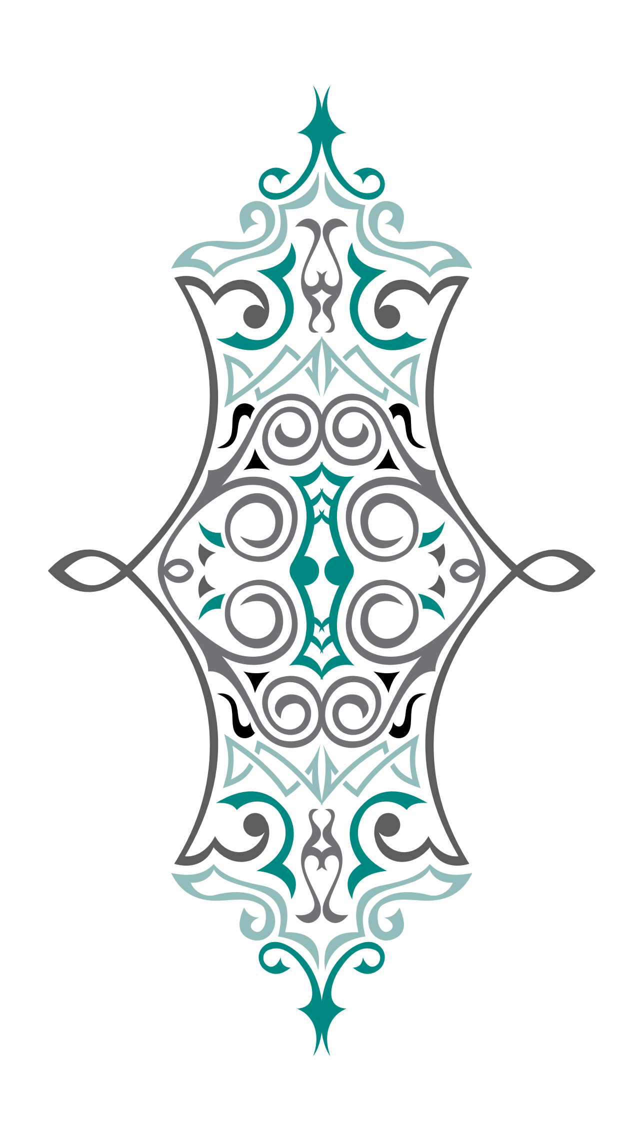
والأعجب: أن سَلمان الذي خرج من فارس فتى يافعاً، عاد إليها بعد نحو من خمسين سنة أميراً على المدائن[٢]، عاصمة كسرى التي فيها إيوانه، وذلك بعد فتحها سنة (١٦هـ).

إنها هبةٌ من الله للفتى الذي خرج من بلاد فارس هارباً يبحث عن الحق، فكانت الهبة العظمى هدايته للحق الذي صدق واجتهد في طلبه، ثم الكرامة بصحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وما عند الله خير وأبقى.



(١) «مسند أحمد» (٢٣٧٣٧).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٦١١٠).





مسجد بني النضير «الفضيخ»



كانت قُبَّة النبيِّ ﷺ حين محاصرته بني النضير قريباً من هذا المسجد، حيث أقام ﷺ فيه سِتَّة أيام، وكان يُصلِّي فيه.

ويسمى «مسجد الفضيخ»؛ لأن النبيَّ ﷺ وهو في حال حِصار بني النضير، نزل عليه تحريم الخمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾.

فصار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أمام جهادين: جهاد العدو، وجهاد النفس.

وكما كانوا صادقين في جهاد العدو، فقد كانوا صادقين في جهاد النفس، فما أن نزل تحريم الخمر، حتى نزل أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه راوية خمر، فأراقها في هذا الوادي المقابل لمنطقة المسجد[1]، حتى سال الوادي بالخمر الذي كان مع الصحابة[2].

وشُربُ الخمر عادةٌ مُسيطرة، ومَالكة للإرادة؛ لكن صُنع النبيِّ ﷺ في نفسيات الصحابة، وملئها بالعبودية لله والخُضوع لأمره، جعلتهم يُبادرون فيُريقُون الخمر في

(١) «تاريخ المدينة» لابن شبة (١/ ٦٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٤٦٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٨٠).



هذا الشِّعب دون أن يتردَّدوا، وهم يقولون: انتهينا يا ربنا، انتهينا، فسالت رَوايا الخمر هنا، وكانت خمرهم من نوع اسمه: «**الفضيخ**»[1]، فسُمِّي المكان باسم «**الفضيخ**».

عَرف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لهذا المكان قَدره، وهو صلاة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيه وهو في حال جِهاد، فبُني المسجد في حياة الصحابة، ولذلك كان جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعرِّف بهذا المكان، فيقول: ضَرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قُبّتَه عند مسجد الفضيخ، وكان يُصلِّي فيه[2]؛ فهذه تسمية الصحابة لهذا المكان.

فإن سألت عن عبقرية الاختيار حيث اختار النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المُرابطة فيه أثناء الحصار؟!

فإن هذا المكان يفصل بين بني النضير وبني قريظة، فنزول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هنا يعني قطع الإمداد من بني قريظة إلى بني النضير، كما أنه يعني حماية ظهر النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، حيث تقع قباء ومنازل بني عمرو بن عوف خلف هذا المكان، فكان اختيار هذا المكان عبقريةً حربية، واختياراً لنقطةٍ استراتيجيةٍ؛ لتكون هي مُعسكرَ المسلمين، فأصبح بنو النضير مقطوعين عن حلفائهم من بني قريظة، في حين أن المسلمين لهم الإسناد الخلفي من بني عمرو بن عوف، ومن منازل قباء، وبذلك أصبح الحصار مستحكماً على بني النضير، والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في هذا المكان يعمُره بالصلاة والرِّباط ستة أيام؛ ليُبنى بعد ذلك مسجد الفضيخ في مُصلَّى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خلال هذه الأيام الستة، التي هي جزءٌ من عملية الحصار التي استمرَّت خمسة عشر يوماً.

أما عن أسباب هذه المعركة، وكيف بدأت؟ ولماذا انبعث اليهود للحرب؟!

فإن قصة بني النضير، قصة غدر وخيانة تليق بأخلاق اليهود وطباعهم؛ وذلك أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عندما قدم المدينة عاقد اليهود وعاهدهم على حياطة المدينة والتناصر في الدفاع عنها، وهو ما يمكن التعبير عنه بأنه: اتفاقية دفاع مشترك.

---

(١) شراب يتخذ من البسر المفضوخ وحده، من غير أن تمسه النار. ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٤٥).

(٢) «تاريخ المدينة» (١/ ٦٩).

فلمَّا وقعت معركة أُحد، وجرى المصاب على المسلمين، وقُتل منهم سبعون شهيداً؛ تحرَّكت أطماع يهود وارتفعت معنوياتهم، ودبَّت أفاعي الغدر والخيانة بينهم، ثم حصلت موقعة «**بئر معونة**»، التي قُتل فيها سبعون من المسلمين أيضاً، وتأثَّر النبيُّ ﷺ وحزن لمقتلهم، حتى قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما رأيت رسول الله ﷺ حزن على أحدٍ، كما حزن على أهل بئر معونة[1].

هنا ظنَّ اليهود أن هذا هو الوقت المناسب لإنهاء الاتفاقية، والنكث بالعهد، وإعلان الحرب على رسول الله ﷺ، وقالت لهم أمانيهم الكاذبة وأطماعهم الخائبة: هذه هي الفرصة المواتية لنقض الاتفاق، وإعلان الحرب على مُحمد ﷺ، والانقضاض عليه، فهاتان مصيبتان متتابعتان على رسول الله ﷺ، فلتتبعهما هزيمةٌ أخرى على أيدي يهود.

فاتفق يهود بني النضير، وبنو قريظة على ذلك[2]، فكان هذا إعلان حرب؛ لأنهم ظنُّوا أنهم في مركز قوة وأن النبيَّ ﷺ -في أوهامهم الخائبة- في حال ضعف؛ فأعلنوا الحرب.

وكان النبيُّ ﷺ في غاية التهيؤ لهذا الإعلان، فقام بحركةٍ عسكريةٍ سريعة فحاصرهم وقطع التواصل بينهم، وعرض عليهم تجديد العهد الذي نقضوه، فجاءتهم رسائل الإمداد من المنافقين: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾.

---

(١) «صحيح مسلم» (٦٧٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٠٢٨)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٦).



فغرَّتهم هذه الأماني الكاذبة، ورفضوا تجديد العهد، فتحرَّك النبيُّ ﷺ سريعاً إلى بني قريظة، وحاصرهم، وطلب منهم تجديد العهد، وشعر بنو قريظة أنَّ الأوهام الكاذبة والأماني الخادعة ليست في صالحهم، فجدَّدوا العهد وتخلوا عن حلفائهم بني النضير، وبذلك جُدد العهد مع بني قريظة مرتين، ومَنَّ النبي ﷺ عليهم وعفا عنهم.

ثم عاد ﷺ إلى بني النضير وحاصرهم وكان مسجد الفضيخ في محلِّ الحصار، وحتى يُضعف النبيُّ ﷺ انتماءهم للأرض، وطمعهم في البقاء، بدأ بتحريق بعض نخيلهم، ورأى بنو النضير نخيلهم يُحرق ويُقطع، فضعفت معنوياتهم، وتشبُّثهم بالمكان، وبعد خمسَ عشرة ليلةٍ من الحصار دبَّ الرعب في قلوب بني النضير، وشعروا أن الإمدادات الموهُومة التي كانوا ينتظرونها من أوليائهم المنافقين لن تصل، وأن فرصتهم هي قبول النزول على الصلح مع النبيِّ ﷺ، ولو كان هذا الصلح هو إجلاءهم من أرضهم!

وتمَّ الصلح على أن يُجلوا من أرضهم، وأن يحملوا أموالهم إلا السلاح.

فجمعوا أموالهم، حتى إنهم نقضوا خشب بيوتهم، فحملوا منه ما يستطيعون حمله، وما لا يقدرون على حمله أفسدوه حتى لا ينتفع به المسلمون[1]، ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وحملوا ثرواتهم كلها؛ حتى أن سَلَّام بن مِشكم حمل معه مِلء جلد بقرة ذهباً وفضة.

لقد كانت ديار بني النضير سلَّة غذاء وخزانة مال، وكانوا فيها مطمئنين حتى نقضوا العهد، فأُجلوا منها، وترحلوا إلى خيبر، وأفاء الله على رسوله ﷺ أوطانهم، وما فيها من نخيلهم ومزارعهم.

---

(١) «مغازي الواقدي» (١/ ٣٧٤)، و(١/ ٣٨٠).



صورة قديمة لمسجد الفضيخ

والفيء هو الراجع إلى المسلمين من مال الكفار بغير قتال[1]، وهو للنبي ﷺ يصرفه حيث يرى، ولا يقسم قسمة الغنائم، ولذا دعا النبي ﷺ زعماء الأنصار يستشيرهم في قسمة ما أفاء الله عليه، فقال لهم: «**إِنْ أَحْبَبْتُمْ قَسَمْت بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ مِمّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيّ مِنْ بَنِي النّضِيرِ، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ السّكْنَى فِي مَسَاكِنِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أَعْطَيْتهمْ وَخَرَجُوا مِنْ دُورِكُمْ**»، أي: ويكتفون بها وتكفيهم لأنه ﷺ لو قسمها على المهاجرين والأنصار معاً، فلن تُغني المهاجرين، أما إن قُسمت على المهاجرين وحدهم، فإنها تُغنيهم ويكتفون بها عن نفقة الأنصار عليهم.

ومع أن هذه الأموال ممَّا أفاءه الله على رسوله ﷺ يقسمها كما يشاء، إلا أنه لم يقطع فيها برأي إلا بعد المشورة، وخصَّ بالمشورة الأنصار؛ إكراماً لهم، وإشعاراً بتقديره لدورهم في إيواء المهاجرين أوّلَ ما قدموا فأشركوهم السكن والمال، وليكون نزولهم عن القسمة عن طيب نفس منهم.

(١) «المغني» لابن قدامة (٦/ ٤٥٣).

أما العجب العجاب فكان في جواب الأنصار رضوان الله عليهم، والذي كان غاية في المثالية الأخلاقية، حيث قالوا: يَا رَسُولَ الله، بَلْ تَقْسِمُهُ لِلْمُهَاجِرِينَ وَيَكُونُونَ فِي دُورِنَا كَمَا كَانُوا، ونادوا: رَضِينَا وَسَلَّمْنَا يَا رَسُولَ الله. فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اللهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ**»[1].

يا لله، ما هذه النفوس الملائكية التي تبذل هذا البذل، وبهذا السخاء والإيثار إنهم الأنصار الذين: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2].



موقع مسجد الفضيخ



(١) «مغازي الواقدي» (١/ ٣٧٩)، و«تاريخ المدينة» لابن شبة (٢/ ٢٨٤).

(٢) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١٧٩)، و«تحقيق النصرة» (١٣٧)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ٣٢)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٢٣)، و«آثار المدينة» (١٤١)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٥٥)، و«طيبة المدينة النبوية» (١٠٥).



البيداء



البيداء هي الأرض الجرداء التي لا عَلَم فيها، وبيداء المدينة أرض مستوية مرتفعة جنوب المدينة تلي ذا الحليفة، ويَصعد إليها المتوجه من ذي الحليفة إلى مكة، وبينها وبين المسجد النبوي حوالي (٩كم)، وقد بلغها البنيان الآن، واتصلت بالمدينة وكانت خارجها إلى عهد قريب.



صورة للبيداء

وللبيداء ذكر في السيرة وفي الأحاديث، فقد عبرها النبي ﷺ في طريقه إلى بدر، وفي طريقه راجعاً من غزوة بني المصطلق وفي طريقه إلى مكة وفي عمرة الحديبية وعمرة القضاء.

وفي حجة الوداع أحرم في ذي الحليفة من الحديبية متوجهاً إلى مكة، فلما علا شرف البيداء رفع صوته بالتلبية فظن أناس أن هذا أول إهلاله، وكان قد أهلّ عندما ركب راحلته بذي الحليفة، ولكن يبدو أنه رفع الصوت هنا أكثر إشهاراً للإحرام والنسك، حتى ظن من ظن أن هذا أول إهلاله[1].

ومن أشهر ما وقع في البيداء قصة عقد عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان من خبر ذلك، أن القُرعة أصابتها لتسافر مع الزوج الحبيب المحب، وكانت لا تزال الفتاة العَروب حديثة السن، وهي الجميلة تحب الجمال والتجمل، فهي لم تجاوز الخامسة عشرة من عمرها الغض الرطيب، ولذا استعارت عَقْد أختها أسماء لتلبسه في سفرها هذا، وإن كان سفرهم سفر جهاد في الغزوة التي تسمى غزوة بني المصطلق باسم من قصدوهم، أو غزوة المريسيع باسم المكان الذي قصدوه.

وعاد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من غَزاته، فلما دنا من المدينة نزل في البيداء، على عادته في النزول قبل المدينة قريباً منها إذا قفل عائداً إليها.

وفي هذا المنزل فقدت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عقدها الذي استعارته من أختها، فأخذتها الفجيعة لفقده، وشكت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حزنها، فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يلاقي همها باهتمامه، ويتفَّهم مكان العقد عندها، وإن كان لا يساوي اثني عشر درهماً، فبعث فريقاً من أصحابه يلتمسون العقد، على رأسهم أُسيد بن حُضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأقام رسول الله ينتظرهم، وأقام الناس معه، حتى أمسوا وأظلم الليل، فبات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والناس معه، وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأهمَّ الصحابة أمر الصلاة إذا حضرت، وكيف سيتوضأون لها، وكربوا لذلك، فجاؤوا إلى أبي بكر يشكون إليه ابنته، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة، أقامت برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟

(١) «صحيح البخاري» (١٥٥١)، و«صحيح مسلم» (٨٤٦).

فكرب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لذلك، فدخل عليها مغضباً ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد نام متوسداً فخذها، فقال لها بصوت مكظوم، حتى لا يوقظ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: في كل مرة تكونين عناءً، حبست الناس في قلادة؟!، وجعل يتلوَّم عليها، ويشتد في عتابها، ويقول ما شاء الله أن يقول، وكان في أبي بكر سَورة من حِدَّة تأخذه عند الغضب، فجعل يطعنها في خاصرتها، فبها كالموت من الألم، فلا يمنعها من التحرك والتأوُّه إلا مكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على فخذها؛ مخافة أن يستيقظ، ونام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حتى تنفَّس الصبحُ، وبرق الفجر، فاستيقظ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وحضرت الصلاة، فالتمس أصحابه الماء، فلم يجدوه، ولم يدرِ أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما يفعلون، فهذه صلاة الصبح يتسارع وقتها القصير، وهو أقصر أوقات الصلوات، وإذا الوحي يتنزل على رسول الله آيات تتلى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

ولا تسلْ عن فرح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمسلمين معه برخصة الله لهم، وتيسيره عليهم، حيث جعل التراب طهورهم إذا فقدوا الماء، ولا تسل عن غبطتهم وتهنئتهم لمن جعلها الله سبباً لنزول هذا التيسير على أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ولذا قال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَا أَعْظَمَ بَرَكَةَ قِلَادَتَكِ**». وجاء أُسيد بن حُضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال لها: ما أعظم بركتكم يا آل أبي بكر، جزاك الله خيراً، فو الله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله لك منه مخرجاً، وجعل للمسلمين فيه بركة، وجاءها أبوها أبو بكر الذي لامها البارحة واشتد في ملامه،



ليقول لها وعيناه تبرقان وأساريره تزهر فرحاً وغبطة ببنيته: والله إنك لمباركة، والله إنك لمباركة، والله إنك لمباركة.

وهوت الأيدي الطاهرة على الصعيد الطيب، ليصلِّي المسلمون صبيحة يومهم ذلك أول صلاة تصليها أمة محمد ﷺ برخصة الله لها بالتيمم بالصعيد، فلما قضوا صلاتهم بعثوا رحالهم إلى المدينة، فقد يئسوا من العقد بعد أن قضوا عشيَّتهم في البحث عنه فلم يجدوه، وها قد عوضهم الله خيراً هذه الرخصة لأمة محمد إلى يوم القيامة، فلما بعثوا جمل عائشة وجدوا العقد تحته ليتضاعف فرحها ويكتمل سرورها، وليعلموا جميعاً أن ذلك كان من جميل صنع الله لهم وتيسره عليهم(١).

وهنا وقفات:

١- كان رسول الله ﷺ في الستين من عمره، وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الخامسة عشرة من عمرها، ومع ذلك لاقى همها اهتمامه، وكان على غاية التفهم لرغائبها النفسية، فهذا العقد وإن كان لا يساوي شيئاً كثيراً عند الناس، حتى قال أبوها مستنكراً: حبست الناس في عقد؟!، إلا أنه يعني لها شيئاً مهمّاً، فهو حليتها وزينتها، وحلية المرأة من المرأة بمكان، ولذا اهتم النبي ﷺ بما اهتمت به في شاهد من شواهد خيريته مع أهله، وعظيم خلقه، ويظهر ذلك في:

أ- إقامته من أجل التماس عقدها في مكان لا ماء فيه.

ب- أرسل فريق بحث يتتبع مواضع العقد التي يتوقع وقوعه فيها.

---

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٣٣٤، ٣٦٧٢، ٤٦٠٧)، و«صحيح مسلم» (٣٦٧)، و«شرح النووي على مسلم» (٤/ ٥٨)، و«فتح الباري» (١/ ٤٣٢)، و«عمدة القاري» (٦/ ١٨).

ج- وأعظم من ذلك هذه النفس الرضية، فإنك لا تشعر أنه ﷺ فعل ذلك متلوماً أو متكرهاً، وإنما كان على حال من الطمأنينة والهدوء، والتي دل عليها نومه ليلته تلك متوسداً فخذها، وهي حال تشعر بالسكينة النفسية، والقرب القلبي، والمودة والرحمة.

د- إن السفر -وبخاصة في نهايته- مظنة التعب الجسدي، والإنهاك النفسي، بما يذهب بطاقة الإنسان النفسية، ويضعف قدرته على المداراة والصبر والتحمل، فكيف إذا كان سفر غزاة؟! ولكنك ترى نبيك ﷺ في حاله تلك كما هو في سائر أحواله، رفيق يحب الرفق، خير الناس للناس، وخيرهم لأهله، ولم تستنزف مشقة الطريق ووعثاء السفر سكينته النفسية وعظمته الأخلاقية.

٢- قانون السفر في الصحراء لا يسمح لمَن لم يكن معه ماء بالإقامة في مكان لا ماء فيه، وما كان ﷺ ليعرِّض جيشه للهلكة، أو يحمِّلهم العَنَت من أجل عقد، ولكنه ﷺ أقام تطييباً لنفس حبيبته عائشة، وأقام الناس معه والمدينة منهم غير بعيد، فليس بين البيداء والمدينة في ذلك الوقت إلا مسافة قريبة نحو (٩كم)، أما الآن فقد شملها عمران المدينة المنورة، ولذا فإن إقامة النبي في هذا المكان لم يكن فيها مشقة، ولا حرج على أحد، إلا ما أكرب الصحابة من شأن الطهور للصلاة، فجعل الله في هذه الحادثة الفرج لهم، ولأمة محمد ﷺ من بعدهم.

٣- ألا يلفتك حال أحب الناس إلى رسول الله ﷺ؟ والتي لم تجد ما تتزين به لرسول الله ﷺ في سفرها الذي ستختص فيه بحبيبها دون بقية أزواجه، إلا عقد أختها تستعيره، وكانت قيمته اثني عشر درهما، أي ما يعادل (٣٨ غراما) من فضة، ومع ذلك أهمها شأنه عندما فقدته، إنه مشهد يكشف حال النبي ﷺ الذي لم يأت إلى الناس ليتأثل أموالهم، أو يرزأهم دنياهم، أو يستكثر عليهم من زينة الدنيا ومتاعها، ولكنه عاش هو وأهل بيته على هذه الحال من القلة، وكفاف العيش، بحيث كانت حلية

زوجته الأثيرة لديه عقداً مستعاراً، لا تزيد قيمته عن سبعين ريالاً بحسابنا الحاضر، وهو الذي كان يقسم المال حثواً في الثياب، وتجري يداه بالخير كالريح المرسلة.

٤- بركة أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فما أصابها أمر تكرهه إلا جعل الله لها منه مخرجاً، وجعل للمسلمين فيه بركة.

لقد بهتت في حديث الإفك، فتحمَّلت من كرب ذلك على صغر سنها ما ظنت أن حزنه فالق كبدها، حتى تنزل وحي الله بإعلان براءتها وطُهرها آيات تتلى إلى يوم القيامة، ثم كان عاقبته لها وللمسلمين خيراً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۚ ﴾.

وضاع عقدها فحزنت، وأقام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والمسلمون على التماسه، وكرب أبوها، وحضر وقت الصلاة ولا ماء، فأنزل الله فرجاً للمسلمين، وسعة للناس ماضية إلى قيام الساعة.

وحجت مع رسول الله، فلما دنت من مكة حاضت، فحزنت وبكت، وقالت لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: والله لوددت أني لم أخرج معكم عامي هذا في هذا السفر، فقال لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ، وَإِنَّهُ لَا يَضُرّكِ، افْعَلِي مَا يَفْعَلُ الحَاجّ، غَيْرَ أَلّا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ**»[(١)]. ومن يومها ذاك وإلى يوم الناس هذا والمسلمون يعيشون سعة هذا الحكم الذي كان سببه ما عرض لعائشة وأحزنها.

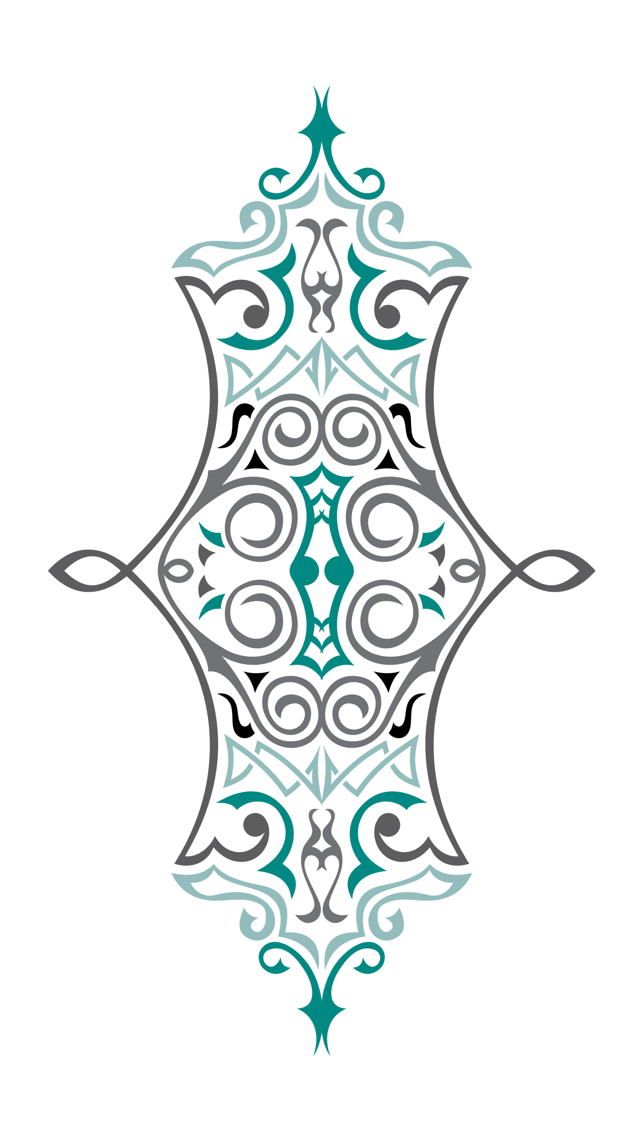
ومن بركتها: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تزوجها وهي جارية حدثة تحب اللهو، فأفسح لها في قلبه وحياته ما جعل حياتها معه شهادة حق وصدق أنه بعث بالحنفية السمحة[(٢)]، وحتى أعلم بحاله كل أهل الأديان أن في ديننا سعة[(٣)].

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٥)، و«صحيح مسلم» (١٢١١).
(٢) من كتاب «قصص نبوية» للمؤلف (ص: ٢٨٩).
(٣) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٤/ ٣٥)، و«تاريخ معالم المدينة» (٢٤٠)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٤٥١).



موقع البيداء





أُطم صِرار



يقع أُطم صِرار في الشمال الشرقي من المدينة، وحوله منازل بني حارثة من الأوس، ولا يزال لهذا الأطم بقايا قائمة إلى اليوم ويوجد في أعلاه بئرٌ، لأنه أُنشئ كتحصين حربي من أيام الجاهلية.

ويُشكِّل هذا الأُطم الحِصن العسكري؛ ليحمي ما حوله من البساتين والنخيل.



جدار من أطم صِرار بالمدينة

ومن المواقف النبوية في هذا المكان: أن نبيَّنا ﷺ أتى بني حارثة، «**وهم في سَند الحرَّة**»[1]، فقال لهم ﷺ: «**أُرَاكُمْ يَا بَنِي حَارِثَةَ قَدْ خَرَجْتُمْ مِنَ الحَرَمِ**»، و«**أُرَاكُمْ**» تُفيد الظنَّ؛ لأن هذا المكان مُحتمل فالواقف فيه يرى طرف جبل أُحد حِذاءه، وهو مُوغِلٌ في الحَرَّة، فهل هو داخلٌ في حدِّ الحرم أم لا؟!

ثم التفت ﷺ وتَحقَّق من المكان، فقال: «**بَلْ أَنْتُمْ فِيهِ، بَلْ أَنْتُمْ فِيهِ، بَل أَنْتُمْ فِيهِ**»[2]، أي: أنتم في الحرم.

وهذا يدلُّ على أنَّ السُّكنى في حدود الحرم لها مَيِّزة وفضيلة، ولذلك عاد فأكَّد: «**بَلْ أَنْتُمْ فِيهِ**» فهذه الميزة يسعد بها كُل مَن سَكن المدينة داخل حدود حَرمها.

والمسافة بين منازل بني حارثة والمسجد النبوي قرابة (٤ كم) تُقطع عادةً مَشياً على الأقدام، وهذا يبين لنا أن نبينا ﷺ كان يصل إلى رِباع الأنصار ومنازلهم المتفرقة في المدينة، ويَعمُر دُورهم بزياراته، ومنها هذا المكان الذي يُعتبر من أطراف المدينة في شمالها الشرقي، فيسعد بنو حارثة بوصول النبيِّ ﷺ إليهم ودخوله رِباعهم وتواصله معهم.

وهذا يُبيِّن لنا أن النبيَّ ﷺ كان يتنقَّل بين فِجاج المدينة كأنما يَنسِج العلاقة بين بِقاعها، ويَشُدُّ الرِّباط بين رِباعها ودُورها ليجعلها مدينةً مُترابطةً مُتواصلة، ومن أعظم ما يُقوِّي هذا التواصل تَنقُّله ﷺ بين أحيائها ودُورها.

حتى هؤلاء الذين هم في أماكن تعدّ بعيدةً عن الحرم النبوي لا يشعرون أنهم مُنقطعون عن النبي ﷺ؛ فها هُو يزورهم ويَصل إليهم، وأثمن ما يسعد به الصحابة

---

(١) سند الحرة: بداية ارتفاعها وانتهاضها عما حوله.

(٢) «صحيح البخاري» (١٨٦٩).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذا ما زار دُورهم أن يُصلي فيها، ولا أُرى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يزور أُناساً دون أن يُسعدهم بالصلاة في رباعهم، ولذلك فرِباع المدينة ودُورها مباركة مُنوَّرة بصلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيها.

وأطم صرار على طريق القوافل التي تأتي من شرق المدينة أو من شمالها الشرقي، فكلُّ مَن أتى من نجد أو العراق يأتي من جهة الشمال الشرقي، ولذلك فإن هذا المكان تلقَّى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عائداً من غزواته وأسفاره من جهة شرق المدينة أو شمالها الشرقي، فإذا وصل إلى هذا المكان نزل فيه؛ لأنه يكون بينه وبين المدينة قُرابة (٤كم)، وذلك حتى يصل الخبر للمدينة، فيتهيَّأ أهلها لاستقبال رجالهم العائدين معه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ومن أخبار نزوله في هذا المكان: خبر رجوعه من غزوة ذَات الرِّقاع، وفي طريق عودته حصلت قصةٌ جميلة عذبة يتبشبش القلب لروايتها إنها قصة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مع جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وجمله.



موقع غزوة ذات الرِّقاع بالقرب من منطقة الحناكية

فإن سألت عن جَابر وعُمْره في ذلك الوقت، فهو في قُرابة العشرين، وهذه أول معركة يُشارك فيها بعد حمراء الأسد، فقد فَاتتهُ موقعتا بَدر وأُحد وكان أبوه يقول له: اجلس وأنا سأذهب أُقاتل عسى أن أُرزق الشهادة في وَجهي هذا، فرُزق أبوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الشهادة في أُحد وأبقى له تسع أخوات يرعاهن(١).

فتزوج جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امرأة عاقلة سديدة رشيدة هي سهيلة بنت مسعود الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثم سار مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في غزوته تلك.

وكان قد ارتحل في مسيره هذا جملَهُ الذي كان يسقي عليه، وجمل السقاية عادة ما يكون مجهوداً ثقيلَ الحركة، ولذلك أعيي هذا الجمل في طريق العودة، واستُنفِدَت في هذا السفر قوته وطاقته.

وصار جابر -المتشوِّق للعودة إلى زوجته- يعاني من هذا الجمل البطيء حتى همّ أن يتركه في الصحراء، ويحمل متاعه على ظهره، ويعود مشياً على قدميه!

وبينما هو مُنقطعٌ في آخر الجيش يدفع جمله وحده في هدوء الليل وسكون الصحراء! إذا به يسمع صوتاً وَراءهُ: «**مَا لَكَ يا جَابِرُ؟**»، فخَفق قلب جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتحرَّكت أشواقه، إنه صوت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يسير أحياناً خلف الجيش ليتفقد المتخلف ويعين المُنقطع، فكان في هذه المعركة في مُؤخَّرة الجيش، فأدرك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جابراً وناداه: «**مَا لَكَ؟!**»، فقال: يا رسول الله أعيا عليَّ جملي حتى هممت أن أدعه، فقال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَعَكَ قَضِيبٌ؟**» قال: نعم يا رسول الله، فقال

(١) «صحيح البخاري» (٤٠٥٢).



ﷺ: «**هَاتِه**»، فأخذه النبيُّ ﷺ ثم نخس[1] الجمل نخساتٍ حتى يَستنهِضه، وإذا بالجمل البارك يتوثَّب ويندفع[2].

لقد كان جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدفع الجمل لكي يسير؛ ولكنه صار بعد ذلك يدافع جمله، ويكفه حتى لا يَسبِق جَمل النبيِّ ﷺ.

يا لله أصبحت مُعاناته كَفّ الجمل بعد أن كانت معاناته دَفع الجمل! وذلك ببركة النبيِّ ﷺ الذي نخس الجمل.

أتخيَّل النبيَّ ﷺ، وأتخيَّل جَابراً والجيش قد تَقدَّمهما، وهما يسيران في هدوء الليل وسكون الصحراء! فأراد النبيُّ ﷺ أن يُفيض الأُنس على قلب جابر ويرفع عن قلبه هيبة الموقف ومهابة النبي ﷺ، ولذلك بدأ النبي ﷺ يَجاذِبه أطراف الحديث فقال ﷺ لجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كَيْفَ تَرَى جَمَلَكَ؟**»، قال جابر: أنا الآن أبذل جهدي وأُنهِنَهُ حتى لا يسبقكَ، فقال له ﷺ: «**أَتَبِيعُهُ لِي؟**»، فقال: يا رسول الله هو لك، فقال ﷺ: «**لَا، بِعْنِي إِيَّاهُ**»، قال جابر: إذن قَدِّر قيمتهُ، فقال له ﷺ: «**أَتَبِيعُهُ بِدِرْهَم؟!**».

فقال جابر: يا رسول الله، إذن تَغبِنني وأكون قد خسرت، فقال له ﷺ: «**تَبِيعُهُ بِدِرْهَمَيْن؟**»، فقال جابر كما قال في الأول وجعل النبيُّ ﷺ يرفع معه السعر درهماً درهماً.

ونُلاحظ أنَّ هذا الحديث والمراجعة فيها إيناسٌ لجَابر، والذي كان في هيبةٍ من الموقف، ثم تجرَّأ وبدأ يُفاوض النبيَّ ﷺ على سِعر الجمل حتى انتهى البيع إلى ما

---

(١) النخس: الدفع والحركة. ينظر: «النهاية» (٥/ ٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٣٠٩).

قِيمَتهُ أوقية، فباعه جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واشتراه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بأربعين درهماً، فاشترط جابر أن يبقى الجمل معه بقية الطريق إلى المدينة، فأعطاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما اشترط[1]، ولو علم جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قصد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من شراء الجمل لما شرط هذا الشرط، فقد كان لجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قصد في بيعه، وللنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قصد في شرائه ستبينه بقية أحداث القصة.

ولك أن تتخيل كم قَطعوا من الطريق والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يرفع معه السعر درهماً درهماً، فالنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من خلال هذه المُفاوضة التجارية، كما كان يُؤنِس جابراً ويلاطفه ويشعره بالقرب، كان يُدرِّب هذا الشاب الذي بدأ يتحمَّل مسؤولية بيتٍ وأسرة على المُفاوضة والمُماكسة وعلى فُنون البيع والشراء، ولذلك ارتفع السعر من درهمٍ إلى أربعين درهماً.

يا لله وهذه الأُبوَّة النبوية التي يَشعر كلُّ واحدٍ من الصحابة بها منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وكأنها له خاصة، فاشتراه منه بأوقية ودرهمين، أو بأوقية وثلاثة دراهم.

وبعد ذلك بدأ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ معه مُؤانسةً أخرى جميلة، فقال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**يَا جَابِرُ، هَلْ تَزَوَّجْتَ؟**»، قال: نعم يا رسول الله، قال: «**بِكْراً أَمْ ثَيِّباً؟**»، فقال: بل ثيِّباً، فقال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا تَزَوَّجْتَ بِكْراً تُلَاعِبُها وَتُلاعِبُك! أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْبِكْرِ وَلِعابها؟!**»[2].

ونلاحظ هنا أنَّ الحديث بدأ يكون أكثر رِقَّة، وصار على ما يوافق أهواء الشباب ورغائبهم، ولذا تفاعل جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأريحية وانتشاء، وانفتحت أبواب قلبه للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فجعل يقتص الحكاية بتفاصيلها، فيقول: يا رسول الله إن أبي استُشهد في أُحد وترك تسع بنات، فلم أشأ أن أتزوَّج بِكراً صغيرة، تُضاف على أخواتي التسع فتزداد

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٧١٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٠٥٢).



بذلك المسؤولية عليَّ فرأيت أن أتزوَّج امرأة أكبر منهنَّ سنّاً ولها سابقة وتجربة حتى ترعى أمرهنَّ، فتُعلِّمُهنَّ وتُؤدِّبُهنَّ، وترعاني أنا وإياهنَّ، فتزوجت امرأة قد خلا[1] منها، فأُعجِب النبيُّ ﷺ ببَصيرة جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال له ﷺ: «**أَصَبْتَ، بَارَكَ اللهُ لَكَ**»[2].

وبدأ النبيُّ ﷺ يُؤانس قلب جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشُوق إلى زوجته، فقال: «**أَمَّا إِنَّا لَوْ قَدْ جِئْنَا صِرَاراً، أَمَرْنَا بِجَزُورٍ فَنُحِرَتْ وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا يَوْمَنَا ذَلِكَ** –حتى يستريح الجيش المتعب، ويتقوى بعد إرهاق السفر ويتهيَّأ المسافرون للقاء أهليهم بعافية ونشاط– **وَسَمِعَتْ بِنَا فَنَفَضَتْ نَمَارِقَهَا**»[3].

ونلاحظ عُذوبة كلام النبي ﷺ إنه لم يقل: تُسوِّي لك فِراش الزوجية، فعَبَّر ﷺ عن اللقاء الزوجي بتسوية النمارق، وكان جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقيراً لا يملك رفاهية النمارق، ثم قال: «**هَلْ لَكُمْ أَنْمَاطٌ؟**»[4]، قال جابر: وأنى تكون لنا أنماط؟، وذلك لرقة حال جابر وفقره.

فقال ﷺ: «**أَمَا إِنَّهَا سَتَكُونُ لَكُمْ أَنْمَاطٌ**»[5].

ثم قال ﷺ ملاطفاً: «**أَمَّا إِنَّكَ قَادِمٌ، فَإِذَا قَدِمْتَ، فَالكَيْسَ الكَيْسَ**»[6].

وما كان جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شبابه وشدة شوقه بحاجة إلى هذه الوصاة، ولكنها الملاطفة النبوية التي تلاقي رغائب الشباب وشهواتهم في وعاء الطهارة والعفاف.

---

(١) أي سبق لها الزواج وصارت ذات تجربة وخبرة.

(٢) «صحيح البخاري» (٤٠٥٢).

(٣) «مسند أحمد» (١٥٠٢٦)، و«صحيح البخاري» (٢٠٩٧)، و«صحيح مسلم» (٧١٥). والنَّمارق: هي الوَسائد. ينظر: «النهاية» (٥/ ١١٨).

(٤) أي: هل في منزلكم الذي سكنته مع زوجتك أنماط؟ –وهي البسط الفاخرة–.

(٥) «مسند أحمد» (١٥٠٢٦)، و«صحيح البخاري» (٣٦٣١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨٣).

(٦) «صحيح البخاري» (٢٠٩٧). والْكَيْسُ: أَرَادَ بِهِ الْجِمَاعَ. ينظر: «صحيح ابن حبان» (٢٧١٧).

ووصل الجيش إلى صِرار ونُحِرت الجَزور وارتاح الجيش ووصل الخبر للمدينة وبعدما أكلوا الجَزور بدأ الشباب يَتهَّيَأون؛ ليذهبوا إلى زوجاتهم، فقال النبي ﷺ: «**أَمْهِلُوا حَتَّى تَدْخُلُوا لَيْلاً -أَيْ عِشَاءً- لِكَيْ تَمْتَشِطَ الشَّعِثَةُ وَتَسْتَحِدَّ المُغِيبَةُ**»[1] وتتهيأ كل امرأةٍ للقاء زوجها فانتظر الجيش عَملاً بوصية النبيِّ ﷺ.

وكان النبيُّ ﷺ يُراعي حال الجيش الذي معه، ويُراعي أيضاً حال النساء اللاتي ينتظرن في المدينة، دَعوا النساء يتهيأن للأزواج المُجاهدين الذين غَابوا عنهنَّ قُرابة الشهر، فكل امرأةٍ تريد أن تُقابل زوجها بأحسن هيئة، وأن تَعُدَّ الطعام، وتهيئ الأطفال، هذه هي التربية النبوية.

فلمَّا أمسوا انطلق الرجال والفتية إلى بيوتهم وأزواجهم من هذا المكان «**صِرار**»، إلى حيث تتلقاهم الزوجات المحبات، وكان منهنَّ: زوجة جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن شدَّة تشبُّع جابر وأُنسهِ بهذا الموقف، فإنه حين وصل بيته جعل يحكي لزوجته ما وقع له مع النبي ﷺ في الطريق من إعياء جمله، ثم شِراء النبي ﷺ الجمل بأربعين درهماً، وكيف حكى له قصة زَواجه، وأنه ﷺ دعا لهما بالبركة، وما دار من حديثٍ عن النَّمارق وإخباره ﷺ بأنه ستكون لهما نَمارق، فحَفِظت زوجته قولة النبي ﷺ عن النَّمارق.

ولابتهاج جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بملاطفة النبي ﷺ وممازحته له، ذكر لها وصاته له حين قال: «**أَمَّا إِنَّكَ قَادِمٌ، فَإِذَا قَدِمْتَ، فَالكَيْسَ الكَيْسَ**»، وكأني بها ضحكت بنشوة، ثم قالت له: دونك.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٠٧٩)، و«صحيح مسلم» (٧١٥). والاستحداد: استعمال الحديدة في شعر العانة، وهو إزالته بالموسى، والمراد هنا إزالته كيف كانت.
والمغيبة: هي التي غاب عنها زوجها. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٠/ ٥٤).

فلما أصبح جابر غدا بجمله إلى المسجد؛ ليسلمه لرسول الله ﷺ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فدخلت المسجد، وعقلت الجمل، وقلت: هذا جملك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**الْآنَ قَدِمْتَ؟**» قلت: نعم، قال: «**فَدَعِ الجَمَلَ وَادْخُلْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ**».

ثم خرج مع جابر إلى الجمل، فجعل ﷺ يطوف على الجمل، ويقول: «**الجَمَلُ جَمَلُنَا**»، وهو بهذا يظهر الاغتباط والفرح بهذا الجمل، ثم قال لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَعْطِهِ أُوقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ، وَزِدْهُ**»، قَالَ: فَأَعْطَانِي أُوقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ، وَزَادَنِي قِيرَاطاً، فقلت: لا تفارقني زيادة رسول الله ﷺ، ثم انطلقت.

ولك أن تتخيل جابراً يسير ومعه أوقية من ذهب وزيادة، وهي ثروة لم يسبق أن اجتمعت في يديه، وكأني به بدأ يقسمها في مخيلته، ويحسب مصارفها، وكم سينفق وكم سيدخر وكم سيوفي، وإذا بنداء يقطع عليه أفكاره: يا جابر يا جابر ارجع إلى رسول الله فهو يدعوك، فقال جابر في نفسه: هل رأى رسول الله ﷺ أن الجمل لا يساوي هذه القيمة؟! الآن يرد عليّ الجمل ولم يكن شيء أبغض عليَّ منه، فلما جاء قال له ﷺ وكأني بوجهه يتهلل ويضحك للمفاجأة التي سيفاجئ بها جابراً: «**يَا جَابِرُ أَتَظُنُّ أَنِّي مَاكَسْتُكَ**[1] **لِآخُذَ جَمَلَكَ؟ تَعَالَ يَا بْنَ أَخِي خُذْ بِرَأْسِ جَمَلِكَ وَدَرَاهِمِكَ، فَهُمَا لَكَ**»[2].

ولا نستطيع تصور دهشة السرور التي ملأت نفس جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والرسول ﷺ يلاطفه هذه الملاطفة، ويناديه يا بن أخي، ولا فرحه، وقد عاد بجمله وثمنه وزيادته، وهو ما لم يكن في حسبانه، ولذا كان يسير وقد بدت عليه دهشة الفرح وغبطة السرور،

(١) المماكسة: إِعْطَاء الثّمن بأنقص. ينظر: «فتح الباري» (١/ ١٨٩).

(٢) «مسند أحمد» (١٥٠٢٦)، و«صحيح البخاري» (٢٨٦١)، و«صحيح مسلم» (٧١٥).

فمر برجل من اليهود تعجب لمرآه وحاله، فسأله فأخبره جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخبر، فجعل اليهودي يعجب ويقول: اشترى منك البعير، ودفع إليك الثمن، ثم وهبه لك؟!، قال: نعم[1].

يا لهذه البراعة في الإحسان، وتقديم الفضل في وعاء واسع من البر والكرم، ومراعاة المشاعر، وكيف يحول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الكرم والفضل إلى معاوضة تحفظ للإنسان كرامته وأحاسيسه ومشاعره وحياءه!!

وكيف يحول الفرح إلى أفراح والمكرمة إلى مكارم، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا من أحسن التكرم؛ لأن من باع شيئاً، فهو في الغالب محتاج لثمنه، فإذا تعوض من الثمن بقي في قلبه من المبيع أسف على فراقه كما قيل:

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك نفائس من ربٍّ بهن ضَنِيْن

فإذا ردّ عليه المبيع مع ثمنه، ذهب الهمّ عنه، وبقي فرحه، وقضيت حاجته، فكيف إذا انضم إلى ذلك الزيادة في الثمن؟[2].

وأما زيادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ التي حفظها جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد قال عنها: فو الله ما زال ينمى ويزيد عندنا، ونرى مكانه من بيتنا؛ حتى نهبت فيما نهب يوم الحَرَّة[3].

وأما الجمل فأقام مع جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فهرم وعجز؛ قال جابر: فأتيت به عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعرف قصته، فقال: اجعله في إبل الصدقة، وفي أطيب المراعي، ففعل به ذلك إلى أن مات[4].

---

(١) «مسند أحمد» (١٤٢٥١).

(٢) «فتح الباري» (٥/ ٣١٧).

(٣) «مسند أحمد» (١٥٠٢٦). ويوم الحَرَّة: هو يوم استباحة جيش يزيد للمدينة وانتهابها سنة (٦٣هـ).

(٤) «فتح الباري» (٥/ ٣٢٢).



ثم لحق ﷺ بالرفيق الأعلى، وغادر هذه الدنيا، وما كان له فيها من مَتاع إلا كمَتاع المُسافر.

ثم فُتحت الدنيا على أصحابه واتسعت حال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخرجت زوجته يوماً إلى السوق، فرأت أنماطاً أعجبتها، فاشترتها وأحضرتها إلى بيتها، ودخل جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورأى الأنماط، وتذكَّر الحال التي كان عليها مع النبيِّ ﷺ، تذكَّر حال الكفاف والقِلّة التي كان عليها رسول الله ﷺ وحالهم حين كانوا معه.

ولعله تذكَّر الحديث الذي جَرى بينه وبين النبيِّ ﷺ في صِرار، فعافت نَفسُه هذه الأنماط! وقال لزوجته: أبعِدي عَني أنماطك، فقالت المرأة الرَّضِية: أما قال لك: «**إِنَّهَا سَتكُونُ لَكُمْ أَنْمَاطٌ**»[1] وهذه هي الأنماط!! قال: فأنت وذاك[2].

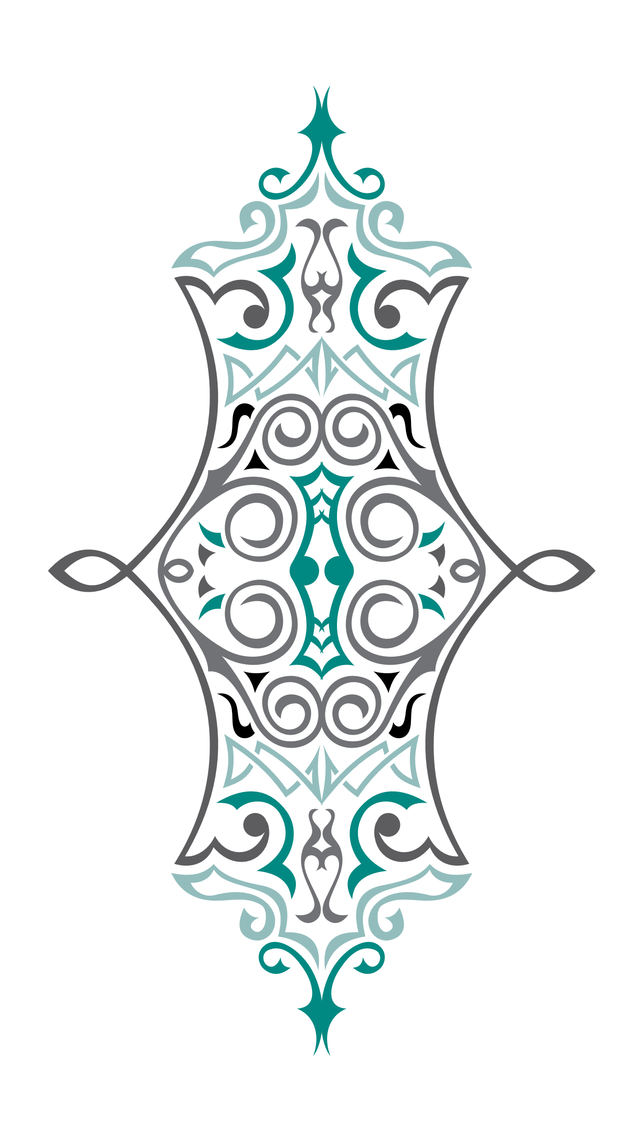


موقع أطم صرار



(١) «صحيح البخاري» (٣٦٣١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨٣).

(٢) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٤/ ١٠٤)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٣٦٧)، و«طيبة المدينة النبوية» (٣٥٥).



غزوة الخندق



تسمى هذه الغزوة بالأحزاب لكثرة من تحزب فيها من القبائل على رسول الله ﷺ، وتسمى بالخندق للخندق الذي حفره المسلمون شمال المدينة يتحصنون به من أعدائهم.

وكانت في شوال من سنة خمس من الهجرة الموافق لـ مارس/ آذار (٦٢٧م).

وكان سببها أن نفراً من زعماء يهود بني النضير الذين نزلوا خيبر سعوا في تحزيب الأحزاب وجمع القبائل، وكان زعيمهم حيي بن أخطب -سيد بني النضير- بارعاً في المفاوضات وصناعة التحالفات، فمشوا إلى قريش وأغروهم بحرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم، وخرجوا حتى جاؤوا قبيلة غطفان ودعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم، وأن قريشاً معهم واستمالوا غيرهم من القبائل وحزبوهم معهم، فخرجت قريش وحلفاؤها يقودهم أبو سفيان بن حرب، وخرجت بنو أسد يقودهم طليحة بن خويلد الأسدي، وخرجت غطفان يقودهم عيينة ابن حصن، وخرجت بنو سليم يقودهم سفيان بن عبد شمس وقبائل أخرى غيرهم، حتى كان عدد الذين حضروا الخندق عشرة آلاف مقاتل، وكانت القيادة العامة لأبي سفيان بن حرب.

وكان هدف هذه الغزوة استئصال النبي ﷺ والقضاء على دعوته استئصالاً تاماً، ولذا جمعوا هذه الجموع العظيمة التي يندر أن تجتمع وتتحزب بهذا العدد الهائل ذلك الوقت.

وهذا هو الفرق بينها وبين غزوة أحد التي كانت لطلب الثأر بمن قتل في بدر، أما هذه للقضاء على الرسول والرسالة.

ورأوا أن تكون هذه المعركة هي الجولة الأخيرة، والمعركة النهائية مع رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأن تكون هي القاضية، تقضي على الرسول وتجتث الرسالة، ولذا حشدوا لها جيشاً لا يمكن أن يهزم في حسبانهم؛ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾.

وكانت آخر غزوة غزتها قريشٌ رسولَ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وارتبطت بوقائعها مواقع في المدينة منها:

١- مسجد الراية.

٢- مسجد الفتح.

٣- كهف بني حرام.

٤- مسجد بني حرام.



مسجد الراية





صورة قديمة لمسجد الراية في بنائه القديم

في هذا المكان نَصب النبيُّ ﷺ قُبَّته وأقام ستَّة أيامٍ، وصلَّى في هذا المسجد ثلاثين صلاة، ولَمّا صلب مروان بن الحكم -وكان أميراً على المدينة- رجلاً في هذا المكان، أنكرت ذلك أمّنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقالت: تعِسْتَ، صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَاتَّخَذْتَهُ مَصْلَباً [1].

(١) «تاريخ المدينة» لابن شبة (١/ ٦٢).

ومثل ذلك ما أنكره هشام بن عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حينما قال لأمير المدينة لما صلب رجلاً في هذا المكان: يَا عَجَباً! أَتَصْلُبُونَ عَلَى مَضْرَبِ قُبَّةِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟[1].

فقد كان لهذا المكان مكانته، ولهذا الموضع أهميَّته.

أما قصة هذا المكان وعلاقته بمعركة الأحزاب وحفر الخندق، فقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في المدينة في حالة تيقُّظٍ لكل ما يُكاد له، ولذلك ما إن همَّت قريش بتحزيب الأحزاب، والمسير إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ حتى بلغه خبر المسير قبل أن تسير.

ولذلك جمع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وتشاور معهم في الأمر، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أكثر الناس مشورةً لأصحابه.

وكان ممن شارك في هذا الاجتماع العسكري سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان قبل ذلك عبداً مملوكاً يُتعامل معه كمتاعٍ من الأمتعة، فلمَّا نال الحريَّة في كنف النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، صار من أهل المشورة في أخطر الأمور.

فلما حضر هذا الاجتماع، استنفر أثمن ما عنده: وهو فكره وعقله، فأتى بفكرةٍ خارقة غير معروفة عند العرب، ولا مألوفة في حروبهم، فقال: يا رسول الله! إنا كنا في فَارس إذا تعرَّضنا لكيدٍ، أو خفنا عدواً، خندقنا حولنا فلو خندقنا حولنا؟

وجاءت الفكرة لتلاقي أذهاناً يقظة درست جغرافية المدينة وتضاريسها، وعرفت كيف تتعامل معها وتستفيد منها، فالمدينة تُحيط بها الحرار من شرقها وغربها وجنوبها، فهي في مثل حذوة الحصان، وهذه الحرار وَعِرة، وأحجارها حادَّة، لا يمكن أن يقطعها المشاة، ولا أن تطأها أخفاف الإبل، ولا أن تعدو عليها حوافر الخيل، فكأنَّ المدينة في قلعة طبيعية منفذها الوحيد جهة الشمال، ولم تُغزَ المدينة إلا من جهة الشمال.

(١) «تاريخ المدينة» (١/ ٦٢).



إذن: فلنُخندق هذه المسافة المحصورة، وهي جهة الشمال، وبذا نغلق منافذها، ونقطع الطريق على القاصد إليها، وهكذا اتُّخذ القرار بحفر الخندق في شمال المدينة.

بدأ حفر الخندق من منطقة أَجمة الشيخين إلى أطم المذاد وهذه المسافة تُقدر بـ(٢،٥كم) تقريباً، وعُمق الخندق حوالي ثلاثة أمتار، وعرضه قُرابة خمسة أمتار[١].

وجُعِل التراب مما يلي المدينة، بحيث يكون حاجزاً آخر، وبذلك يكون الخندق والساتر الترابي حمايةً قوية مضاعفة.

ووزَّع النبيُّ ﷺ العمل بطريقة الفِرق، فكلُّ عشرة أفراد يحفرون أربعين ذراعاً، وأثار النبيُّ ﷺ روح التنافس بين هذه الفرق، وبين المهاجرين والأنصار.

ومما زاد حماسهم رؤيتهم النبي ﷺ يشارك بنفسه، يقول البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ، رأيته ينقل من تراب الخندق، حتى وارى عنا الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشَّعر[٢].

يا لنفوس الصحابة وهم يرون النبيَّ ﷺ يعمل معهم، وكلُّهم يريدون أن يكفوه العمل، لكنَّه يُشارك معهم بدأبٍ واجتهاد، فيبثُّ فيهم روحاً تشعلهم حيويةً وحماساً.

وكما كان النبيُّ ﷺ يشاركهم عملهم، فقد كان أيضاً يشاركهم أهازيجهم، وإنشادهم الذي يبعث الحماس، ويسرِّي عن النفوس إرهاق العمل.

أتى ﷺ إلى المهاجرين والأنصار وهم يعملون في يومٍ شديد البرد، فقد كانوا في شهر شباط/ فبراير، وهو موسمٌ شديد البرد عاصف الريح، وإذا أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم يعانون البرد والجوع ويعملون، وقد مرَّت عليهم ثلاثة أيام لم يذوقوا فيها ذواقاً، فنظر

(١) من مقال للشيخ عبد العزيز القارئ عن الخندق.

(٢) «صحيح البخاري» (٤١٠٦).

النبيُّ ﷺ إليهم وهم يعملون، وقال: «**اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ**»، فضجَّ مَن في الخندق جميعاً يجيبون النبيَّ ﷺ كأنما تراهم يملأون فجَّ الخندق يضربون بالمعاول، ويملؤون المكاتل، وهم يردِّدون:

نحن الذين بايعوا مُحمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً[1]

وأحياناً يُنشدون وكأنهم فِرقةٌ عسكرية، يقودها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ويُردد النبيُّ ﷺ خلفهم:

لاهمّ لولا أنتَ ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا

فأنزِلَنْ سكينةً علينا ... وثبِّت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنةً أبينا

فيمُدُّ النبيُّ ﷺ صوته بآخر كلمة في البيت: «**أَبَيْنَا**»[2]، فيضجُّ الخندق بهذه الأهازيج الحماسية.

إن مثل هذه الأناشيد تجعلنا نتصور المشهد، فنرى هؤلاء الذين يُنشدون هذه الأهازيج، وقد سرت فيهم روح مُتوقدة مُتوثِّبة، وعزيمة تعمل بقوةٍ وصبر، ولذلك نعجب أشدَّ العجب أن هذه المسافة الكبيرة قد أُنجز حفرها في وقتٍ قياسيٍّ جداً، ففي ستة أيام كان العمل قد نُفِّذ، والمشروع قد أنجز.

وعند هذا المكان حدثت المعجزةُ التي كانت من دلائل النبوة، وبشائر النصر، تُبيِّن أن الله عز وجل يُكرم نبيَّه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بأمدادٍ تزيد يقينهم يقيناً وإيمانهم إيماناً، وتزيد عزائمهم القوية قوةً، فهؤلاء الذين آمنوا برسول الله ﷺ وصدَّقوا واستيقنوا تأتيهم البشائر: أنكم على الحق فاثبتوا.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٨٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٨٠٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٤١٠٦).



وذلك أن النبي ﷺ قسَّم مساحات الخندق بين المهاجرين والأنصار، فرمقت أعينهم سلمان الفارسي صاحب الفكرة، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طُوالاً قوياً شديداً، فكلٌّ أراد أن يظفر به مع فريقه، فقالت الأنصار: سلمان منَّا فهو منذ نشأ عندنا في المدينة فهو من الأنصار، وقال المهاجرون: سلمان منَّا فالذي أعتقه هو رسول الله ﷺ وهو مولى رسول الله ﷺ، فهو إذن من المهاجرين، فلمَّا اختلفوا جاء الوِسام النبوي لسلمان: «**سَلْمانُ مِنَّا آلَ الْبَيْتِ**»(١).



صورة حديثة لمسجد الراية

وكانت الفرقة التي يعمل فيها سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحفر في المكان الذي خطَّه النبيُّ ﷺ لهم، فعرضت لهم صخرة مغمورة في التراب، فاحتاروا هل يحيدون عنها؟ أم يرفعون الأمر لرسول الله ﷺ، فرأوا أن يرفعوا الأمر للنبيِّ ﷺ، فذهب سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله إنه قد عرضت لنا كُديةٌ شديدة، لا تأخذ منها المعاوِل، فماذا ترى يا رسول الله؟، فقال ﷺ: «**رُشُّوا عَلَيْهَا الْـماءَ**»

(١) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٢٢٤)، و«مستدرك الحاكم» (٦٥٤١).

يقول سلمان: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يحمل المِعول بيده نازلاً إلى هذه الصخرة، وقد عصب على بطنه حجراً من الجوع، فألقى ﷺ رداءه، ثم أخذ المعول فقال: «**بِاسْمِ اللهِ**»، ثم ضرب الصخرة ضربة قوية برق الشرر من شدة ضربته، فقال ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ، وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»، فكبر المسلمون بتكبيره.

ثم رفع ﷺ المِعول، فضربه ضربةً شديدة، فبرق الشرر مرةً أخرى، فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللهِ إِنِّي لَأَرَى قَصْرَ الْـمَدَائِنِ أَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**» فكبر المسلمون بتكبيره.

ثم ضرب المِعول مرةً أخرى، فبرق الشرر، فقال: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، إِنِّي لَأَرَى أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا**» وكبر المسلمون معه، وفرحوا واستبشروا.

ثم بعد هذه الضربة الثالثة تفتت الصخرة كأنما هي كومة من الرمل[1]، وإذا الصخرة التي عجزت عنها المعاول صارت كثيباً مهيلاً تغترفها المكاتل.

تلقَّت النفوس المؤمنة هذه البشائر بيقين واثق بصدق موعود الله، وبشرى رسوله ﷺ، برغم الشدَّة التي هم فيها، والتي زاغت فيها الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر.

في هذه الشدَّة تلقَّى المؤمنون هذه البشرى، قائلين: موعودٌ صادقٌ، موعودٌ صادقٌ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

أمَّا المنافقون فكانوا يُرجِفون كعادتهم، ويقولون: يُمنِّينا قصور فارس والشام، وأحدُنا لا يستطيع أن يذهب ليقضي حاجته؛ ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾.

(١) «مسند أحمد» (١٨٦٩٤)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٨٠٧)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٢٠).

وكانت مفاجأةً صادمةً للأحزاب حين وصلوا الخندق، وهكذا كانت طريقة النبيِّ ﷺ في إدارة الحرب على أنها خُدعة، ومفاجأة، وأن الخطة المحكمة المفاجئة تعطل فاعلية قوة العدو، وتربك خطته المسبقة؛ ولذا وقف أبو سفيان أمام الخندق عاجز الحيلة، وهو يقول: هذه مكيدةٌ ما كادت بها العرب من قبل.

وظلَّ هو ومعسكراته خارج الخندق تُستنزف طاقاتهم وتفنى أزوادهم، وتعصف بهم الرياح، ويقرصهم البرد، وكانوا أحزاباً من قبائل شتى، فلما طال بهم المقام كثر التلاوم؛ ودبَّ الخلاف فانسحبوا، والمسلمون مُتحصِّنون في المدينة التي حصنها النبي ﷺ، فقال: «**رَأَيْتُ أَنِّي أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، فَأَوَّلْتُهَا الْـمدِينَةَ**»[1].

ثم بعد نحو من عشر سنوات من هذه البشرى، شهد أكثر الذين كانوا مع النبيِّ ﷺ فتوح الشام، وفتوح فارس.

والأعجب أن الذين شاركوا في فتوح الشام وفارس، كان كثيرٌ منهم من جيش الأحزاب المُهاجمين والذين كانوا حينها يحاصرون المدينة، ثم أسلموا وصاروا جنداً لرسالة رسول الله ﷺ، وعلى رأسهم قائدهم أبو سفيان بن حرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي شهد معركة اليرموك، وفتح قصور الشام التي بشر بها النبي ﷺ ذلك اليوم.

أمَّا سلمان الفارسي الذي دعا النبيَّ ﷺ إلى الصخرة، ثم سمع بشرى النبيِّ ﷺ وهو يقول: «**اللهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، إِنِّي لَأَرَى قَصْرَ الْـمدَائِنِ مِنْ مَكَانِي هَذَا**»، فقد شهد فتح المدائن، وصار أميراً عليها[2].

---

(١) «مسند أحمد» (٢٤٤٥)، و«مستدرك الحاكم» (٢٥٨٨). وينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٢).

(٢) ينظر في ذلك: «تحقيق النصرة» (١٤٤)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ٤٩)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٣١)، و«آثار المدينة» (١٥٨)، و«فصول من تاريخ المدينة» (٢١٩)، و«طيبة المدينة النبوية» (٢٤٧).



﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.



موقع مسجد الراية





مسجد بني حرام





صورة لمسجد بني حرام

في مسجد بني حرام وفي شِعبهم في بيت جابر بن عبد الله بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وله أيام الخندق مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قصة عذبة عاجبة.

فقد كان جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع فريق العمل الذين يحفرون الخندق؛ فنظرت عيناه إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وهو يقوم إلى حفر الخندق، وقد ظهر عليه أثر الإجهاد، وشدَّ على بطنه حجراً من الجوع، وقد مرت عليهم ثلاثة أيام لم يأكلوا فيها طعاماً، وكان منظراً لا تُطيقه مشاعر جابر المحب الوامق لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فجاء إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقال: يا رسول الله! أتأذن لي أن أذهب إلى بيتي، وكان بيته قريباً، فشعب بني حرام في «**جبل سلع**»، قريبٌ من موقع الخندق.

وكان من أدب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أنهم لم يكونوا يذهبون إلى بيوتهم إلا بعد استئذان النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وكان النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يأذن لمَن شاء منهم، عملاً بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾.

فأذن له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فذهب جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى زوجه المدبرة الرشيدة: سهيلة بنت مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: يا سُهيلة، رأيتُ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما لا صبر عليه، فقد رأيتُ منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خمْصاً[1] شديداً، فهل عندكِ شيء؟، فقالت له: نعم، عندي صاع من شعير، وعناقنا هذه -وكانت عناقاً صغيرة سمينة- فنذبح عناقنا ونطحن شعيرنا، وتدعو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ ولكن إياك أن تفضحني برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ادع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ورجلاً أو رجلين.

فبادر جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى العناق فذبحها، وأخرجت زوجه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جراباً فيه الشعير فطحنته، ثم جاء جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الخندق، ودَنَا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُخافته سراً؛ يقول: يا رسول الله! طُعيِّمٌ صنعناه لك، فتعال أنت ورجلٌ أو رجلان، قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وكنتُ أودُّ أن يأتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وحده، حتى يكفيه هذا الطعام، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**كَمْ هُوَ؟**»، فأخبره جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**كَثِيرٌ طَيِّبٌ**».

سمع النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ العرض وقَبِل الدعوة، وقال لجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ**[2]، **وَلَا تَخْبِزُنَّ عَجِينَتَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ**»[3].

ولما انصرف جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ينادي بأعلى صوته في أهل الخندق: «**يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ، إِنَّ جَابِراً قَدْ صَنَعَ لَكُمْ طَعَاماً، فَحَيَّ هَلاً بِكُمْ**».

---

(١) أي: جوعاً شديداً. ينظر: «النهاية» (٢/ ٨٠).

(٢) البرمة: القدر المصنوع من الحجر. ينظر: «لسان العرب» (١٢/ ٤٥). و«**لاَ تُنْزِلُنَّ بُرمَتكُمْ**»: أي لا تنزلوه عن النار.

(٣) «صحيح البخاري» (٤١٠٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٩).

وأُلقيت المعاول والمكاتل وارتجت الأرض بوقع الأقدام متوجهة إلى حيث نادى رسول الله ﷺ، ويا تُرى كيف كانت مشاعر جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ وكيف كان كَربه؟ وهو الذي أتى ليدعو رسول الله ﷺ ورجلاً أو رجلين، وإذا به ﷺ يُطبق عليه بأهل الخندق كلِّهم؟! أكثر من ألف رجلٍ سيأتون إلى هذا الطُعيم الذي صنعه جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ!

ولنتخيل جابراً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يسير في الطريق مُتوجِّهاً إلى الدار، تمتلئ أذناه بأصوات المعاول وهي تُلقى، والأرض تكاد تميد من خلفه بألف قدم توضع، وألف قدم ترفع، معهم رسول الله ﷺ كلُّهم يسيرون خلفه، وكلُّهم أجابوا دعوة رسول الله ﷺ إلى طعامه.

ما هي مشاعره وهو يعلم قلَّة الطعام الذي أُعدَّ وكثرة العدد الذي أتى؟!

يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فركبني من الحياء ما الله به عليم وقلت: دعا رسول الله ﷺ أهل الخندق كلَّهم على عناق وصاع شعير! ما يقع فيهم هذا الطعام؟!

دخل جابر على امرأته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مكروباً يصيح بها: افتضحت افتضحت، قالت: ما لك؟ قال: جاءك رسول الله ﷺ بأهل الخندق كلِّهم، ما عسى أن يصيبوا من طعامنا هذا؟!

فقالت المرأة العاقلة الرشيدة: هل سألك رسول الله ﷺ كم طعامك؟، قال: نعم، قالت: الله ورسوله أعلم، ونحن قد أخبرناه بما عندنا، فهو أعلم حين دعاهم، قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فكشفت عني غماً شديداً، فسُرِّي عنه، وهدأت نفسه وهو يرى طمأنينة امرأته ويقينها.

وكان النبيُّ ﷺ قد أخبر جابراً بأن يُعلم امرأته ألَّا تخبز حتى يأتي، وألَّا تغرف من البرمة حتى يأتي، فقالت: سمعاً وطاعةً لرسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ قد سبق كلَّ مَن كان معه، واستأذن ودخل البيت، فكيف كان شعور جابر وزوجته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأنوار الرسول ﷺ تغمرهم، وبركاته تملأ أرجاء دارهم؟!

ثم سأل ﷺ: «**أَيْنَ عَجِينُكُمْ؟**»، فقالت سُهيلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ها هي عجينتنا يا رسول الله، فبصق فيها ﷺ، ودعا بالبركة، وقال: «**أَيْنَ بُرْمَتُكُمْ؟**»، قالت: ها هي يا رسول الله، فكشفت له الغِطاء، فبصق فيه ﷺ ثم دَعا بالبركة، ثم أمرها أن تستعين بجاراتها ليحضرن صحافهن ويخبزن معها.

ومع أن هذا العجين القليل يكفيه امرأة واحدة لتخبزه في وقت يسير إلا أنه أمرها أن تدعو جاراتها ليخبزن معها، ويُحضرن صحافهنَّ، فدعت سُهيلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاراتها وجاءت الجارات وجعلن يخبزن، ثم يخرجنه بعد أن ينضج واجتمع الخبز وكثر! ولو رآه أحد لقال: أين هذا الخبز الكثير من ذلك العجين القليل؟!

لا تسأل؛ إنها البركة النبوية، فريقته الشريفة ودعاؤه الكريم جعل هذا الطعام القليل بهذه الكثرة الكاثرة، فلمَّا تراكم الخبز جعل ﷺ يكسر الخبز في الصحاف، ويغرف عليه من اللحم، ويقرب إلى أصحابه، والجموع المُكتظَّة خلف الباب، وهو يقول: «**ادْخُلُوا عَشَرَةً عَشَرَةً، وَلَا تَضَاغَطُوا**».

وجعلت الصحاف تذهب إليهم ملأى، وتعود فارغة؛ لتُملأ مرة أخرى، والناس يدخلون على دفعات عشرة عشرة يأكلون ويقومون شباعاً، يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والذي بعثه بالحق لقد أكلوا كلهم ثم انصرفوا وإن عجينتنا ليُخبز منها! وإن بُرمتنا لتغط باللحم! فقال ﷺ: «**كُلُوا هَذَا وَأَهْدُوا، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ**»[1].

إنها البركة النبوية التي شهدها هذا المكان، والذي يغلب على الظنِّ أن هذا المسجد هو مكان بيت جابر ذلك.

إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد امتلأت قلوبهم إيماناً، فكان الله عَزَّ وَجَلَّ يُكرمهم، فيُنزل السكينة على قلوبهم، ويرسل المدد إلى نفوسهم، فيروا من الآيات ما يزيد إيمانهم إيماناً؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

(١) «صحيح البخاري» (٤١٠١).

إن هذه الآيات والخوارق التي تقع أمام أعينهم بعد أن آمنوا وصدَّقوا بنبّوته ﷺ ورسالته، هي كرامة لهم، كما هي معجزة لنبيهم ﷺ، إنه إكرامٌ من الله عَزَّوَجَلَّ لهم أن يأكلوا جميعاً هذا الطعام الذي شارك النبيَّ ﷺ في إعداده وتقديمه، فكلٌّ منهم يشعر أنه يأكل من يد رسول الله ﷺ طعاماً مذاقه ريق رسول الله ﷺ وبركته.

إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهم يأكلون من هذه المائدة النبوية المباركة، قد تحقق لهم ما تحقق للحواريين مع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حينما سألوا عيسى مائدة من السماء، وقالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، فكل مرادات الحواريين تحققت للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إلا أن الحواريين سألوها، وأما الصحابة فابتُدِئوا بها كرامة من الله لهم.

ووقعت لهم مراراً كما قال سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ أُتِيَ بِقَصْعَةٍ فِيهَا ثَرِيدٌ، فَأَكَلَ وَأَكَلَ الْقَوْمُ، فَلَمْ يَزَلِ الْقَوْمُ يَتَدَاوَلُونَهَا إِلَى قَرِيبٍ مِنَ الظُّهْرِ يَأْكُلُ كُلُّ قَوْمٍ، ثُمَّ يَقُومُونَ، وَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَتَعَاقَبُونَهُ.

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: هَلْ كَانَتْ تُمَدُّ بِطَعَامٍ؟ قَالَ: أَمَّا مِنَ الْأَرْضِ فَلَا، إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَانَتْ تُمَدُّ مِنَ السَّمَاءِ[1].

فصلَّى الله وسلم وبارك على هذا النبيِّ الكريم ﷺ، ورضي عن آله وأصحابه أجمعين[2].

---

(١) «مسند أحمد» (٢٠١٣٥)، و«جامع الترمذي» (٣٦٢٥)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٦/ ٩٣).
(٢) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٣/ ٤٤)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٤٢).





موقع مسجد بني حرام





كهف بني حَرام





كهف بني حرام

على جبل سَلع كهفٌ يُسمَّى «**كهف بني حَرام**».

أمَّا خبر هذا الكهف، فهو بعض خبر غزوة الأحزاب، وبعض الحال التي حكاها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾.

إنه حال الإرهاب الذي مارسته الأحزاب، وبثّه في هذه الشِّعاب، ولكن إذا خاف الصحابة فعلى مَن يخافون؟

إنَّ خوفهم قبل أن يكون على أنفسهم أو أبنائهم، كان على مَن هو عندهم أغلى وأعلى، على رسول الله ﷺ، الذي كان يُرابط معهم عند مسجد الفتح، فإذا غشيهم الليل وأرادوا أن يهجع رسول الله ﷺ في مكانٍ آمن خافوا عليه عيون المنافقين المُتلصصة، والتي قد تنقل الأخبار إلى الأعداء من المشركين أسفل المدينة، أو اليهود أعلاها.

فتحملهم المخافة على رسول الله ﷺ أن يسربوه في الليل إلى هذا المكان، فيهبطون به ﷺ من جهة مسجد الفتح، ويدخلون به في هذا الشِّعب؛ ليصعد ﷺ إلى هذا الكهف، فإنّ مَن ليس من أهل المدينة لا يمكن أن يتبادر إلى ذهنه أن النبيَّ ﷺ في هذا الكهف الذي لا يعرفه إلا من يعرف تفاصيل دقيقة عن جغرافية المدينة.

وكما أن هذا الكهف كان يوفر الأمن، فقد كان يوفِّر الدفء، فهو كهف عميق في شِقِّ هذا الجبل حيث يبقى من بداخله آمناً من البرد القارس والريح العاصفة، ولم يكن الكهف على الحالة التي هو عليها اليوم، فقد تآكل وانكشف وتسميته بـــ«**كهف بني حرام**»، تدلُّ على أنه كان مُجوَّفاً، وتجويفه يحقِّق الأمن والدفء في ليالي الخوف والبرد الشديد، فإذا تنفس الصبح وانبلج الفجر هبط ﷺ من هذا الشِّعب، وذهب إلى حيث أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم عند مسجد الفتح، حيث أماكن رباطهم التي تسمَّى اليوم بالمساجد السبعة، والتي كانت أماكن للرباط ومواجهة قريش من خلف هذا الخندق.

هذا ما يرويه مؤرِّخو المدينة عن هذا الكهف.

أما المحدِّثون: فيروون فيه حديثاً عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه أتى مسجد النبيِّ ﷺ يبحث عنه فيه فلم يجده، فتتبعه في بيوتاته ﷺ فلم يجده، فخرج يبحث عنه، فقيل له: إنه هناك في شِعب بني حرام، أو في جبل ثواب، فأتى فأشرف على النبيِّ ﷺ، فإذا هو في ذلك الكهف ساجداً سجدةً طويلة، حتى خاف معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يكون النبيُّ ﷺ قد قُبض في سجوده ذلك من طول ما رأى من سجوده ﷺ،



فلما رفع النبيُّ ﷺ رأسه سأله معاذ رضي الله عنه عن طول سجوده ذلك، فقال ﷺ : «**إِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي، فَقَالَ لِي: إِنَّ رَبَّكَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: إِنَّا لَن نَسُوءَكَ فِي أُمَّتِكَ**»، قال ﷺ: «**فَسَجَدْتُ شُكْراً لِرَبِّي، وَإِنَّ أَفْضَلَ مَا تُقُرِّبَ بِهِ للهِ السُّجُودُ**»[(١)].

ومضامين هذا الحديث صحيحة، لورودها في أحاديث أخرى صحيحة؛ فإنَّ الله عزّ وجلّ قال لنبيِّه ﷺ: «**إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ**»[(٢)] وصحَّت الأحاديث في فضل السجود كقوله ﷺ لربيعة بن كعب رضي الله عنه: «**أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[(٣)]، و«**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»[(٤)]، فإن صح الخبر لعل البشرى وقعت في هذا الكهف، فسجد ﷺ في مكان البشرى؛ شكراً لله عزّ وجلّ.

وبقي من حال هذا الكهف دلالته على حال الرِّباط والتحفُّز أيام غزوة الخندق، وعلى إيواء صحابة رسول الله ﷺ في هذا المكان، وأن النبيَّ ﷺ كان في رباطٍ مع أصحابه ليلاً ونهاراً، وأنه كان في أيام الخوف يشاركهم رباطهم، فهو في النهار مرابط معهم، وفي الليل قريب منهم في هذا المكان[(٥)].

---

(١) «المعجم الأوسط» للطبراني (٩١٠٥)، و«المعجم الصغير» للطبراني (١٠٩٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٠٢).

(٣) «صحيح مسلم» (٤٨٩).

(٤) «صحيح مسلم» (٤٨٢).

(٥) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (٨٤)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ٤٥)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٤٢)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٧٥).





موقع كهف بني حرام





مسجد الفتح (١)





مسجد «الفتح» الذي اتَّخذه النبيُّ ﷺ مُصلَّى أثناء غزوة الأحزاب

هنا المكان الذي رَابَط فيه النبيُّ ﷺ وأصحابه؛ ليعيشوا الشِّدة أشدَّ ما تكون، فقد كانوا هنا لا يعيشون معاناةً واحدة، ولكن أكثر من معاناة في أكثر من اتجاه: الخوف، والجوع، والبرد، والإرجاف.

كان رسول الله ﷺ يصلي في هذا المسجد بأعلى الجبل الذي يسمَّى «**مسجد الفتح**» وأحياناً في المسجد الذي في السَفح، والذي يُسمَّى «**مسجد سَلمان**»(١) وذلك

(١) ينظر في تاريخ مساجد الفتح كتاب: «مساجد الفتح وصلاة النبي ﷺ فيها» للدكتور محمد أنور محمد علي البكري.

أيام حِصار الخَندق وتَحزُّب الأحزاب يوم جاءت قُريش بخُيلائِها وأحزابها وحُلفائها، وعسكرت أمام هذا الخندق بجيشٍ كثيفٍ عَرمرم، قِوامهُ عشرة آلاف! يريدون اجتياح المدينة، والقضاء على هذه الفئة القليلة المُؤمنة المُصابرة.

أمَّا إن سألت عن معاناة المسلمين: فعن أيِّ معاناةٍ تسأل؟!

أتسأل عن معاناتهم مع هذا العدوِّ الباغي الذي حزَّب الأحزاب، وجمع الجُموع، وحَلَّف الأحلاف، وأتى يريد أن يستأصل الرسول ﷺ والرسالة بهذا الجمع العظيم؟

أم تسأل عن الجُوع الذي يجعلهم يَحزِمُون الأحجار على بطونهم الخاوية؟

أم تسأل عن مُعاناتهم مع البرد الذي يجعل الأسنان تَصطك، والأطراف ترتجف من شدَّة برد الشتاء الصحراوي القارس؟!

أم تسأل عن مُعاناة المسلمين مع إرجاف المنافقين الذين كانوا يُسرِّبونه، فيقولون: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾؟! ولم تقف المُعاناة عند هذا الحدِّ، بل جاءت مُعاناة مع هذا أشدُّ وأنكى يوم جاء الخبر بأن يهود بني قُريظة نقضوا العهد! وهم في أعلى المدينة، فاجتمع مع إرجاف المنافقين خيانة اليهود، وتخيَّل كرب المسلمين عندما شعروا أنهم في مواجهة العدو الذي أمامهم، والمنافقين الذين بينهم، واليهود الذين خلفهم.

ونزل القرآن يصف هذه الشدة ويُصوِّرها: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ ولم أجد في القرآن وَصْف شدَّةٍ في الدنيا بما يُشبه شدائد الآخرة، كمثل هذا الوصف.

كأنك تقرأ قوله تعالى عن يوم القيامة: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾، ولو استنطقنا هذه الجبال فنطقت، أو كلَّمنا هذه الصخور فتكلَّمت ولقالت: كان رسول الله ﷺ والمؤمنون معه مع هذا كله بعزائم أشدَّ ثباتاً من هذه الجبال، وأشد صلابةً من هذه الصخور، تميد الجبال الرواسي عن مكانها، ولا يتزلزل الإيمان في قلوبهم، أما ما كان يهمهم، فهو كيف يحمون رسول الله ﷺ وأين يُحرِزونه.

ورسول الله ﷺ بينهم ومعهم هو مَشعُّ القوة، تَسري منه، فتتخلَّل تلك القلوب، وتملؤها يقيناً وثباتاً وصبراً وانتظاراً لموعود الله الصادق: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

فهو ﷺ مع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُجاهد كما يُجاهدون، ويصابر كما يصابرون، ويثبت معهم في مواقف الثبات ويُلاقي في مَواطن اللقاء، قلبه مُتوجه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، يستنزل نصره، ويستنجز وعده، فكلما رَمقه أصحابه وإذا به يُخافت ربَّه، فيستدفع البلاء بأسباب السماء في هذا المسجد يدعو، ويقول: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**»[1].

رآهُ جابر في هذا المكان يُلحُّ في الدعاء يوم الإثنين، ورآه يُلحُّ يوم الثلاثاء، ورآه يوم الأربعاء، وما زال يُلحُّ في الدعاء، فيما بين صَلاتي الظُهر والعَصر وهو في هذا المكان حتى جاءته البُشرى بتنزُّل النصر، وإذا به يُقبل على أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فيقول: «**أَبْشِرُوا بِفَتْحِ الله وَنَصْرِهِ**»[2]، فسُمِّي هذا المسجد بـ: «**مسجد الفتح**»؛ لأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تَلقَوا فيه بُشرى الفتح.

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٣٣)، و«صحيح مسلم» (١٧٤٢).
(٢) «مسند أحمد» (١٤٥٦٣)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٤٠٣)، و«البداية والنهاية» (٦/ ٣٨).

بقي في ختام هذا المشهد أن نتساءل سؤالاً نوجهه إلى كل طوائف المسلمين، سُنَّتهم وشِيعتهم، عن هؤلاء الذين كانوا معه ﷺ يتقاسمون ألم الخوف والجوع والبرد، والإرجاف من المنافقين، والخيانة من اليهود، وهم عُصبة قليلة، فأعلى عددٍ يُذكر أنهم بلغوه هو ثلاثة آلاف، وكان أمامهم جيش قوامه عشرة آلاف.

لقد كان يُنقذهم من هذه المعاناة ويُنجيهم من هذا الابتلاء بمقاييس البشر حينذاك أن يَقفِزُوا الخندق، ويلحقوا بأقاربهم من المشركين، فهل فَكَّر أحدٌ منهم بذلك؟! هل فكر أبو بكر، أو عمر، أو عثمان، أو علي، أو طلحة، أو الزُبير، أو أبو عُبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أو غيرهم أن يتخلَّوا عن رسول الله ﷺ في هذه الشدة، ويلتحقوا بأقاربهم من المشركين؟! فقد كان قائد المشركين وأحزابِهم أبو سفيان بن حرب، وهو ابن عم عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكل من المهاجرين أقارب من المشركين، يمكن أن يستقبلوه ويحموه لو اتصل بهم أو انحاز إليهم، وهم قريبون منهم خلف الخندق؟!

هل همَّ أحدٌ منهم بذلك؟ أو فكر أو قدر؟!

والله لأن يُشوى أحدهم في النَّار، أَحبُّ إليه مِن أن تَخطُر هذه الخاطرة الموحشة في ذِهنه، فضلاً عن أن تكون هماً أو عزماً، فهل يَظُن أحد بعد ذلك أن هؤلاء الذين ثبتوا في هذا المكان مع النبيِّ ﷺ في هذه الشدة الشديدة، دون أن يخطر ببال أحد منهم التخلف عنه، أو المساومة على اتباعه ونصرته، أن يتخلُّوا عن رسالته ودينه بعد أن نجحوا في هذا الامتحان؟

هل يمكن أن ينكثوا عهده أو يرتدوا عن دينه، بعد أن يلحق بالرفيق الأعلى، وهم الذين صبروا في هذه الأماكن هذا الصبر، وثبتوا هذا الثبات؟!

لا والله! حاشاهم، بل هم الذين ثَبتُوا معه في حياته، وثَبتُوا على دينه وعهده بعد مَماتِه، وقُرَّة عينٍ لهم أنهم معه في الجنَّة كما وعدهم، وبَشرَّهم، فهو فرَطهم على الحَوض، وسَابِقهم إلى الجنَّة ﷺ[1].

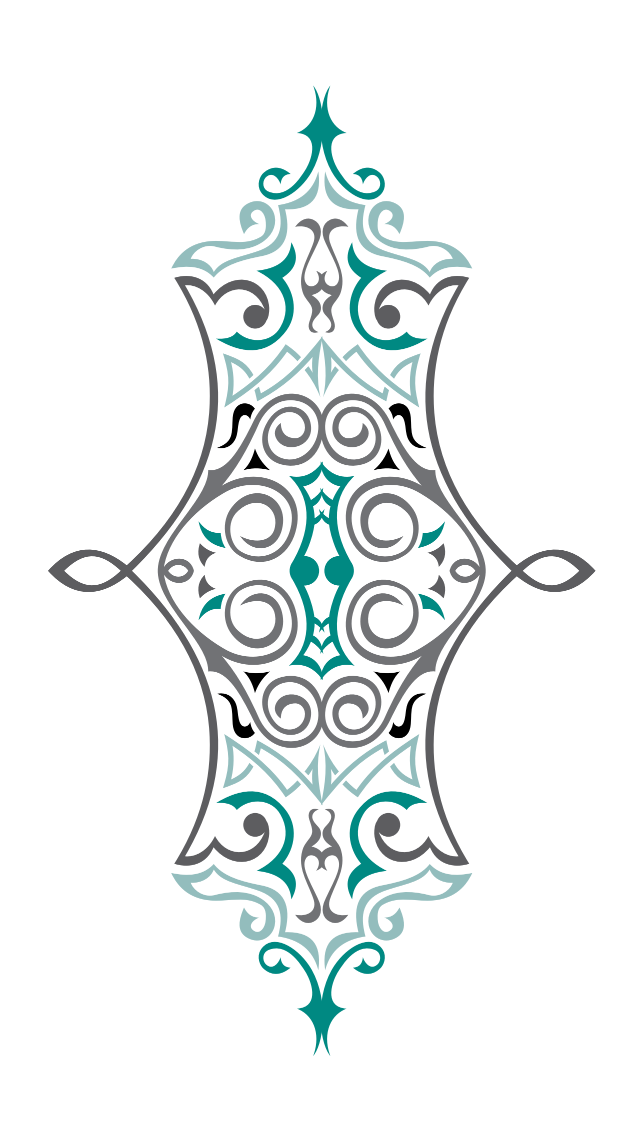


موقع مسجد الفتح



---

(١) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١٧٧)، و«تحقيق النصرة» (١٣٩)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ٣٩-٤٣)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٤٤)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٥٢٣)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٤٢)، و«طيبة المدينة النبوية» (٢٣٩).





مسجد الفتح (٢)





لوحة إرشادية من أمام مسجد الفتح

مررنا على سَفح جبل سَلع ومسجد الفتح حيث مكان رِباط رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه أيام الخندق؛ لنستذكر تلك الليالي الطِّوال التي استمر الحصار فيها شهراً وقد مكث المسلمون في هذه المعاناة وهذا الكرب والشدَّة، والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقرع أبواب السماء بدعائه يستنزل مدد الله، ويطلب نصره.

نادى النبيُّ ﷺ في هذا المسجد ودعا، وألحَّ في الدعاء، وربُّه الذي يدعوه هو القريب الذي يجيب دعوة المُضطرِّ إذا دعاه، ويكشف السوء؛ فكيف إذا كان داعيه حبيبَه وخليلَه ونبيَّه ومُصطفاه؟!

فتنزَّلت بشائر النصر على رسوله ﷺ بأمدادٍ من الله عَزَّوَجَلَّ، ومن أعظم تلك الإمدادات افتراق رأي الحُلفاء، فاليهود مع أنهم خَانوا وأعلنوا الخِيانة إلَّا أنهم لم يهجموا، فقد كانوا بِجُبنهم ينتظرون هُجوم قُريش من الأسفل، حتى يأتوا هُم من الأعلى، وقريش في الأسفل تنتظر اليهود أن يُشغِلوا المُسلمين من خلفهم حتى يهجموا عليهم من أمامهم، وهكذا كان كلٌّ منهم ينتظر هجوم الآخر، وكلُّ هذا من تفريق الله عَزَّوَجَلَّ لكلمتهم، وتشتيت قلوبهم، ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾.

ثم جاء مَدد الله، فأرسل رِيحاً شديدة باردة على المشركين فكفأت قُدورهم، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، والمسلمون حولهم لا يفصل بينهم إلا الخندق، فكيف تفعل الريح هذا بالمشركين، ولا تضرُّ المسلمين وإنما تَمسُّهم مَسّاً رفيقاً؟! إن هذه معجزةٌ وتأييدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ.

وكما أضر البرد الشديد بالمسلمين؛ إلا أن ضرره على أحزاب المشركين كان أشد؛ لأنهم في فضاء صحراوي، فأضر بهم واستنفد أزوادهم وأوهن أجسادهم.

وصارت الأحزاب المُتجمعة في حال ضَجرٍ وتَلاوُم، فلما جَنَّ الليل استنفر النبيُّ ﷺ جهاز المراقبة، ونادى في أصحابه: «**مَن رَجُلٌ يَذْهَبُ فَيأتِيْنا بخَبَرِ القَوْمِ، وَهُوَ رَفِيْقِي في الجنَّةِ؟**».

وإذا بالأجساد الهَزلى الخائفة تخاف ألا تكون على مستوى المَوقف، فيَسكُتُون جميعاً، فيُعيد النبيُّ ﷺ الاستنفار، فسكتوا جميعاً لأن الموقف شديد، ويتطلَّب قوَّةً وشجاعة، كما يتطلّب حِيطة وحذراً، فكلٌّ منهم يخشى ألا يكون على مستوى

هذا الاقتدار والموازنة الدقيقة، ويعيد النبيُّ ﷺ النداء ثالثاً، ويُعيدون نفس الجواب الصَّامت.

فيلجأ النبيُّ ﷺ إلى التعيين، فيقول: «**قُمْ يَا حُذَيْفَةَ**»، يقول حُذيفة رضي الله عنه: فلم أجد بُدّاً وقد سَمَّاني رسول الله ﷺ أن أقوم، وانتهى التَّردد بعد التكليف، وبقي السَّمع والطاعة لرسول الله ﷺ، وقد عَيَّنه وقال له ﷺ: «**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلَا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ، وَلَا تُحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَأْتِيَنَا**».

فمُهمَّته مُحدَّدة بدقة، وهي الاستطلاعُ فقط، يقول حُذيفة الذي كان مستبرداً مقروراً: فذهبتُ أمشي كأني في حَمَّام -أي أني كنت مغموراً بالدِّفء- وهذه أول بشائر النصر، وأول مِنح الإكرام الإلهي أن يمشي في البرد الشديد والريح العاتية، وكأنه في حمَّامٍ دافئ! حتى تَسرَّب -وهو خفيف الحركة، جَريء الفؤاد- في معسكر المُشركين، فوصل قريباً من قائدهم أبي سُفيان، بحيث يراه أمامه، وأبو سفيان يستدفئ بالنار من شدة البرد، قال: فأخذتُ سَهماً، فوضعته في كَبد قوسي ولو رميتهُ لأصبته! فذكرتُ قول رسول الله ﷺ بألا أذعرهم أو أثيرهم عليه، فكففت، وأحس أبو سفيان بِحِسِّه العسكري أن هناك حالة تسلل، فنادى قائلاً: لينظر كلٌّ منكم مَن جَليسه، فألهم الله حُذيفة رضي الله عنه، وفتح عليه ببراعةٍ عسكرية، فأمسك بالذي بجانبه، وقال: مَن أنت؟، قال: أنا مُعاوية بن أبي سُفيان، فباغته بالسؤال! وقطع عليه أن يسأله هو، ولأنه قريبٌ من أبي سُفيان كان الذي بجانبه مُعاوية.

ثم ركب أبو سُفيان جَمله وقال: أيها الناس إن قريظة قد خذلتنا، وإنه لا مُقام لنا، وإني مُرتحلٌ فارتحلوا، ثم أثار جمله، وهو معقول اليد، فقام البعير على ثلاث قوائم، وحلوا عقاله وهو قائم[1]، وذلك من عجلة أبي سفيان بسبب الرعب الذي زلزل

(١) «مسند أحمد» (٢٣٣٣٤)، و«صحيح مسلم» (١٧٨٨). وينظر: «مغازي الواقدي» (٢/ ٤٨٩).

الأرض من تحت أقدامهم، فلم يعد لهم فيها مقام، إنه مدد الله؛ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾.



صورة جوية لموقع غزوة الخندق، وهو ما يُعرف اليوم بمنطقة السبع مساجد

يقول حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فرجعتُ كأني أمشي في حمَّام! حتى وصلتُ إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فألفيتُه قائماً يُصلي! فجلستُ إلى جانبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا انصرف من صلاته قال: «**مَا عِنْدَكْ؟**»، فأخبرته الخبر، ولما وصل ارتفع عنه ذاك الدفء الذي كان يصحبه، وأحس بالبرد فور وصوله، قال: فألقى النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عليَّ كساء كان مُلتحفاً به، ثم قال لي: «**نَمْ**»؛ لأنه طوال الليل كان يقظاً عند القوم.

ويا للذة حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو ينام بجانب النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ملتحفاً بكسائه، قال: فنمتُ والنبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُصلي حتى انصدع الفجر، فلما انصدع الفجر أَقبل عليَّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وجعل يقول لي: «**قُمْ يَا نَوْمَان! قُمْ يَا نَوْمَان**»[(١)].

---

(١) «صحيح مسلم» (١٧٨٨).



هكذا يوقظه النبي ﷺ بمُمازحةٍ لطيفة، فيستيقظ حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وصلى رسول الله ﷺ وأصحابه الفجر، فلما أصبح الصباح، وانفلق الإصباح، وإذا بالجيش قد انسحب، والجموع قد تفرَّقت، فعادت قُريش إلى ديارها، وعادت غَطفان إلى دِيارها، وليس وراء الخندق إلا أنقاض خيام المُشركين وما رحلوا عنه من مَتاعهم.

وعاد المسلمون بنفوسٍ مُطمئنة، وعيونٍ قريرةٍ بنصر الله وفتحه؛ وقال رسول الله ﷺ: «**الْيَوْمَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا**»[1]، وهكذا كان، فإن الخندق كانت آخر غزوة غزتها قريش، ورجعت منها كالة واهنة بعد أن جمعت فيها وأنفقت ما لا تستطيع جمعه بعد ذلك.

وبقي الامتنان لله بهذا النصر يَعمُر قلب النبيِّ ﷺ، وكأني أراه بعد خمس سنين بعد أن جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأصبحت الأحزاب كلها تحت رُواق الإسلام، كأني أرى النبي ﷺ في حَجَّة الوداع على جبل الصفا، وحوله أكثر من مئة ألف كلُّهم قد اتَّبعوا دينه ﷺ وآمنوا برسالته، وكثيرٌ منهم كان مع الأحزاب يوم الأحزاب[2].

ويقف ﷺ على الصفا، فلا ينسى الامتنان لله عَزَّوَجَلَّ على نصره ذلك اليوم، فيبسط يديه الكريمتين لربه شاكراً وحامداً: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ**»[3].

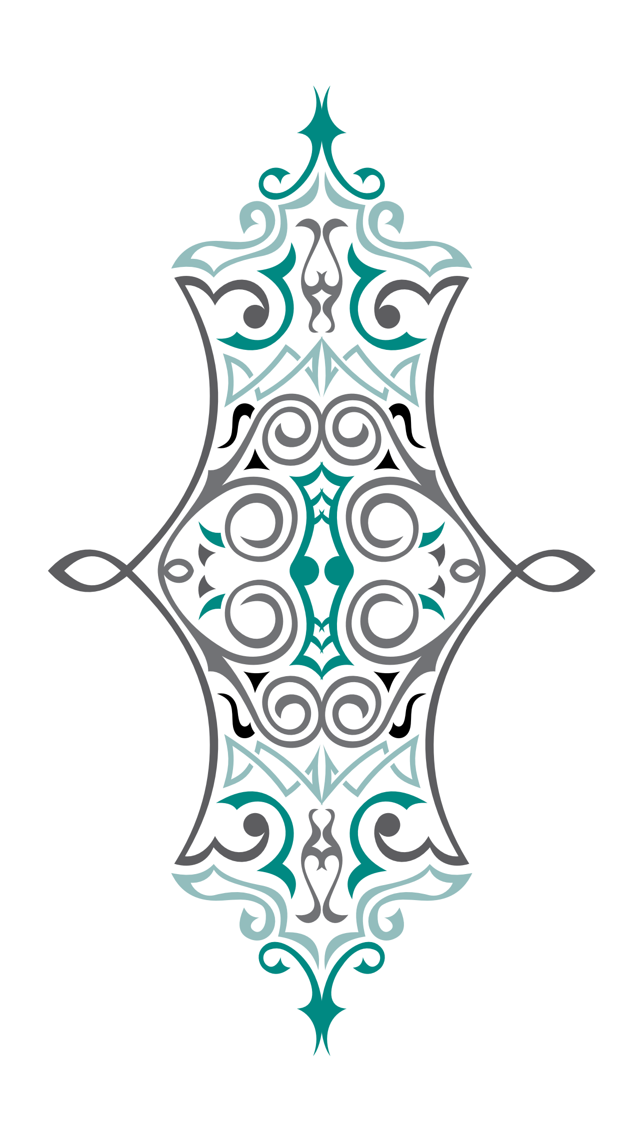


---

(١) «مسند أحمد» (١٨٣٠٨)، و«صحيح البخاري» (٤١١٠).

(٢) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١٧٧)، و«تحقيق النصرة» (١٣٩)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ٣٩-٤٣)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٤٤)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٥٢٣)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٤٢)، و«طيبة المدينة النبوية» (٢٣٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١٢١٨).





ديار بني قُريظة





صورة لنخيل في أرض بني قريظة

في ديار يهود بني قُريظة، نقرأ على صحيفة الأرض ما سُطِّر في صحائف التاريخ.

ونقتص القصَّة من أولها:

لَمَّا دَخل النبيُّ ﷺ المدينة، كتب مع اليهود صَحيفةً جاء فيها: «**إِنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ، وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتَهُمْ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ**»[1].

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٠٣-٥٠٤)، و«الأموال» للقاسم بن سلام (٥١٨).

وبقي اليهود يراقبون مِيزان القُوة والضعف للمسلمين، فلمَّا انتصر المسلمون في موقعة بَدر شَعَروا أن الأمر قد استمكن، ثم لمَّا أصيب المسلمون في أُحد وقُتل بعدها سَبعون من قُرَّاء المسلمين عند بئر مَعُونة، سَوَّلَت لهم أمانيُّهم الكاذبة أن هذه حالة ضعف للمسلمين، وأن عليهم أن يستغِلّوها، وأن هذه فرصة الانقضاض على المسلمين، وإذا يهود بني النَّضير وقُريظة يُعلنون الحرب على رسول الله ﷺ! فواجههم ﷺ بسرعة التحرك، والهجوم المضاد على بني قُريظة، فلمَّا رأوا شِدة وَطأة المسلمين عَرضُوا على النبيِّ ﷺ الكف عن القتال وتجديد العهد، فجدَّد النبيُّ ﷺ العهد مع بني قريظة مَرَّةً أخرى، وعفى عنهم وبقوا على عهدهم الثاني سالمين آمنين في ديارهم ونخيلهم.

قال عبد الله بن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَمنَّ النبيُّ ﷺ على بني قريظة وعَفا عنهم، وأَعاد تجديد العهد بينه وبينهم(١).

أَمَّا بنو النضير، فقد عاد إليهم وحاصرهم، فقاوموا، ثم قذف الله في قلوبهم الرعب، فاستسلموا، فأجلاهم إلى خيبر، وأورث الله نبيه أرضهم وديارهم.

فلمَّا تحزَّب الأحزاب، وجاءت قُريش ومعها غَطفان في غزوة الخندق وحاصر المدينة عشرة آلاف! وكان المسلمون في معاناة مع شدائد الخوف والجوع والحصار، جاء حُيي بن أَخطب النضيري من خيبر إلى بني قريظة في حصنهم، فجعل يُسَوِّل لهم أنَّ هذه هي لحظة الانقضاض على مُحمد ﷺ، وأن قريشاً قد جاءت ومعها الأحزاب ألوفاً مؤلفة، وقد تعاقدوا أن يستأصلوا محمداً ومن معه، فما زال حُيي بن أَخطب يُغريهم ويمنيهم حتى نقضوا العهد وأعلنوا الحرب.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٠٢٨)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٦).

والعجيب أن نقض قُريظة للعهد فيه غاية الخِسَّة والنَّذالة التي لا تليق إلَّا بهم! إنهم يَنقُضُون العهد في أحرج المواقف، فقد كان هذا الموقف يتطلَّب منهم نُصرة النبيِّ صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وفاء بالعهد الذي عاهدوه، وبخاصة أنهم يذكرون عن قرب كيف عفا عنهم، ومنَّ عليهم، وجدد العهد معهم، فإذا هم لا يُوفُون بالنُّصرة ولا يكتفون بالحياد، بل يصطفون مع العدو وينصرونه على المسلمين، بدل أن ينصروا المسلمين عليه.

وكانت بلاد قُريظة في عُلوِّ المدينة وجهتها الجنوبية، والأحزاب خلف الخندق في أسفل المدينة في جهتها الشمالية.

وقد وَصَفَ الله هذه المُعاناة: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، فالذين هُم ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يهود بنو قُريظة، والذين هُم ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ قريش والأحزاب.

هذه هي لَحظة غَدر بني قريظة في أحرج المواقف وأصعبها، فهل هُناك أكثر خِسَّة ونَذالة من هذا الغدر المُكرَّر المُضاعف؟!

ووصل الخبر إلى النبيِّ صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن قريظة غَدرت! فأراد صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يتثبَّت، فأرسل أربعة رِجال، اثنين من الأوس واثنين من الخَزرج، سيِّد الأوس سَعد بن مُعاذ، وسيِّد الخَزرج سَعد بن عُبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وكان معهما خوات بن جبير، وعبد الله بن رواحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

أرسلهم إلى بني قُريظة يتثبتون الخَبر، فلمَّا وصلوا إلى قريظة وناشدوهم العهد قالوا: لا عهد بيننا وبين مُحمد، وجعلوا يَسُبُّون رسول الله صَلَّىٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وكان سَعد بن مُعاذ شاباً فيه حِدَّة! فجعل يَردُّ عليهم ويَسُبُّهُم، وقد كانوا حُلفاءه في الجاهلية! فأمسك به سَعد بن عُبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقال: يا سَعد الأمر بيننا وبينهم أشدُّ من المُشاتمة.

وعادوا إلى النبيِّ ﷺ، وأسرُّوا إليه بلحن من القول: أنَّ قُريظة قد غدرت! فرفع النبيُّ ﷺ صوته، وقال: «اللهُ أَكْبَر» فسَكَبَ السَّكينة والبُشرى في قُلوب المسلمين، وتَنزَّل نصر الله على المسلمين، وتشتت جمع المشركين، فانسحبوا إلى ديارهم[1].

فتنفَّست المدينة الصَّعداء، وعاد المسلمون صَبيحة ذلك اليوم يَنفُضُون غُبار تلك المعركة، ويتخفَّفُون من رهقها، ويعود النبيُّ ﷺ إلى بيته قُبيل الظهر، ومعه جُموع المسلمين مُستبشِرةً بعظيم فضل الله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

ألقى النبيُّ ﷺ سِلاحه قُبيل الظهر واغتسل، وإذا بجِبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتيه، ويقول له: «**وَضَعْتَ سِلَاحَكَ؟ إِنَّ المَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ أَسْلِحَتَهَا، انْفِرْ بِمَنْ مَعَكَ**»، قال: «**إِلَى أَيْن؟**»، قال: «**إِلَى بَنِي قُرَيظَةَ، انْفِرْ إِلَيْهِمْ وَعَاجِلْهُمْ، وَإِنِّي سَابِقُكَ إِلَيْهِمْ، فَمُزلزِلٌ الأَرْضَ مِنْ تَحْتِهِمْ**»[2].

انطلق النبيُّ ﷺ بمَن معه في حال استنفارٍ عاجل، وهو يقول لأصحابه: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ!**»[3]، وهذا الانطلاق السريع؛ لأن المسلمين في حالة تَهيُّؤ لم يضعوا سِلاح المعركة بعد، فمن المُناسب أن ينطلقوا في نفس الحال، وهُم بكامل لِياقتهم العَسكرية، وكامل استعدادهم، فانطلقوا بهجومٍ سريعٍ مُباغِتٍ على بني قُريظة، وهذه السرعة مُهمَّةٌ أيضاً أن تُباغتهم، فلا يستعينون بإمدادٍ من يهود خَيبر.

فانطلق الجيش والراية مَعقودة مع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والذي كان في اسمه بَشائر العلو والفتح، انطلق الجيش وهم يستشعرون استنفار النبيِّ ﷺ لهم، فعندما تضايق عليهم وقت العَصر وكادت الشمس أن تغرب، قال بعضهم: نُصلِّي، وقال

(١) «مغازي الواقدي» (٢/ ٤٥٨-٤٥٩).

(٢) «مسند أحمد» (٢٣٣٣٤)، و«صحيح البخاري» (٤١٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٩٤٦).

بعضهم: لا نُصِّلي إلا في بني قُريظة وإنْ فات وقت العصر امتثالاً لأمر لرسول الله ﷺ ولم يَصِلُوا هُناك إلا بعد العِشاء! ومع أن المسافة قُرابة (٣كم) لكن حركة الجيش ثقيلة، وقد كانت المعركة في الشتاء، والنهار قَصيرٌ! وكان الجيش بِحاجةٍ إلى هذا التحفيز؛ حتى يندفعوا ويَصلُوا سَريعاً!

وَصل الجيش هناك، حيث مسجد بني قُريظة، وهو مُصلَّى رسول الله ﷺ أيام الحصار التي استمرت (٢٥) يوماً.

ونلاحظ أن هذا المكان في عُمق ديار بني قُريظة، فالنبيُّ ﷺ قد أطبق بجيشه على ديارهم وحصونهم وأمام هذا المكان نَخل الحَاصِرة، وهو أُطم الزبير بن بَاطا، وهذا يدلُّ على إحاطة جيش المسلمين بهم، وسد كل المنافذ عليهم.

فإن سَألت عن بني قُريظة وما صنعوا؟! فحالهم كحال الجُرذان في جُحورها! لقد شَعَروا فوراً أنه لا أَمل في المُواجهة، ولا مصلحة لهم في مُقاتلة النبيِّ ﷺ، وليس هناك أيُّ بصيص أملٍ في النصر إنْ وَاجهوا رسول الله ﷺ، وزُلزِلت الأرض من تحت أقدامهم ودبَّ الرعب في قلوبهم، واضطروا بعد (٢٥) يوماً أن يُسلِّمُوا مَصيرهم إلى رسول الله ﷺ، وينزلوا على حُكمه.

وعندما نَزلوا على حُكمه أحال ﷺ الحكم فيهم إلى الأوس في شخص سَيِّدهم سَعد بن مُعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان بنو قريظة حلفاؤهم في الجاهلية، وفي ذلك رِعاية من النبيِّ ﷺ لقبائل الأنصار ولسيادة أسيادهم.

فقال النبيُّ ﷺ: «**أَرْسِلُوا إِلَى سَعْدِ بنِ مُعاذ لِيَحْكُمَ فِيهِمْ**»، وكان سعد بن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ جريحاً يُمرض في خيمةٍ في مسجد رسول الله ﷺ؛ حيث أُصيب بِسهمٍ في كَاحِله في حصار الخندق، وذهب الصحابة إلى سَعد بن مُعاذ وحَملُوه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على حِمار، وجِيء به من المسجد النبوي يتحامل على جِراحَاته؛ ليُلبِّي نِداء النبيِّ ﷺ

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً جَسيماً وَسيماً سَيداً شَاباً، حيث كان عُمره بِضعاً وثلاثين سَنة أما عُمره في الإسلام فسِتُّ سنوات.

وتلقاه رَهطه من الأوس يُناشدونه ويقولون: يا أبا عمرو! نناشدك في حلفائك بني قريظة، اعفُ عنهم، استبقهم كما استبقى عبد الله بن أبي ابن سلول حلفاءه بني قينقاع.

وجعلوا يُناشدونه أن يستبقيهم، وهو ساكتٌ لا يردُّ عليهم؛ حتى وصل إلى مكان مسجد بني قريظة، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للمسلمين مهاجريهم وأنصارهم: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ فَأَنْزِلُوهُ**».

أمَّا سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما تلقَّى التكليف من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالتحكيم، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: آن لسعد بن مُعاذ ألا تأخذه في الله لومةُ لائم، فقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُمْ قَدْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ، فَاحْكُمْ فِيهِمْ**»، فالتفت إلى أصحابه وقال: وحكمي نافذٌ فيهم؟، قالوا: نعم، قال: نافذٌ عليكم؟، قالوا: نعم.

ثم أشار بيده إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ولم يلتفت إليه، وقال: ونافذٌ على مَن هنا؟، إجلالاً لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يقول: وتُنفذ يا رسول الله حكمي؟! وفهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إشارته، فقال: «**نَعَمْ وَعَلَى مَنْ هُنَا**».

وأنصت الناس ينتظرون حكم سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيمَن غدروا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وكرَّروا الغدر، وطعنوا المسلمين في ظهورهم في أحرج اللحظات! بماذا سيحكم سعد على حلفائه؟!

هل سينظر إلى ذاك الحلف الجاهلي، أم سينظر إلى عظيم الجناية بنقض عهد رسول الله وميثاقه؟!

ومصائر هؤلاء كلهم بين شفتي سعد الآن، فأطلق سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حكمه قائلاً: أحكم فيهم أن تُقتل المُقاتلة، وتُسبى النساء والذريَّة، وتُقسم الأموال[1].

(١) «صحيح البخاري» (٣٨٠٤، ٤١٢٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٩). وينظر: «مغازي الواقدي» (٢/ ٥١٢).



فقال رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ**»(١).

ولم يكن يليق بيهود بني قريظة حكمٌ غير هذا الحكم، وتحقَّقت سيادة سعد، إنه السيد الذي لم ينظر إلى أحلاف الجاهلية، وإنما نظر إلى حُرمات الإسلام، فشفا واشتفى.

رضي الله عن سعد بن مُعاذ وأرضاه(٢).

وكان الذين حكم عليهم بالقتل هم الرجال المقاتلون، فكلهم مجرمو الحرب، وكان فيمن ظفر به المسلمون معهم شيطان المؤامرات حيي بن أخطب الذي ألب القبائل وسعى في المكائد، وحرض بني قريظة على نقض العهد ودخل معهم في حصنهم لتجرئهم على نقض العهد والغدر برسول الله ﷺ، فلما استسلموا كان معهم وجيء به مغلولاً حقيراً ذليلاً قد خاب مسعاه وبطل مكره، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

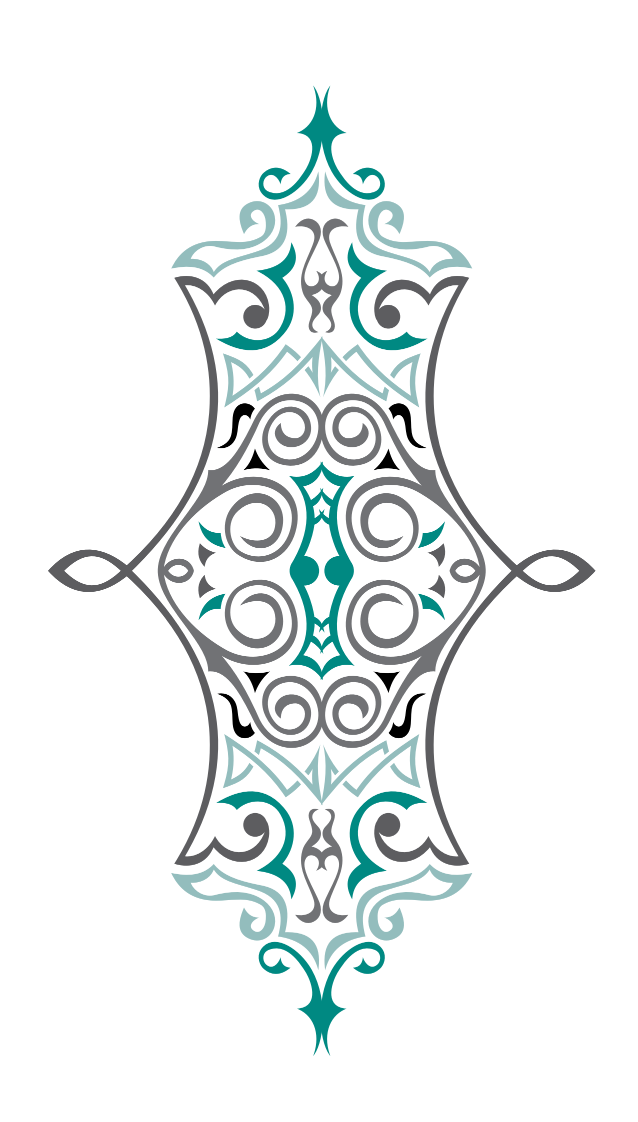


موقع ديار بني قريظة

---

(١) «صحيح مسلم» (١٧٦٨)، و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (١٥/ ٢٤٧). وينظر: «مغازي الواقدي» (٢/ ٥١٢).

(٢) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١٨٠)، و«تحقيق النصرة» (١٣٧)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ٣٤)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٤٦)، و«طيبة المدينة النبوية» (٩٩).



غزوة ذِي قَرد





صورة لموقع غزوة ذِي قَرد

قَرَد: جبل أسود شمال شرقي المدينة، يبعد عنها قرابة (٣٥ كم)[١].

وذو قرد: ماء عنده اشتراه طلحة بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتصدق به على مارّة الطريق، وسميت باسمه غزوة ذي قرد؛ لأن النبي ﷺ ومن معه انتهوا إليه آخر النهار، وبه باتوا، ومنه انصرفوا، فسميت به هذه الغزوة[٢]، وكانت في آخر سنة ست بعد عمرة الحديبية.

(١) «معجم المعالم الجغرافية» (٢٥٠).

(٢) «معجم البلدان» (٤/ ٣٢١).

ولهذه الغزوة خبرها، ولها بطلها، وكان هذا المكان هو موقعها ومنتهى مداها.

وأما خبرها الذي يُرينا كيف كان الرجل مع رسول الله ﷺ رجالاً، وكيف كان المُقاتل مع رسول الله ﷺ جيشاً.

فإن رسول الله ﷺ لما عاد من صُلح الحديبية، ووصل المدينة، أرسل لقاحه[1] إلى الغابة -وكانت عشرين لقحة- ترعى هناك، ومعها ابن أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وزوجته، وغلام لرسول الله ﷺ، فأغارت عليهم قبيلة غطفان، وكانوا أربعين فارساً فقتلوا الفتى الغِفاري، وأسروا زوجته وهرب غلام رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقبل أذان الفجر كان فتى من فتيان المدينة يخرج منها مُتوجِّهاً إلى الغابة، فإن سألت عن عمره فعمره قُرابة (٢٢) سنة، وإن سألت عن هَيئته وجِسمه فقد كان في جِسمه صلابة الصخر وفي سَاقيه سرعة الريح، إذا عدا فكأنه الريح العاصف إن تَبع أحداً لم يفلته، وإن تبعه أحدٌ لم يلحقه!.

إنه سلمة بن الأكوع الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خرج سحراً ومعه سهامه وكنانته، وكأنه قصد الغابة ليصيد هناك ويوصل فرساً لأبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلمَّا أفاض من ثنية الوداع تلقَّاه الغلام الهارب إلى المدينة؛ قال: ما وراءك؟! فقال: لقاح رسول الله ﷺ قد عُدي عليها قال: فمن عَدا عليها؟ قال: غَطفان! قال: كم هم؟ قال: أربعون، قتلوا الفتى الغِفاري وأخذوا المرأة، واستلبوا ناقة رسول الله ﷺ العضباء، واستاقوا الإبل، فرجع سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أعلى قمَّةٍ قريبةٍ من المدينة، وهي قمَّة جبل سلع، فرقاها قُبيل أذان الفجر، وجعل يصيح مُستقبلاً المدينة، وهو على جبل سلع الذي يُعتبر منارة المدينة، فالصَّاعد عليه يُشرف على المدينة كلها؛

(١) اللقاح هي النوق التي تُحلب. ينظر: «لسان العرب» (٢/ ٥٨١).



فإذا نادى أسمع كل من فيها، فلمَّا ارتقى سلمة جبل سلع، نادى بأعلى صوته: يا صباحاه، يا صباحاه، يا صباحاه!، وانصبَّ من فوق الجبل[1].

وكلمة «**يا صباحاه!**» هذه صيحة نداء معناها: إنه قد صبَّحنا جيشٌ، فانفروا الآن إليه سراعاً، ولذلك فزعت إليه المدينة برجالها وفرسانها، وإذا الخيل بفرسانها حول رسول الله ﷺ، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «**اتبعُوا سَلَمَةَ!**»، فانطلقت الخيل تعدو؛ لكن سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان قد سبق الخيل وسبق الجيش وأدرك هؤلاء الذين استاقوا الإبل، فكان سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يعدو خلفهم، فإذا أدرك الفارس منهم رماه بسهمه، وهو يقول:

أنا ابن الأكوع والـيـوم يـوم الرُّضَّعْ[2]

أي اليوم يوم هلاكهم، قال: فأدركت فارساً منهم فأصبته في كتفه، فما أدركت فارساً منهم إلا عقرته، ومَن أقبل إليه من الفرسان لاذ منه بأصل شجرة، ثم رماه فعقره! فجعلوا يهربون منه ويتحاشونه، وكلَّما قرب منهم وضيَّق عليهم، تركوا شيئاً من الإبل التي يسوقونها ليتخففَّوا منها.

فما زال وراءهم يتبعهم ويرميهم وهم يتخففون مما معهم يقول سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: حتى تركتُ خلف ظهري كلَّ ناقةٍ لرسول الله ﷺ، فكلُّ الإبل التي أخذوها تركوها، لكن سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يتركهم، فجعل يتبعهم ويرميهم بعدما تركوا كل الإبل حتى جعلوا يتخفَّفون مما يثقلهم، فيُلقون رماحهم وأرديتهم، وكلما جمع سلمة مجموعةً من الرماح، وضع عليها صخرةً علامةً على أنها ممَّا استلبه وظلَّ يتبعهم وهم يعدون بين مضائق الجبال، فلمَّا دخلوا مضيقاً صعد بحركةٍ خاطفةٍ فوق المضيق، وجعل يرميهم

---

(١) «صحيح البخاري» (٤١٩٤)، و«صحيح مسلم» (١٨٠٦).

(٢) و«الرُّضَّع» معناها: اللئام الذين رضعوا اللؤم. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٣٠).

بحجارته حتى أحصرهم فيه، ففروا يتخفَّفون من كلِّ شيءٍ وهو يتبعهم! فدخلوا في مضيقٍ يريدون أن يشربوا منه فجعل يرميهم، فغادروا المضيق ولم يشربوا منه شربة ونزلوا في أعلاه.

أما كيف يفر أربعون من رجل واحد؟! فذلك أنهم رأوا من جرأته واندفاعه ما أشعرهم أنَّ الجيش يتبعه! ولذلك لما نزلوا -وهو يرقُبهم من فوق المضيق بعد أن أجلاهم بالحجارة- أتى إليهم رجلٌ من غطفان ونزل عندهم، فقال: مَن هذا؟، فقالوا: هذا منذ الفجر وهو يتبعنا، وأخذ كل شيء من أيدينا، وخلفه وراءه ما تركنا مكاناً إلا وتبعنا، قال: لولا أن هذا يرى وراءه طلبا لقد ترككم، وهكذا كان.

يقول سَلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وإذا فوارس أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يتخللون الشجر قد لحقوا به.

وتتابع الفرسان وفرَّ جيش غطفان! وسلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يُجليهم ويرميهم حتى وصل فرسان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يتبعونهم، وكان أولهم الأخرم بن نضلة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فتلقاه سلمة وقال: يا أخرم! احذر القوم، فإني لا آمن أن يقتطعوك، فاتئد حتى يلحق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

قال: يا سلمة! إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق، والنار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة، ثم أرخى عنان فرسه ولحق بهم، فقاتل عبد الرحمن بن عيينة الغطفاني، فقتله عبد الرحمن وأخذ فرسه، فأدركه أبو قتادة فارس رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقتل عبد الرحمن وعاد بفرس الأخرم[(١)].

---

(١) «مسند أحمد» (١٦٥٣٩)، و«صحيح البخاري» (٤١٩٤)، و«صحيح مسلم» (١٨٠٧). وينظر: «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء» لابن حبان (١/ ٢٨٩-٢٩١).

ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ الذي كان في إثرهم، وقد أدركهم العشاء يقول سلمة رضي الله عنه: فأتيتُ رسول الله ﷺ وإذا جيشه ﷺ قد جمع اللقاح كلها، وجمع الرماح والأردية والغنائم التي غنمها سلمة، وإذا بلال رضي الله عنه قد نحر ناقةً لرسول الله ﷺ، وجعل يشوي له من كبدها وسنامها، وهذا ما يتلذَّذ العرب بأكله لقلَّة ما يُصيبون من الدُّسومة، وأمر رسول الله ﷺ بأن يُنحر لكل مئة ممَّن معه ناقةٌ يأكلون منها.

وجاء سلمة رضي الله عنه، ولاتزال نفسه تشتعل غضباً يريد أن يشتفي منهم، فقال: يا رسول الله: أتبعني مئة فارس ودعني أتبعهم والله يا رسول الله لأقتلنَّ منهم كل مُخبر[1]، يعني: لأقتلنهم جميعاً حتى لا يبقى من يخبر عنهم.

واحتفى النبيُّ ﷺ بحماس سلمة، فقال ﷺ: «**أَكُنْتَ صَانِعاً ذَلِكَ يَا سَلَمَةُ؟!**»، فقال: إي والله يا رسول الله! فضحك النبيُّ ﷺ، يقول سلمة رضي الله عنه: حتى رأيتُ بياض أسنانه في ضوء النار، وقال ﷺ: «**يَا سَلَمَةُ مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ**» يعني: ملكت فاعف.

وهذا يُبين لنا أن نفسية النبيِّ ﷺ ليست تلك النفسية المُتعطشة للدماء! المُتلذذة بالقتل، كأنما يقول ﷺ: يكفينا هذا القدر من الانتصار!

ثم قال ﷺ: «**هُمُ الْآنَ يُغْبَقُونَ فِي بِلَادِهِمْ فِي غَطَفَانَ**» يعني: أنهم أسرعوا من بعدك غاية الإسراع حتى وصلوا إلى بلادهم ومعنى «**يُغبقون**» أي: يتناولون الغَبوق، وهو طعام الليل!

---

(١) ينظر: «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء» لابن حبان (١/ ٢٨٩-٢٩١).

وبينما هم في هذا الحديث إذ مرَّ بهم رجلٌ عنده بقية خبر هذا الجيش الهارب، فقال: إنهم مروا في طريقهم من عندكم برجل، فضيَّفهم ونَحر لهم جزوراً، فلمَّا نحرها وقشر جلدها رأوا غبرة، فقالوا: هؤلاء هم وصلوا، فهربوا وتركوا الجزور.

أيُّ رعبٍ ملأ به سلمة -وهو رجلٌ واحد- قلوب هذا الجيش.

وبقي للحديث بقيةٌ عذبة، تُبيِّن عذوبة الحياة مع رسول الله ﷺ، وكيف كان النبيُّ ﷺ يتعاطى حيوية الحياة مع أصحابه.

فإنهم وهم في مكانهم رجعت إليهم المرأة التي أُخذت، لأن الذين استاقوها كانوا في حالة ذعر وهروب، فغافلتهم وركبت ناقة رسول الله ﷺ العضباء -وهي ناقة لا تُسبق- وعادت هاربةً، فلم يُدركوها أو لم يشأوا -من الرعب- أن يتبعوها! وجعلت هي تحض الناقة، وتقول: لئن أنجاني الله عليها لأنحرنَّها، أي: لله عليَّ نذرٌ إن نجوت لأنحرنَّ هذه الناقة.

فلما وصلت إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله! إن الله أنجاني على هذه الناقة، وإني نذرت إن أنجاني الله عليها أن أنحرها.

فضحك النبيُّ ﷺ، وقال: «**بِئْسَ مَا جَزَيْتِهَا، إِنَّهُ لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَة، وَلَا نَذْرَ فِيمَا لَا يَمْلِكُهُ ابْنُ آدَم**»[1].

وأصبح الصباح، وركب النبيُّ ﷺ ناقته العضباء، ودعا سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينها ليُقلده الوسام، قال ﷺ: «**خَيْرُ فُرْسَانِنَا أَبُو قَتَادَةَ** -الذي قتل قاتل مُحرِز بن نَضلة-

(١) «صحيح مسلم» (١٦٤١)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٧٠٩).



وَخَيْرُ رِجَالِنَا سَلَمَةُ»، ثم قال ﷺ: «يَا سَلَمة! ارْكَبْ خَلْفِي عَلَى الْعَضْباء»[1] فركب سَلمة خلف رسول الله ﷺ.

ويا لغبطة سلمة وسروره، وهو خلف رسول الله ﷺ يحضنه على ناقته! وصَدره يُفضي إلى ظهر رسول الله ﷺ، فكان يتعاطى الحُبَّ من أقرب مَسافة! وقلبه يَنبض قريباً من قلب النبيِّ ﷺ! وأنفاس النبيِّ ﷺ تَرتدُّ إليه وعَبق أنفاس النُّبوة يَملأ رئتيه، وهو رديف النبيِّ ﷺ في الطريق من ذِي قَرد إلى المدينة النبوية[2].

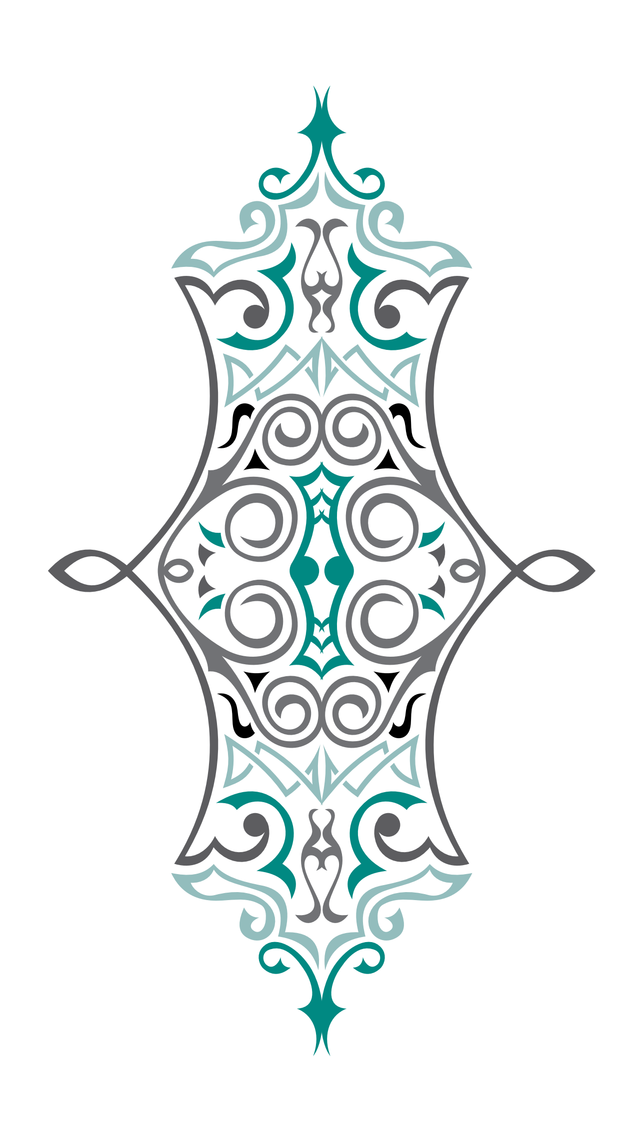
لا شيء يصور الاغتباط الذي يملأ قلب سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو مع النبي ﷺ بهذا القرب وهذا الحب، وكيف كان يتلفت على الجيش الذي يسايره، وهو يرى نفسه بهذه المنزلة والحفاوة والاختصاص من رسول الله ﷺ[3].



موقع ذي قرد



(١) «صحيح مسلم» (١٨٠٧).
(٢) «مسند أحمد» (١٦٥٣٩)، و«صحيح البخاري» (٤١٩٤)، و«صحيح مسلم» (١٨٠٧).
(٣) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (١/ ٨٤)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٥١٨).





خيبر



خيبر بلد ثمر وثراء، تعمر واديها غابات النخيل، وتعصم هامات جبالها الحصون المنيعة، وتملأ خزائنها أموال يهود الوفيرة.

وتشتهر بأنها سلة غذاء التمور في غرب الجزيرة العربية، ولذا قال حسان بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

وإنــا ومن يهدي القصائد نحونا كمستبضع تمراً إلى أهل خيبرا[1]

أي: أنهم لكثرة التمر عندهم، يجتلب منهم، ولا يجلب إليهم.

وتبعد خيبر عن المدينة النبوية نحو (١٦٥كم) شمالاً، ولذا لم يكن لها تماس مع دعوة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في بدايتها لبعدها، وكانوا محايدين مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يبادئوه بعداوة.

فلما أَجْلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بني النضير سنة (٤هـ)، وهم أشراف اليهود وسادتهم، انتقلوا بأموالهم وثرواتهم إلى خيبر ونزلوها، ولشرفهم في يهود؛ فإنهم لما نزلوا خيبر دان لهم أهلها، وصارت لهم فيها السيادة والقيادة.

وقد اصطحب بنو النضير معهم إلى خيبر أموالهم وثرواتهم، وكذلك أحقادَهم ومكائدَهم وشديدَ عداوتهم لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٥٢).

ولذا فإن سيدهم حيي بن أخطب كان هو المؤلب الساعي لتحزيب الأحزاب في معركة الخندق، وهو الذي أغوى بني قريظة وأغراهم بنقض العهد والغدر برسول الله ﷺ.

فوقع الكرب العظيم على المسلمين، والذي وصفه الله بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

فهزم الله الأحزاب وتم القصاص من بني قريظة.

أما جحر الأفاعي في خيبر، فكان الانتقال إليه في غاية الصعوبة؛ كيلا تُكشف المدينة فترة تتمكن قريش من الالتفاف عليها، ولذا كان التوقيت المناسب هو ما بعد صلح الحديبية، حيث إن الهدنة مع قريش أمَّنت المدينة من جهتها الجنوبية.

ولذا ما إن عاد النبي ﷺ من الحديبية، حتى توجه إلى خيبر للقضاء على وكر المكائد هناك.

وكانت منازلة شديدة لمناعة حصونها، وقوة أهلها، واستعدادهم، ولكن حصونهم تساقطت واحداً تلو الآخر.

ومن مشاهد هذه المعركة الخالدة، افتتاح حصن ناعم، وهو من أعظم حصون خيبر وأمنعها، وكان ملك هذا الحصن وفارسه مرحب بن أبي زينب اليهودي، وكان من فرسان اليهود وشجعانهم وسادتهم وأهل الثراء فيهم.

وقد تطاول الحصار، فجاوز عشرة أيام؛ لقوة تحصينه واستعداد أهله واستبسالهم، وقتل أثناء الحصار محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة، وتوالت المحاولات لافتتاحه؛ إذ دفع الرسول ﷺ الراية لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقاتل فرجع، ولم يَكُ فتحٌ،

وقد جهد، ثم أعطى الراية عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقاتل ثم رجع، ولم يكُ فتحٌ، وقد جهد، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ عشية يوم: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، لَيْسَ بِفَرّارٍ، لَا يَرْجِعُ حَتَّى يَفْتَحِ اللهُ لَهُ**»[1].

فبات الناس ليلتهم تلك يخوضون في هذا الذي سيُعطى الراية، وقد حاز هذه الصفات، وسيكون الفتح على يديه، أيهم هو؟!

وتشوَّفت النفوس إلى هذا الشرف، فما من رجل له منـزلة عند رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى قال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ[2]، غير أن رجلًا لم يستشرف لما استشرفوا له، ولم يُؤَمِّل ما أَمَّلوه، وما كان ذاك لقصور في فضائله؛ فهو الذي قد جمع الفضائل من أطرافها، ولا لقعود في هِمَّته؛ فهو المسارِع في الخيرات السابق لها؛ ولكن لأن لياقته البدنية لم تكن تؤهله أن يحمل راية أو ينفذ لقتال، فقد كان أيامه تلك أرمد شديد الرمد، قد أظلمت عيناه؛ فلا يبصر شيئاً.

فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، وكلهم يتطاول لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يرجو أن يكون هو الذي يُعطى الراية، ويحظَى بالشرف، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: «**أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟**». قالوا: يا رسول الله، هو يشتكي عينيه.

وكأنما ذهبت الظنون إلى أنه سيختار غيره ممن لا يشكون شكايته، وإذا النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يقول: «**أَرْسِلُوا إِلَيْه**»، فجيء به إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يُقاد لا يُبصر شيئاً.

فوضع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ رأسه في حجره المبارك، ثم تفل من ريقه الطيِّب في يديه، ثم مسح بهما عيني عليٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقام عليٌّ بارئاً كأن لم يكن به وجع، فدفع إليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ الراية، وقال: «**امْشِ وَلَا تَلْتَفِتْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْكَ**»[3].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٤٢، ٣٠٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٤٠٥).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٤٠٥).

فخرج عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالراية مسرعاً يهرول هرولة، والناس يتبعون أثره، فلما سار غير بعيد وقف مكانه، ولم يلتفت، وإنما صرخ بأعلى صوته لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قائلاً: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بنداء سمعه عليٌّ وكل مَن معه: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله فِيهِ، فو الله لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلا وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمرِ النَّعَمِ**»[1].

فانطلق حبيب الله ورسوله بالراية، حتى ركزها تحت الحصن، ثم دعاهم بدعاية الإسلام، وحق الله عليهم، فلم يكن منهم إلا القتال، فخرج إليه مرحب وهو يرتجز:

أنا الّذي سمتني أمي مرحب — شاك السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهّب[2]

فبرز له علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو يرتجز:

أَنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ — كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ الْمنْظَرَهْ

أكيلهم بالسيف كيل السندرة[3]

فقاتله وهو الأيِّد القوي الشديد، الذي لا يفر إذا لاقى، ففلق هامته بالسيف، وفتح الله عليه في يومه ذلك، وكان الفتح وانكشف الغطاء[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٦).

(٢) «إمتاع الأسماع» (١١/ ٢٩١).

(٣) أي: أقتل الأعداء قتلًا واسعاً ذريعاً. والسندرة: مكيال واسع، وقيل: هي العجلة، أي: أقتلهم عاجلا. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ١٨٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٢٠٩، ٤٢١٠)، و«صحيح مسلم» (١٨٠٧، ٢٤٠٤، ٢٤٠٥، ٢٤٠٦، ٢٤٠٧)، و«شرح النووي على مسلم» (١٥/ ١٧٣-١٧٨)، و«فتح الباري» (٧/ ٤٧٦-٤٧٨).

وبقي حصن مرحب إلى يومنا هذا، ولازال بناؤه قائماً، واندرست أكثر الحصون المذكورة في خيبر، وهو بناء مستطيل رفيع، مرتفع على قمة جبل.

وهناك ممر ضيق هو الطريق إلى الحصن، وهو من حصون النطاة، وفي أول النطاة المسجد الأعظم الذي كان ﷺ طول مقامه بخيبر يصلي فيه، ويسمى هذا المسجد «**المنزلة**»، وكان مشيداً عامراً، بناه عيسى بن موسى، وأنفق في بنائه مالاً جليلاً[(١)].

ولا زالت خيبر بلدة عامرة، تحكي أطلال حصونها، وشوامخ نخيلها، خبر هذه المعركة وتلك المنازلة.

ومن أهم المعاني المهمة التي تستوقف في خبر خيبر، وقصة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع مرحب؛ هو وضوح الهدف وجلاؤه إلى درجة التألق، وليتضح ذلك في ذهنك تصور جموع المسلمين وهم يواجهون يهود، ويتهيأون لقتالهم، وتسترجع ذكرياتهم مرارات الغدر والخيانة، وشدة العداوة خلال سبع سنين قضاها المسلمون معهم، من تحرش بني قينقاع إلى مكائد بني النضير إلى غدر بني قريظة في سلسلة مريرة من عداء يهود وتأليبهم، ومع ذلك فلم يكن التشفِّي والانتقام هو الهدف الحاضر حين المواجهة والاقتتال.

وكان المسلمون يشرفون على خيبر، فتنفسح أمامهم أوديتها عن أكبر مخزن غذائي تحضنه غابات نخيلها التي ينتهي دون مداها البصر، وتشرف عليهم حصونها التي تخزن في خزائنها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، التي يبرع يهود في جمعها واكتنازها، ولم تكن هذه الثمرات والثروات حاضرة في هدف القتال لدى الصحابة؛ مع ما كانوا يعانون من جهد الفاقة، وعوز الفقر، وشدة الحاجة.

---

(١) «معجم ما استعجم» (٢/ ٥٢١)، وينظر: في تحديد موقعه بحث الدكتور تنيضب الفايدي في كتابه: «تاريخ طيبة في خير القرون».

كان الهدف أسمى من شهوات الانتقام ومطامع المال، فقد كان هدايةَ الناس وتعبيدهم للرب الذي خلقهم، وأداءهم لحقه عليهم.

وكان من صنع الله في ذلك المشهد: أن يتذاكر عليٌّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد أن سار قليلاً، فيصرخ عليٌّ بالسؤال، ويستعلن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالجواب؛ لتسمع كل أذن، ويعي كل قلب: «**لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمرِ النَّعَمِ**».

ولم يكن عند العرب مال أكرم، ولا أنفس، ولا أعجب من الإبل الحمر يقتنونها ويتكاثرون بها، وخير منها هداية رجل يقبل بقلبه على الله تعالى[1].



صورة لحصن مرحب في خيبر، وحوله غابات النخيل

(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٤/ ٧٤).



صورة قديمة لمدينة خيبر



صورة حديثة لحصن مرحب



موقع خيبر



مسجد الإجابة «بني مُعاوية»





مسجد الإجابة

مسجد بني مُعاوية، وهم رَهط من الأوس، وتقع مساكنهم في الشمال الشرقي من المسجد النبوي، وتبعد عنه قُرابة (٨٠٠ متر)، ولهم مع نبيِّنا ﷺ خبرٌ عَاجِب، وبُشرى كريمة للأمة.

وهنا سنقتص القصَّة، ثم نستخلص عِبرها بعد أن نروي خبرها، كما رواها سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء رسول الله ﷺ من العَالية، فمرَّ بمسجد بني معاوية، فدخل ودخلنا معه، فصلى بنا ركعتين، ثم دعا دعاءً طويلاً سأل ربَّه وناشده.

فيا تُرى ما الذي سأله النبيُّ ﷺ ربَّه؟ ما هي مسألته؟ وما دعاؤه؟ ولمَن سأل؟ وما هو الهمُّ الحافز الذي جعل النبيَّ ﷺ يدخل هذا المسجد ويصلي فيه؟!

والجواب باختصار: همُّهُ أمَّته، ودعاؤه لأمَّته، ومسألته لأمَّته، يقول سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال ﷺ: «**سَأَلْتُ رَبِّي أَلَّا يُهلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يُهلِكَ أُمَّتِي بِالغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَلَّا يَجعَلَ بَأسَهُم بَينَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**»[1].

وورد أنه ﷺ دَعا بعد أن فرَغ من صَلاته قائماً مُستقبلاً القِبلة، فبالغ في الإلحاح والمُناشَدة، وظلَّ بنو معاوية أحفياء بهذا الحدث يذكرونه، ويذكرون المكان الذي صلى فيه النبيُّ ﷺ، ويَروُون هذه القصة وهذا المشهد.

أخرج الإمام مَالك في مُوطئه، عن عبد الله بن جابر بن عَتيك، قال: جَاءَنَا عَبْدُ الله ابْنُ عُمَرَ فِي بَنِي مُعَاوِيَةَ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ قُرَى الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ أَيْنَ صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ مِنْ مَسْجِدِكُمْ هَذَا؟ فَقُلْتُ لَهُ: نَعَمْ، وَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنْهُ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا الثَّلَاثُ الَّتِي دَعَا بِهِنَّ فِيهِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي بِهِنَّ، فَقُلْتُ: دَعَا بِأَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ غَيْرِهِمْ، وَلَا يُهْلِكَهُمْ بِالسِّنِينَ، فَأُعْطِيَهُمَا، وَدَعَا بِأَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَمُنِعَهَا، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَلَنْ يَزَالَ الْهَرْجُ[2] إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ[3].

إن هذه الدعوات تحمل البشرى لهذه الأُمَّة أنها أمَّة مُعمّرة، وأنها أُمَّة مُستعصِية على الفَناء.

إن الربَّ العظيم قد استجاب لهذا النبيِّ الكريم ﷺ، فأكرم أُمَّته بأنها أُمَّةٌ باقية، لا يمكن أن تُستأصل من عدوٍّ خارجي، ولا يمكن أن تفنى بعوامل طبيعية، لا بغرق ولا قحط،

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٩٠). والسَّنة: القحط والجدب.

(٢) الهرْج: القتال والاختلاط. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٥٧).

(٣) «الموطأ» (٣٥).

وستبقى أمَّةً مُمتدة على أحقاب الزمن، ومُتواصلة في أجيال الأمم، ولو أصابتها المصائب هُنا أو اجتاحها عدوٌّ هناك، فستبقى بعمومها مستعصية على الفناء تمرض ولا تموت.

أما عدم إجابة الدعوة الثالثة -ألا يكون بأسهم بينهم- فلأنّ هذا أمر من الله كُلِّفت به الأمة: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾؛ فهو أمرٌ تتحمَّل الأمَّة مسؤوليته، إذ عليها أن تُهذِّب نَفسها، وأن تحتوي خِلافَاتِها، وأن تُرشِّد ما يقع بينها من اختلاف، ويتحمل أهل الرشد مسؤولية الصلح والتوفيق: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فلا يتحول إلى شِجار وتَدابُر.

فهذه مسؤولية على الأُمة وتكليفٌ يجب عليها أن تتحمله، ولا تفرط فيه، فإنْ وقع ثَمّ تفريط فإن له عواقبه المريرة التي ستتحملها الأمة؛ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

ولذا وجدنا في مسيرة الأمة عبر التاريخ أن الخلاف والتنازع بينها كان أخطر عليها من العدوان الخارجي، بل لم يتغلب عليها عدوٌّ إلا إذا دخل عليها من فجوات الاختلاف بينها.

وثَمّ دلالات من هذا الموقف:

أولاً: أنَّ هذا المسجد لبني معاوية قريبٌ من الحرم بأقل من (١كم)، فلماذا دخل النبيُّ ﷺ إلى هذا المسجد، وصلَّى فيه ودَعا هذا الدعاء؟ ولم يصبر قليلاً حتى يصل إلى مسجده وحَرمه؟!

لعلّ من المَعاني: أن النبيَّ ﷺ كان يجعل لكلِّ حيٍّ من أحياء الأنصار، وفي كلِّ مسجدٍ من مساجدهم مَنقبة، فلمسجد بني مُعاوية هذه المَنقبة، وهي منقبةٌ لهم.

وهذا يدلنا على أن النبيَّ ﷺ قد دخل مساجد الأحياء والدُّور في حياته، وصَلَّى فيها، وآنسَ أهلها بزياراته وصَلواته، وهذا كما هو إيناس من النبيِّ ﷺ، فهو فنٌّ من الفُنون النَّبوية في تأليف القُلوب؛ لأنَّ أحياء الأنصار أحياء عَشائرية فهذا حَيُّ بني ظَفر، وهذا حيُّ بني عبد الأشهل، وهذا حَيُّ بني مُعاوية، وهذا حَيُّ بني حَارثة وهكذا، فكلُّ حَيٍّ عشيرة، وكلهم مشوق إلى زيارة النبي ﷺ لهم، وصلاته عندهم، فإذا أتاهم وصَلَّى في مَسجدهم ودَعا شعروا بحَمِيمية القُرب منه ﷺ، وأنهم جميعاً منه بمكان، وحلت عندهم بركة الدعاء والصَّلوات النبوية.

ثانياً: أن أصحاب الحي إذا أتى النبيُّ ﷺ عندهم وقع ذلك من نفوسهم غاية الموقع، فذكروا تلك الصلاة وذلك الدعاء وعَرفوا المكان وحافظوا عليه، ولذلك يذكر بنو مُعاوية أين صَلَّى النبيُّ ﷺ من هذا المسجد، وبماذا دعا، فيذكرون أنه صَلَّى على يمين المِحراب من جِهة دار عَدِي، وهذا يدلُّ على رعايتهم للأماكن التي صَلَّى فيها النبيُّ ﷺ، وفي سؤال عبد الله بن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لهم: أين صَلَّى رسول الله ﷺ في مسجدكم؟ دليلٌ على اهتمامه بهذا المكان، وعلى حِفظهم له.

كما يَدلُّ على فضل أماكن صلاته ﷺ وأن لها بركة ومَكانة، ولذلك اعتنى الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومَن بعدهم بالمُحافظة عليها وتتبُّعها وحِياطَتها، ونحن نقْفو أثرهم، فحين نُصلِّي فيه تخفق قلوبنا ونقول: نحن الأُمَّة التي ذكرها نبيها ﷺ في دُعائه، وناشد ربه من أجلها، وأننا الآن -بعد (١٤٠٠) سنة- نتفيَّأ بركة دَعوة النبيِّ ﷺ يوم دَعا لنا ألا نَهْلِك بِسَنَةٍ عَامة، وألا يُسلِّط الله علينا عَدواً من سِوى أنفسنا، فيستبيح بَيضتنا، وأننا كنا من نَبيِّنا ﷺ بمكانٍ، حتى يذكرنا وهو في الطريق، ويتعجل الوقت، فلا ينتظر حتى يصل مسجده، فيدخل ويُصلِّي هنا، ويُطيل الصلاة، ويدعو ويُطيل الدعاء.

فهل تستشعر -أيها القارئ الكريم- وأنت تقرأ السِّيرة النبوية مَكانة هذه الأُمَّة في قلب نبيِّها ﷺ؟ ألَا تُفجِّر هذه المواقف في القُلوب بِحَاراً من الحُبِّ لهذا النبيِّ الذي يتجلى من خلال هذه الأماكن حُبُّه لنا، ورَأفته بنا ودعاؤه لنا؟! فيَا كُلَّ مُؤمنٍ به تَذكَّر حُبَّه لك وأحبَّه من كل قلبك[1].

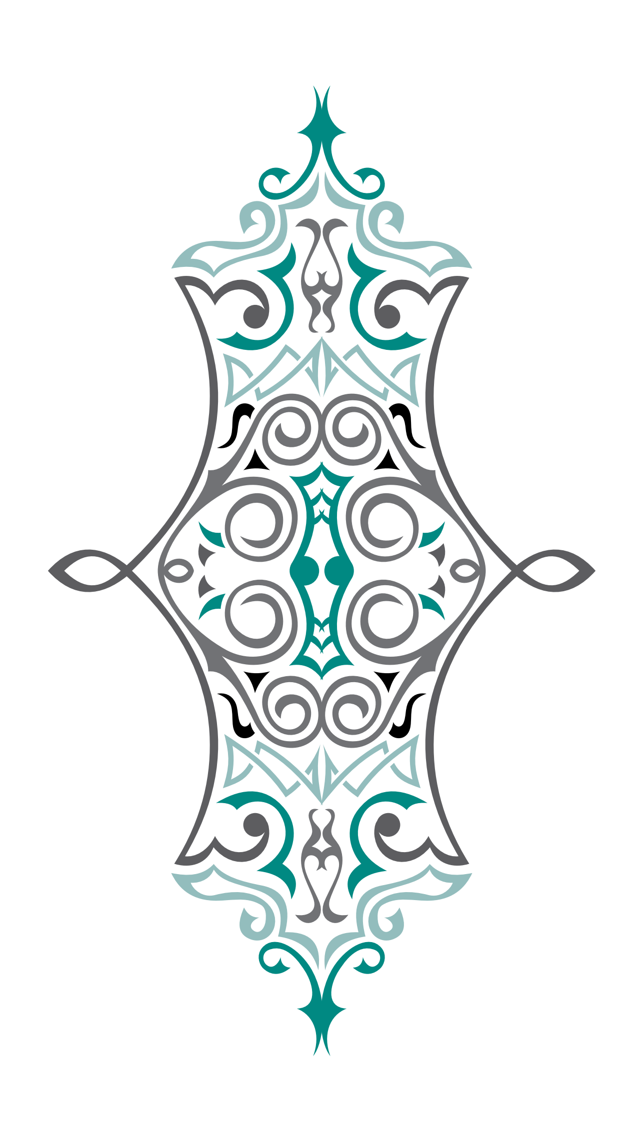


موقع مسجد الإجابة



---

(١) ينظر في ذلك: «تحقيق النصرة» (١٣٩)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ٣٨)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٢٨)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٣١٩)، و«آثار المدينة» (١٣٧)، و«طيبة المدينة النبوية» (٢٥٧).





مسجد بني ظَفر





لقطات مختلفة من مسجد بني ظفر

بنو ظَفر حيٌّ من الأنصار من الأوس، وهنا دورهم ومسجدهم، وعندما نتحدَّث عن مسجدٍ في حيٍّ من أحياء الأنصار في حياة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فإن الذي يغلب على الظنِّ أن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صَلَّى فيه، فالأصل أن يزورهم النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في دورهم، ويصلي في مساجدهم، ويدل على ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ عن مسجد الضِّرار: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾.

فالنهي أن يقوم في مسجد الضِّرار يدلُّ على أنه ﷺ كان يقوم في المساجد القائمة في وقته، وإذا كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يدعون النبيَّ ﷺ ليُصلي في بيوتهم، كما صنع عِتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]، وكما صلى النبيُّ ﷺ في بيت مُليكة جدَّة أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[2]، فما ظنك بمسجد في حيٍّ ودور؟ وقد أمر ﷺ ببناء المساجد في الدُّور، وأن تُنظَّف وتُطيَّب[3]، وقد كانت الأحياء في حياة النبيِّ ﷺ أحياءً عشائرية: كحيِّ بني ساعدة، وحيِّ بني ظَفر، وحيِّ بني عمرو بن عوف، وحيِّ بني سالم بني عوف، وهكذا كلُّ عشيرةٍ يبنون مسجداً في دورهم، فإن أشواقهم تتطلع أن يُصلي النبيُّ ﷺ في مسجدهم.

وقد أتى النبي ﷺ إلى بني ظفر في مسجدهم ومعه مُعاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وجلس على صخرةٍ في مسجدهم، ثم قال لعبد الله بن مسعود: «**اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ**»، وكان ابن مسعود من أعذب الصحابة صوتاً بالقرآن، وأجملهم تلاوةً له وتغنياً به، قال: يَا رَسُول الله أَقْرَأُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! أي: كيف أقرأ عليك القرآن وما تلقيته إلا منك؟ ولا أخذته إلا من فِيك؟!

فقال له ﷺ: «**اقْرَأْ، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فجعل عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأ في مسجد بني ظَفر؛ مُستفتِحاً سورة النساء، والنبيُّ ﷺ مُنْصِتٌ له؛ حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾؛ قال ﷺ لابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**حَسْبُكَ**»، قال: فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٤)، و«صحيح مسلم» (٣٣). والدور: بمعنى الأحياء والحارات.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٨٠)، و«صحيح مسلم» (٦٥٨).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٥٥)، و«سنن ابن ماجه» (٧٥٩)، و«جامع الترمذي» (٥٩٤).

(٤) «صحيح البخاري» (٥٠٥٠)، و«صحيح مسلم» (٨٠٠). وينظر: «معجم الصحابة» لابن قانع (٣/ ٢١)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٥٤٦)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم (١/ ١٧٨-١٧٩).



هكذا كان بكاء النبيُّ ﷺ، كان يذرف الدموع بلا انتحاب ولا نشيج ولا ضجيج، ولكنه بُكاء الخشية التي تعمُر القلب، فيفيض أثرها دمعاً يذرف من عينيه لم يشعر به ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا حين التفت إليه.

خشوعٌ نبويٌّ بسكينة، وكان ذلك في مسجد بني ظَفر، وفي بعض الروايات: أن النبيَّ ﷺ قال: «**أَيْ رَبِّ شَهِدْتُ عَلَى مَنْ أَنَا بَيْنَ ظَهْرَيْهِ فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ أَرَ؟**»[1].

و«**مسجد بني ظَفر**» يقع في حيِّ بني ظَفر، الذي وقعت فيه أحداث خالدة، ومنها: أن رِفاعة بن زيد -وهو أحد بني ظَفر- كان له مشرُبة[2] وقد وضع في هذه المشرُبة درعاً ودَرمكاً[3]، فنُقبت المشرُبة وسُرق الدرع والطعام، وكان الذي سرق ذلك منافقاً من بني أُبيرق، فلما توجهت التُّهمة إلى بني أبيرق، أنكروها، وأتوا النبيِّ ﷺ ينفون هذه التُّهمة عن أنفسهم، ويُوجِّهونها إلى يهودي عندهم[4] وتوجه اتهام المسلمين إلى ذلك اليهودي، ومال هواهم أن يكون هو المُتَّهم، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ في إحدى عشرة آية من سورة النساء كلها إنصاف، وتَبرئة لذلك اليهودي وإلحاق للجناية بمن جناها، وتحذير من اتباع الهوى وميل النفس، واتهام البريء بما ليس فيه، وإن كان مخالفاً أو معادياً، وهل أبلغ في ذلك

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (١٩/ ٢٤٣).

(٢) المشرُبة: هي الغرفة المُتحدة، وغالباً ما تكون مرتفعة فوق سقف. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٥٥).

(٣) الدَّرْمَك: الدّقيق الحوارِي. أي هو أطيب الطعام الذي يصطفيه صاحب البيت لنفسه. ينظر: «النهاية» (٢/ ١١٤).

(٤) «جامع الترمذي» (٣٠٣٦).

من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمًا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا﴾، ونعلم بعد ذلك أن هذا البريء هو ذاك اليهودي.

إنَّ هذا يُبيِّن لكلِّ أمم الأرض أيَّ دينٍ جاء به محمدٌ ﷺ، إنه دين الحقِّ الذي جاءَ ليُحقَّ الحقَّ ويُبطل الباطل! إنها عظمة رسالة رسول الله ﷺ.

وقد كانت أحداث هذا الحدث في هذه المنازل منازل بني ظَفر، وهم أنصاريون من الأوس في الحرَّة الشرقية شرقي البقيع في المدينة النبوية المُنورة[1].



موقع مسجد بني ظفر



(١) ينظر في ذلك: «تحقيق النصرة» (١٣٨)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ٣٦)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٣٠٩)، و«آثار المدينة» (١٣٤)، و«طيبة المدينة النبوية» (٢٥٩).



مسجد عِتبان بن مالك





صورة تجمع بين مسجد الجُمعة ومسجد عتبان بن مالك

الحديث عن «**مسجد عِتبان بن مَالك**»، هو الحديث عن التواصل النبوي مع أطياف المجتمع، ومع قبائل الأنصار، ومع بِقاع المدينة ونواحيها.

الحديث عن هذا المسجد هو الحديث عن اللَّهف إلى العبادة، وعمارة البيوت والمساجد بالصَّلوات، وتَلطُّف النبي ﷺ بأصحابه ولُطفه معهم.

أما المكان: فإنه يقع خلف مكان المسجد أُطم لعِتبان بن مالك، يُسمى «**المُزدَلف**»، فقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسكن هذا المكان، وقد بُني مكانه حالياً أحد المباني الحديثة.



وكان عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمام قومه بني سالم بن عوف الذين يسكنون في المنطقة المقابلة لداره، وكان أمام دارِه مجرى «**وادي الرانوناء**»، الذي إذا جرى قطع الطريق بين عتبان بن مالك -الذي هو إمام قومه- وبين مسجد بني سالم بن عوف الكبير الذي كان يُصلِّي فيه، وكان قد ضعُف بصره، فأتى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يطلب منه أن يتَّخذ له مسجداً يُصلِّي فيه من بيته؛ إذ لم يعد يستطع الذهاب إلى مسجده[١].

أما قصَّة مَجيء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إليه: فقصَّةٌ عذبة جميلة؛ لكن قبل أن نَرويها دعونا نتصوَّر مسجد عتبان الذي في هذا المكان ومن حوله مُنهبط الوادي، فإذا جرى سيله لا يستطيع عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقطع الطريق؛ خاصَّةً بعد ضَعف بصره.

واتخذ عتبان هذا المسجد الذي صلى فيه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في داره، وذكر ابن سعد: أن الناس ما زالوا يُصلون في هذا المسجد الذي صلى فيه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في بيت عتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

وبقي هذا المسجد عامراً إلى عام (١٤١٧هـ)، حيث ضُمَّ إلى الشارع والرصيف؛ اكتفاءً بالمسجد المقابل له، وهو مسجد الجمعة، وليته بقي شاهداً على القصة، وحافظاً للأثر!

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٥)، و«صحيح مسلم» (٣٣).
(٢) «الطبقات الكبرى» (٣/ ٤١٦).



صورة قديمة لمسجد عتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل إزالته

أمَّا خَبر زيارة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لعِتبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيته: فصورةٌ جميلةٌ عذبةٌ من صور التوادّ بين النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وحضوره في حياتهم حضوراً عميقاً، يشعر كلُّ واحدٍ منهم بخصوصيته بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وخصوصية النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ به.

خرج عِتبان بن مَالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من دِياره قرب قباء مُتوجهاً إلى المسجد النبوي، وهو مُحتشِدٌ ليُسلِّم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعد أن يصلي معه الجمعة، ثم يطلب منه أن يأتي إليه ليُصلي في بيته، فلما لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال له: يا رسول الله، إني قد أنكرت بصري، وإني أؤم قومي، فإذا سال الوادي حال بيني وبينهم، وإني أحبُّ أن تأتي إلى بيتي، فتصلِّي فيه مكاناً أتَّخذه مُصلًّى، ويأتيه الجواب النبوي من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؛ ليُثبت لعتبان ما كان مُستيقناً منه، وهو كرم النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الذي كان يتلقَّى رغبات أصحابه بحفاوةٍ غامرة، فكان الجواب النبوي فورياً: «**أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللهُ**»[1].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٢٥)، و«صحيح مسلم» (٣٣).

وكان طلب عتبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يوم الجمعة، فذهب إليه النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يوم السبت ضحى، أي: بعد أقل من (٢٤) ساعة، فلما وصل صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ومعه أبو بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، تلقاه عتبان ومَن معه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بحبٍّ وابتهاج.

وإذا بالنبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يسارع إلى ما طلبه عتبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فيقول له: «**يَا عِتْبَانُ أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟**»، فقال عتبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: هنا يا رسول الله، فأمَّهم النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، وممن كان خلفه أبو بكر وعمر وعتبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فصلَّى النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ في بيت عتبان ركعتين، فلما انتهى من صلاته، وهمَّ بالانصراف قال عتبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: فحبسنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ -أي طلبنا منه أن ينتظر قليلاً- لتقديم الضيافة، وكانت تلك الضيافة «**خزيرة**»[(١)]، فانتظر النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ حتى تنضج هذه الخَزِيرَة، وفي فترة الانتظار هذه، انتشر الخبر في الحيِّ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ في بيت عتبان، فكلُّ مَن سمع الخبر من رجال الحيِّ، أتى إلى بيت عتبان؛ ليلقى النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ.

احتف الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ بنبيهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، وجعلوا يتفَّقدون بعضهم، فقال أحدهم: أين مالك بن الدُّخشن؟! فإنه لم يحضر معنا، فقال رجلٌ في المجلس: ذاك منافق.

وإذا بالنبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ يتولَّى الدفاع عن هذا الصحابي الغائب، فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: «**أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَلَّا إِلَه إِلَّا الله؟!**»، قالوا: بلى يا رسول الله؛ ولكنا لا نرى وجهه إلا إلى المنافقين، فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ**»[(٢)].

---

(١) الخزيرة: وهي: مرقة الدقيق، بها قطع صغيرة من اللحم؛ حيث يُطبخ هذا اللحم حتى ينضج، ثم يُسكب عليه الدقيق. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٢٥)، و«صحيح مسلم» (٣٣)، ولفظه: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ الله**».

وضع النبي ﷺ بهذا الإعلان حجاباً مانعاً عن كلِّ مَن شهد أنْ لا إله إلا الله، فلا يجوز تخطِّي هذا الحجاب الذي جعله النبيُّ ﷺ عصمةً لكلِّ مُسلم.

وهنا أشير إلى بعض دلالات هذا المجلس، ومنها:

أولاً: أن النبيَّ ﷺ ذَكرَ ذلك الصحابي -مالك بن الدُخشن- بخصلة عامة بين المسلمين، وهي شهادة التوحيد: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» ولم يذكره بعملٍ خاصٍّ، كقيام أو صيام أو جهاد؛ ليُثبت أن هذه الشهادة بذاتها عصمةٌ ومنعة، وإلا فإن مالكاً رَضِيَ اللهُ عَنهُ قد شهد بدراً، وقد عُصم من النفاق كلُّ مَن شهد بدراً.

ثانياً: أنَّ هؤلاء الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنهُم ذكروا أنهم لم يروا وجهه إلا إلى المنافقين، وكان هذا سبباً في اتهامه بالنفاق، والحقيقة أنَّ تعامله مع المنافقين أمرٌ اعتيادي؛ لأنهم جزءٌ من قبائل الأنصار، والتعامل معهم هو الأصل؛ لأنهم مرتبطون بغيرهم بروابط القربى والجوار والصحبة والمعاملة، كما أن التعامل معهم سببٌ لعلاجهم، حتى ينحسر النفاق ويتلاشى، ولا يبقى إلا في النفوس المريضة التي مردت على النفاق، أمَّا البقيَّة فيتعافون منه بهذه المعاملة الطيِّبة.

ثالثاً: أن الأصل في المجتمع هو التواصل والتعامل والتفاعل، ولذا لم ينكر النبي ﷺ تواصله مع من يُظن بهم النفاق، ولا أن وجهه كان إليهم.

رابعاً: عندما بُني مسجد الضِّرار، وأَمَر النبيُّ ﷺ بتحريقه أرسل رجلين يُحرِّقانه، وكان أحدهما هو مَالك بن الدُخشن رَضِيَ اللهُ عَنهُ الذي اتُّهم بالنفاق! فقد جعل النبيُّ ﷺ على يديه تدمير مسجد المنافقين وتحريقه، فهل يُمكن أن يُرسل النبيُّ ﷺ مُنافقاً لتدمير مسجد النفاق؟! إنها شهادة نبوية أخرى بأنه بريءٌ من هذه التهمة[1].

(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٣/ ٧٣)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٥٥)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (١٠٢).





موقع مسجد عتبان بن مالك



مسجد الغَمَامَة (المُصلَّى)



هو مكان مُصلَّى العيد والاستسقاء في عهد النبي ﷺ، وكان قد صلَّى العيد في أماكن عدة، ثم استقرَّ بعد ذلك يصلي في هذا المكان، ويبعد اليوم عن المسجد النبوي نحو خمسمئة متراً، في الجهة الجنوبية الغربية.

ولم يكن المصلى في حياة النبي ﷺ مسجداً، بل كان فضاءً خارج المدينة لا بناء فيه، والمسجد اليوم إنما هو في بعضه، وهو المحل الذي كان يقوم فيه النبي ﷺ، والظاهر أن بناءه الأول كان في زمن عمر بن عبد العزيز.

فكان النبي ﷺ يخرج بالناس، فيُصلِّي بهم صلاة العيد في هذا الفضاء؛ لأن مسجد النبي ﷺ لا يتسع لأهل المدينة إذا اجتمعوا كلهم في صلاة العيد، فإن صلاة العيد يهبط إليها أهل العوالي والنواحي المتباعدة عن الحرم، فإذا اجتمعوا يوم العيد لا يستوعبهم المسجد، فيُصلي النبي ﷺ العيد في هذا المكان؛ خاصة أنه ﷺ أكَّد في صلاة العيد على خروج النساء، كما في حديث أم عطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أُمِرْنَا أَنْ نُخْرِجَ الْحُيَّضَ يَوْمَ الْعِيدَيْنِ وَذَوَاتِ الْخُدُورِ، فَيَشْهَدْنَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَدَعْوَتَهُمْ، وَيَعْتَزِلُ الْحُيَّضُ عَنْ مُصَلاهُنَّ، قَالَتِ امْرَأَةٌ: يَا رَسُولَ الله، إِحْدَانَا لَيْسَ لَهَا جِلْبَابٌ! قَالَ: «**لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا**»[1].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٤)، و«صحيح مسلم» (٨٩٠).

فإذا ذهب حُملت العنزة[1] بين يديه حتى تنصب أمامه -لأنه يصلي في الفضاء إلى غير سترة، فتكون سترة له- وهذه العنزة كانت للزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أعطاها إياه النجاشي، فوهبها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فكان يُخْرج بها بين يديه يوم العيد.

قال الواقدي: وهي اليوم بالمدينة عند المؤذنين، يعني يخرجون بها بين يدي الأئمة في زمانه[2].

وقد وُصفت لنا صلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ العيد في المصلى، في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَخْرُجُ يَوْمَ الفِطْرِ وَالأَضْحَى إِلَى المُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلاةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلَى صُفُوفِهِمْ، فَيَعِظُهُمْ، وَيُوصِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثاً قَطَعَهُ، أَوْ يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ[3].

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقُولُ: أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَصَلَّى قَبْلَ الْخُطْبَةِ، ثُمَّ خَطَبَ فَرَأَى أَنَّهُ لَمْ يُسْمِعِ النِّسَاءَ، فَأَتَاهُنَّ فَذَكَّرَهُنَّ وَوَعَظَهُنَّ، وَأَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ، وَبِلَالٌ قَائِلٌ بِثَوْبِهِ[4]، فَجَعَلَتِ الْـمرْأَةُ تُلْقِي الْخَاتَمَ وَالْخُرْصَ وَالشَّيْءَ[5].

(١) العنزة: هي الحربة القصيرة. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٠٨).
(٢) «وفاء الوفاء» (٣/ ٣).
(٣) «صحيح البخاري» (٩٥٦).
(٤) أي فاتحٌ ثوبه للأخذ فيه. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٦/ ١٧٤).
(٥) «صحيح البخاري» (٥٢٤٩)، و«صحيح مسلم» (٨٨٤).





مسجد الغمامة

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ يَوْمَ الْعِيدِ، فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ الْخُطْبَةِ، بِغَيْرِ أَذَانٍ وَلَا إِقَامَةٍ، ثُمَّ قَامَ مُتَوَكِّئاً عَلَى بِلَالٍ، فَأَمَرَ بِتَقْوَى الله، وَحَثَّ عَلَى طَاعَتِهِ، وَوَعَظَ النَّاسَ وَذَكَّرَهُمْ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى أَتَى النِّسَاءَ، فَوَعَظَهُنَّ وَذَكَّرَهُنَّ، فَقَالَ: «**تَصَدَّقْنَ، فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ**»، فَقَامَتِ امْرَأَةٌ مِنْ سِطَةِ النِّسَاءِ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ[1]، فَقَالَتْ: لِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ**»، قَالَ: فَجَعَلْنَ يَتَصَدَّقْنَ مِنْ حُلِيِّهِنَّ، يُلْقِينَ فِي ثَوْبِ بِلَالٍ مِنْ أَقْرِطَتِهِنَّ[2] وَخَوَاتِمِهِنَّ[3].

وكانت خطبته بعد صلاة العيد، ولم يكن في المصلَّى في زمنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ منبر، وإنما كان يخطب بعد الصلاة واقفاً على قدميه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، إلى أن بُني المنبرُ زَمنَ مروان بن الحكم حين كان أميراً على المدينة.

---

(١) سطَة النساء: أي ليست من علية النساء. ينظر: «إكمال المعلم» (٣/ ٢٩٤). والسُّفْعَةُ: نَوْعٌ مِنَ السَّوَادِ لَيْسَ بِالكَثِيرِ. وَقِيلَ: هُوَ سَوَادٌ مَعَ لَوْنٍ آخَرَ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٧٤).

(٢) أقرطة: جمع قُرْط، وهو نوع من حليّ الأذن. ينظر: «النهاية» (٤/ ٤١).

(٣) «صحيح مسلم» (٨٨٥).

وإذا رجع ﷺ من صلاة العيد رجع من طريق آخر، وقد حددت كتب تاريخ المدينة الطريق الذي يذهب منه النبي ﷺ، والطريق الذي يرجع منه؛ بما هو معروف في زمانهم، أما الآن فقد ذهبت تلك الطرق كلها، وصار المصلَّى بارزاً ليس بينه وبين المسجد النبوي طرق، وإنما ساحة واسعة تصل بين المصلى والمسجد النبوي.

وكان ﷺ يخرج إلى المصلى لصلاة الاستسقاء، وربما حُمِل إليه المنبر فوُضِع له فيه، كما في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: شَكا النَّاسُ إلى رسولِ الله ﷺ قُحوطَ المطرِ، فأمرَ بمنبرٍ فوُضِعَ له في المصلَّى، ووعدَ النَّاسَ يوماً يخرُجونَ فيهِ؛ فخرجَ رسولُ الله ﷺ حينَ بدا حاجبُ الشَّمسِ، فقعدَ علَى المنبرِ، فكَبَّرَ ﷺ وحمدَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ، ثمَّ قالَ: «**إِنَّكُمْ شَكَوْتُمْ جَدْبَ دِيَارِكُمْ، وَاسْتِئْخَارَ الْـمطَرِ عَنْ إِبَّانِ زَمَانِهِ عَنْكُمْ، وَقَدْ أَمَرَكُمُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **أَنْ تَدْعُوهُ، وَوَعَدَكُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ**»، ثُمَّ قَالَ: «**الحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ، أَنْزِلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلَاغاً إِلَى حِينٍ**»، ثمَّ رفعَ يدَيهِ، فلم يزَل في الرَّفعِ حتَّى بدا بياضُ إبطيهِ، ثمَّ حوَّلَ إلى النَّاسِ ظَهْرَهُ، وقلبَ -أو حوَّلَ- رداءَهُ وَهوَ رافعٌ يدَيهِ، ثمَّ أقبلَ علَى النَّاسِ، ونزلَ فصلَّى رَكعتَينِ، فأنشأ اللهُ سحابةً، فرعَدَت وبرَقَتْ، ثمَّ أمطرَتْ بإذنِ الله، فلم يأتِ مسجدَهُ حتَّى سالتِ السُّيولُ، فلمَّا رأى سرعتَهُم إلى الكِنِّ[1] ضحِكَ ﷺ حتَّى بدَت نواجذُهُ، فقالَ: «**أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»[2].

ولعله من هنا سُمِّي المصلى بـ: «**مسجد الغمامة**».

---

(١) الكِنّ: ما يردّ الحرّ والبرد من الأبنية والمساكن. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٠٦).

(٢) «سنن أبي داود» (١١٧٣).



وفي المصلَّى صلَّى النبي ﷺ على النجاشي صلاة الغائب سنة تسعٍ من الهجرة، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضى الله عنه، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَعَى النجاشي في الْيَوْمِ الَّذِى مَاتَ فِيهِ، خَرَجَ إِلَى الْمُصَلَّى، فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ أَرْبَعاً[١].

وحفظ التابعون ومن بعدهم مكان المصلى، فأعلموه بعلَم اشتهر به، وقد بوب عليه البخاري فقال: «**باب العلَم الذي بالمصلى**»[٢]، وقد يعلّمونه بما حوله من الدور التي بنيت بعد، وأشهرُها دار كثير بين الصلت، وكانت شرقي المسجد.

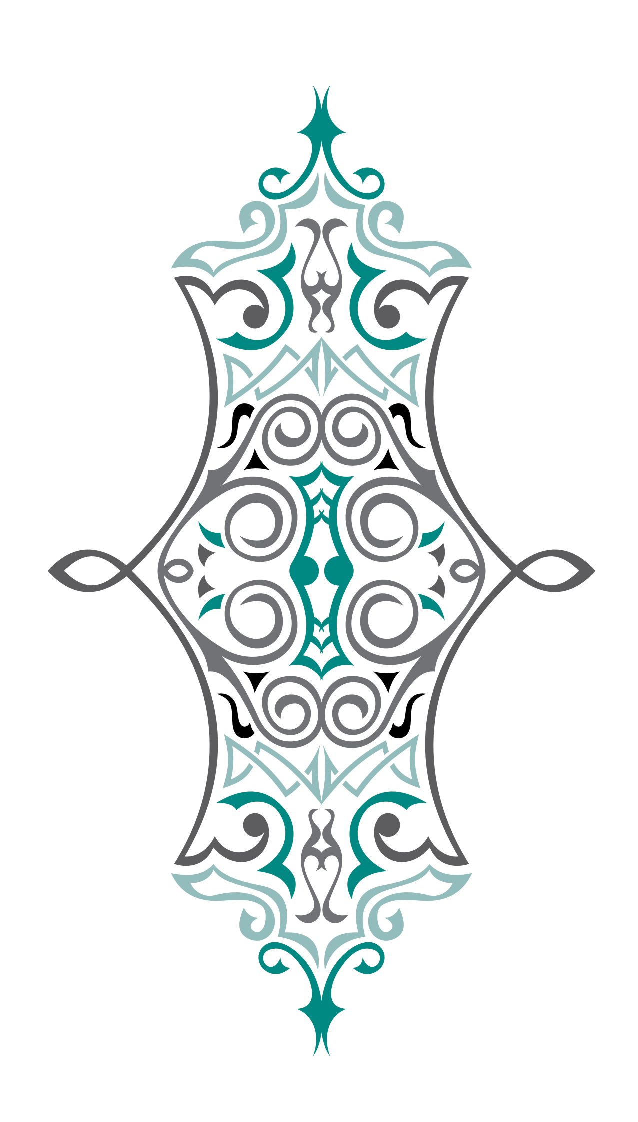
وقد بقي المصلى هو مكان صلاة العيد لأهل المدينة قروناً متتابعة، وذكر السمهودي المتوفى في أول القرن العاشر صفة خروجهم إليه، وصلاتهم الأعياد فيه.

وأما في الأزمان المتأخرة فصار أهل المدينة يصلون العيد في المسجد النبوي لأنه وُسِّع وصار يستوعب الجموع في الأعياد، وأما المصلى فصار موضعه مسجد الغمامة ويصلي فيه من حوله، خاصة من يكون في سوق المناخة الذي يتصل به[٣].



موقع مسجد الغمامة

(١) «صحيح البخاري» (١٢٤٥)، و«صحيح مسلم» (٩٥١).
(٢) «صحيح البخاري» (٢/ ٢١).
(٣) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٣/ ٣)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٠٠)، و«آثار المدينة» (١٢٢)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٤٦)، و«طيبة المدينة النبوية» (٢٦٧).





مَشربة أم إبراهيم





صورة قديمة لموقع مشربة أم إبراهيم في منطقة العوالي

تُعد هذه المشربة[1] وعاءً للعاطفة النبوية أبوّة ومودّة، ورحمة وحباً، وقد كانت مِلكاً ليهوديٍ من بني النضير هو مُخيرِيق النضيري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فيه نُبل وإنصاف، وقد اتضح نُبله وإنصافه في تعامله مع نبوَّة النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ومع عهد اليهود مع النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

فإنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عندما دخل المدينة عاهد اليهود بما يُمكن أن نسمِّيه «**اتفاقيَّة دفاع مُشترك**» بأن يكون بين النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وبينهم دفاعٌ عن المدينة، فلما جاءت قريش إلى المدينة في معركة أُحد، وكان اليهودي الوحيد الذي تذكَّر هذا العهد وتلك المعاهدة هو مُخيرِيق،

---

(١) المشربة هي الغرفة المُتَّحِدة غير المتصلة ببناء. ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ٢١٦).

فجاء إلى قومه بني النضير صبيحة يوم المعركة، وكان يوم السبت يستنفرهم للخروج، فقالوا له: اليوم يوم السبت ولا نقاتل يوم السبت، فقال لهم: لا سبت لكم، وإني ذاهبٌ ومُقاتل مع مُحمد، فإن أُصبت فإنَّ أموالي لمُحمد ﷺ يضعها حيث يشاء[١].

وانطلق مُخيرِيق لاحقاً برسول الله ﷺ، وقاتل باستبسال ووفاء وذمة، وقد تجلّى استبساله في شدة الجراحات التي أصابته في هذه المعركة، وانتهت المعركة ومُخيرِيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ جريحٌ مُثخنٌ بجراحه، فجدَّد كلامه: إن أموالي لمُحمدٍ يضعها حيث يشاء، وقد كان مُخيرِيق ثريًّاً ذا مال، وكان من أمواله: سبعة حيطان ثمينة موجودة في بني النضير وقريظة ومنها: حائط يُسمَّى برقة، والمشربة، والدلال، وحسنا، والأعواف، والصافية، وميثب، وكلها حوائط لمُخيرِيق، وقد آلت بوفاته لرسول الله ﷺ، فلمَّا مات قال رسول الله ﷺ: «**مُخَيْرِيقُ سَابِقُ يَهُودَ، وَسَلْمَانُ سَابِقُ فَارِسَ، وَبِلَالٌ سَابِقُ الحَبَشَةِ**»[٢].

وهذا يدلُّ على أن مُخيرِيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قد اتَّبع النبيَّ ﷺ، وأنه ما سخي بنفسه ودمه وماله لرسول الله ﷺ إلَّا وهو مُصدِّقٌ بنبوَّته، متبعٌ لرسالته، فرضي الله عن مُخيرِيق سَابق يهود.

أما ماله الذي وهبه للنبيِّ ﷺ يضعه، حيث يشاء فقد اختار النبيُّ ﷺ منه حائطاً في بني قريظة؛ ليكون مشربة لأم إبراهيم الصِّديقة مَارية القِبطية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تسكن فيه، فلنذهب إلى مَشربة أم إبراهيم؛ حيث عاشت الصِّديقة أم إبراهيم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وولدت هناك إبراهيم ابن نبيِّنا ﷺ.

(١) «مغازي الواقدي» (١/ ٢٦٣)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٨٨)، و«أنساب الأشراف» (١/ ٣٢٥)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (٣٨).

(٢) «تاريخ المدينة» لابن شبة (١/ ١٧٣).



صورة حديثة لموقع مشربة أم إبراهيم

هنا كان حبُّ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ورحمته وَوُدُّه، وهنا كانت عاطفة الأبوَّة المُغدِقة على ابنه إبراهيم بن مُحمَّد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

ولنقتصَّ الخبر من أوله ونتتبع الخطوات عندما انطلقت من ضِفاف النيل إلى أن وصلت إلى واحات المدينة، فقد بدأت من أرض مصر الطيبة، حيث أهدت مصر إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مارية القبطية رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، كما أهدت إلى أبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أُمَّه الصديقة هاجر المصرية.

فإن سألت عن مارية التي اختارها الله سكناً لرسوله، ولتكون أحشاؤها القرار المكين لابن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: فإنها فتاةٌ مصرية من صعيد مصر من المنيا، وكانت مصرية الأب، رُوميَّة الأم، فجمعت جمال الروم إلى مَلاحة المصريين، وقد أهداها المُقوقس عظيم مصر لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ولن يختار له إلَّا فتاةً جميلة مُهذبة تليق أن تكون هديةً لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

فأرسلها المُقوقس مع حَاطِب بن أبي بَلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى مِصر، وكانت مُشرِقة القلب متهيأة للإيمان، فحدثها حاطب في الطريق من مِصر إلى المدينة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وعَرض عليها الإسلام، فأسلمت في الطريق قبل أن تصل إلى المدينة، فلقيت النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُؤمنةً به مُصدِّقةً برسالته مُتبعةً لدينه، فتَسرَّى بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأسكنها بين زوجاته، وإذا بالفتاة الجميلة تلفت نظر الزوجات؛ حتى قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما غِرْتُ على امرأةٍ غَيرتي على مارية[1].

كانت مارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بيضاء جعدة مليحة جميلة، فنقلها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من بيوتاته إلى بساتين وريف بني قريظة، وأسكنها في هذا المكان الذي كان بُستاناً لمُخيرِيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم صار لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

أسكنها في «**مَشربة البستان**» وكأني بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُراعي نفسية مَارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وبيئتها، فهي فتاة غريبة لا يناسب أن تكون بين زوجاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فينافسنها جمالها وحظوتها، فأبعدها عنهن كما أنها أتت من رِيف مِصر، فيُناسبها أن تَسكُن في رِيف المدينة ونخيلها، وليس في عمرانها وبين بيوتها.

ثم وَلدت مارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في السنة الثامنة للهجرة إبراهيم بن مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فرُزق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ به وهو في الستين من عُمره، وفرح النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بإبراهيم فرحاً شديداً وبَشَّر به أصحابه، وقال: «**وُلِدَ لِيَ اللَّيْلَةَ غُلَامٌ، فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ**»[2].

بُشرى تدلُّ على فَرحة نبوية غامرة أفاضها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ ليعم الفرح المدينة كلها بهذا المولود وصار النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يتردد إلى مشربة أم إبراهيم يتعاهد ابنه إبراهيم الذي جعل يتفتَّح كما تتفتَّح الوردة من بُرعمها، فإذا هو أبيضُ وَضيء، أشبه الناس برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) ينظر: «الطبقات» لابن سعد (٨/ ١٧١)، و«إمتاع الأسماع» (٥/ ٣٣٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣١٥).

ويكبُر إبراهيم في رعاية النبيِّ ﷺ، حتى إذا بلغ سِنَّ المَحبَّة والوِداد سنة ونصفاً، وهي السِّن التي يتعلق فيها الأب بابنه أشدَّ ما يكون، لأنه صار يعرف ويتفاعل ويضحك ويلعب ويَلثغ ببعض الكلمات، فتذرف منه الكلمة المنقوصة أو المحرفة، وهو أعذب وأعجب ما يكون من كلام الطفل لأبيه.

إن هذه السن هي أعذب سنوات الطفولة في قلوب الآباء، ولذا تستمطر منهم الحب والرحمة، فكيف إذا كان الأب هو أرحم الخلق بالخلق.

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا رَأَيْتُ أَحَداً كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، وكَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضَعاً فِي عَوَالِي الْـمدِينَةِ، فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ، فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ، وَكَانَ ظِئْرُهُ[1] قَيْناً، فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ[2]، فهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين عامّة، فكيف برحمة الأُبوة المُضاعفة؟!

ويدخل رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ برحمته وشوقه، ولهفته وحبه، وكأنّما كان على موعدٍ مع قَدر.

يدخل فإذا الصَّبي الذي كان يُناغي ويضحك ويتلقَّف أباه إذا أتى إليه، فيفرح به ويَهُش له إذا بأنفاسه تحشرج، ونفسه تتعتع.

دخل رسول الله ﷺ ومعه عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فرفع إليه بُنَيّه يَجُود بآخر أنفاس الحياة، فجعلت عَيناه تَذرفان، وجعل يُخاطب الصبيَّ الذي لا يسمع الخطاب ولا يعقله، فهو مكروبٌ بالموت الذي نزل به، ولكنه كان يخاطب الأمَّة من

---

(١) ظئره: أي أبوه من الرضاعة، وهو أبو سيف القيني -أي الحداد- وكانت زوجته أم سيف مرضعة إبراهيم، وكان أبو سيف حداداً، فكان يوقد النار في بيته فيعلو الدخان فيها، ولذا قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فيدخل البيت إنه ليدخن!

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣١٦).



وَرائه؛ ليستعلن بعاطفة الأُبوة وبالرحمة التي أودعها الله في قلبه؛ فيقول: «**يَا إِبْرَاهِيمُ، لَوْلَا أَنَّهُ أَمْرٌ حَقٌّ، وَوعْدُ صِدْقٍ، وَسَبِيلٌ مَأْتِيٌّ، وَأَنَّ أُخْرَانَا سَتَلْحَقُ أُولَانَا؛ لَحَزِنَّا عَلَيْكَ حُزْناً هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذَا، تَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبَّنَا، وَاللهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ**»[(١)].

ويُودِّع الصبيُّ الحياة، ويُودِّع النبيُّ ﷺ بهجة الأُبوّة، ويُواريه التُّراب في مقبرة البقيع، ويعود إلى المدينة يُعالج ثُكله وحزنه، ويقول: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي، وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ، وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكَمِّلَانِ رَضَاعَهُ فِي الجَنَّةِ**»[(٢)].

ثم يلحق النبيُّ ﷺ بالرفيق الأعلى ولمَارية القِبطية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تلك المكانة في نفسه، ومن مكانتها في نفسه: أنه أوصى بقومها وبلدها وأهلها، فقال ﷺ: «**إِذَا افْتَتَحْتُمْ مِصْرا، فَاسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْراً، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً**». قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَالرَّحِمُ أَنَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ[(٣)].

فلهم ذمةٌ ورَحِم بأمِّ رسول الله ﷺ هَاجَر الصِّديقة القِبطية أُم أَبيه إسماعيل بن إبراهيم، عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فهذا رَحِمُهُ.

وقال: «**فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَصِهْراً**»[(٤)]، أي: ولهم أيضاً ذِمَّةٌ وصِهْرٌ، بمَارِية أمِّ إبراهيم بن مُحمَّد ﷺ[(٥)].

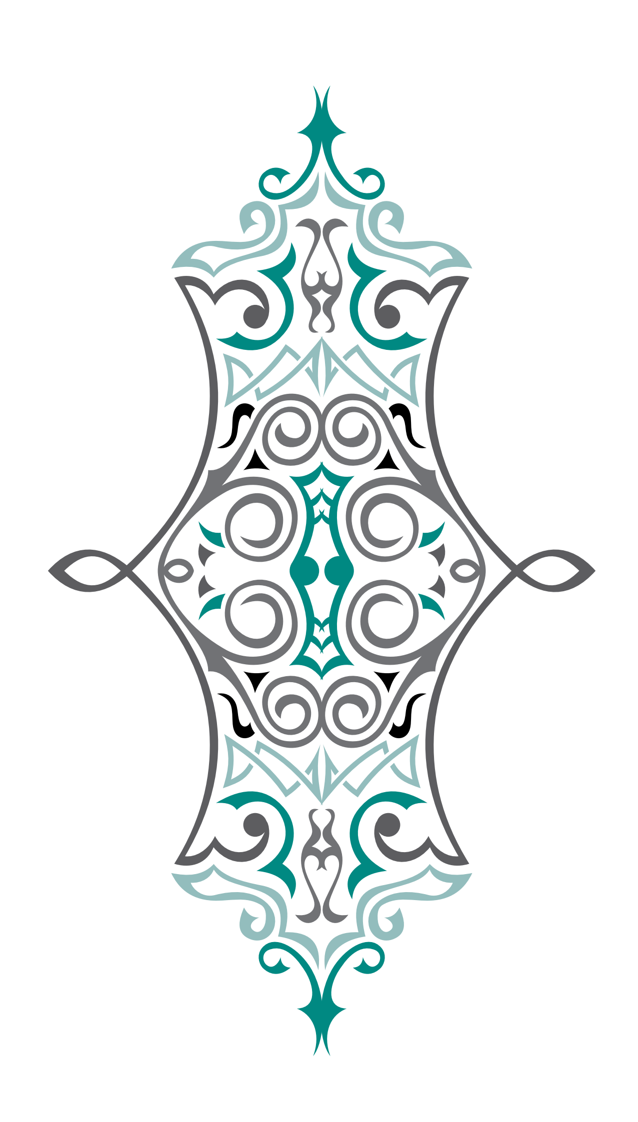
---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٢١٢٤) واللفظ له، و«صحيح البخاري» (١٣٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣١٥).
(٢) «صحيح مسلم» (٤/ ١٨٠٨) رقم (٢٣١٦) مُرسلًا.
(٣) «مستدرك الحاكم» (٤٠٣٢).
(٤) «صحيح مسلم» (٢٥٤٣).
(٥) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١٨٠)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ٣٥)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٢١)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٤٢٦)، و«طيبة المدينة النبوية» (١٠٧).



موقع مشربة أم إبراهيم







بَيْرُحَاء[1]



وهي اسمُ بستانٍ مستقبلٍ المسجد النبوي في جهته الشمالية، كان لأبي طلحة الأنصاري، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أكثر الأنصار نخيلاً وبساتين، وكان هذا البستان أحبّ أمواله إليه، وذلك لكثرة نخله، وطيب مائه، وقربه من المسجد النبوي.

وكان به بيت أبي طلحة وزوجته أم سليم وربيبه أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يدخله ويشرب من ماء فيه طيب.

فلما أنزل الله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، إن الله يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحب أموالي إليَّ «**بَيْرُحَاء**»، وإنها صدقة لله أرجو برَّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**بَخٍ بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ**»؛ فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[2].

وكان ممن قسم له منها حسان بن ثابت، وأبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[3].

---

(١) وقيل: «بئر حاء».

(٢) «صحيح البخاري» (١٤٦١)، و«صحيح مسلم» (٩٩٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٥٨).

وإنك لتعجب من هذه المبادرة السريعة من أبي طلحة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهذا التجاوب التلقائي مع آيات القرآن!

وهذا يكشف لك أن الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، كانوا يتلقون القرآن، وكل منهم يستشعر أن هذا خطاب يعنيه، وكأنه خطاب له وحده، ولذا يحصل منهم هذا التجاوب الفوري مع أوامره ونواهيه.

كما أنّ من يعرف تعلق أصحاب الأراضي الزراعية بأراضيهم وزروعهم، يعرف أن أصحاب النخيل من أشدهم تعلقاً بنخلهم، كتعلق أصحاب الزيتون بأشجارهم؛ لأنها أشجار معمرة، يولد الإنسان وهو يراها، ويشيخ وهو يرعاها، ويتبادل طول عمره معها العطاء، فسخاؤه بها ليس كسخاء صاحب الذهب والفضة بماله؛ لقوة الانتماء إليها، وشدة التعلق بها! ولذا تقع الخصومات والثارات بسبب التشاحّ في نصيب من أرض.

ولكن كل هذا التعلق والحرص يرتفع من النفوس، فتسخوا بها أحب ما كانت إليها، وهل أحب إلى أبي طلحة من بستان كثير النخل، طيب الماء، قريب من المسجد، يعتاده رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالدخول إليه، والشرب من مائه؟! لكنه أراد تحقيق أعلى درجات الامتثال لأمر الله، فأنفق المال الأحب والأغلى، والذي لا يساويه غيره!!

وهذا قدر من السخاء والإيثار لا يكون إلا في نفوس تستشعر أنها تتعاطى مع الله تجارتها، وكأنما يضعون نفقتهم في يمين الله، وما أعظم ربح التجارة حين تكون مع الله!

إنها الأرباح المضاعفة؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ولا يزال الله يربّيها ويزكيها حتى يوافيها ربها يوم القيامة أمثال الجبال!

ولذا بشره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بربح الصفقة، وقبول الصدقة؛ فقال: «**بَخٍ بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ**»، وكيف ستكون الأرباح والمعاملة مع غني لا ينفد ما عنده، وكريم لا يمنع ما عنده؟!

وقد بقيت البئر عامرة في المدينة لطيب مائها، وكانت مقابل الباب المجيدي قريباً من الحرم جداً، بعد التوسعة السعودية الأولى، وكان عليها بناء، ومركب عليها مضخة يدوية، ثم مع التوسعة السعودية الثانية في عهد الملك فهد بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، دخلت البئر وما حولها في الجهة الشمالية من توسعة الحرم، ومكانها اليوم على يسار الداخل إلى الحرم من بوابة الملك فهد بين العمودين الثاني والثالث؛ حيث توجد ثلاث دوائر رخامية، يقال إن الدائرة الوسطى منها هي مكان البئر[1].



صورة قديمة لموقع بيرحاء

---

(١) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١/ ٧٢)، و«تحقيق النصرة» (١٧١)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ١٣٢)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٨٨)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (١٧٠)، و«آثار المدينة» (٢٤٨)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٨٣)، و«طيبة المدينة النبوية» (٣٩٩).



موقع بَيْرُحَاء





بئر أَريس



مكانٌ فيه الجمال والرِّي والظلُّ، وفيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فيه التُّراب الذي مسَّ الجسد الشريف، والماء الذي ارتوى منه نبيُّنا صلى الله عليه وآله وسلم.

مكانٌ فيه جمال المنظر، وشموخ النخيل، ونضرة الشجر الذي تَملَّى منه نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم جميلاً يُحبُّ الجمال!

إنه بستان يسمى «**بئر أريس**»، وهذه البئر تقع غربي مسجد قباء، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدخلها يستريح فيها ويستظلُّ بظلِّها ويشرب من مائها.

حنَت سعفات نخلها على نبيِّنا صلى الله عليه وآله وسلم فأظلَّته، واحتضن قُفُّها جسد النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم حين جلس عليه، وارتشف قاعها خاتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين سقط فيه.



صورة قديمة لبئر أريس أو بئر الخاتم قبل إزالتها

وكان خبر ذلك أن أبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَوضَّأ في بيته صباح يوم مبارك جميل، وهو يُحدِّث نفسهُ حديث المحبِّ المتشوق لمحبوبهِ يقول: لألزمنَّ اليوم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ثم خرج يطلب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وترك أخاه يتوضأ ليتبعه.

ذهب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في مسجدهِ فلم يجده، فسأل عنه فقالوا: إنه ذهب هناك إلى قباء، فتوجَّه أبو موسى على الفور من مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى مسجد قباء يسأل عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فقيل له: لقد خرج من المسجد فدخل بئر أريس.

قال أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فذهبتُ إلى تلك البئر، فإذا عليها بابٌ من جريد ففتحتُهُ ودخلت، فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قد جلس على حافة البئر، وقد كشف عن ساقيه ودلَّاهما في البئر.

وشَعَر أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمهابةِ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وكره أن يقطع عليهِ تفكُّرهُ وفِكره، فقال: لأكوننَّ بوَّاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فعاد وجلس عند باب البئر من الداخل، فبينما هو جالس إذا بالبابُ يُحرَّك فقال: مَن بالباب؟

قال: أبو بكر.

قال: مكانك حتى أستأذن لك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ثم دخل فقال: يا رسول الله هذا أبو بكرٍ بالباب يستأذن، فقال: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ**».

فذهب أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ففتح الباب، وقال للصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ادخل ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُبشِّرك بالجنَّة، فدخل وقال: الحمد لله.

ثم جاء فجلس على قُفِّ البئر عن يمين رسول الله ﷺ وصنع كما صنع، فكشف عن ساقيه ودلَّاهما في البئر، وهذه مُتابعةٌ تجدها تنطلق من نفوس الصحابة رضي الله عنهم بشكلٍ عَفوي، وهي تتبُّع النبيِّ ﷺ ومُتابعته.

أمَّا أبو موسى رضي الله عنه فعاد إلى الباب بوَّاباً لرسول الله ﷺ، وهو يقول في نَفسهِ وقد رأى هذه البُشرى: إن يُرد الله بأخي خيراً يأتِ به، فقد ترك أخاهُ يتوضَّأ ليتبعهُ، فقال: لعلَّه يتبعني لعلَّه يأتي، فيدخل كما دخل أبو بكر، ويُبشَّر بمثل ما بُشِّر به.

وإذ بالباب يُدفع، فحدَّثتهُ أشواقهُ: لعلَّ هذا أخي، فقال: مَن بالباب؟، قال: أنا عُمر، فقال: مكانك حتى أستأذن لك رسول الله ﷺ.

فذهب وقال: يا رسول الله هذا عُمر بالباب يستأذن، فجاء الجواب النبوي المبشِّر: «**ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ**»، فعاد إلى الباب، وقال له: قد أذِن لك رسول الله ﷺ وبَشَّرك بالجنة، فابتهل مستبشراً وحامداً: الحمد لله، الحمد لله.

ودخل عُمر رضي الله عنه، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ والصدِّيق رضي الله عنه عن يمينه، فجلس الفاروق رضي الله عنه عن يساره، جلس كما جلسا، وكشف عن ساقيه ودلَّاهما في البئر كما صنعا، وعاد أبو موسى رضي الله عنه إلى الباب بَوَّاباً لرسول الله ﷺ، ونفسه تحدثه عن أخيه الذي سيتبعه؛ يقول رضي الله عنه: إن يُرد الله به خيراً يأتِ به، وإذا بالباب يحرك، فقال: مَن بالباب؟، قال: أنا عُثمان، قال: انتظر حتى أستأذن لك رسول الله ﷺ.

وذهب أبو موسى رضي الله عنه إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله؛ عُثمان بالباب، قال ﷺ: «**ائذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّة عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ!**».

فعاد وفتح الباب فقال له: قد أَذِن لك رسول الله ﷺ وبشَّرك بالجنَّة على بَلوى تُصيبك.

تلقَّى عُثمان البشرى بالجنَّة بالحمد، أمَّا البلاء فتلقاه بالاستعانة بالله، قائلاً: الحمد لله، ثم قال: الله المستعان[1]، فالحمد لله على كريم عَطائه، والله المستعان على بلائه.

دخل عُثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإذا رسول الله ﷺ في وسط القُفِّ، وأبو بكر عن يمينه وعُمر عن يساره، وكان القُفُّ ثلاثة أذرعٍ وشبراً، فلا يتسِّع إلا لثلاثة، وكان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيياً شديد الحياء، فجلس في الجهة المقابلة لهم، فلمَّا جلس عُثمان سوَّى رسول الله ﷺ ثيابهُ حياءً من عُثمان! وكان ﷺ يستحي من عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما لا يستحي من غيره، يسوي عليه ثيابه إذا دخل عليه عثمان في بيته أو مجلسه، ويقول: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْـملَائِكَةُ؟**»[2].

واكتمل المجلس المبارك على البئر، الرسول وصاحباه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على حافة البئر بين قرنيها وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مقابل لهم على الجهة الأخرى.

وإن من العجب والغبطة لَهذا الحبِّ الجاذب الذي جعل هؤلاء الأصحاب يخرجون تباعاً على غير ميعاد بينهم، يبحثون عن رسول الله ﷺ، فيسوقهم حبهم من منازلهم المتفرقة؛ ليجتمعوا برسول الله ﷺ في هذا المكان!

ويا للصحابة، وهم مع رسول الله ﷺ في لحظة القرب هذه، تحتضنهم حافة البئر وتظللهم سعفات النخيل، وترف عليهم نسمات البستان وسكينته.

إنك لتستشعر من هذا المجلس خصوصيةَ هؤلاء الأصحاب برسول الله ﷺ، وقربهم وقرباهم منه.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٧٤، ٣٦٩٣، ٦٢١٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٤٠١).



ويا لهؤلاء الأصحاب، وهم يَدْلِفون تباعاً على رسول الله ﷺ، فيُبشِّرهم ببشائر الآخرة، ويَسكِب اليقين وحُسنَ المنقلب في قلوبهم.

ويا لرسول الله ﷺ وهذا النفوذ في الغيب -بعلم الله- كأنما يرى رَأي عَين «**بَشِّرهُ بالجنَّة، بَشِّرهُ بالجنَّة، بَشِّرهُ بالجنَّة عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ**».

ومن اللفتات العجيبة التي استقرأها رَاوِي الحديث سعيد بن المسيب، وهي لفتةٌ بديعةٌ كأنما هي نفوذٌ في الغيب الذي تحقَّق بعد ذلك، يقول سعيد: فأوَّلتها قبورَهم.

فالنبي ﷺ وأبو بكر وعُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا دفنوا إلى جوار بعضهم في مكان واحد، وقبورهم فيه مُتلاصقة أما عُثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقبرهُ هناك في البقيع.

وفعلاً فقد لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى ودُفِن في بيته، ثم ولي الخلافة من بعده أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما تُوفي دُفن إلى جانبه، ثم ولي الخلافة من بعده عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلمَّا تُوفي دُفن إلى جانب أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلمَّا ولي عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلافة كانت أشواقهُ تتحرَّك لذلك المكان الذي تلقَّى فيه البُشرى من رسول الله ﷺ واجتمع فيه برسول الله ﷺ وصاحبيه وخليفتيه من بعده.

فكان يتعاهد بئر أريس يزورها، ويجلس على قُفِّها كما جلس مع رسول الله ﷺ وصاحبيه، وفي السنة السادسة من خلافته زار بئر أريس، وجلس على قُفِّها كما كان يفعل، وأخرج خَاتمه الذي هو خاتم رسول الله ﷺ أخرجه من إصبعه، وهو في حال استغراق في التفكير وجعل يعبث به بيده، فهل كان عُثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أثناء ذلك يسترجع ذكريات ذلك المجلس، ويستحضر تلك البشائر، ويَعدُّ نفسه لتلقي ذلك البلاء؟!

هل تذكر قوله ﷺ: «**عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ**»؟! فبينما هو كذلك اضطربت يده، وسقط الخاتم منه في البئر فارتاع عُثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومَن حوله لذلك؛ فهذا خاتم رسول الله ﷺ.

فأقاموا ثلاثة أيام يَنزِحُون البئر وأحضروا لذلك إحدى عشرة راحلة تغترف الماء لعلهم يجدون الخاتم النبوي، ولكنهم عجزوا عن ذلك برغم حرصهم وجهدهم وتواصل بحثهم، وكأنّ الأرض قد امتصته، فلم يَقِدروا عليه، ولعل ذلك كان من صُنع الله أن يختفي خاتم رسوله ﷺ، فلا يقدر عليه أحد، وأن يكون في قاع هذه البئر، والتي نزحت حتى بلغوا منها حد الإياس أن يجدوه[1].

فقد كان هذا الخاتم بعد رسول الله في يد أبي بكر، ثم في يد عُمر، ثم في يد عُثمان، وهي الأيدي المباركة الأمينة.

ثم حدثت الفتن في آخر خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وما بعدها، وإذا حدثت الفتن، فينبغي ألا يكون خاتم رسول الله ﷺ في أيدي الناس في زمن فتنة؛ خشية أن يتقول عليه بكتاب يختم بخاتمه ﷺ، فكان ذلك من حفظ الله لخاتم خاتم الأنبياء ﷺ، الذي طالما كانوا يرون لمعانه في يده، ثم في يد أبي بكر بعده، ثم في يد عمر، ثم صحب عثمان ست سنين، وها هو الآن يطفر من يده إلى قاع البئر؛ لترتشفه الأرض فلا يقدر عليه.

واتخذ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاتماً بعده، ولكنه كان عرضة لأيدٍ غير أمينة، زوّرت عليه الكتب، فحدثت الفتن، وكان ذلك سبب البلوى.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٨٧٩).

وقد أصابت البلوى عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعد ذلك على كبر السن، وضعف القوة، حين أشرع في عشر التسعين، وكان ذلك بمن خرجوا عليه، وبمن زوروا خاتمه وكتبوا كتاباً باسمه، وبمن حاصروه في بيته، ثم قتلوه على كبر سنه، وعلوِّ مقامه، وقرباه من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ؛ قتلوه صائماً تالياً للقرآن، والمصحف منشور بين يديه.

ضحوا بأشمطَ عنوان السجود به   يقطّع الليل تسبيحاً وقـرآنـاً[1]

وقد تلقى عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هذه البلوى، فكان فيها صابراً، ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وما أهون البلوى إذا كانت طليعة البشرى بالنقلة إلى الجنة، ولقيا الأحبّة، محمّداً صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ وصحبه[2].

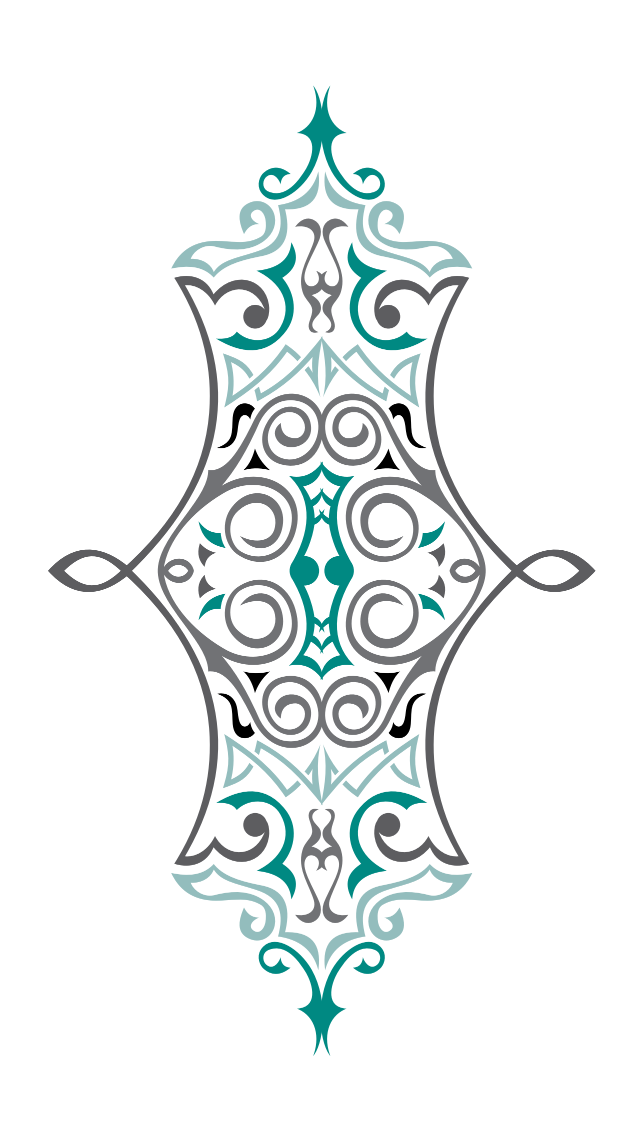


موقع بئر أريس



(١) «ديوان حسان بن ثابت» (ص٢٤٤).

(٢) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١/ ٧٤)، و«تحقيق النصرة» (١٦٨)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ١١٩)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٧٩)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٢٥٤)، و«آثار المدينة» (٢٤١)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٨٦)، و«طيبة المدينة النبوية» (٤٠٣).





بئر رومة





بئر رومة

لما قدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة لم يستعذب المهاجرون مِياهَها، وكانت هذه البئر أعذب ماءٍ في المدينة، وكان صاحبها يبيع ماءها على الناس؛ القِربة بمدٍّ من التمر.

فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ وَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا مَع دِلَاءِ المُسْلِمِينَ** -أي لا يتميز عن غيره بشيء- **وَلَهُ الجنَّة؟**».

فقال عُثمان بن عَفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا يَا رَسُولَ الله، فاشتراها عُثمان[1].

(١) علقه البخاري (٣/ ١٠٩)، وورد موصولا في «جامع الترمذي» (٣٧٠٣)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٦٤٠٢).



أمَّا طريقة شرائه لها: فقد كانت لرجلٍ يهودي، فلمَّا أراد عُثمان أن يشتريها منه، قال له اليهودي: لا أبيعك إياها كاملة، وإنما أبيعك نصفها، فاشترى عُثمان نصفها بـ (١٢,٠٠٠) درهم.

ثم قال عثمان: هل أجعل قرني عليها أم أتناوب عليها أنا يوم وأنت يوم؟ فقال: بل نتناوب عليها.

فكانت لعُثمان يوماً ولليهودي يوماً، فكان الناس يَرتوون في يوم عُثمان، ويَدَعُون يوم اليهودي، فرجع إليه اليهودي وقال: أفسدتَّ عليَّ رَكِيَّتِي[1]، فلم يعد أحدٌ يشتري منها شيئاً، فاشترى عُثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نصفها الآخر بثمنٍ أقل، ثم تركها كُلها وَقْفَاً وسَبيلاً للمسلمين يستقون منها جميعاً يُلقُون دِلاءهم ويشركهم دَلو عُثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مثل غيره من المسلمين[2].

لقد كان عُثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ غنياً، وكان غِناه غِنىً للمسلمين ومالُه في حاجة المسلمين، وهكذا كان أثرياء الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

ويقابل هذا المشهد الرائع الجميل: مشهد فيه اللوعة والأسى، عندما حَاصر الخوارج عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في بيته، وانتهى الماء الذي عنده، فطلب سَطِيحَتي ماء من بئر رُومة! ليشرب هُو وأهل بيته المُحاصرون، فمنعه الخوارج الذين كانوا يحاصرونه أن يشرب من البئر التي اشتراها وأوقفها لكلِّ المسلمين.

فخرج عثمان ونادى بأسىً وقال: أنشدُ أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ولا أنشد إلَّا هم، هل تعلمون أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ وَيَكُونُ دَلْوُهُ فِيهَا مَع دِلَاءِ المُسْلِمِينَ وَلَهُ الجنَّة؟**» فاشتريتُها من مالي.

---

(١) أَيْ بِئْرٌ. ينظر: «تاج العروس» (٢/ ٨٤).

(٢) ينظر: «الطبقات» لابن سعد (١/ ٥٠٥)، و«الاستيعاب» (٣/ ١٠٤٠).

فقال جميع أصحاب رسول الله ﷺ: اللَّهمَّ نَعم[1].

وقال المُحاصرون: لا نسمح بالماء ولا نأذن به.

فقال عَمَّار بن يَاسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا سبحان الله، يا سبحان الله بئره اشتراها للمسلمين، تمنعونه أن يشرب منها؟!

وكان هذا من البلوى التي أصابت عُثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ليستتمَّ أجره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وترتفع منزلته وصَدق الذي قال عنه: «**بَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ**»، وكان من البلاء أن يُمنع الشرب من ماءٍ اشتراه وأَوقَفَه على المسلمين، اللَّهم ارضَ عن صاحب نبيِّك ﷺ وصِهره الثَّري السَّخي الحيي[2].

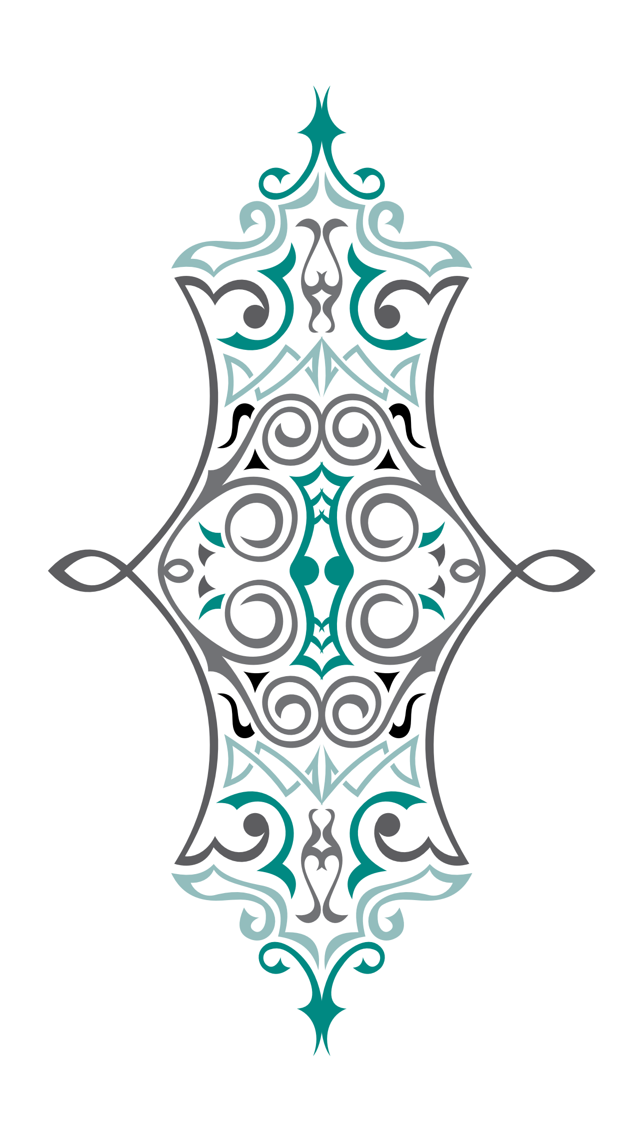


موقع بئر رومة



(١) «صحيح البخاري» (٢٧٧٨)، و«السنن الكبرى» للنسائي (٤٣٧٦).

(٢) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١/ ٨٢)، و«تحقيق النصرة» (١٧٣)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ١٣٦)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٨٣)، و«آثار المدينة» (٢٤٤)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٩٠).



بِئر غَرس



صورة لبئر غرس من الخارج

تقع شَرقي قُباء، وكانت لسَعد بن خَيثمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -الذي كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ينزل عنده نهاراً عندما كان في قُباء-.

تميَّزت هذه البِئر بأنها عذبة الماء، وكانت الآبار العَذبة في المدينة قليلة، فأكثر آبار المدينة تغلُب عليها المُلُوحة، فإذا عُرفت الآبار العذبة قُصِدت بالسُّقيا واستعذاب الماء، فينقل الماء العذب منها إلى البيوت للشرب، وكانت هذه البئر من الآبار التي يُستعذب ماؤها لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ووردت الروايات بأن النبيَّ ﷺ توضأ من هذه البئر، وشرب منها، ومجَّ فيها.

وأحسب أنها من الآبار التي سُكِب على النبيِّ ﷺ من مائها يوم مَرِض وقال: «**صُبُّوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ مِنْ آبارٍ شَتَّى**»[1] وهي من البقية الباقية من الآبار النبوية التي شَرِب ﷺ منها وتوضأ، ومَجَّ فيها من رِيقه الطيب المُبارك[2].



موقع بئر غرس



(١) «سنن الدارمي» (٨٢) واللفظ له، و«صحيح البخاري» (١٩٨).

(٢) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١/ ٧٩)، و«تحقيق النصرة» (١٧٥)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ١٤٣)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٨١)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٢٨٢)، و«آثار المدينة» (٢٤٦)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٨٨)، و«طيبة المدينة النبوية» (٤٠٤).



جبل أحد



هو قُبَّةُ المدينة، وأكبر جبالها وأقربها إليها، يراه كل من في المدينة إذا نظر شمالها، ويراه من أقبل إلى المدينة مبشِّراً له بقرب الوصول إليها.

تبادل هذا الجبل مع النبي ﷺ الحبّ، فأحبّ النبيَّ ﷺ، وأحبَّه النبيُّ ﷺ، وقال: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[1].



جبل أحد

(١) «صحيح البخاري» (١٤٨٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٦٥، ١٣٩٢، ١٣٩٣).

وتوجَّه إليه النبي ﷺ بالخطاب، فقال: «**اثْبُتْ أُحُـدُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ**»[1].

ولذا يوصف بأنه آخر أصحاب النبي ﷺ وجوداً، وهذا وصف مجازي؛ لأنّ النبي ﷺ خاطبه وتبادل الحب معه.

وأُحُد الجبل المعروف بالمدينة، سمي بهذا الاسم لتوحده وانقطاعه عن جبالٍ أُخرَ هنالك، وقال فيه الرسول ﷺ: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**» وللعلماء في معنى هذا الحديث أقوال.

قيل: أراد أهله وهم الأنصار، وقيل: أراد أنه كان يبشره إذا رآه عند القدوم من أسفاره بالقرب من أهله ولقائهم وذلك فعل المحب، وقيل: بل حبه حقيقة، وُضعَ الحب فيه كما وضع التسبيح في الجبال المسبحة مع داود، وكما وضعت الخشية في الحجارة التي قال الله فيها: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

وفي الآثار المسندة: «**أَنَّ أُحُداً يَوْمَ القِيَامَةِ عِندَ بَابِ الجَنَّةِ مِنْ دَاخِلِهَا**»، وفي بعضها: «**أَنَّهُ رُكْنٌ لِبَابِ الجَنَّةِ**»، ذكره ابن سلام في تفسيره[2]، وفي المسند من طريق أبي عبس ابن جبر عن رسول الله ﷺ قال: «**أُحُدٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ وَهُوَ عَلَى بَابِ الجَنَّةِ**»[3]، ويقويه قوله ﷺ: «**الْـمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»، مع قوله: «**يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»، فتناسبت هذه الآثار وشد بعضها بعضاً.

وقد كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يحب الاسم الحسن، ولا أحسن من اسم مشتق من الأَحَدية، وقد سمى الله هذا الجبل بهذا الاسم تقدمة لما أراده سبحانه من مشاكلة اسمه ومعناه؛ إذ

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٧٥).

(٢) «عمدة القاري» للعيني (١٧/ ١٣٨).

(٣) «فتح الباري» (٧/ ٣٧٨)، وينظر: «المعجم الأوسط» للطبراني (٦٥٠٥).

أهله وهم الأنصار نصروا التوحيد، والمبعوث بدين التوحيد عنده استقر حياً وميتاً، وكان من عادته عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يستعمل الوتر ويحبه في شأنه كله استشعاراً للأحدية، فقد وافق اسم هذا الجبل لأغراضه عَلَيْهِ السَّلَامُ ومقاصده في الأسماء، فَتَعلق الحبُّ من النبي ﷺ به اسماً ومسمى، فخص من بين الجبال بأن يكون معه في الجنة إذا ﴿ بُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾[1].

وقد ارتبط ذكر جبل أحد بغزوة أحد التي جرت في سفحه، فقد كان الحصن الذي تبوأه النبي ﷺ في بداية المعركة، ثم كان القلعة التي احتمى بها ﷺ في نهاية المعركة حين أوى إلى شِعْبه.

ومع الذكرى المريرة للمصيبة التي أُصيب بها النبي ﷺ عند أحد، إلا أنه لم يجعل المصيبة عنده ذكرى شؤم، فقد بقي يذكره بحبٍّ، ويتبادل معه الحب، ويستبشر بمرآه إذا أقبل على المدينة.

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَقْبَلَ مِنْ خَيْبَرَ، فَلَمَّا رَأَى أُحُداً قَالَ: «**هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»، فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى الْـمدِينَةِ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ**»[2].

وكانت سفوح أُحُد مرعىً لأهل المدينة، فعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان لي جارية ترعى قِبَل أُحُد، فعدا الذئب على شاةٍ من غنمها فأكلها، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ؛ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا[3] صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ. الحديث[4].

---

(١) مختصراً من «الروض الأنف» (٥/ ٢٩٦-٢٩٩).
(٢) «صحيح البخاري» (٢٨٨٩)، و«صحيح مسلم» (١٣٦٥).
(٣) أي لطمْتُها. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٥/ ٢٤).
(٤) «صحيح مسلم» (٥٣٧).

وكان النبي ﷺ يخرج إليه، ويصعده مع أصحابه، وكأنما هذه من نزهات النبي ﷺ، فقد كان حينها من فلوات المدينة بينه وبينها نحو (٥كم).

ولما صعده مرة ارتجف ورسول الله ﷺ، وأبو بكر وعمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عليه، وكأنما ارتجاف أحد نشوة بتلقي النبي ﷺ وقربه منه، فقال ﷺ: «**اثْبُتْ أُحُدُ! فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ**»[1].

وفي هذا المشهد دليل من دلائل النبوة، حيث يضطرب الجبل حبّاً للنبي ﷺ، وأن يخاطبه النبي ﷺ فيستجيب لخطابه، وأن يُخبر ﷺ عن غيبٍ مستور، فيقول: «**إِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ!**» وكأنما يكشف ستر الغيب، ليروي وفاة أبي بكر على فراشه، وشهادة عمر في محرابه، واستشهاد عثمان في داره.

وكان جبل أحد أعظم منظورٍ إليه في المدينة، ولذا يُشبَّه به في العِظَم والثقل، قال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنت مع النبي ﷺ آخذٌ بيده، فقال لي: «**هَلْ تَرَى أُحُداً؟**» فَنَظَرْتُ مَا عَلَا مِنَ الشَّمْسِ، وَأَنَا أَظُنُّهُ يَبْعَثُنِي فِي حَاجَةٍ، فَقُلْتُ: أَرَاهُ، قَالَ: «**مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هَذَا ذَهَباً، تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلَّا شَيْئاً أُرْصِدُهُ لِدَيْنٍ، إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ الله هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**» عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ثُمَّ مَشَى فَقَالَ: «**إِنَّ الأَكْثَرِينَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2].

ووقعت هذه الكلمات النبوية من نفس أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقعها، وأثَّرت في وجدانه تأثيرها، فعاش أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد ذلك متجافياً عن الدنيا، حَذِراً ومُحذِّراً من اكتناز المال، منفقاً له كلما حلَّ في يده، وفارق الدنيا بأقل القليل منها.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٧٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٤٤)، و«صحيح مسلم» (٩٤).

ومن تشبيهات النبي ﷺ بأُحُد لبيان العِظَم والثِّقَل: قوله ﷺ: «**مَنْ تَبِعَ جَنَازَةً حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ قِيرَاطٌ، وَمَنْ مَشَى مَعَ الجَنَازَةِ حَتَّى تُدْفَنَ، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ قِيرَاطَانِ، وَالْقِيرَاطُ مِثْلُ أُحُدٍ**»[1].

وأُحُدٌ جبلٌ مُمتَدٌّ شمالي المدينة وأسفل منه جبل صغير يسمى «**جبل عينين**»، وهو جبل الرماة المشهور.

ودارت «**معركة أحد**» في سفح أُحُدٍ، وقد اختار ﷺ للمسلمين موقع المعركة حصيناً شرقي جبل الرماة، بحيث يكون عن يمينه ومن خلفه جبل أحد، وعن شماله جبل الرماة، فلما أصيب المسلمون بعد ذلك انسحب إلى شعب داخل الجبل، وفي داخل هذا الشعب الصخرة التي رقِي عليها النبي ﷺ، ورفعه إليها طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، وفي الجبل فوق الصخرة غارٌ هو شقٌّ طولي في الجبل، يقال: إن الرسول ﷺ دخله بعد المعركة! ولا يصح ذلك.

وقريب منه تجويف بقدر رأس الإنسان، يقال: إن رسول الله ﷺ أسند رأسه إليه، فحصل هذا التجويف! ويسميه بعض أهل المدينة «**الطاقية**»، ولا يصح ذلك أيضاً.

ومكان آخر قريب أيضاً من ذلك، يسمى «**الثنايا**»، ويقال: إن ثنايا أبا عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دفنت فيه! ولا يصح أيضاً.

وأسفل الصخرة بقايا مسجد متهدم، يسمى «**مسجد الفسح**»، يروى أنه المكان الذي صلى فيه النبي ﷺ الظهر والعصر بعد المعركة، وقد تقدَّم ذكره.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٧)، و«صحيح مسلم» (٩٤٥).

(٢) «جامع الترمذي» (١٦٩٢). وينظر: «مغازي الواقدي» (١/ ٢٩٤).



وفي عمق الشعب مكان تجتمع فيه مياه الأمطار، يسمى «**المهراس**»، ومن هذا المكان اغترف علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الماء بترسه، ليغسل به الدم النازف مِن على وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وتقدم ذكره أيضاً.

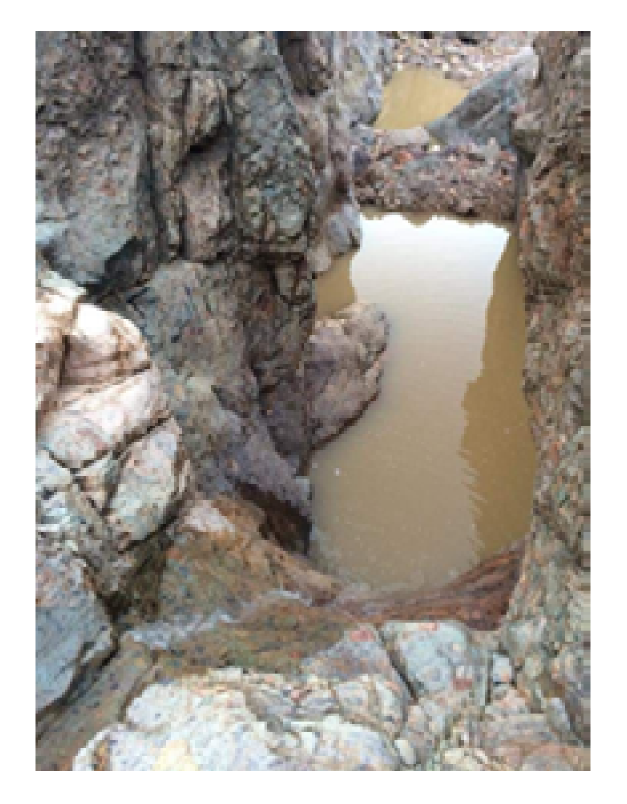
ويبلغ طول الجبل (٧ كم) تقريباً، وارتفاعه قرابة (١٠٧٧ متراً)، وعرضه ما بين (٢-٣ كم)، وصخور الجبل جرانيتية حمراء، وله جَلال ومهابة في النهار، وجمال وبهاء إذا أضيئت أنواره بالليل.

والصعود إلى ذراه استشراف على المدينة كلها، حيث تنفسح إلى جنوبه مدّ النظر، بحرمها ومساكنها ونخيلها، وعلى هامتها تاجها القبة الخضراء شرفها الله وكرمها، وصلى وسلم وبارك على من أظلته.

في سفحه قبور شهداء معركة أحد، وهي قبور مجتمعة لا يُعرف منها على وجه التعيين إلا قبر حمزة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهي خلف جبل الرماة بينه وبين جبل أحد، وعندما تذكره تواريخ المدينة المتقدمة تقول: إن بينه وبين المدينة أربعة أميال، أما اليوم، فقد اكتنفه عمران المدينة، ونفذت المباني في أحشاء شِعَابه[١].

---

(١) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١/ ٨٦)، و«تحقيق النصرة» (١٣١)، و«وفاء الوفاء» (٣/ ١٠٨)، و«تاريخ معالم المدينة» (٢٢١)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٥٢٢)، و«آثار المدينة» (١٩٧)، و«طيبة المدينة النبوية» (٢٩٧).

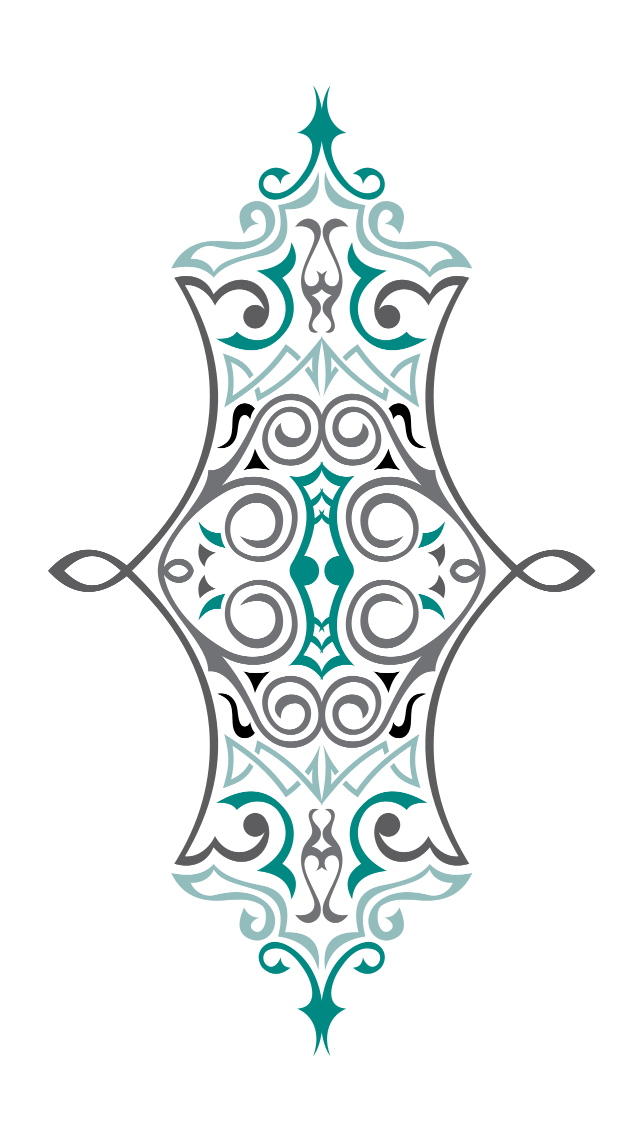


صورة للمهراس



موقع جبل أحد







جَبَلُ سَلْع



جَبَلُ سَلْع: هو منارة المدينة، والجبل الأقرب إلى مسجد رسول الله ﷺ، كان الناس يرونه وهم داخل المسجد، ولم يكن بين سَلْعٍ والمسجد بناء يحجبه.

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يصف استسقاء النبي ﷺ على المنبر: فَرَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا**»؛ قَالَ أَنَسُ: وَلَا وَالله مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلَا قَزَعَةً، وَلَا شَيْئاً، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ، وَلَا دَارٍ... إلخ[١].

والصارخ منه يُسمع المدينة كلها، ولذلك لما أنزل الله توبته على كعب بن مالك وصاحبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بشَّر النبي ﷺ أصحابه بعد صلاة الفجر، فانطلق رجل على فرسٍ يركضه إلى كعب بن مالك ليُبَشِّره، وانطلق رجل إلى جبل سَلْعٍ، فأوفى عليه، ثم صرخ بأعلى صوته: يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ!، قال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ[٢].

ولما خرج سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبيل الفجر إلى الغابة، لَقِيَه غلام رسول الله ﷺ، فأخبره أن غَطَفَان أغارت على لِقَاحِ النبي ﷺ، وأنهم استاقوها؛ قال سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فصعدت جبل سَلْعٍ فَصَرَخْتُ ثَلَاثَ صَرَخَاتٍ: يَا صَبَاحَاهْ! فَأَسْمَعْتُ مَا بَيْنَ لَابَتَيِ الْـمدِينَةِ، ثُمَّ انْدَفَعْتُ عَلَى وَجْهِي حَتَّى أَدْرَكْتُهُمْ بِذِي قَرَدٍ.

---

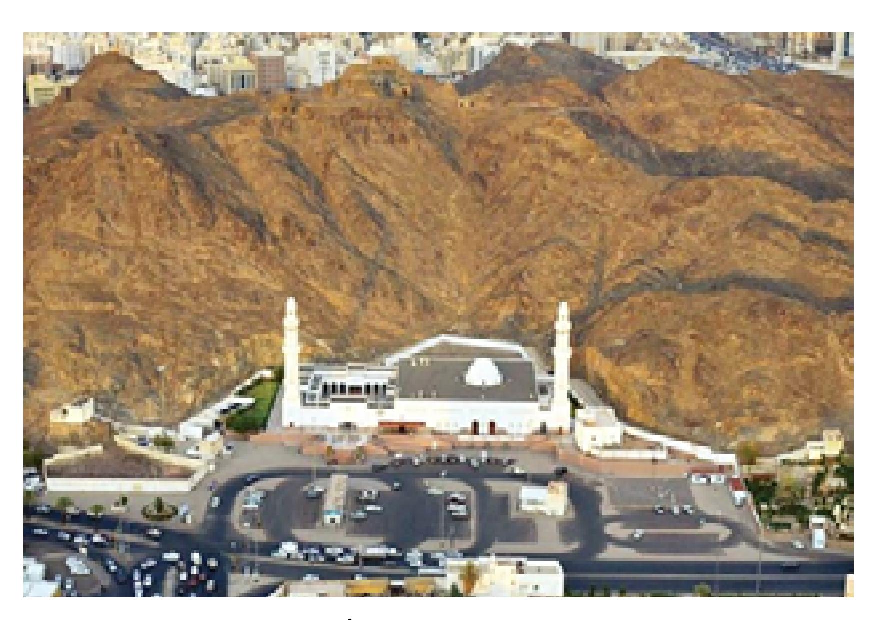
(١) «صحيح البخاري» (١٠١٣)، و«صحيح مسلم» (٨٩٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٦٩).

وكان نداء سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ على جبل سَلْعٍ كافياً لإنذار أهل المدينة واستنفارهم؛ وكان كصفَّارات الإنذار التي تطلب منهم النجدة وسرعة الحركة، وهكذا كان فقد فزع أهل المدينة، وتبعوا سَلَمَة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ إلى الغابة، فأدركوا لِقاح رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَآلِهِوَسَلَّمَ ورَدُّوها؛ كما سبق في غزوة ذي قَرَدٍ.

وكان بنيان المدينة يتقاصر عن جبل سَلْعٍ في حياة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَآلِهِوَسَلَّمَ على قربه، وذلك لصغر المدينة، وتفرُّق بيوتها، وروي عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَآلِهِوَسَلَّمَ أنه قال لأبي ذرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: «**إِذَا بَلَغَ الْبُنْيَانُ سَلْعاً فَالحَقْ بِالشَّامِ**»(١).

فكان بلوغ البنيان سَلْعاً علامةَ ازدحام المدينة، أما الآن فإن «**جبل سَلْعٍ**»، مغمورٌ في أحياء المدينة، وقد تجاوزه البنيان بنحو عشرين كيلومتر.



صورة لجبل سلع، وفي سفحه مسجد الأحزاب والمساجد السبعة

---

(١) «مسند الشاميين» للطبراني (٢٧١٧)، و«مستدرك الحاكم» (٥٤٦٨)، وفيه ضعف. ينظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٢٧٥٨).

وجبل سلع كتابٌ من كتب التاريخ، وأثر عظيم من آثار المسلمين ومآثرهم، ورواية صادقة لصبر المسلمين ورباطهم مع رسول الله ﷺ أيام غزوة الأحزاب.

وعنده كان الابتلاء، وكان الصبر والثبات، وعنده تنزل النصر وتحقق الوعد، هناك صدق الله وعده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

وجبل سَلْعٍ حافلٌ بمعالم عظيمة؛ ففي قمته «**كهف بني حرام**»؛ الذي كان النبي ﷺ يبيت فيه ليالي الخندق، وعلى قمة أكمةٍ في جناحه الغربي «**مسجد الفتح**»، وفي سفحه «**المساجد السبعة**»، حيث كان المسلمون يرابطون أيام حصار الخندق، وفي كنفه «**شِعْب بني حَرَام**»؛ الذي كان فيه بيت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وكانت فيه ضيافته المباركة للمسلمين، وهم يحفرون الخندق.

وعند سَلْعٍ كان الرباط أيام حصار الخندق، فكان النبي ﷺ وأصحابه في حراسة المدينة أيام الحصار؛ لأن نقطة التقاء الخندق بالجبل هي نقطة ضعيفة؛ لأن الخندق لا يكون عندها عميقاً، فتحتاج إلى تكثيف الحماية عليها وتشديد حراسة.

ويبلغ طول جبل سلع نحو (١٠٠٠متر)، وعرضه ما بين (٣٠٠-٨٠٠ متر)، وارتفاعه (٨٠ متراً).

وصخوره داكنة تميل للسواد، ويقع غربي المسجد النبوي، يبعد عنه نحو (٥٠٠ متر) تقريباً[١].

---

(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (١/ ١٦٢) و(٤/ ٩٣)، و«تاريخ معالم المدينة» (٢٢٣)، و«آثار المدينة» (٢٠٣)، و«طيبة المدينة النبوية» (٣٢٩).





موقع جبل سلع





ثنيّة الوداع



طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع[1]

لا أحسب صورة لثنيّة[2] الوداع أزهى ولا وأجمل من الصورة المتخيلة في أذهان الأطفال، وهم ينشدون هذه الأبيات؛ حيث تحتشد المشاعر، فتنقلنا إلى مشهدٍ لا يصور بهجته ونشوته، وجماله وروعته، إلا خيال الطفل الواسع الخصيب.

فإذا ذهبت إلى المدينة، فلا تبحث عن هذه الصورة الزاهية المتخيلة، فقد جُرِفتْ، ثم طُمِستْ، ثم حالت واستحالت إلى مكان يفقد كل ما تتخيله، ويثير من مضاضة الألم ولوعة الفقد أشدّ الحسرات!

فثنية الوداع كانت طريقاً سالكة في الأكمة السفلى من جبل سلع على طرفه الشرقي الشمالي، منها ينفذ الطريق إلى الغابة وطريق سلطانة والعيون، وترتفع على رابية صغيرة، وعندها مسجد يسمى «**مسجد الثنية**»، ويحددها الأقدمون، فيقولون: تقع بين «**مسجد الراية**» و«**مشهد ذي النفس الزكية**».

(١) «إمتاع الأسماع» (٩/ ٢٠٢).
(٢) الثنية في الجبل هي الطريقُ العالي فيه. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٢٦).

وهي شمالي المدينة، وكانت بعيدة عن البنيان في ذلك الزمان، وبينها وبين المسجد النبوي (٨٠٠ متر).

وهي الطريق السالك لأغلب المسافرين من المدينة أو القادمين إليها خصوصاً القوافل؛ لأن باقي نواحي المدينة حِرارٌ غير سالكة إلا للركب القليل.

ولذا يخرج أهل المدينة إليها لاستقبال من قدم إليها، ومن ذلك حديث السائب بن يزيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: خرجت مع الصبيان نتلقى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ إلى ثنية الوداع؛ مقدَمَه من غزوة تبوك[1].

وفي رواية قال: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ مِنْ تَبُوكَ، خَرَجَ النَّاسُ يَتَلَقَّوْنَهُ إِلَى ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ، فَخَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ وَأَنَا غُلَامٌ[2].

ولذا رجح ابن القيم أن نشيد: «**طلع البدر علينا**»، لم يكن عند قدوم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ من مكة مهاجراً إليها؛ ولكنه كان عند رجوعه من تبوك سنة تسع[3].

ويشهد لذلك حديث السائب بن يزيد هذا، وشهرة موقع «**ثنية الوداع**» بأنها في شمال المدينة، وروده في أخبار متفرقة تتواطأ على تعيينها، وأما مجيء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ إلى المدينة من مكة مهاجراً، فكان من جنوبها من جهة قباء.

وكما كانت الثنية مكاناً لاستقبال القادمين، كانت مكاناً لوداع المسافرين يودع فيها أهل المدينة مَن خرج منها، ومِن ذلك أخذت اسمها وشهرتها: «**ثنيّة الوداع**».

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٢٧).

(٢) «جامع الترمذي» (١٧١٨).

(٣) قال ابن القيم: «وبعض الرواة يهم في هذا ويقول: إنما كان ذلك عند مقدمه إلى المدينة من مكة، وهو وهم ظاهر، لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام». ينظر: «زاد المعاد» (٣/ ٤٨٢).

ومن أخبار الوداع المشهورة عندها: خبر عائشة بنت سعد عن أبيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ عَلِيّاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَتَّى جَاءَ ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ، وَعَلِيٌّ يَبْكِي يَقُولُ: تُخَلِّفُنِي مَعَ الْخَوَالِفِ؟، فَقَالَ: «**أَوَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلَّا النُّبُوَّةَ؟**»[(١)].

وفي هذا إشارة نبوية إلى قول موسى لهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لما ذهب إلى ميعاد ربه: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾.

ومن أخبار الوداع عند ثنية الوداع: ما ورد عن سعيد بن المسيب، أنّ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بعث الجيوش نحو الشام -يزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة- فلما ركبوا مشى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معهم يودعهم، حتى بلغ ثنية الوداع، ثم جعل يوصيهم، يقول: عليكم بتقوى الله، اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، فإن الله ناصر دينه، ولا تغلّوا، ولا تمثلوا، ولا تجبنوا، ولا تفسدوا... إلخ[(٢)].

وقد بقيت ثنية الوداع مطلع المدينة الشمالي وبابها وبوابتها، وكانت معروفة عند أهل المدينة بأنها خارج الباب الشامي لسور المدينة، وفي عام (١٢١٤هـ) نقر هذه الثنية ومهدها يوسف باشا.

وبقي جزء من الثنية عند المسجد المسمى «**مسجد الثنية**»، ثم في عام (١٣٩٥هـ) أزيل المسجد، وما تبقى من الثنية، وقد حدثني شيخنا عبد العزيز القارئ: أن إزالة المسجد وبقايا الثنية كانت بسعي من بعض ملاك البنايات، حتى تبرز عمائرهم إلى الطريق.

ويا لله أيّ ثمن تقدر به قيمة هذه الثنية التي مشت عليها أقدام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وطرقتها أخفاف ناقته القصواء، وعبرتها منها جيوش المسلمين متوجهة إلى أُحُد، وتبوك، وفتوح الشام والعراق!

---

(١) «مسند أحمد» (١٤٦٣)، و«صحيح البخاري» (٤٤١٦)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٤).

(٢) «سنن سعيد بن منصور» (٢٣٨٣)، و«الأموال» لابن زنجويه (٧٥٩)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٨١٢٥).

ماذا لو بقيت على حالها تذكرة وذكرى، وعظة وبركة، وحاد الطريق عنها إلى مكان آخر، ففي فجاج الأرض مسالك كثيرة واسعة!!

ويا لله كيف تصان هذه المآثر والآثار على تعاقب الدول وتتابع الأجيال، ثم يتسلط عليها بالمحو والإزالة جيلنا الذي نحن فيه؟!!

اللهم غُفْراً، ويا رسول الله عُذراً[1].



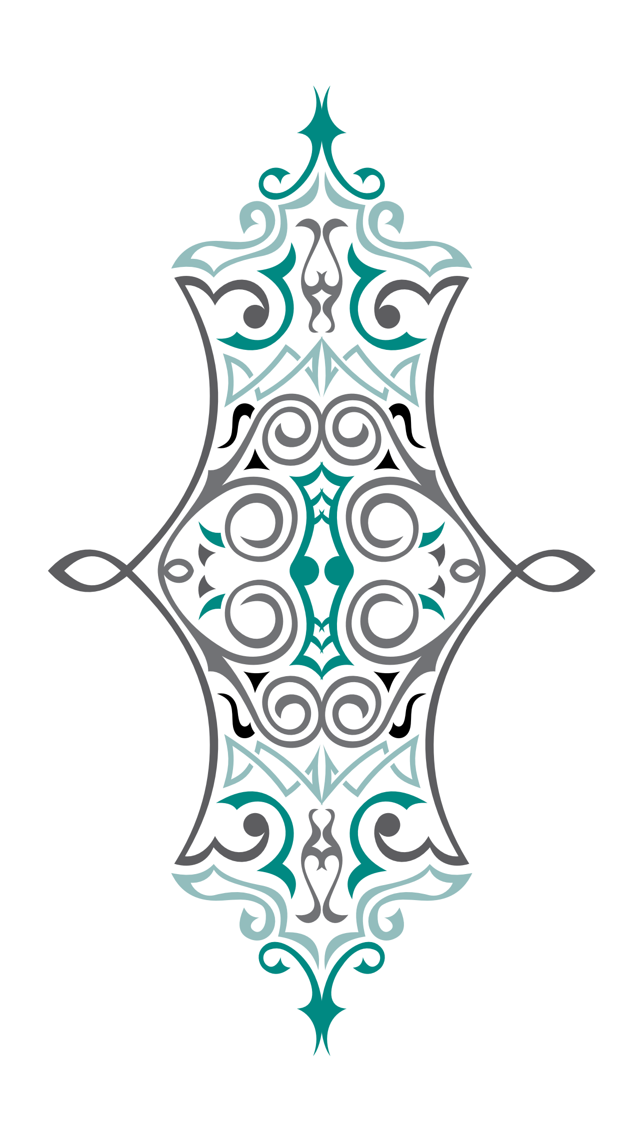
مسجد ثنية الوداع، وبقية من الثنية قبل إزالتها

(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٤/ ٤٣)، و«تاريخ معالم المدينة» (٢١٧)، و«آثار المدينة» (١٥٩) و«طيبة المدينة النبوية» (٢٩١).



موقع ثنية الوداع





الوادي المبارك



«**وادي العقيق**» هناك حيث نزل ﷺ في طريقه إلى مكة في عمرة الحديبية وعمرة القضاء، وكان خبرها الأشهر في خروج النبي ﷺ لحجة الوداع، بعد أن سار من المدينة ومعه بشر كثير، قدموا ليسيروا معه، ويقتدوا به، فكانوا من حوله مدَّ البصر يحيطون به كما تحيط الهالة بالقمر.



وادي العقيق

خرج ﷺ لحجته من المدينة بعد صلاة الظهر، ووَصَلَ إلى ذي الحُليفة، وتسمَّى اليوم: «**أبيار علي**»[١].

وذو الحليفة ميقات المدينة لمن أراد الحج أو العمرة، حيث نزل رسول الله ﷺ هناك، ومسجد الشجرة حيث صلى رسول الله ﷺ.

وصلها قبل صلاة العصر، فنزل هناك، وكان نزوله ﷺ بين المسجد الذي ببطن الوادي وبين الطريق، وسطاً من ذلك[٢].

ويظهر أن منزله ومسجده ﷺ، مما شملته توسعة مسجد الميقات اليوم.

وانتشر الناسُ معه في وادي العَقِيق، فصلَّى به العصرَ ركعتين؛ إذ هو قد أشرع في السفر، وأقام به يومه ذلك، وبات ليلته تلك.

وكأنما أراد ﷺ بالإقامة يوماً كاملاً في وادي العَقِيق؛ انتظار الناس حتى يتتابعوا إليه، ويدركه مَن بَعُد عنه، ولأنه مكان أَفْيَحُ واسعٌ يناسب نزول الناس وانتشارهم فيه، فهو أرفق بهم من ازدحامهم في المدينة.

وفي ليلته تلك طاف ﷺ على نسائه، وكن كلهن معه في سفره هذا[٣].

وفي طوافه عليهن في هذه الليلة إيناس لقلوبهن، وتطييب لأنفسهن؛ حيث سينشغل عنهن بعدُ بأعباء السفر، والقيام بأمر الناس، قيادةً ورعايةً وتعليماً.

بات ﷺ ليلته تلك تَكْلَؤه رعايةُ الله، وتتنزَّل عليه ملائكته، ويتتابع عليه الوحي من ربِّه، فأُري في المنام مكانه الذي نزل فيه، وقيل له: «**إِنَّكَ بِبَطْحَاءَ مُبَارَكَةٍ**»[٤].

---

(١) وكان بينها وبين المدينة مسافة (١٠ كم) تقريباً، أما اليوم؛ فقد اشتمل عليها عمران المدينة المنورة. ينظر: «معجم المعالم الجغرافية» (ص:١٠٣-١٠٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٣٣٦)، و«صحيح مسلم» (١٣٤٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٠)، و«صحيح مسلم» (١١٩٢).

(٤) «صحيح البخاري» (١٥٣٥)، و«صحيح مسلم» (١٣٤٦).



فلما أصبحَ قال: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتٍ مِنْ رَبِّي فَقَالَ: صَلِّ فِي هَذَا الْوَادِي الْمُبَارَكِ، وَقُلْ: عُمْرَةٌ فِي حَجَّةٍ»[1].

وقال للناس: «مَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يُهِلَّ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ فَلْيُهِلَّ، وَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يُهِلَّ بِحَجٍّ فَلْيُهِلَّ، وَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يُهِلَّ بِعُمْرَةٍ فَلْيُهِلَّ»[2].

وفي ليلته هذه وَلدت أسماءُ بنتُ عُمَيْس زوجة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولدَها محمدَ ابنَ أبي بكر، فأرسلت أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسأل لها رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: كيف تصنعُ؟ فأتى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فأخبره، فأمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يأمرها أن تغتسلَ، وتتحفَّظ بخرقة تمنع سيلان الدم عليها، ثم تُهِل بالحج، وتصنع ما يصنعُ الناسُ، إلَّا أنها لا تطوف بالبيت[3].



صورة لذي الحليفة

---

(١) «صحيح البخاري» (١٥٣٤).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٨٣)، و«صحيح مسلم» (١٢١١).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (٢٨٠)، وأصل الحديث في «صحيح مسلم» (١٢١٠).

ثم تهيَّأ ﷺ لإحرامه غاية التهيُّؤ، حتى لتستشعر من تهيُّئه عِظَم العبادة التي سيدخلها، فيحتفل لها هذا الاحتفال، ويستقبلها هذا الاستقبال، فساق الهَدي، ودعا بناقة من هَديه، فأَشْعَرَها في صَفْحة سَنامها الأيمن، وسَلَتَ عنها الدم وقلَّدها نعلين[١]؛ إشهاراً للهَدي، وتعظيماً لشعائر الله: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وتجرَّد ﷺ لإحرامه واغتسل، فغسل رأسه بخِطْمِي وأَشنان[٢]، ودهنه بشيء من زيت غير كثير، ثم لَبَّد رأسه بالعسل؛ حتى يجتمع شعره ولا يتشعَّث وينتشر، وتطيَّب من كفَّي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأطيب الطِّيب عندها، وتضمَّخ[٣] بالطِّيب، فكان ﷺ -وهو الطيِّب المطيَّب- يَنْفَحُ طِيباً، ويُرى وَبِيصُ الطِّيبِ في مفارق رأسه ولحيته بعد ذلك[٤].

لبس ﷺ إحرامه، وصلَّى الظهر، ثم ركب ناقته القَصْواء، على غاية من الخشوع والخضوع والتعظيم لربِّ العالمين، متواضعاً لله، معظِّماً لشعائره.

فإن سألت عن رَحْله ووطائه: فإن نبيَّك ﷺ قد ركب راحلته وعليها رَحْلٌ رَثٌّ، وقَطِيفة لا تساوي أربعة دراهم، فلما انبعثت به راحلته استقبلَ القبلةَ، وقال: «**اللَّهُمَّ حَجَّةٌ لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةَ**»[٥]، «**لَبَّيْكَ حَجَّةً وَعُمْرَةً مَعاً**»[٦].

---

(١) أَشْعَرَها: جرح سَنامها حتى يسيل منه الدم، وقلَّدها: ألبسها القِلادة، وتكون نعلًا أو نحوه، يُلَطَّخ بالدم الذي سال عند الإشعار؛ ليُعلم أنها هَدْي؛ ولهذا تُسمَّى الإبل التي تُهدى للبيت: القلائد، وسلَتَ: أماط. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٤٦)، (٢/ ٣٨٧)، (٤/ ٩٩).

(٢) الخِطْميّ والأشنان: نبات يستعمل لتنظيف الشعر والبدن عند الاغتسال. ينظر: «مختار الصحاح» (ص:٩٣)، و«لسان العرب» (١٢/ ١٨٦)، و«تاج العروس» (٣٢/ ١١٦)، و«عون المعبود» (١/ ٣٠٠).

(٣) التَّضَمُّخُ: التَّلَطُّخ بِالطِّيبِ وَغَيْرِهِ، وَالإِكْثَارُ مِنْهُ. ينظر: «النهاية» (٣/ ٩٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٧١)، و«صحيح مسلم» (١١٩٠).

(٥) «سنن ابن ماجه» (٢٨٩٠)، و«صحيح ابن حبان» (٣٩٣٢).

(٦) «صحيح البخاري» (١٥٥١)، و«صحيح مسلم» (١٢٣٢)، و«صحيح ابن حبان» (٣٩٣٢) واللفظ له.



وإن سألت عن متاعه وزاده: فإنه ما تحمله زاملة[1] أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكانت زاملته وزاملة أبي بكر واحدة[2].

ولك أن تتفكَّر: ما الذي صحبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من متاع الدنيا وزينتها، إذا كان كل ما حمله هو ما قاسمه ظهر زاملة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟

وإن سألت عن صاحبه في رحلته تلك من بين كل مَن ساروا معه: فإنه هو صاحبه من مكة إلى المدينة يوم أن هاجر إليها قبل عشر سنين، حينما خرج صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وقد نذرت به القبائل وتطلَّبته، وهو يقول لصاحبه: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَـنَا ﴾.

دفع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من ذي الحُلَيْفة؛ فلما استوت به راحلتُه على شَرَفِ البَيْداء[3]، رفع صوته بالذِّكر والتلبية: «**الحَمْدُ لله، وَسُبْحَانَ الله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، لَبَّيْكَ عَمْرَةً وَحَجاً، لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ**» الحديث[4].

وتسمى «**ذو الحليفة**» بهذا الاسم نسبة إلى شجر الحلفاء[5]، الذي يكثر فيها، وكانت توصف في كتب المتقدمين بأنها تبعد عن المدينة (٦ أميال)، أما الآن فقد اتصلت بعمران المدينة، وصارت من أحيائها.

ومن أشهر معالمها: «**مسجد الميقات الكبير**»، ومنه يحرم الحجاج والمعتمرون عند توجههم من المدينة إلى مكة[6].

---

(١) الزاملة: البعير الذي يُحمل عليه الطعام والمتاع.

(٢) «سنن ابن ماجه» (٢٩٣٣).

(٣) البيداء: موضع مرتفع مشرف على ذي الحليفة إلى جهة مكة، وقد امتد إليها النطاق العمراني للمدينة النبوية.

(٤) «صحيح البخاري» (١٥٥١)، و«صحيح مسلم» (١٢٣٢).

(٥) الحلفاء: نبت أطرافه محددة كأنها أطراف سعف النخل والخوص، ينبت في مغايض الماء والنزوز. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ٥٦).

(٦) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١/ ٦٩)، و«تحقيق النصرة» (١٨١)، و«وفاء لوفاء»=





صورة لشجرة الحلفاء



موقع الوادي المبارك



= (٣/ ١٨٥)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٩٩)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٤٥٧)، و«آثار المدينة» (٢١٩)، و«طيبة المدينة النبوية» (٣٨٣).

الروحاء



الروحاء: وادٍ أفيح، يستشعر من يصله بمعنى مسمّاه؛ لانفساحه وجماله وطيب هوائه، وسئل كُثَيِّرٌ الشاعر: لم سميت الروحاء؟ قال: لانفتاحها وروحها[(١)].

وقال ياقوت: وأظنه قيل للبقعة «**روحاء**»، أي: طيبة ذات راحة[(٢)].

ومن لذيذ ما قيل فيها أبيات عروة بن حزام؛ قال:

أفـي كـلّ يـوم أنـت رامٍ بلادها	**بعينين إنسـانـاهـمـا غـرقـان**
إذا اغرورقت عيناي قال صحابتي	**لقد أولـعـت عيناك بالهملان**
ألا فاحملاني، بـارك الله فيكما	**إلى حاضر الروحاء ثمّ ذرانـي**[(٣)]



صورة للروحاء

(١) «وفاء الوفاء» (٤/ ٨٣).
(٢) «معجم البلدان» (٣/ ٧٦).
(٣) «الحماسة المغربية» (٢/ ٩٥٤).



وكانت مستراحاً ومنزلاً للقاصدين بين بمكة والمدينة.

قال الأسدي: وبالروحاء آثار لرسول الله ﷺ، وبها قصران كبيران وآبار كثيرة[1].

وقد نزلها النبي ﷺ مراراً كثيرة ففي ذهابه إلى بدر نزل سجسج، وهي بئر الروحاء[2].

ويظهر أنه نزلها في ذهابه لعمرة الحديبية، وعمرة القضية، وفتح مكة، وثبت أنه نزلها في طريقه إلى حجة الوداع وهو محرم هو وأصحابه، ولم يبلغ أصحاب رسول الله ﷺ الروحاء حتى بُحّث أصواتهم من شدة تلبيتهم.

ووجد بها الصحابة في طريقهم حمار وحش عقيراً، فقيل ذلك للنبي ﷺ فقال: «**دَعُوهُ فَإِنَّهُ قَدْ أَصَابَهُ رَجُلٌ، فَيُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَهُ**»، فَجَاءَ الْبهزي وهو صاحبه إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ إني اصطدت هذا الحمار، فشأنكم به، فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقسمه في الرفاق وهم محرمون[3].

وقال ﷺ: «**لَقَدْ سَلَكَ فَجَّ الرَّوْحَاءِ سَبْعُونَ نَبِيّاً حُجَّاجاً، عَلَيْهِمْ لِبَاسُ الصُّوفِ**»[4].

وقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ، حَاجّاً أَوْ مُعْتَمِراً، أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا**»[5].

إنه وادٍ مباركٌ تعاقبت فيه خطوات الأنبياء في غابر الزمان ثم عبره سيدهم محمد ﷺ، ثم سيعبره عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان.

---

(١) «وفاء الوفاء» (٤/ ٨٤).

(٢) «وفاء الوفاء» (٤/ ٨٤).

(٣) «السنن الكبرى» للنسائي (٣٧٨٦).

(٤) «أخبار مكة» للأزرقي (١/ ٧٣).

(٥) «صحيح مسلم» (١٢٥٢).



وصلَّى ﷺ في المسجد الذي ببطن الروحاء عند عِرْق الظَّبِيَّة، وقال: «**هَذَا جَبَلٌ مِنْ جِبَالِ الجَنَّةِ، اللهُمَّ بَارِكْ فِيهِ، وَبَارِكْ لِأَهْلِهِ فِيهِ**»، وَقَالَ لِلرَّوْحَاءِ: «**هَذِهِ سَجَاسِجُ وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الجَنَّةِ لَقَدْ صَلَّى فِي هَذَا الْـمَسْجِدِ قَبْلِي سَبْعُونَ نَبِيّاً، وَلَقَدْ مَرَّ بِهَا مُوسَى عَلَيْهِ عَبَاءَتَانِ قَطَوَانِيَّتَانِ**[١] **عَلَى نَاقَةٍ وَرْقَاءَ فِي سَبْعِينَ أَلْفاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَاجِّينَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ، وَلَا تَمُرُّ السَّاعَةُ حَتَّى يَمُرَّ بِهَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ حَاجّاً أَوْ مُعْتَمِراً، أَوْ يَجْمَعُ اللهُ لَهُ ذَلِكَ**»[٢].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَجَّ الْبَيْتَ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ، عَلَيْهِ عَبَاءَةٌ قَطَوَانِيَّةٌ، وَهُوَ يُلَبِّي وَتُجَاوِبُهُ جِبَالُ الرَّوْحَاءِ[٣].

وحدث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنّ النبي ﷺ صَلَّى عِنْدَ الْـمَسْجِدِ الصَّغِيرِ الَّذِي دُونَ الْـمَسْجِدِ الَّذِي يُشْرِفُ عَلَى الرَّوْحَاءِ، وقد كان عبد الله يعلم المكان الذي كان صلى فيه النبي ﷺ؛ يقول: ثَمَّ عَنْ يَمِينِكَ حِينَ تَقُومُ فِي المَسْجِدِ تُصَلِّي، وَذَلِكَ المسْجِدُ عَلَى حَافَةِ الطَّرِيقِ اليُمْنَى، وَأَنْتَ ذَاهِبٌ إِلَى مَكَّةَ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ المَسْجِدِ الأَكْبَرِ رَمْيَةٌ بِحَجَرٍ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ[٤].

وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يصلي إِلَى العِرْقِ الَّذِي عِنْدَ مُنْصَرَفِ الرَّوْحَاءِ، وَذَلِكَ العِرْقُ انْتِهَاءُ طَرَفِهِ عَلَى حَافَةِ الطَّرِيقِ دُونَ المَسْجِدِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ المُنْصَرَفِ، وَأَنْتَ ذَاهِبٌ إِلَى مَكَّةَ، وَقَدِ ابْتُنِيَ ثَمَّ مَسْجِدٌ، فَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُصَلِّي فِي ذَلِكَ المَسْجِدِ، كَانَ يَتْرُكُهُ عَنْ يَسَارِهِ وَوَرَاءَهُ، وَيُصَلِّي أَمَامَهُ إِلَى العِرْقِ نَفْسِهِ، وَكَانَ عَبْدُ الله يَرُوحُ مِنَ

---

(١) عَباءةٌ بيضاءُ قَصِيرَةُ الخَمْل. ينظر: «النهاية» (٤/ ٨٥).

(٢) «تاريخ المدينة» لابن شبة (١/ ٨٠)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٢٢٨٣).

(٣) «العظمة» لأبي الشيخ الأصبهاني (٥/ ١٧٠٤)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٢٥١٠).

(٤) «مسند أحمد» (٥٥٩٦)، و«صحيح البخاري» (٤٨٥).

الرَّوْحَاءِ، فَلَا يُصَلِّي الظُّهْرَ حَتَّى يَأْتِيَ ذَلِكَ المَكَانَ، فَيُصَلِّي فِيهِ الظُّهْرَ، وَإِذَا أَقْبَلَ مِنْ مَكَّةَ، فَإِنْ مَرَّ بِهِ قَبْلَ الصُّبْحِ بِسَاعَةٍ أَوْ مِنْ آخِرِ السَّحَرِ عَرَّسَ حَتَّى يُصَلِّيَ بِهَا الصُّبْحَ[1].

وفي رجوعه ﷺ من حجة الوداع تقاربت المدينة، وقطع رسولُ الله ﷺ أكثر الطريق إليها، حتى إذا كان بالرَّوْحاء لقي رَكْباً في الطريق، فسلَّم عليهم، وقال: «**مَن الْقَوْمُ؟**»، قالوا: المسلمون، قالوا: «مَنْ أَنْتَ؟»، قال: «**رَسُولُ الله**»، فَفَزِعت امرأةٌ منهم فأخذت بعَضُدِ صبيٍّ لها، فأخرجته من محفَّتها[2] فقالت: يا رسولَ الله، ألهذا حجٌّ؟، قال: «**نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ**»[3].

وأعجب لهؤلاء الرَّكْب الذين سألهم النبيُّ ﷺ، فلم ينتسبوا إلى شيء مما ينتسب إليه الناس لا إلى قبيلة ولا إلى وطن؛ على شدة عصبية العرب لقبائلهم وديارهم، وإنما انتسبوا إلى دينهم الذي آمنوا به واتَّبعوه.

وأعجب من سؤالهم رسولَ الله ﷺ: مَن أنت؟ فلم يكن لرسول الله ﷺ شارة تميِّزه، ولا هيئة ورسوم تخصُّه؛ ولكنه مع الناس بينهم، منغمر فيهم، قريب منهم، شأنَ إخوانه من أنبياء الله ورسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾.

أما هذه المرأة فظاهرٌ من حالها أنها حجَّت بولدها الصغير معها، فلما لقيت النبيَّ ﷺ أرادت أن تستيقن أن حجَّها بصبيِّها صحيح.

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٦).

(٢) المحفَّة- بفتح الميم وكسرها-: شبه الهودج، إلاَّ أنها لا قبة عليها. ينظر: «مطالع الأنوار» (٢/ ٣٣٧)، و«عون المعبود» (٥/ ١١٠).

(٣) «صحيح مسلم» (١٣٣٦)، و«سنن أبي داود» (١٧٣٦).

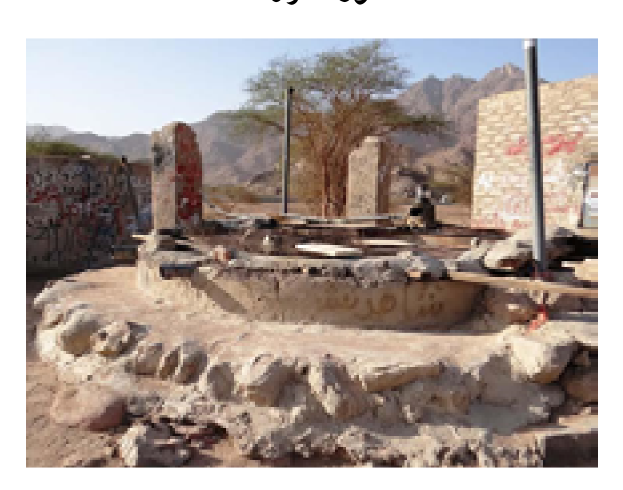
وكم كانت فرحة هذه المرأة وبشراها يوم قال لها النبيُّ ﷺ: «**نَعَمْ**»، ثم أتبعها ببشارة أخرى فقال: «**وَلَكِ أَجْرٌ!**».

وكانت الروحاء محطة عامرة على مرِّ العصور، وكان بها عدة آبار أشهرها «**سجسج**»، التي نزل عليها رسول الله ﷺ.

وكلما مررت بها رأيت أنّ لها من اسمها نصيباً روحاً وراحة[1].



صورة للروحاء



صورة لبئر الروحاء

---

(١) ينظر في ذلك: «تحقيق النصرة» (١٥٨)، و«وفاء الوفاء» (٤/ ٨٤).





صورة لمسجد الروحاء



موقع الروحاء



الأبواء



اختار الله أمَّ سيدنا محمد ﷺ آمنةَ بنتَ وهبٍ الزهرية؛ لتكون زوجة لعبد الله ابن عبد المطلب، ولتكون أحشاؤها القرار المكين لأطوار خلقة النبي ﷺ الأولى، وليكون جسدها أول جسد يمسه، ولبانها أول غذاء يفتق فمه، وحبها أول حُبٍّ يتنعم به، وسبقت ولادتها البشرى من الله لها، فقد رأت كأن نوراً خرج منها أضاءت له قصور الشام[1].

وقد استقبلت مولودها بعد أن فقدت زوجها الذي توفي في المدينة وولدُه جنين في بطن أمه، وكانت تحب زوجها عبد الله حباً شديداً، ولذا لم تتزوج بعده خلافاً لعادة كثير من نساء العرب؛ حيث تتزوج الأيِّم بعد موت زوجها، أما السيِّدة الجليلة الكريمة آمنة، فاكتفت أن تعيش على ذكرى زوجها عبد الله.

فلما بلغ النبيّ ست سنين، ذهبت به ليزور أخوال جدِّه عبد المطلب -كما تقول بعض كتب السير- ولكن الذي يظهر أن الذي حملها على الذهاب إلى المدينة هو حبُّها لزوجها عبد الله، وأنها ذهبت إلى المدينة لتزور قبر زوجها الذي تحبه، والذي لم تمت ذكراه في نفسها بعد أن مات.

وسكنت آمنة بابنها في دار النابغة التي دفن فيها زوجها، والله وحدَه يعلم كيف قضت شهراً في المدينة بجوار قبر زوجها، أيّ شوق كانت تبثه؟! وأي لوعة كانت تفيضها؟!

(١) «مسند أحمد» (١٧١٦٣).

وكان معها في رحلتها تلك خادمتها أمُّ أيمن حاضنة ابنها نبينا ﷺ وهو طفل، وكأنما هذه الرحلة تهيئة للهجرة بعد ذلك إلى المدينة؛ ذهب النبي ﷺ ليتعرَّف على المدينة ويعرف أهلها، ويسكن عند أخوال جدِّه.

ولما هاجر ﷺ بعد ذلك، كان يشير إلى حائط في المدينة يقول: «**كُنْتُ أُلَاعِبُ أُنَيْسَةَ جَارِيَةً مِنَ الْأَنْصَارِ عَلَى هَذَا الْأُطُمِ، وَكُنْتُ مَعَ غِلْمَانٍ مِنْ أَخْوَالِي نُطَيِّرُ طَائِراً كَانَ يَقَعُ عَلَيْهِ**»[(١)].

فبقيت السيدة آمنة شهراً في المدينة، والمدينة موبوءة بحمى البلهارسيا، فلما رجعت من المدينة هي وابنها كانت قد أصابتها الحمى، فلما وصلت الأبواء اشتد مرضها.



صورة للأبواء

ولعلك تتخيل آمنة في هذه الصحراء، ومعها ابنها وحاضنته أم أيمن، وهي تنازع سكرات الموت وتلفظ آخر أنفاس الحياة، وأمامها بُنَيّها وهي تودع الحياة وتودِّعُه!

(١) «الطبقات» لابن سعد (١/ ٩٣)، و«إمتاع الأسماع» (٨/ ١٤٣).



فيا لله أيّ لوعةٍ كانت في نفسها، وأيّ حسرة كانت تتجرعها وهي لا تدري ما الذي سيحدث لابنها الذي ستموت وتتركه في هذه الصحراء؟!

ماذا سيكون حاله؟!

ومن سيتكفله ويرعاه؟!

وكيف سيصل إلى مكة؟!

ومن المؤكد أنها وهي تعاني آلام الموت كانت كل هذه الأفكار تطوف في ذهنها؛ إذ ليس أمامها إلا هذا الصبيّ الذي هو في السادسة من عمره تموت الآن في الصحراء، وتتركه وليس معه إلا حاضنته أمّ أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولكن ربك جل وعز كان يدبر لنبيه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾.

توفيت السيِّدة آمنة، وفُرِش له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بساط اليُتم مرة أخرى، ولكن الله آواه، وكانت عيناه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تُسجِّل المشهد بدقة، ولذلك لما دُفنت أمه عرف قبرها، وعرف مكانها، ورجعت به أم أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى مكة، فكفله جده عبد المطلب.

ومرت السنوات وبُعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ثم هاجر إلى المدينة، وبعد خمسين سنة من وفاة آمنة بنت وهب إذا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يمرّ بالأبواء ومعه ألف وأربعمئة من أصحابه، متوجهاً إلى مكة في عمرة الحديبية، فلما وصل إلى الأبواء جاشت الذكريات، وتداعت المشاهد.

فمن هنا مرَّ قبل خمسين سنة وهو طفل صغير، مع أمه التي كان يرضع حنانها، ويعيش دفء قربها ولذة أمومتها إلى أن وصل إلى هذا المكان، وفي هذا المكان فارقت الدنيا وفارقته، هنا ماتت وهنا دُفنت، فجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الصباح إلى قريب من العصر، والجيش منتظر، ما الذي جعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لا يسير في هذا الوقت؟!

فلما قرب العصر قام، فجعل يمشي يتخطى القبور كأنما يقصد قبراً بعينه، فلما وصل إلى قبرها جلس عنده، وأصلح منه ما اندرس، بتسوية ترابه وما يميزه، ثم رآه أصحابه جالساً عند القبر، وكأنه يتكلم مع إنسان أمامه، فلما طال جلوسه جاؤوا إليه فوجدوه ﷺ عند قبر أمه يبكي؛ فقال: «**اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي، فَزُوروا القُبُور؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الآخِرَةَ**»[1].

وكلما تذكرت هذا المشهد أقول: يا لله هذه لوعة النبي ﷺ على أمه، وهو لم يدرك من حياتها إلا مثل الطيف، ومع ذلك كان هذا حنينه إليها وهذه لوعته بها! فكيف لو أدركها شبابُه ورجولتُه؟ كيف لو أدركت هي نبوتَه ﷺ؟ كيف لو عاشت دولتَه؟ كيف لو ترددت بين بيوته؟ كيف سيكون برُّ هذا النبي ﷺ بها؟ كيف ستكون معاملته لها؟ أيّ أسوة كانت ستتلقاها البشرية من حاله ﷺ مع أمه؟!

ولكن لله الحكمة البالغة، فما أدركنا من خبرها فيه إنعاش لمكانة الأم في النفس، فهنيئاً لمن لا زالت أمه تعيش في حياته، وهنيئاً لكل من له أم لا زالت تذيقه نعيم الطفولة مهما كبرت سنه، هنيئاً لكل ابن لا يزال يتلذذ بإسعاد أمه وبرها!

أما الأبواء التي هي وعاء هذا الحدث، ومرقد آمنة بنت وهب، ومزار رسول الله ﷺ لقبرها، ومستودع ذكرياته فيها فهي في الطريق بين المدينة ومكة، تابعة لمحافظة «**رابغ**»، تبعد عن مكة (٢٠١كم)، وعن المدينة (١٦١كم).

والمقبرة التي فيها قبر آمنة معروفة عند أهل الأبواء، ولا أحسب أن قبر آمنة معروف بعينه بين القبور[2].

(١) «صحيح مسلم» (٩٧٦).

(٢) ينظر: «وفاء الوفاء» (٤/٧)، وكتاب: «محافظة رابغ» للأستاذ الشيخ أحمد النعماني.



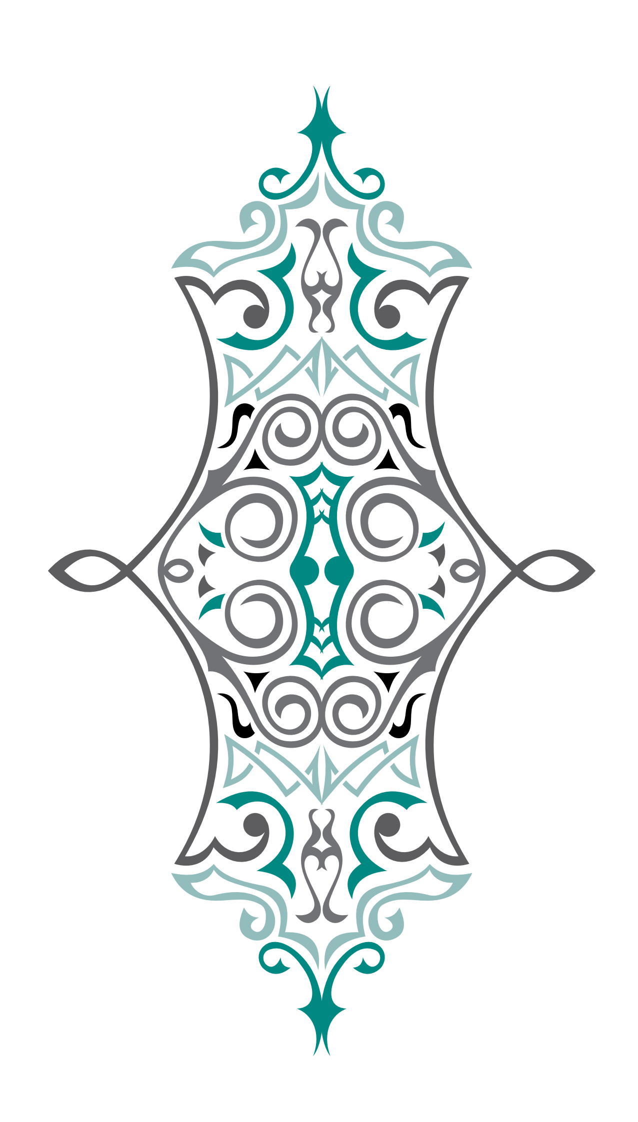


صورة لمقابر الأبواء



موقع مقبرة الأبواء







غدير خم



لما فرغ النبي ﷺ من حجة الوداع ودع أمته قائلاً: «**لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا**»[1]، وبلَّغهم كمال الدين، وتمام النعمة، ورضا الله الإسلام ديناً للبشرية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾.

واستشهدهم واستشهد عليهم أنه قد بلّغهم ما أرسل به إليهم: «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ، اللهُمَّ اشْهَدْ**»[2].



صورة قديمة لموضع غدير خم

(١) «جامع الترمذي» (٨٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤٠٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).

وأحس الناس في كلماته لوعة الوداع وحرقته، فقالوا: ودّع رسول الله ﷺ الناس، وسموها حجة الوداع!

ثم توجه عائداً إلى المدينة، فلما قطع في الطريق أربعة أيام ووصل الجُحْفة -وهي دون منتصف الطريق إلى المدينة- أخذ ذات اليمين عن الطريق، وقصد إلى مكان غير بعيد عنها يسمَّى: «**غَدِير خُمٍّ**»، فيه نبع ماء على شفير وادٍ كثير الشجر، يناسب استراحة الرَّكْب واستظلالهم وارتواء ركابهم.

ولذا تفرَّق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بين ظلال الشجر، يستريحون من وعثاء السفر وكلال المسير، حتى إذا زالت الشمس سمعوا النداء الصارخ فيهم: الصلاةَ جامعةً[1]، وهو نداء الفزع وحدوث أمر يُجمع الناس له!

وهُيِّئ لرسول الله ﷺ مكان خطبته، فكُنس له مكانٌ بين شجرتي سَمُر، ورُفع منه ما يتساقط عادة من شوك الشجر وأعواده، وأُلقي عليها كساء يُظلِّه؛ لشدة الحر ذلك اليوم، وجُمع له الناس، فرجع إليه مَن كان متقدِّماً، ولحق به مَن كان متأخِّراً.

فصلَّى الظهر، ثم قام فيهم خطيباً، فحمدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم وعظ وذكَّر، فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ بَلَّغْتُ؟**». قالوا: نعم، قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ**».

ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَهُ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ الله -عَزَّوَجَلَّ- فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ، هُوَ حَبْلُ الله، مَن اسْتَمْسَكَ بِهِ وَأَخَذَ بِهِ كَانَ عَلَى الهُدَى، وَمَنْ تَرَكَهُ وَأَخْطَأَهُ كَانَ عَلَى الضَّلَالَةِ، فَخُذُوا بِكِتَابِ الله وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**».

---

(١) بنصب «الصلاة» على الإغراء، و«جامعة» على الحال. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (١٨/ ٨٠).

فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «**وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»[1].

ثم أخذ بيد عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأقامه، فقال: «**أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟**» قالوا: بلى!

قال: «**أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟**»، قالوا: بلى!

قال: «**أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ**»؟ قالوا: بلى! نحن نشهدُ، لأنت أولى بكل مؤمن من نفسه!

قال: «**فَإِنِّي مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**»[2].

ربَّاه! كيف كان شعور عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومشاعره وهذه الألوف حول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ولكنه هو أقربهم إليه وأدناهم منه؟!

ما شعور عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويده في يد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يرفعها أمام كل هذه الزحوف الألوف؟!

ما شعورُ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومشاعرُه وأذناه تتروَّى من قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ**»؟!

عليك سلامُ الله يا أبا الحسن، فقد كان فضل الله عليك عظيماً، وحق لك أن تفرح بذلك وتسر: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٤٠٨).

(٢) «مسند أحمد» (١٨٤٧٩).



صورة لشجرة السمر في غدير خم

وكان سبب هذه الخطبة والتأكيد على فضل عليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعظيم حقِّه، ووجوب موالاته: أنّ بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كان في نفوسهم شيء على عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتكلَّموا عنه في موسم الحج، وبَلَغُوا بحديثهم رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ونَقَمُوا عليه بعض ما عمله في ولايته على الجيش الذي أرسله رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى اليمن قبل الحج، فتصرَّف عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المغانم بما استنكره منه بعضهم وتكلَّموا فيه!

وقد كان عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مجتهداً مصيباً في اجتهاده، متحرِّياً الحق والنَّصَف، فزكَّى النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عملَه، وبيَّن فضلَه، وأَكَّد حقَّه، وكأنما أراد في هذا المقام أن يغسل تلك الشوائب من النفوس ويصفِّيها، ويؤلِّف بينها قبل أن يصل المدينة.

ولقد صفت له النفوس، وعَرفت له قدرَه ومنزلتَه، حتى قال بُريدةُ بنُ الحُصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما كان أحدٌ من الناس بعد قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أحبَّ إليَّ من عليٍّ[(١)].

(١) «مسند أحمد» (٢٢٩٦٧)، و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٣٠٥١).



وقال له عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هنيئاً يا ابنَ أبي طالب، فقد أصبحتَ وأمسيتَ مولَى كلِّ مؤمن ومؤمنة[1].

إنه موقف وفاء من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لسابقة عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الإسلام يوم أسلم وقد تردَّد أناسٌ، وأقدم وقد أدبر آخرونَ، ثم كان إسلامه إيماناً يزداد يقيناً، وإقداماً يزداد مَضَاءً، وعطاؤه للدين ورسوله أعظم العطاء وأكرمه وأسخاه!

إنه حُسْن العهد من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لعليٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو القائل: «**إِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ**»[2].

وللشيعة الإمامية رواية أخرى لحديث الغَدِير، وسياقهم لها يختلف بين مروياتهم اختصاراً وطولاً، وإجمالاً وتفصيلاً، ولكن هذه الروايات تتواطأ على قضية الوصية لعليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالإمامة، واستخلافه بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وأنّ الله أوحى إلى نبيِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بذلك، وأمره بالبلاغ، وأن النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خطب في غَدِير خُمٍّ، وأخذ بيد عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: إن عليَّ بنَ أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي والإمام بعدي اسمعوا له وأطيعوا[3].

وأنّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين كانوا معه قد بايعوه كلهم على ذلك، بما فيهم أبو بكر وعمر وعثمان والمهاجرون والأنصار وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ!

وأن مآل هذا العهد والوصاة: أنْ نُكِث العهد، وأُخلفت الوصاة يوم وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فاغتُصب حقُّ عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأُخلف عهدُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ونُقض ميثاقُه، وتولَّى الخلافة قبل عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثلاثةٌ من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الذين بايعوا عليّاً عَلَيْهِ السَّلَامُ في الغَدِير، حسب روايتهم هذه!

---

(١) «مسند أحمد» (١٨٤٧٩).

(٢) «مستدرك الحاكم» (٤٠).

(٣) ينظر: «الغدير» للأميني (١/ ٢١٥).

وهنا نتساءل: هل يتصوَّر أن كل هذه الحشود المجتمعة مع النبي ﷺ، وهم من قبائل مختلفة ونواحٍ شتَّى يتفقون على كتمان هذا العهد ونكثه وعدم الوفاء به؟!!

إنّ كل سرٍّ جاوز الاثنين شاع، فكيف بمناشدة نبوية في خطبة عامة دُعي لها بنداء الفزع: «**الصلاةَ جامعةً**»، وشدَّد فيها النبيُّ ﷺ العهد والعقد، ثم يتفرق هؤلاء في نواحيهم وعشائرهم، فلا يفشو الخبر ويشتهر، ولا يظهر النَّكير ممن حضر وسمع وقد رأى خلافه؟!

كيف لم نسمع أنّ أحداً قام يعترض على ما جرى من استخلاف أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا أنّ القبائل حول المدينة جاءت تعترض أو تستوضح أو تستغرب؟!

كلُّ ذلك يبيِّن أنه لم يكن هناك ما يدعو للاعتراض ولا الاستغراب، وأنه ليس لديهم وصية ولا عهد سابق يدعوهم لاستنكار ما جرى!

وثمة دلائل أخرى يمكن إدراكها بالنظر المنصف المتطلِّب للحق[1]، واللهَ نسأل أن يهدينا لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، إنه يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

وأما مكان الحدث: فغَدِير خُمٍّ، موضع بين مكة والمدينة، يبعد عن مكة (١٥٩كم) شمالاً، وعن المدينة (١٩٦كم) جنوباً، ويبعد عن ميقات الجُحْفة (٦,٥كم) شرقاً، ويبعد عن رابغ (١٨كم) شرقاً[2]، ويُسمَّى مكانه اليوم: الغُرَبَة.

والوصول إليه للمسافر بين مكة والمدينة يعني قطع نصف المسافة تقريباً، وليس الغَدِير على طريق القوافل إلى المدينة، ولكنه شرق الطريق غير بعيد عنه، يميل إليه المسافرون؛ لوجود الماء الذي يجتمع في الغَدِير، وأرضه سهلة منبسطة، وفيه شجر

---

(١) ينظر: كتاب «حديث الغَدِير»، ففيه نحوٌ من سبعين دلالة تبيِّن حقيقة ما جرى في الغَدِير، وأنه لم يكن وصية لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخلافة، ولكنه وصية بعلي رعاية لحقه وتأكيداً لفضله، وفيه مزيد بسط لخطبة الغَدِير وتداعياتها القبلية والبعدية، ومناقشة مفصَّلة لسياقها.

(٢) الأبعاد بالمسافة الهوائية بخط مستقيم، وليس بمسافة طرق السير.

ملتف في غَيْضة تسمَّى: خُمّاً، سُمِّي الغَدِير باسمها، فقيل: «**غَدِير خُمٍّ**»، ولذا فهو من أماكن نزول المسافرين للتزود بالماء، ولوجود الظل وانبساط الأرض.

ولعل ذلك من أسباب اختياره ﷺ لخطبته؛ وذلك لانبساط أرضه وسهولتها، فيسهل اجتماع الناس فيه، وجلوسهم حول النبي ﷺ، وهو بهذا يشبه وادي عُرَنة الذي خطب فيه النبيُّ ﷺ يوم عرفة[1]، فهو وادٍ أَفْيح فسيح دَمِث الأرض، يسهل اجتماع الناس فيه، وجلوسهم عليه.



صورة حديثة لمكان غدير خم

وعندما زُرْتُ الغَدِير في عام (١٤٣٧هـ)، لقيتُ بعض المعمَّرين من كبار السن الذين وُلدوا ونشأوا حول الغَدِير في وادي الجُحْفة، ورويتُ عنهم ما أدركوه من حالة الغَدِير قبل أن تتبدَّل حاله، وتذهب رسومه ومعالمه.

(١) «مسند أحمد» (٢٠٦٩٥، ٢٣٤٩٧)، و«صحيح البخاري» (٤٤٠٣)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨)، و«سنن أبي داود» (١٩٠٥)، و«جامع الترمذي» (١١٦٣).



فعلمتُ منهم أن الوادي كانت به قديماً عيونٌ جارية، وأشجارٌ ملتفة، وغَيْضاتٌ ومزارع ونخيل.

وأن الغَدِير كان على شفير الوادي، ولم يكن واسعاً مستبحراً، وإنما كان متقارب الأطراف، فطوله بضعة أمتار، وعرضه كذلك، يجري إليه الماء من عين تنبع من صدع صخري فوقه فتصب فيه، وأن ماءه ساكن على قدر معيّن، فلا يغيض ولا يفيض، رغم استمرار تدفق الماء إليه من النبع، أما إذا نزل المطر وسال الوادي فإن الغدير يفيض، وتتَّسع مساحته، حتى تصل إلى عشرات الأمتار طولاً وعرضاً، ثم نضب ماء النبع وجفَّ الغَدِير بعد ذلك!

وفي عام (١٤٠٦هـ) جرى الوادي بسيلٍ كبير جارف، دفن الغَدِير، وبقي المكان كما كان، يدل أثره على سابق حاله، وتحكي بقيته ما كان من خبره.

أما الآن فقد رُكمَ فوقه ردمٌ ترابي، وشيد عليه جسر خَرَساني، تمرّ من فوقه سكة القطار.

فلم يبق للأثر أثرٌ، ولا من المكان مكانٌ؛ إلا شظية مطمورةٌ على حافة الوادي في زاوية الجسر، تبرَّع أحد العابرين فكتب عندها: «**غَدِير خُمٍّ**»، وكان أولى به أن يكتب: كان هنا «**غَدِير خُمٍّ**»[(١)].



موقع غدير خم

(١) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٣/ ١٧٥)، وكتاب «حديث الغدير» للمؤلف.



القبر الشريف



توفي ﷺ قبيل زوال الشمس، فأضجعته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على فراشه، ووضعت رأسه على وسادة وسُجِّي ﷺ، واضطرب الناس وأرسلوا إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وكان في السُّنُح[1]، فجاء والناس في المسجد في حال ذهول ودهشة، فدخل بيت ابنته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقصد إلى رسول الله ﷺ وهو مُسجَّى على فراشه؛ فكشف عن وجهه فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أكبَّ عليه فقبَّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي يا نبي الله، طبت حيّاً وميتاً، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مِتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً، ثم رد البرد على وجهه[2].

وخرج الصديق إلى الناس، فصعد المنبر، وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أَمَّا بَعْدُ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّداً ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّداً قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَاللهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَراً مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا[3].

---

(١) السنح: اسم موضع كان بعوالي المدينة، فيه منازل بني الحارث بن الخزرج، ويبعد عن المسجد النبوي (١٥٠٠م) تقريباً. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٠٧).

(٢) «صحيح البخاري» (١٢٤٢، ٣٦٦٧)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٥٥-٦٥٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٤٥٤).

وبقي ﷺ يومه ذلك على فراشه، وشُغل الناس يومهم باختيار الخليفة وبيعة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ البيعة الخاصة في السقيفة، ومن الغد بالبيعة العامة له في المسجد.

ومع أن النبي ﷺ توفي في شهر يونيو/ حزيران ودرجة الحرارة في المدينة تتراوح فيه بين (٤١-٤٨) درجة، وأي ميت إذا بقيت جثته في هذا الطقس الحار هذه المدة لابد أن تتغير جسداً ورائحة، إلا أن النبي ﷺ بقي على سريره من يوم الإثنين كالنائم، أعطر من العطر، وأطيب من الطيب، فهو الطيّب حياً وميتاً ﷺ.

ثم شرعوا في تغسيل النبي ﷺ وتكفينه مساء الثلاثاء، وأحسبه بعد صلاة العصر، وبعد أن فرغوا من البيعة العامة وكانت بعد صلاة الظهر، فغُسِّل رسول الله ﷺ، وكان الذين تولَّوا غَسله عليّ بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وأبناؤه الفضلُ وقثم، وأسامة بن زيد، وشقران مولى رسول الله ﷺ، ورَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَكَانَ الْعَبَّاسُ وَالْفَضْلُ وَقُثَمُ يُقَلِّبُونَهُ، وَكَانَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ وَشُقْرَانُ مَوْلَاهُ هُمَا اللَّذَانِ يَصُبَّانِ الْـماءَ عَلَيْهِ، وَعَلِيٌّ يُغَسِّلُهُ، قَدْ أَسْنَدَهُ إِلَى صَدْرِهِ، وَعَلَيْهِ قَمِيصُهُ يُدَلِّكُهُ بِهِ مِنْ وَرَائِهِ، لَا يُفْضَى بِيَدِهِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَعَلِيٌّ يَقُولُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، مَا أَطْيَبَكَ حَيّاً وَمَيِّتاً[1].

ثم كُفِّنَ رَسُولُ الله ﷺ فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ[2]، مِنْ كُرْسُفٍ[3]، لَيْسَ فِيهَا قَمِيصٌ، وَلَا عِمَامَةٌ[4]، أُدرج فيها إدراجاً[5].

---

(١) «مسند أحمد» (٢٣٥٧). وينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٦٢).

(٢) سحولية: نسبة إلى قرية في اليمن قريبة من مدينة إب، تسمى سحول، تنسج فيها الثياب. ينظر: «لسان العرب» (١١/ ٣٣١).

(٣) كرسف هو القطن. ينظر: «لسان العرب» (٩/ ٢٩٧).

(٤) «صحيح البخاري» (١٢٦٤، ١٢٧٣، ١٣٨٧)، و«صحيح مسلم» (٩٤١).

(٥) أي لفوه بها، وطووها عليه. ينظر: «نيل الأوطار» (٤/ ٤٦).

فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ جهَازِهِ، وُضِعَ عَلَى سَرِيرِهِ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ دَخَلَ الرجال عَلَى رَسُولِ الله ﷺ أَرْسَالاً يُصَلُّونَ عَلَيْهِ، حَتَّى إِذَا فَرَغُوا أَدْخَلُوا النِّسَاءَ، حَتَّى إِذَا فَرَغُوا أَدْخَلُوا الصِّبْيَانَ، وَلَمْ يَؤُمَّ النَّاسَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ أَحَدٌ[1]. لكونهم جماعات متوالية وليست جماعة واحدة، وكانوا يدخلون على دفعات، وكلما دخلت دفعة صلوا ثم خرجوا من الباب الآخر للصفة.

وتكررت صلاة المسلمين عليه مرة بعد مرة، حتى صلى عليه كل الصحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم؛ حتى العبيد والإماء[2].

فلما أرادوا دفنه اختلفوا أين يدفنونه؟ فجاء الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهم يتشاورون في ذلك، فقال لهم: سمعت من رسول الله شيئاً ما نسيته، قال: مَا قَبَضَ اللهُ نَبِيّاً إِلَّا فِي الْـمَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ، ادْفِنُوهُ فِي مَوْضِعِ فِرَاشِهِ[3]، فخطوا حول فراشه، ثم حُول رسول ﷺ بالفراش ناحية البيت.

فلما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ بعثوا إلى أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان يضرح[4] كضريح أهل مكة، وإلى أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان هو الذي يحفر لأهل المدينة، وكان يلحد، فبعثوا إليهما رسولين وقالوا: اللهم خِرْ لرسولك، فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة فجاء به، ولم يوجد أبو عبيدة، فحفر أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القبر في موضع فراشه، فانتهى به إلى أصل الجدار، ولحد له إلى القبلة، وجعل رأس رسول الله ﷺ مما يلي الجدار الغربي، فصار القبر في الزاوية الجنوبية الغربية من بيته.

---

(١) «سنن ابن ماجه» (١٦٢٨).

(٢) «السنن الكبرى» للبيهقي (٦٩٠٧)، و«البداية والنهاية» (٥/ ٢٦٥).

(٣) «جامع الترمذي» (١٠١٨).

(٤) الضرح: حفر القبر بِلاَ لحد، وَسمي ضريحا لِأَنَّهُ يشق فِي الأَرْض شقاً. ينظر: «غريب الحديث» لابن الجوزي (٢/ ٨).





ولم يكن بين القبر وبين الجدار القبلي (الجنوبي) إلا نحو شبر.



صورة القبر بلحده

ويبلغ عمق القبر بدون اللحد ما بين (١٠٠ -١٢٠) سم.

واللحد يبلغ عمقه داخل القبر بين (٢٠-٣٥) سم.

وعرض القبر (٧٠) سم تقريباً.

وهذه أبعاد تقريبية وليست توقيفية.

وكان الذي نزل معه إلى القبر العباس وعلي والفضل بن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[١]، وأدخلوه القبر سلًّا من جهة رجليه؛ لضيق المكان بين القبر والجدار، وجعلوا تحته قطيفة حمراء كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يجلس عليها، فوضعها شُقران مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تحته،

(١) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٢٢٢)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٧/ ٢٥٣).



وقال: كرهت أن يلبسها أحد بعد رسول الله ﷺ[1]، وقيل: وضعت تحته؛ لأن أرض المدينة سَبِخةٌ[2] فأرادوا أن تقيه رطوبة الأرض[3]، ثم صفوا اللَّبِن عليه، فبنى أبو طلحة رضي الله عنه تسع لبنات، ثم جعلوا يُهيلون التراب بالمَساحي[4]، قالت عائشة رضي الله عنها: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المِساحي من آخر الليل ليلة الأربعاء[5].

وجعلوا قبره مسنَّماً -أي: أن وسطه أعلى من جوانبه- ووضعوا عليه من حصباء العرصة[6] الحمراء، فعن سفيان التمار: أنه رأى قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر مسنماً[7]، وكان قبره ﷺ مرتفعاً عن الأرض شبراً؛ ليس عالياً ولا لاصقاً.

---

(١) «صحيح مسلم» (٩٦٧)، و«سنن ابن ماجه» (١٦٢٨). وينظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٦٤).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (١١٧٥٣)، و«المراسيل» لأبي داود (٤١٦)، و«المفهم» (٢/ ٦٢٧).

(٣) وهذا خاص بالنبي ﷺ، ولعل ذلك لأن أجساد الأنبياء لا تبلى في قبورهم كما قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**»، والدليل على ذلك: أن ابن عباس الذي رُوي عنه وضع القطيفة، ورد عنه النهي عن وضع شيء تحت الميت في قبره. فَقَدْ روى يَزِيد بْنُ الْأَصَمِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُجْعَلَ تَحْتَ الْمَيِّتِ ثَوْباً فِي الْقَبْرِ. ينظر: «السنن الكبرى» للبيهقي (٦٧٢٢).
وهو رأي جمهور العلماء، لأن ذلك لم يرد فعله عن الصحابة في حياة النبي ﷺ ولا بعد وفاته، ولأن حال الميت في إقباله على الله التواضع والتذلل والافتقار، ولأن في ذلك إضاعة للمال كما قال الصديق عن الكفن: «إنما هو للمهلة»، أي فترة قصيرة في القبر قبل أن يبلى البدن.

(٤) الْمَسَاحِي: جَمْعُ مِسْحَاةٍ، وَهِيَ الْمِجْرَفَةُ مِنَ الْحَدِيدِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٤٩).

(٥) «مصنف ابن أبي شيبة» (١١٨٣٩)، و«مسند أحمد» (٢٤٣٣٣)، و«شرح معاني الآثار» (٢٩٣٤). وينظر: «إتحاف الخيرة» (٢/ ٤٩٤).

(٦) العرصة الحمراء: هي عرصة بوادي العقيق، والعرصة: هي الأرض المتسعة ليس فيها بناء، وحصباء العرصة تكون في مسيل الوادي، يغسلها السيل إذا جرى، وتكون حجارتها صغيرة نظيفة. ينظر: «معجم البلدان» (٤/ ١٠١).

(٧) «مصنف ابن أبي شيبة» (١١٧٣٤)، و«صحيح البخاري» (١٣٩٠)، ولذا استحب جمهور العلماء تسنيم القبر على هذه الصفة.

وعن عبد الله بن الحسين قال: رأيت قبر النبي ﷺ مسنماً في زمن الوليد، وفي رواية عنه: أن القبر جثوة[1] مرتفعة مسنمة غير شديدة الارتفاع، عليها قزع[2] من حصباء، وتربةٌ طيبها الله عَزَّوَجَلَّ[3].

ورُش على قبر النبي ﷺ الماء رشاً، وكان الذي رش الماء على قبره بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقربة، بدأ من قبل رأسه من شقه الأيمن حتى انتهى إلى رجليه، ثم ضرب بالماء إلى الجدار، لم يقدر أن يدور من الجدار[4].

وقال أنس وأبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ الأَيْدِي وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا[5].

ولما دخل أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على فاطمة قالت له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟![6]، أي كيف طاوعتكم نفوسكم على ذلك، مع رقة قلوبكم عليه وشدة محبتكم له، فأسكت الحزن أنساً ولم يجبها، ولو أجابها لقال: لا؛ والله ما طابت يا ابنة رسول الله ﷺ، ولن تطيب؛ ولكنها سنته وهديه، وحكم الله في خلقه!

ثم أوصى أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن يُدفن إلى جنب رسول الله ﷺ، فلما توفي حفر له، وجعلوا رأسه عند كتف النبي ﷺ؛ تأدباً مع مقام النبي ﷺ، وألصقوا اللحد بقبر رسول الله ﷺ فقبر هناك[7]، فكان في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قبر زوجها وقبر أبيها، وكانت القبور بارزة في البيت يراها من دخل إلى بيت

---

(١) جثوة: أي التراب المجتمع. ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ١٣٣).

(٢) أي: قطعة رقيقة متفرقة. ينظر: «لسان العرب» (٨/ ٢٧١).

(٣) «وفاء الوفاء» (٢/ ١٢٠-١٢١).

(٤) «الطبقات» لابن سعد (٢/ ٢٣٣)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٦٧٤٣) من طريق الواقدي.

(٥) «سنن ابن ماجه» (١٦٣١)، و«جامع الترمذي» (٣٦١٨).

(٦) «صحيح البخاري» (٤٤٦٢).

(٧) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٥٧)، و«تاريخ الطبري» (٣/ ٤٢٢).

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأحسبها كانت زيادة أُنسٍ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكأنما تجد سلوة نفسها أن زوجها وأباها معها في بيتها، ولذلك بقيت في دارها تشاركها سكناها قبور رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وصاحبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فلما طُعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحضرته الوفاة، أرسل ابنه عبد الله يستأذن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن يُدفن مع صاحبيه، فدخل عليها عبد الله بن عمر، فوجدها تبكي فأخبرها بوصاة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالت: قد كنت أريده لنفسي، ولأوثرنه على نفسي، فرجع عبد الله يُبشِّر أباه ويقول له: أبشر فقد أذنت[1]، فلما توفي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُفن مع صاحبيه في بيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وما أجمل ما قاله عليٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن توفي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ووضع على سريره: وَايْمُ اللهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَذَاكَ أَنِّي كُنْتُ أُكَثِّرُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»، فَإِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَكَ اللهُ مَعَهُمَا[2].

وهكذا كان أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في حياته، ومعه بعد مماته، وإن قُرْبَ قبريهما إليه بعد موتهما مُبشِّرٌ بقربهما منه في عاقبتهما ومنقلبهما، ومنازلهما في الجنة و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٩٢، ٣٧٠٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٨٥)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٩).

(٣) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١/ ١٨٤)، و«تحقيق النصرة» (٩٥)، و«وفاء الوفاء» (١/ ٢٤٥)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١١٧).





صورة نصب اللبن على اللحد



صفة القبور الثلاثة



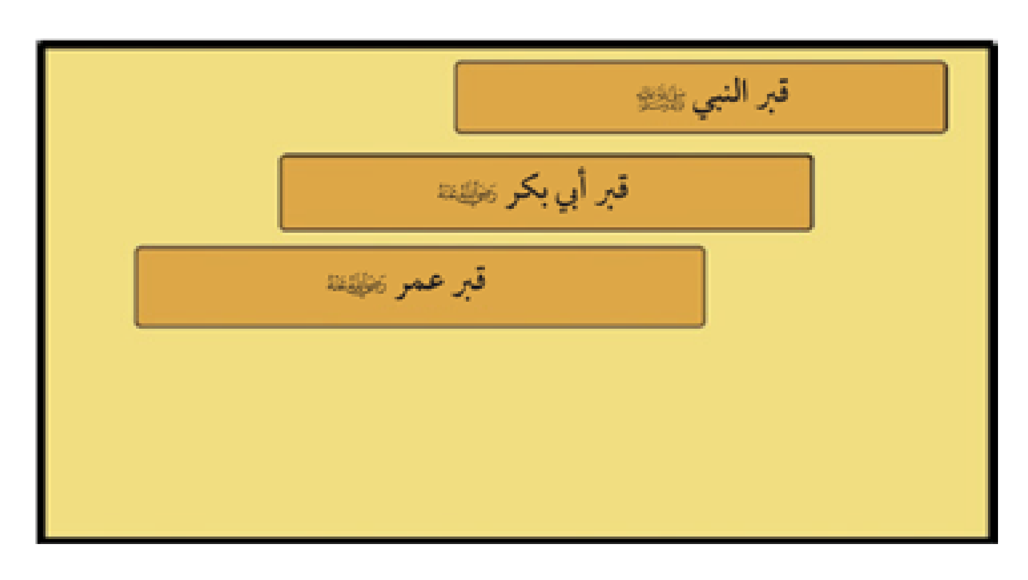
اختلف المؤرخون في صفة القبور الثلاثة، وترتيب بعضها إلى بعض، مع اتفاقهم على موضع القبر النبوي، وأنه في زاوية البيت الجنوبية الغربية لاصقاً بالجدار، وذكر السمهودي سبعة أقوال في ترتيب هذه القبور[1]، وهذا الخلاف الكثير في ترتيب القبور لا يترتب عليه كبير أثر، فإن الجميع متفقون على مكان قبر النبي ﷺ ومتفقون على أن الصاحبين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا معه، ولكن لهذا الخلاف دلالةٌ مُهِمّة جداً، وهي أن هذه القبور كانت محجوبة تماماً عن الناس، ولم يكن أحدٌ يستطيع الوصول إليها، ولا الاطلاع عليها، ولذا وقع الخلاف الكثير الذي تحسمه الرؤية البصرية لو كانت ممكنة.

وأشهر الأقوال في ترتيب القبور: أن القبور كانت متوالية، فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خلف النبي ﷺ؛ رأسه عند مَنْكِب النبي ﷺ، ثم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خلف أبي بكر؛ رأسه عند منكِب أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

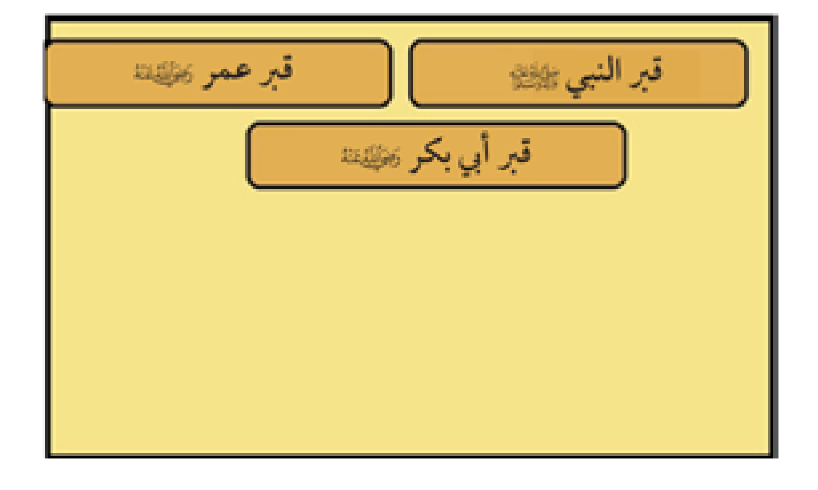
---

(١) «وفاء الوفاء» (٢/ ١١٥).





والراجح في ترتيبها -والله أعلم- أنّ قبر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسفل القبر النبوي؛ رأسه بعد قدمي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، محاذياً لقبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، تحت الجدار القبلي، وخلفه قبر أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رأسُه عند كتفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خلفه، ورأس عمر يحاذي وسط أبي بكر أمامه، وعندما أرادوا دفن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حفروا آخِرَ لحْدِه تحت الجدار الشرقي لقدميه؛ لأنه كان طويلاً.





والذي يرجح ذلك:

١- أنها الصِّفةُ التي رواها القاسم بن محمد حين كَشَفت له عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الستر؛ قال: فَرَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مُقَدَّماً، وَأَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأْسُهُ بَيْنَ كَتِفَي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَأْسُهُ عِنْدَ رِجْلَي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ[1].

٢- أن صف القبور خلف بعضها سيضيق الحجرة الصغيرة التي كانت عائشة تقضي فيها بقية حياتها.

٣- أن الحائط الشرقي للحجرة لما سقط وحُفِرَ أساسه بدت لهم قدم ففزعوا أن تكون قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال عروة بن الزبير لعمر بن عبد العزيز: لَا وَالله مَا هِيَ قَدَمُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، مَا هِيَ إِلَّا قَدَمُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، وذلك أنه كان طويلًا فحفروا له في أساس الجدار الشرقي، وهذا لا يتصور إلا إذا دفن تحت قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ محاذياً له، أما لو دفن وراء أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلن يحتاجوا لحفرٍ تحت أساس الجدار الشرقي؛ فإن طول الحجرة يتَّسع لهم متجاورين، ولا يتسع إذا كانوا في صف واحد كما صنع بعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

٤- أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، فَلَأُوثِرَنَّهُ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي، وهذا يعني أنها تعني بقعة معيَّنة في الحجرة، وهي المكان الذي يجعلها بين زوجها وأبيها، وهو المكان الذي دفن فيه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإلا فالحجرة تتسع بقيتها لأربعة قبور، وليس لقبر واحد.

---

(١) «سنن أبي داود» (٣٢٢٠)، و«مستدرك الحاكم» (١٣٦٨)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٦٧٥٨)، و«مسند أبي يعلى» (٤٥٧١).

(٢) «صحيح البخاري» (٢/ ١٠٣)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٦/ ٥٧).

ولذا لما حضرتها الوفاة أوصت أن تُدفَن في البقيع، وألا تُدْفَن معهم، وقالت: لا أُزكَّى به أبداً[(١)]؛ مما يدل على بقاء مساحة في البيت، وهو المكان الذي كانت تعيش فيه بقية حياتها.

فلما دُفن عمر -وكان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مهيباً حيّاً وميّتاً- وضَعَت عائشة حاجزاً بين القبور وبقية البيت الذي تسكنه، وقالت: كُنْتُ أَدْخُلُ بَيْتِي الَّذِي دُفِنَ فِيهِ رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ وَأَبِي، فَأَضَعُ ثَوْبِي، وَأَقُولُ إِنَّمَا هُوَ زَوْجِي وَأَبِي، فَلَمَّا دُفِنَ عُمَرُ مَعَهُمْ فَوَالله مَا دَخَلْتُهُ إِلَّا وَأَنَا مَشْدُودَةٌ عَلَيَّ ثِيَابِي، حَيَاءً مِنْ عُمَرَ[(٢)].

ويظهر أن الحاجز الذي وضعته عائشة كان جداراً قصيراً وأعلاه ستر تَحجُب به القبور عن البيت، يدل على ذلك خبر القاسم بن محمد بن أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ قال: دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ فَقُلْتُ: يَا أُمَّاهُ، اكْشِفِي لِي عَنْ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ وَصَاحِبَيْهِ، فَكَشَفَتْ لِي عَنْ ثَلَاثَةِ قُبُورٍ، لَا مُشْرِفَةٍ وَلَا لَاطِئَةٍ، مَبْطُوحَةٍ بِبَطْحَاءِ الْعَرْصَةِ الْحَمْرَاءِ، فَرَأَيْتُ رَسُولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ مُقَدَّماً، وَأَبَا بَكْرٍ رَأْسُهُ بَيْنَ كَتِفَي النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، وَعُمَرُ رَأْسُهُ عِنْدَ رِجْلَي النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، فقوله: كشَفَتْ، يدل على أن ذلك كان ستراً يُكشَف.

ويظهر أن هذه القبور أخذت نحو ثلث مساحة البيت طولاً، وقضت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا بقية عمرها في بقية البيت الذي عاشت فيه مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، فلما حضرتها الوفاة أوصت إلى عبد الله بن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: لا تدفني معهم، وادفني مع صواحبي بالبقيع[(٣)]؛ لا أُزكَّى به أبداً[(٤)].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٩١). وقولها لا أزكى: أَيْ لَا يُثْنَى عَلَيَّ بِسَبَبِهِ وَيُجْعَلُ لِي بِذَلِكَ مَزِيَّةٌ وَفَضْلٌ. قال ابن بطال: فيه معنى التواضع، كرهت عائشة رضي الله عنها أن يقال: إنها مدفونة مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، فيكون في ذلك تعظيماً لها. ينظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٣/ ٣٨٠)، و«فتح الباري» (٣/ ٢٥٨).

(٢) «مسند أحمد» (٢٥٦٦٠).

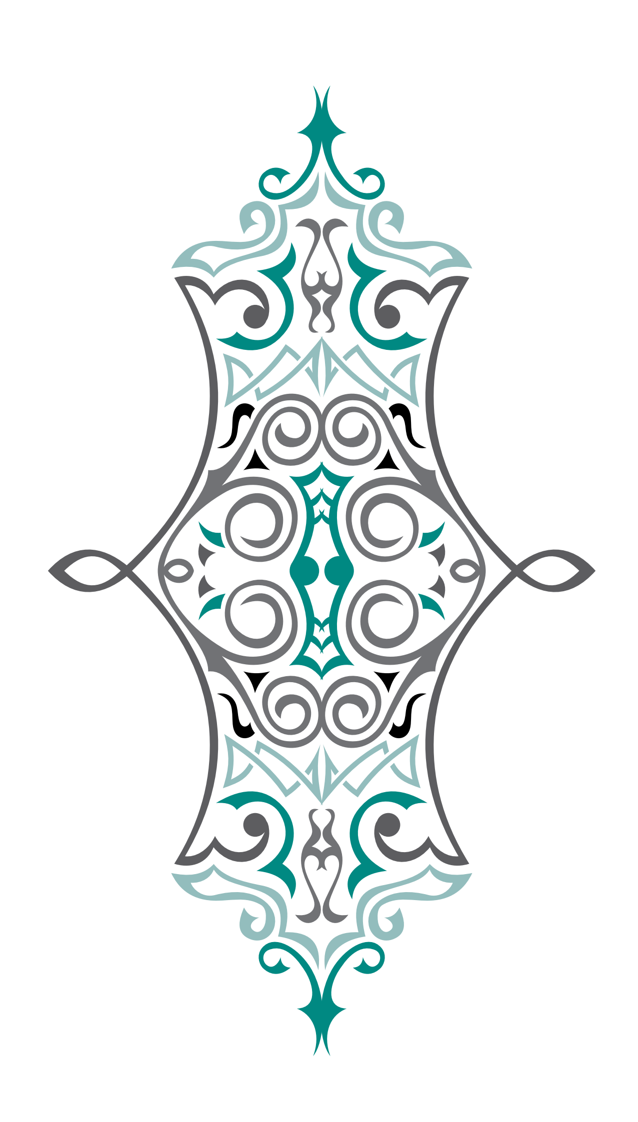
(٣) قولها: «وادفني مع صواحبي بالبقيع»، أرادت بذلك بقية نساء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ المدفونات في البقيع.

(٤) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١/ ٢٠٨)، و«وفاء الوفاء» (٢/ ١١٥)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١١٨).



رسم تخيلي لبيت عائشة مع الحاجز على القبور







تاريخ الحجرة النبوية[(١)]



بعد وفاة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقيت الحجرة النبوية خزانة القبور الثلاثة، وحولها حُجُرات أمهات المؤمنين، وكانت هذه الحجرات قد خلت من أمهات المؤمنين، وبقيت فارغة، وآل مُلْكُها إلى ورثتهن، فكان الناس إذا ضاق عليهم المسجد يوم الجمعة دخلوا في هذه الحجرات الخالية يُصلُّون فيها، فلما ولي الوليد بن عبد الملك اشترى هذه الحجرات ممن آلت إليه من ورثتهن، وأرغبهم في أثمانها، ثم كتب إلى عمر بن عبد العزيز أميره على المدينة يأمره بهدم الحجرات وإدخالها توسعةً في المسجد، فجاء عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلاوى عمر بن عبد العزيز أشد الملاواة ألا يُدخل القبر في المسجد؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حذَّر أشد التحذير من اتخاذ القبور مساجد في أحاديث كثيرة؛ منها:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِداً**»، قَالَتْ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَبْرَزُوا قَبْرَهُ، غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً[(٢)].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**»[(٣)].

---

(١) سبق بيان الفرق بين الحجرة والبيت، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دفن داخل البيت، ولكن بعد أن أزيلت الحجرات كلها بما فيها حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأدخلت في المسجد، وبقي البيت الذي فيه القبور، صار لفظ الحجرة يطلق على الغرفة التي فيها القبور، والتي هي البيت النبوي، ولعل ذلك لأن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ بنى جداراً مخمَّساً حاجزاً للبيت، فاشتهرت الحجرة بأنها مكان القبور الثلاثة.

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٣٠)، و«صحيح مسلم» (٥٢٩).

(٣) «صحيح مسلم» (٥٣٢).



وقوله ﷺ: «**إنَّ مِن شِرَارِ النَّاسِ مَن تُدرِكُهُمُ السَّاعَةُ وهُمْ أَحياءٌ، والَّذين يتَّخِذون القُبورَ مَساجَدَ**»(١).

ولمَّا ذَكَرت أُمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا لِرَسُولِ الله ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ يُقَالُ لَهَا مَارِيَةُ، فَذَكَرَتْ لَهُ مَا رَأَتْ فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ، أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله**»(٢).

فقال عمر بن عبد العزيز لعروة: قد أمر بذلك أمير المؤمنين ولابدّ من إنفاذ أمره.

وما كان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ يجهلُ نهي النبي ﷺ الصريح عن ذلك، فإنه كما كان والي المدينة، فهو أيضاً من علمائها، وتلميذ علمائها السابقين، ولكنه أراد أن يُنَفِّذ أمر الوليد بن عبد الملك بطريقة يراعي فيها النهي النبوي، ويرعى حُرمة القبر وصيانته، وبخاصة أن له مكانته عند الوليد، فهو ابن عمه وصهره، ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره، ولذا تولى هو إنفاذ الأمر مع مراعاة ما يجب للقبر النبوي، وأحسبه لو رفض ذلك كله لعزله الوليد وولّى غيره ممن ينفذ الأمر ولا يراعي ما راعاه، ولا يصون ما صانه، وهذا من فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ، ومراعاته المقاصد، ودفع أكبر المفاسد ولو وقع ما هو دونها.

وإني لأتخيل لو تولى الأمر غيره ممن لا يرقب إلا أميره، ولا يرعى إلا مكانته، ثم هدم الحجرات، وأبقى الحجرة النبوية على حالها داخل المسجد، والتي ليس لها إلا باب من خشب العرعر سرعان ما يُقْتلع، وجدار من طين سرعان ما يهدم، ثم يبرز القبر ويقع المحظور من الغلو فيه والصلاة إليه، وغير ذلك مما يستجر الشيطان الناس إليه ويزينه لهم، ولو برز القبر للناس لتقاتلوا عليه بالسيوف.

---

(١) «مسند أحمد» (٣٨٤٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٣٤)، و«صحيح مسلم» (٥٢٨).

فكان في تصرف عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ الغاية في البصيرة، وحسن التصرف، وإصابة الحكمة، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

ونُفِّذ أمر الوليد بن عبد الملك، فهُدمت حجرات أمهات المؤمنين وبيوتهن إلا بيت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا وعنهن، ورأى أهل المدينة المعاول وهي تنقض حجرات رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ التي أذهب الله عنها الرجس وطهرها تطهيراً، والتي طالما عمرها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في حياته، وتردد بين بيوتاتها، وتنزل عليه جبرائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في حجراتها، فكم تعطرت بأنفاسه، وسَبَّح حَجَرُها ومَدَرُها مع تلاوته وصلواته، واكتفى بها من الدنيا فكفته، وأوى إليها فآوته، وكم تساءلتُ: ما الذي كان يشعر به من رآها، وكيف كانت مشاعر من دخلها، وكل شيء فيها يقول: كان رسول الله هنا!؟

ولذا كانت هذه الحجرات أمام أهل المدينة كأنها بقية حياته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فشعروا بالفجيعة وهم يفقدون بقية آثار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وكأنما تجددت لهم المصيبة بفقده، فلم يُرَ في المدينة أكثر باكياً من ذلك اليوم، وكأنه يوم وفاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وكانوا يقولون: ليتها تُركت حتى يقدم القادم على المدينة فيرى كيف كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يعيش، وأين كان يسكن؛ لتكون هذه الحجرات موعظة باقية بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تُري من لم يدركه من أمته أين كان يعيش صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

قال عطاء الخراساني: سمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لوددت أنهم تركوها على حالها، فينشأ ناشئ من أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق، فيرى ما اكتفى به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس من التكاثر والتفاخر فيها.



وقال عمر بن أنس: لقد رأيت في مجلسٍ فيه نفر من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ، منهم أبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف، وخارجة بن زيد بن ثابت، وإنهم ليبكون حتى أخضل لحاهم الدمع.

وقال يومئذ أبو أمامة: ليتها تُركت فلم تُهدَم؛ حتى يقصر الناس عن البناء، ويرون ما رضي الله لرسوله ﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده[1].

ولكن أُنفذ الأمر، وهُدمت البيوت والحجرات، وأُزيلت حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وبقي بيتها الذي دُفن فيه رسول الله ﷺ وصاحباه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثم وهى الحائط الشرقي للحجرة النبوية وانهار في الليل، ولعلّ ذلك بسبب أعمال الهدم والبناء حوله، فأمر عمر بن عبد العزيز أن يُنقض الجدار المنهار ويستر مكانه، وأن يُحفر من أساسه ليُبنى الجدار من جديد.

فحُفِرَ الأساس، وبينما العامل يحفر إذ خرج فزعاً، فقال له عمر: ما لك؟، قال: بدت لي قدم، ففزعوا! يخشون أنها قدم رسول الله ﷺ، فقال عروة بن الزبير: لَا وَاللهِ مَا هِيَ قَدَمُ النَّبِي ﷺ، مَا هِيَ إِلَّا قَدَمُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]، فبني هذا الجدار، وصار بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بارزاً داخل المسجد، وأُغلق بابه وفُرَجَه، فصار مصمتا لا منفذ فيه، ثم أمر عمر ببناء حائطٍ يحيط بالبيت، لعزل القبور عن المسجد؛ خوفاً مما حذر منه النبي ﷺ من جعل القبور مساجد، فبَنى الحائط من حجارة سوداء، ولم يجعله مربعاً، وإنما جعله مخمَّساً، فهو يُحيط بالبيت النبوي من جهاته الغربية والجنوبية والشرقية،

---

(١) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٣٨٧-٣٨٨)، و«المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (٦/ ٢٨٣-٢٨٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٢/ ١٠٣)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٦/ ٥٧).

أما الجهة الشمالية فأُخْرِج من ركنيها جداران منحرفان يلتقيان في الوسط على شكل مثلث، فيكون مجموع الحيطان خمسة، وهي جُدُر مصمتة ليس لها باب ولا فُرَج.



رسم تخيلي للجدار المخمس وبداخله البيت النبوي

وقد فعلوا ذلك لأمرين:

الأول: أنهم لم يريدوا أن تُشبه الحجرةُ النبوية الكعبةَ المشرفة فيكون ذلك ذريعة إلى الطواف بها.

الثاني: أن الجهة الشمالية هي التي يستقبلها مستقبل القبلة إذا كانت أمامه، فأرادوا ألا تكون الجهة الشمالية قبلة فيُصلي الناس إليها، بل جعلوا لها جدارين منحرفين حتى لا تُستقبل في الصلاة.





ورفعت هذه الجدر فكان ارتفاعها قرابة ثلاثة عشر ذراعا[١] (٦) أمتار تقريباً.

وبذا صار حول القبر حائطان:

جدار البيت المربع.

وجدار عمر بن عبد العزيز المخمَّس المرتفع.

وفوق القبر سقفان، سقف الحجرة، وسقف المسجد، وبذلك حصل العزل التام المحكم للقبور عن المسجد.

وبقيت على هذا الحال داخل المسجد النبوي، وكان البناء متيناً محكماً استمر صامداً ثمانمئة سنة، حتى أعيد بناء ما تداعى منه عام (٨٨١هـ).

(١) «وفاء الوفاء» (٢/ ١٢٨).



ولم يرد عن أحد من علماء المدينة أو من بعدهم أنه أنكر على عمر بن عبد العزيز بناءه هذا الجدار على الحجرة النبوية، مع ورود النهي الصريح عن البناء على القبور وتجصيصها كما في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نَهَى رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ[1]، وهذا من شفوف فقهه وفقه علماء وقته، حيث فقهوا من هذا النهي عن البناء أنه لما في ذلك من الغلو في القبور وتعظيمها، أما البناء على الحجرة النبوية فهو لحمايتها من الغلو فيها، أو اقتحامها وإبراز القبر وجعله مسجداً، ولذا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد أن روت قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»؛ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَبْرَزُوا قَبْرَهُ، غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً[2].

فالبناء على سائر القبور غلوٌّ فيها، والبناء على القبر النبوي حماية له من الغلو فيه، وفي هذا تجاوز لظاهرية النص إلى مقصده وحكمته، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

وفي القرن السادس كُسي الجدار المخمس ديباجاً أبيض، وكان الذي كساها الحسن ابن أبي الهيجاء بعد استئذان الخليفة المستضيء[3]، ثم صارت تُكسَى على فترات متفاوتة، وكانت الكسوة ترسل من مصر، ثم من إستانبول، أما الكسوة الموجودة الآن فإنها صنعت في مصنع كسوة الكعبة في مكة المكرمة، ووضعت في عام (١٣٨٩هـ) بفتوى ومسعى من سماحة الشيخ عبد العزيز بن صالح[4] إمام المسجد النبوي رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم جددت عام (١٤٠٦هـ).

---

(١) «صحيح مسلم» (٩٧٠).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٣٠)، و«صحيح مسلم» (٥٢٩).

(٣) كانت خلافة المستضيء بين عامي (٥٦٥-٥٧٤هـ).

(٤) هو الشيخ عبد العزيز بن صالح الصالح، إمام الحرم النبوي، وقاضي المدينة المنورة لمدة خمسين سنة، وكان له وقار العلماء وهيبة الأمراء، وكان المنظور إليه في المدينة إمامةً ومكانةً، ومقصداً في قضاء الحاجات، وله في تلاوة القرآن إذا ترسل بها نغمة عذبة وأداء رائق، توفي رَحِمَهُ اللَّهُ عام (١٤١٥هـ).



صورة لكسوة الحجرة النبوية

وأما سياج المقصورة حول الجدار المخَمَّس، فقد أمر به السلطان الظاهر بيبرس البندقداري لما قدم المدينة سنة (٦٦٤هـ) حين رأى الناس حول جدران الحجرة يتصرَّفون تصرفاً لا يليق بالأدب مع المقام النبوي، فصنع حولها سياجاً من الخشب، وبقي هذا السياج حتى احترق مع حريق المسجد سنة (٨٨٦هـ)، ثم جُعلت المقصورة من الحديد والنحاس بأمر الملك الأشرف قايتباي سنة (٨٩٠هـ)؛ وهي المقصورة الموجودة الآن لم تُغيَّر، وإنما يُجدَّد طلاؤها كلَّما تَغيَّر لونه(١).

ولذلك فالواقف تجاه القبر الشريف يحجبه عنه ثلاثة جدران:

جدار بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من الطين، وأساسه من الحجارة.

ثم جدار عمر بن عبد العزيز المربع.

---

(١) ينظر في ذلك: «الدرة الثمينة» (١/ ٢١١)، و«تحقيق النصرة» (٨٢)، و«وفاء الوفاء» (٢/ ٨٩-١٧٥)، و«طيبة المدينة النبوية» (١٦٣).



ثم جدار عمر بن عبد العزيز المخمس.

فهذه ثلاثة جدران، ثم سياج المقصورة.

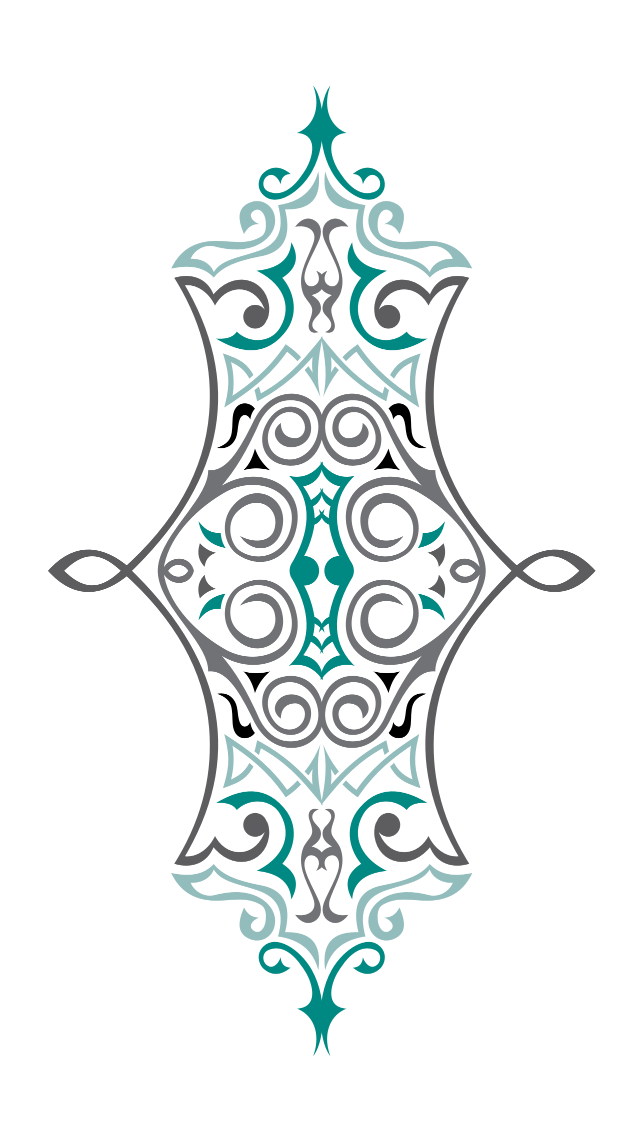
وإذا نظر من خلال السياج، فإنه لا يرى إلا الستر الذي على الجدار المخمس المصمت، وكل ذلك حمايةً للقبر النبوي المقدَّس، واستجابةً من الله تعالى لدعاء نبيه ﷺ يوم قال: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[1]، وقال: ابن القيم في نونيته:

ودعا بأن لا يَجعل القبر الذي	**قد ضمه وثناً من الأوثان**
فأجاب رب العالمين دعاءه	**وأحاطه بثلاثة الجدران**
حتى اغتدت أرجاؤه بدعائه	**في عزة وحماية وصيان**[2]



(١) «موطأ» (٥٧٠).

(٢) يراجع شرح الشيخ هراس لنونية ابن القيم (ص:٥٨٣-٥٨٥).



الكشف عن القبر النبوي



بعد بناء عمر بن عبد العزيز للجدار المخمس حول الحجرة وجعله مصمتاً بلا باب ولا فُرَج، بقيت القبور في ستر وصيانة، بعيدة عن أيدي الناس وأبصارهم، ولم ير القبور ومساحة البيت أحد بعد ذلك على تعاقب القرون، حتى كان القرن التاسع سنة (٨٨١هـ)، ظهرت صدوع في الجدار المخمس الشمالي، والجدار الداخلي المربع، فهدمت بعض حيطان الجدار المخمس، وكذا بعض جدران الحجرة، وكان من التوافق والتوفيق أن ذلك كان في حياة مؤرخ المدينة السمهودي وحضوره، فوصف ذلك كله، وهو ما نذكره عنه مختصراً:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان سبب ذلك أنه جرى العمل لإصلاحات في بناء المسجد النبوي، وكان ذلك في أول شعبان سنة (٨٨١هـ)، فاتضح لهم أثناء العمل وجود شقوق في الجدار المخمس في جهته الشمالية، ومن خلال معالجة هذا الشق تبين وجود شق في جدار الحجرة الداخلي المربع بين الحائط الشرقي والشمالي، فهُدم المحل الشريف من الجهة الشرقية والشمالية لوجود الشقوق بها.

فلما هدموا الجدار الشمالي للحجرة شرعوا في تنظيف أرضها من الردم المتراكم جراء انهيار السقف، وما انهار عليه من سقف المسجد النبوي بسبب الحريق الذي وقع قديماً في المسجد، وكانت الأنقاض في أرض الحجرة نحو القامة، وفيها أخشاب أصابها الحريق فاحترق أكثرها، وكان هذا الركام كله داخل الحجرة النبوية فوق القبور



الشريفة، فكان فيما جرى سبب لتنظيف الحجرة، ورفع هذه الأنقاض، وإعادتها كما كانت أول مرة.

فاشتغلوا بإزالة الركام، وتزاحم الناس عليه حتى بلغوا في تنظيفه الأرض القديمة، بحيث ظهر تحصيب ذلك المحل بحصباء تشبه ما في المسجد، غير أنها قد اسودت من نداوة الأرض.

قال السمهودي: فلما كان صبيحة الخامس والعشرين من الشهر المذكور، بعث إليّ متوَلِّي العمارة لأتبرك بمشاهدة الحجرة الشريفة بعد تنظيفها، وصار قائل يقول: ظهر القبر الشريف، وقائل يقول: لم يجدوا لجميع القبور الشريفة أثراً، فحثّني داعي الشوق وغلبة الوجد، واستحضرت ما وقع لبعض السلف من سؤاله لعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن تريه القبور الشريفة، وذِكْرَهم ذرع الحجرة الشريفة وكيفيتها كما تقدم، فعزمت على الإقدام، وتمثلت بقول بعضهم:

ولو قيل للمجنون أرضٌ أصابها ... غبارُ ثرى ليلى لجدّ وأسرعا

لعلّ يرى شيئاً له نسبة بها ... يعلّل قلباً كاد أن يتصدعا

ودخَلتُ من مؤَخَّر الحجرة، ولم أتجاوز ذلك المحل، فشممت رائحة ما شممت في عمري رائحة أطيب منها، فتأملت الحجرة الشريفة فإذا هي أرض مستوية، وتناولت من ترابها بيدي فإذا فيه نداوة، وحصباء كالحصباء المتقدم وصفها بين الجدارين، يظهر عند فحصه بالأصابع، ولم أجد للقبور الشريفة أثراً.

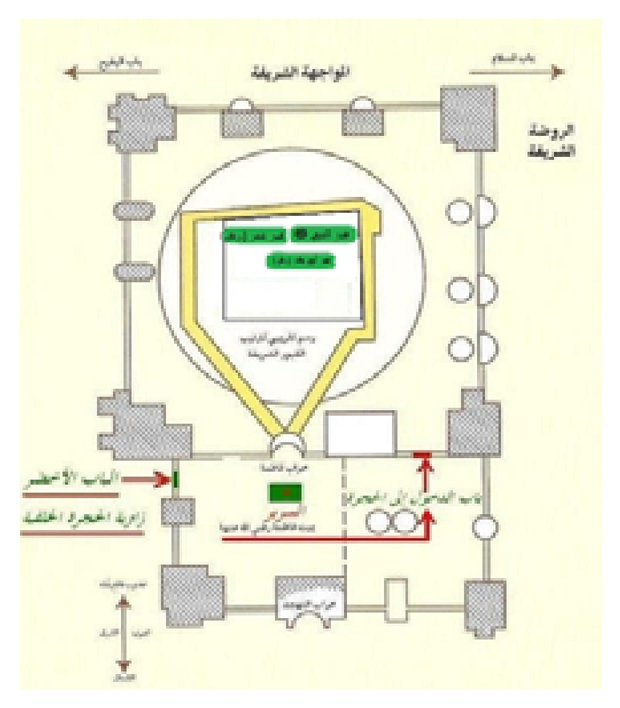
وقد تأملت التفاوت بين أرض الحجرة الشريفة وبين أرض الفضاء الخارج بين الجدار الشامي الداخل وزاوية الجدار الخارج، فوجدت أرض الحجرة أنزل منه بنحو ذراع ونصف، وتقدم أن أرض الفضاء المذكور أخفض مما حول الحجرة من

المسجد بذراع وثلث، فيكون التفاوت بين داخل أرض الحجرة وأرض المسجد نحو ثلاثة أذرع.

وتركوا في نحو وسط هذا الجدار خوخة، فلما لم يبق إلا هي، أدخلوا منها شيئاً كثيراً من الحصباء، جاؤوا بها من عرصة العقيق، من جنس حصباء المسجد بعد غسلها بالماء ليضعوها على القبور الشريفة، وكنت قد ذكرت لبعضهم أن موضع القبر الشريف النبوي مما يلي الجدار القبلي.

ولما دخلوا من الخوخة المذكورة لوضع الحصباء على القبور الشريفة، فوضعوا ذلك على المحل الشريف المذكور كما وصفت، وأخذوا بالهيئة المشهورة في كيفية القبور الشريفة؛ من أن رأس أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خلف منكِب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ورأس عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خلف منكب أبي بكر، فجعلها مسنّمة، وذلك بعد أن أكثروا في الموضع المذكور من البخور بالعود والعنبر وغيرهما من أنواع الروائح، وعَرْفُ المحل الشريف على ذلك كله راجح فائح.





مخطط المقصورة والحجرة الشريفة

ثم سدوا الخوخة المذكورة، وأحكموا بناءها كبقية الجدار، وكان الفراغ من ذلك وختم بناء الجدار الظاهر في يوم الخميس المبارك سابع شوال من السنة المذكورة[1]. انتهى مختصراً.

ومما تقدم يتضح أن بيت عائشة الذي كان مبنياً باللبِن ومسقوفاً بالخشب قد انهار وسقط سقفه وأخشابه، ولعل ذلك بسبب الحريق الذي وقع عام (٦٥٤هـ) لقول السمهودي أنه رأى في الحجرة أخشاباً محترقة، وهي أخشاب المسجد حين احترق، فسقط سقف المسجد على سقف الحجرة فانهار، وتراكمت هذه الأنقاض داخل الحجرة فوق القبور حتى أزيلت في بناء جدار الحجرة (٨٨١هـ)[2] وأن القبور في

---

(١) «وفاء الوفاء» (٢/ ١٦٩-١٧٤).

(٢) «وفاء الوفاء» (٢/ ١٦٧).

البيت النبوي كانت على الصفة المروية ثلاثة قبور لا يعلوها إلا نبيث[1] القبر، ولم تكن مشرفة ولا لاطئة، نثر عليها من حصباء العقيق، وأنها مع تقادم الزمن استوت بالأرض، وليس عليها ما يميزها، ولذا أعادوا وضعها كما كانت، واجتهدوا في ترتيب القبور على الترتيب المشهور، بأن القبور الثلاثة متوالية خلف بعضها، ورأس أبي بكر عند منكب النبي ﷺ خلفه، ورأس عمر عند منكب أبي بكر خلفه، اجتهاداً منهم في اختيار هذا الترتيب، وجعلوها مسنمة مرتفعة شبراً كما ورد في حالها أول مرة، ونثر عليها حصباء جديدة من وادي العقيق.

وأن الحجرة النبوية كانت فارغة من المتاع، ومتواضعة في البناء، ثم أعيدت كما كانت متواضعة بسيطة، ليس فيها تشييد ولا تزويق، ولا خزائن ولا أغاليق، ولا أحراز ولا أسرار، وكان من صنع الله وتوفيقه أن يكون ذلك بحضرة عالمٍ مؤرخٍ راصدٍ، حضر حين فتحت جدرانها، فرآها ووصفها كما ورد في وصفها، وشهدها وشهد عليها حين أغلقت وأصمتت، وأنها أعيدت كما كانت بتواضعها وبساطتها، وشهادتها على حياة من سكنها ﷺ.

وأنه ليس في داخلها ما يمكن أن يكون سراً أو مفاجأة أو كشفاً، وأنها وجدت كما وصفت، وبقيت كما كانت منذ ذلك اليوم وإلى هذا اليوم.

حفظها الله وصانها، وشرَّفها وكرَّمها.

---

(١) أي تراب القبر الذي أخرج حين حفره. ينظر: «مقاييس اللغة» (٥/ ٣٧٩).



شكل البناء الحجري حول القبور مع السقف



القبة الخضراء



لم تكن على الحجرة المطهرة قبة، وكان في سطح المسجد على ما يوازي الحجرة حظير من الآجر بمقدار نصف قامة، تمييزاً للحجرة عن بقية سطح المسجد.

وأول من أحدث على الحجرة الشريفة قبة هو السلطان قلاوون الصالحي، فقد عملها سنة (٦٧٨هـ) مربعة من أسفلها، مثمنة من أعلاها، بأخشاب أقيمت على رؤوس السواري المحيطة بالحجرة، وسَمَّر عليها ألواحاً من الخشب، وصفحها بألواح الرصاص، وجعل محل حظير الآجر حظيرة من خشب، وجددت القبة زمن الناصر حسن بن محمد قلاوون.

ثم اختلت ألواح الرصاص عن موضعها، وجددت وأحكمت أيام الأشرف شعبان ابن حسين بن محمد سنة (٧٦٥هـ)، وحصل بها خلل، وأصلحت زمن السلطان قايتباي سنة (٨٨١هـ).

وقد احترقت المقصورة والقبة في حريق المسجد النبوي الثاني سنة (٨٨٦هـ)، وفي عهد السلطان قايتباي سنة (٨٨٧هـ) جددت القبة، وأسست لها دعائم عظيمة في أرض المسجد النبوي، وبنيت بالآجر بارتفاع مُتَناهٍ، وقد حصل بين الجدار الشرقي للمسجد وبين الدعائم المحدثة ضيق، فهدم جدار المسجد الشرقي، وزحف به إلى البلاط ناحية مصلى الجنائز بمقدار ذراع ونصف، ولم يسقط شيء من حريق القبة على

الحجرة الشريفة، فقد كانت القبة الصغرى التي بناها قايتباي على الحجرة والقبور الشريفة مانعة لذلك.

وبعد ما تم بناء القبة بالصورة الموضحة، تشققت من أعاليها، ولما لم يُجْدِ الترميم فيها، أمر السلطان قايتباي بهدم أعاليها، وأعيدت محكمة البناء بالجبس الأبيض، فتمت محكمة متقنة سنة (٨٩٢هـ).

وبعد عدة قرون حدثت شقوق في أعلى القبة في زمن السلطان محمود بن عبد الحميد العثماني، فأصدر أمره بتجديدها، فهدموا أعاليها، وأعادوها في غاية الإحكام والإتقان، وكان ذلك سنة (١٢٣٣هـ)، ولا تزال على تلك الحال حتى الآن.

في سنة (١٢٥٣هـ) صدر أمر السلطان عبد الحميد العثماني بصبغ القبة المذكورة باللون الأخضر، وهو أول من صبغ القبة بالأخضر، ثم لم يزل يجدد صبغها بالأخضر كلما احتاجت لذلك إلى يومنا هذا.

وسميت بالقبة الخضراء بعد صبغها بالأخضر، وكانت تعرف بـ: البيضاء، والفيحاء، والزرقاء[(١)].

وبقيت القبة الخضراء مشرقة بجلال وهيبة وبهاء، مبشرةً مَن أقبل بقرب الوصول وطيب اللقاء، فهي كحل العيون قبل النظر.

وليس في هذه القبة البهية تزويق ولا تنميق، ولا ضخامة بناء أو تهويل صنعة، بل هي بسيطة في شكلها، مريحة للبصر في رؤيتها، وفي حالها ومكانها وجلالها ما يغني عن التزويق والتهويل.

ولا أعلم أن أحداً من العلماء الذين شهدوا بناء القبة، ولا من جاء بعدهم على تعاقب مشاهدتها من أهل العلم من أنحاء العالم الإسلامي ورؤيتهم لها في المواسم أنكر

(١) باختصار من كتاب «فصول في تاريخ المدينة»، للأستاذ علي حافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص:١٢٧-١٢٩).



ذلك، إلا كلمة مجملة ذكرها ابن تيمية[1]، وأول من رأيت له إنكاراً لها هو الصنعاني في رسالته «**تطهير الاعتقاد**»، ثم تبعه بعض أهل العلم في الأعصار المتأخرة.

ولعل سبب إقرار العلماء لها: أن القبر النبوي كان في حاله الأول تحت سقف بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فدفن صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تحت سقف بيته، ولذا فَوضْعُ سقفٍ فوق سقفه كوضع جدار خلف جداره[2].

ويكون مستثنىً بهذا الاعتبار، وعليه فلا يصح أن يقاس عليه غيره من القبور، فترفع فوقها القباب، وتشاد حولها الأبنية؛ لورود النهي الصحيح الصريح عن ذلك، كما في حديث أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟، أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالاً إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْراً مُشْرِفاً إِلَّا سَوَّيْتَهُ[3].

فإذا كان ارتفاع القبر وإشرافه يُنهى عنه، ويؤمر بتسويته حتى يكون متطامناً إلى الأرض، فكيف بالبناء عليه وتسقيفه أو تقبيبه؟!

وكذا نهيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نَهَى رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُجَصَّصَ الْقَبْرُ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ[4].

فالنهي عن البناء عليه شامل لإحاطته وتسقيفه وتقبيبه.

كما أن القبر أول منازل الآخرة، وسيبعث الناس من قبورهم حفاة عراة بُهماً[5]، فينبغي أن تكون حال المسلم في قبره معلنة بافتقاره وفقره، وتواضعه وذُلِّه لربه الذي هو قادم إليه، والبناء والتشييد على القبور ينافي هذه الحال.

---

(١) قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم بعد ذلك بسنين متعددة بنيت القبة على السقف، وأنكره من كرهه». ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ١٩٨).

(٢) وقد أفدت ذلك من مذاكرة مع شيخي عبد العزيز القارئ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) «صحيح مسلم» (٩٦٩).

(٤) «صحيح مسلم» (٩٧٠).

(٥) بهما: أي ليس معهم شيء. ينظر: «مختار الصحاح» (ص:٤١).

كما أن البناء ورفع القباب على القبور وسيلة للغُلوّ في صاحب القبر إذا كان من العلماء أو العُبَّاد، واتخاذ قبره مزاراً معتاداً، يلتبس على الجهال حاله، فيقعون في كثير من البدع الفاشية عند القبور، والمخالفة لسنن الزيارة الشرعية.

ولذا فإن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يميِّزوا قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بشيء عندما دفنوه، فقد رفعوه عن الأرض شبراً، ونثروا عليه شيئاً من حصباء تمسك التراب، فلا ينتثر ويتفرق.

وهذه هي صفة سائر القبور في البقيع وغيره، بحيث لو فرض أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دفن في البقيع لما تميز قبره في مظهره بشيء عن سائر القبور حوله.



القبة الخضراء



أساطير حول القبر النبوي



نظراً لإحكام الإغلاق للحجرة النبوية بالجدران المصمتة، وجهل كثير من الناس بما وراء السياج، وغموضه في أذهان الجهال وكثير من العامة، فقد سهل انتشار غرائب الأخبار، والتكثر بالدعاوى ممن أولعوا بالغرائب، وراجت عليهم الأكاذيب، فانتشرت الحكايات والأخبار المكذوبة، ومن ذلك:

أولاً: الصور المتداولة للقبر النبوي على مواقع التواصل الاجتماعي، وعلى الشبكة العنكبوتية كُلُّها غير صحيحة، وليس هناك صورة للقبر النبوي، ولم يُصوَّر طوال تاريخه، وكل صورة يقال إنها صورة القبر النبوي، فهي كذب ولا تصح بحال! وإنما هي صور لمزارات وأضرحة مبتدعة مفرقة في أنحاء العالم الإسلامي، وكل هذه الصور ليست على الصفة المروية عن قبره ﷺ.

ثانياً: دعوى دخول الحجرة النبوية ورؤية القبر النبوي؛ فكل من ادَّعى أنه دخل حجرة النبي ﷺ ورأى قبر النبي ﷺ وصاحبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أو أنه أطلَّ من فُرْجة فرأى القبر أو القبور؛ فكل هذه دعاوى زائفة، وأخبار كاذبة، فإن الحجرة النبوية التي فيها القبور مصمتة البناء؛ فبيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الذي دُفن فيه النبي ﷺ وصاحباه قد أُغلق تماماً، فليس له باب ولا نوافذ، ثم بناءُ عمر بن عبد العزيز -وهو الجدار المربع والمخمَّس حوله- بلا أبواب ولا نوافذ، وأما السِّياج الموجود حولها فهو مقصورة من الحديد تُطيف بالبناء الحجري المخمَّس المصمت، والداخل إلى هذه المقصورة لا

يتجاوزها إلى البيت النبوي، ولا يصل إلى القبور، وإنما يقف خلف جدار عمر بن عبد العزيز «**المخمَّس**».

فكل الأخبار عن رؤية القبر أو الإطلال عليه أخبار كاذبة، وآخر من رأى القبر النبوي هو المؤرخ السمهودي ومن عاصره، سنة (٨٨١هـ)، حين هدمت جدران الحجرة لتصدعها، ثم أعيد بناؤها على صفتها، ومنذ ذلك اليوم وإلى هذا اليوم وهي مصمتة لا ينفذ إليها أحد، ولا رأى ما فيها أحد.

ثالثاً: الأساطير والأخبار والقصص التي تُروى عن محاولة نبش القبر النبوي أو قبر الصاحبين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وأشهرها القصة التي تُروى عن: «**نور الدين زنكي**»، وأنه رأى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في المنام يستنجد به ويقول له: أنقذني من هذين، ويُشير إلى رجلين أشقرين، وأنه جاء إلى المدينة فطلبهما حتى وجدهما فعرفهما وقررهما، وفُتِّش بيتهما فوجد أنهما قد حفرا سرداباً متوجِّهاً إلى القبر بقصد نبشه، والقصة بتفاصيلها مشهورة في بعض كتب تواريخ المدينة، وهي قصة لا تصح، ولم يذكرها أحد من الذين أرَّخوا لحياة نور الدين زنكي[١].

وكذا قصة الذين أتوا بتواطؤ مع أمير المدينة لنبش قبر أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وإخراجهما، فدخلوا ليلاً فخُسِفَ بهم عند المنبر[٢].

وكذا قصة الحاكم بأمره، حاكم مصر العبيدي، وأنه أرسل من ينبش قبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والصاحبين لنقلهما إلى مصر، وأن أهل المدينة دافعوه، ثم هبَّت ريح شديدة كادت أن تقتلع الناس، فتاب الرجل الذي أتى لهذه المهمة.

---

(١) «وفاء الوفاء» (٢/ ١٨٧)، وممن ناقش هذه القصة وبيَّن كذبها: د. إبراهيم بن محمد المزيني، في بحث بعنوان: «رواية صب الرصاص حول قبر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ»، والأستاذ إبراهيم الزيبق في مجلة «مجمع اللغة العربية» بدمشق (٤/ ٨٩).

(٢) «وفاء الوفاء» (٢/ ١٨٩).

ويلاحظ أن هذه القصص تنتهي بخوارق تشبه أحاديث القصاص ومروجي الغرائب!

رابعاً: خبر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في فتح الكُوَّة فوق القبر، وأن أهل المدينة لما أصابهم القحط أتوا إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأمرتهم أن يفتحوا كوة على سقف القبر النبوي، فكشفوا كوَّةً فوق القبر، فأُمطروا حتى عمَّ المطر وأنبتت الأرض وأعشبت، وسمنت الإبل حتى تفتَّقت من السِّمَن فسُمي: «**عام الفتق**»[1]، وهي قصة لا تصح، كما بيَّن ذلك ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره[2].

وإنك لتعجب من سياقة هذه القصة، فهل كان السقف حجاباً يُرفع بكشفه الدعاء، وهل يحجب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سقف البيت الرقيق، ولا يحجبه القبر العميق؟!

ثم إن القحط قد أصاب أهل المدينة عام الرمادة زمن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلم يكشفوا السقف، ولم يفتحوا فيه كوة، وإنما فعلوا ما كانوا يفعلونه في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فخرجوا إلى المصلى واستغاثوا بربهم، وقدموا العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عمّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يدعو لهم.

خامساً: حكاية العُتْبِي ذكرها ابن عساكر في تاريخه وابن الجوزي في «**مثير العزم الساكن**»، وغيرهما؛ بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي، قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فزرته وجلست بحذائه، فجاء أعرابي فزاره، ثم قال: يا خير الرسل، إن الله أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، وإني جئتك مستغفراً ربك من ذنوبي، مستشفعاً فيها بك.

---

(١) «سنن الدارمي» (٩٣)، و«غريب الحديث» للحربي (٣/ ٩٤٦)، و«الوفاء بأحوال المصطفى» لابن الجوزي.

(٢) «الاستغاثة في الرد على البكري» (ص:٢٦٥).

ثم بكى وأنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه	**فطاب من طيبهن القاع والأكم**
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه	**فيه العفاف وفيه الجود والكرم**

ثم استغفر وانصرف، فرقدت فرأيت النبي ﷺ في نومي وهو يقول: الحق الرجل، وبشره أن الله قد غفر له بشفاعتي، فاستيقظت فخرجت أطلبه.. إلى آخر الحكاية[1]، وهي حكاية لا تصح، وهي مع ضعف إسنادها منكرة في متنها.

فلماذا يأتي النبي ﷺ إلى شخص نائم فيوقظه ويرسله إلى هذا المستغفر؟ أليس هذا المستغفر هو الأرجى لرؤية النبي ﷺ؟!

ثم كيف فقه هذا الأعرابي من الآية معنى لم يفقهه الصحابة، ولا التابعون، ولا علماء الأمة، كسعيد بن المسيب، والزهري، ومالك، وابن أبي ذئب وغيرهم، ولم ينقل عن أحد منهم أنه فعل ذلك أو استحبه؟!

سادساً: الحكايات التي يرويها بعض المنتسبين إلى السادة الصوفية عن بعض الأولياء أنهم أتوا إلى النبي ﷺ فسلَّموا على قبره، ثم سألوه المصافحة، فخرجت اليد الكريمة من القبر الشريف فصافحوها!

وهذه من الحكايات الباطلة والتي تروج في سوق الوضَّاعين والطُّرُقيَّة، فإن اليد الشريفة لم تخرج للبضعة النبوية؛ فاطمة عَلَيْهَا السَّلَامُ، ولا لعائشة حبيبة رسول الله ﷺ، ولا لأبي بكر صاحبه في الغار، ولا لعلي بن أبي طالب ابن عمه وصهره، ولا لغيرهم من فضلاء الصحابة، ولا لمن بعدهم من سادة علماء الأمة، فكيف تخرج من بعدهم إلى هؤلاء الذين ادُّعي خروجها لهم؟!

(١) «معجم ابن عساكر» (٧٣٨)، و«مثير العزم الساكن» (٤٧٧)، و«مختصر تاريخ دمشق» (٢/ ٤٠٨).

وتوجد مقاطع مرئية على الإنترنت لبعض القصاص فيها أخبار عجيبة وحكايات ركيكة تروى على أنها كرامات لأولياء زاروا القبر الشريف فسمعوا خطاب النبي ﷺ من القبر أو وجدوا النبي ﷺ قد خرج من قبره لزيارة ولي في بلد بعيد عنه، وهي حكايات غرائبية منكرة، ورأيت الإعراض عن حكايتها لنكارتها وشناعتها.

سابعاً: الرؤيا المشهورة؛ رؤيا «**الشيخ أحمد**» حامل مفاتيح الحجرة النبوية، والتي كانت تُنشر بصيغة مشهورة تتكرر كل سنة تقريباً، وإن كنت أُلاحظ أنها قد انقطعت منذ سنين، ولكنها كانت تنتشر من قبلُ وتشتهر وتُوزَّع، فكتب الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ردّاً عليها، ومن العجيب أن تنتشر هذه الخرافة مع أنه لا يوجد للحجرة النبوية باب ولا قفل ولا مفاتيح، فالحجرة النبوية جدار مصمت، ولا يوجد شخص اسمه «**الشيخ أحمد**»، ولا يوجد شخص له وظيفة اسمها «**حامل مفاتيح الحجرة النبوية**».

ولكن الناس يسارعون إلى الغرائب ويُفتَنون بها.

المقصورة من الداخل وتظهر الكسوة على الجدار المخمس

ثامناً: ما يروى أن في حجرة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا موضع قبر سيدفن فيه عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد نزوله إلى الأرض آخر الزمان، وورد في ذلك روايات؛ منها عن عبد الله ابن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَاةِ صِفَةُ مُحَمَّدٍ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ يُدْفَنُ مَعَهُ[١]، وهذا خبر ضعيف الإسناد منكر المتن.

أما إسناده: فقد قال البخاري بعد إخراجه في التاريخ الكبير: هذا لا يصح عندي ولا يتابع عليه[٢]. وفَصَّل الشيخ الألباني تضعيفه في «**السلسلة الضعيفة**»، وقال: موقوف ضعيف[٣].

أما نكارة متنه: فإن هذا الخبر لو كان في التوراة لكان حجة على اليهود في عدم إيمانهم بعيسى وبمحمد عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقد أسلم من اليهود جماعات، فما ذكروا هذا الخبر، ولا استدل أحد به منهم على اليهود.

ولو كان موجوداً لرد عليهم النصارى به، فهم جميعاً يشتركون في الإيمان بالتوراة.

كما أن الحجرة النبوية فيها موضع لأكثر من قبر وهو المكان الذي كانت تعيش فيه عائشة، وهو نحو ثلثي البيت، وكان يمكن أن تدفن في الحجرة ولكنها اختارت أن تدفن في البقيع مع بقية أمهات المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ.

ووردت روايات واهنة أخرى يدل اشتراكها في الضعف على اختلاقها، وأنها آثار واهية مأخوذة عن غير الكتاب والسنة.

ولكن أخرج الحاكم عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**لَيَهْبِطَنَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً، وَإِمَاماً مُقْسِطاً، وَلَيَسْلُكَنَّ فَجّاً حَاجّاً أَوْ مُعْتَمِراً أَوْ بِنِيَّتِهِمَا، وَلَيَأْتِيَنَّ**

---

(١) «جامع الترمذي» (٣٦١٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٢) «التاريخ الكبير» (١/ ٢٦٣).

(٣) «السلسلة الضعيفة» (٦٩٦٢).



قَبْرِي حَتَّى يُسَلِّمَ وَلَأَرُدَّنَ عَلَيْهِ»، يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَيْ بَنِي أَخِي إِنْ رَأَيْتُمُوهُ فَقُولُوا: أَبُو هُرَيْرَةَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ[(١)].

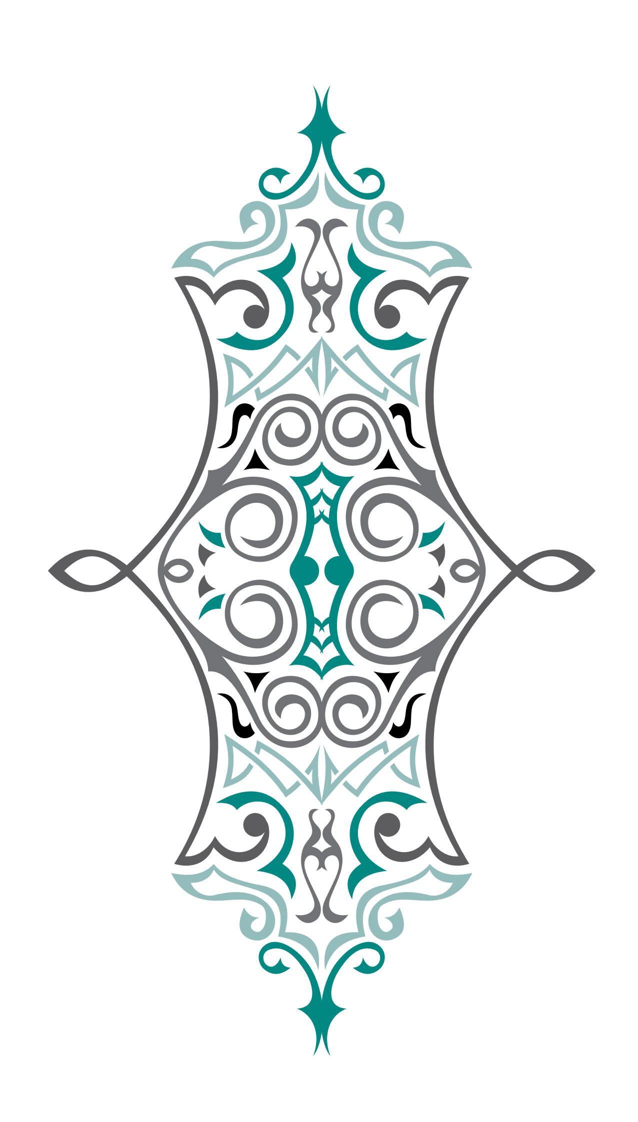
تاسعاً: ما كان يفعله بعض المحتالين والدجاجلة قديماً؛ من إحضار تراب يزعمون أنه تراب القبر النبوي، وبيعه للجهلة، والذين ربما أكلوا هذا التراب تحرّياً للبركة أو طلباً للشفاء.

وقد كان هذا يحدث قديماً بسبب قلّة قصد الحج والزيارة لعامة الناس في البلاد البعيدة، كالهند والمغرب ونحوها، وعدم وجود صور وقنوات تنقل حقيقة الحال في المسجد النبوي، ولذا تتشكل في أذهان الجهال صورة غامضة يستغلها هؤلاء المحتالون، فيضعون قوالب صغيرة من الطين، ويبيعونها على أنها مأخوذة من قبر النبي ﷺ[(٢)].



(١) «مستدرك الحاكم» (٤١٦٢). قال الحاكم: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ بِهَذِهِ السِّيَاقَةِ، وأقره الذهبي. وأصل الحديث في «صحيح مسلم» (١٢٥٢)، وضعف الألباني الزيادة في آخره. ينظر: «سلسلة الضعيفة» (٣/ ٦٤٧).

(٢) «عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم» إدوارد وليم لاين، ترجمة سيهر وسوم (ص٢٦٢).





آداب زيارة القبر النبوي



سقى اللَّهُ قَبراً بِالمَدينَةِ غَيثَهُ فَقَد حَلَّ فيهِ الأَمنُ بِالبَرَكاتِ
نَبيِّ الهدَى صَلَّى عَليهِ مليكُهُ وَبَلَّغَ عنَّا روحَه التُّحفَاتِ
وصلى عليه اللهُ ماذَرَّ شارقٌ ولاحَتْ نُجُومُ اللَّيْلِ مُبتَدراتِ

كما كان لنبينا ﷺ في حياته مهابة وجلال، ومحيا صدق، وبشير حب، فمن رآه بداهة هابه، ومن عرفه أحبه، ومن نظر إلى وجهه عرف أن وجهه ليس بوجه كذاب.

وكان لأصحابه آداب كريمة هي من أَدبِ الله لهم، فأحسنوا التأدب بها، ورعوها حق رعايتها، ومما أدبهم الله به في حضرته: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، و﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

ولذا فإن زائر قبره ﷺ عليه أن يتحلى بهذه الآداب، ويراعيها ويرعاها، ويستحضر أن للأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ حياة برزخية لا يشابههم فيها غيرهم من الخلق، كما قال ﷺ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمْ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْه السَّلام**»[1].

وأخبر أنه لما أُسري به مرَّ على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو قائم في قبره يصلي[2]، وهذه حال خاصة بالأنبياء، بخلاف غيرهم الذين تنقطع أعمالهم بموتهم.

---

(١) «مسند أحمد» (١٠٨١٥)، و«سنن أبي داود» (٢٠٤١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٣٧٥).



ومن خصائص الأنبياء في حياتهم البرزخية: ما ذكره ﷺ بقوله: «**إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ**»(١).

ولذا فإنّ زائر القبر النبوي المقدس، عليه أن يراعي آداباً كريمة، ويستحضر معاني سامية، حين يقف بين يدي مقامه الشريف، ويتعامل في هذا الموقف كما ينبغي أن يتعامل مع النبي ﷺ لو كان أمامه في حياته المباركة، ومن الآداب التي يراعيها من أكرمه الله بالوصول إليه، والحضرة بين يديه ما يلي:

١- إذا دخل المسجد النبوي قدم رجله اليمنى وقال ما ورد: «**بِسْمِ الله، اللَّهُمّ صَلِّ وسَلِّمْ على رَسُولِ الله، أَعُوذُ بِالله الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيم، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيم، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ**»(٢)، كما يقول ذلك عند دخول كل مسجد.

ثم يصلي تحية المسجد لأمره ﷺ بها في قوله: «**إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْـمسْجِدَ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِس**»(٣).

فإن كانت نافلة صلاها في الروضة الشريفة بين المنبر وسياج الحجرة، فيكون المنبر عن يمينه، والحجرة عن يساره، فإن كانت الروضة مزدحمة صلى في أيّ ناحية من المسجد شاء، وتَجَنَّب المزاحمة التي تفقد المصلي خشوعه، وتفقد الصلاة روحَها، وإن كانت الصلاة فريضة، صلّى في الصف المقدم في أي مكان كان من المسجد.

ثم يتوجه إلى القبر الشريف بعد ذلك.

---

(١) «مسند أحمد» (١٦١٦٢)، و«سنن ابن ماجه» (١٠٨٥، ١٦٣٦)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٦٧٨)، و«صحيح ابن خزيمة» (١٧٣٣، ١٧٣٤)، و«مستدرك الحاكم» (١٠٢٩).

(٢) «سنن أبي داود» (٤٦٥، ٤٦٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٤٤)، و«صحيح مسلم» (٧١٤).



صورة المقصورة من جهة القبلة

قال الإمام مالك: يبدأ بالركوع قبل السلام في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأحبّ مواضع التنفل فيه مصلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ حيث العمود المخلّق[1]، وأما في الفريضة فالتقدم إلى الصفوف الأولى[2].

٢- فإذا توجه إلى المواجهة الشريفة للقبر، فإنه يقف أمام القبر مستقبل القبر مستدبر القبلة، كما هو الشأن في زيارة القبور، فإن المسلِّم على مَن في القبر يقف مستقبل وجهه كالسلام على الحيّ، ووجه الميت مستقبل القبلة، فيكون من يُسلِّم عليه مستقبلاً له مستدبراً للقبلة.

---

(١) العمود المخلق هو العمود الذي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي عليه، وهو اليوم لصق المحراب النبوي.

(٢) «الشفا» (٢/ ٢٠٧)، والمراد بالركوع صلاة تحية المسجد، وقوله: «قبل السلام»، أي قبل السلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قبره.

قال الإمام مالك: إذا سلم على النبي ﷺ يقف ووجهه إلى القبر، لا إلى القبلة، ويدنو ويسلم، ولا يمس القبر بيده[1].

التوقير والتعظيم واستحضار الحب النبوي الذي حمل على المسير إليه، وتذكر عظيم فضل الله به، ومنته على المؤمنين برسالته: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

فهو مِنَّةُ الله العظمى، وفضله العظيم علينا.

٣- وعندما نزور قبره ﷺ نستحضر شوقه إلينا، فهو الذي وقف في البقيع وسلَّم على أصحابه الذين سبقوه، ثم بث أشواقه إلينا على أصحابه الذين معه، فقال ﷺ: «**وَدِدْتُ أَنَّا رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**»، قَالُوا: أَوَ لَسْنَا بِإِخْوَانِكَ يَا رَسُولَ الله؟! قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدَ... وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الحَوْضِ**»[2].

فنبادله ﷺ حُبّاً بحُبّ، وشوقاً بشوق، فما حملنا إلى أعتابه الشريفة إلا لهفة الحب له، واستحضار عظيم حقه، ومنة الله العظمى به.

٤- استحضار الأدب، وأن تقف بين يديه كما تحب أن يراك واقفاً أمامه، بسكينة ووقار، وحُبّ وإجلال، وأن تكون حالك حال المحب المعظم لمحبوبه، المتشوق إليه، العارف لحقه وقدره ﷺ.

٥- أن تتذكر وأنت تقترب منه عظيم فضل الله عليك، يوم أوصلك إليه، وقربك منه ﷺ، وكم في أصقاع الأرض وأنحاء الدنيا من العباد من تذوب قلوبهم شوقاً

(١) «الشفا» (٢/ ١٩٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٤٩).



للوصول إلى هذا المكان، والوقوف في هذه الأعتاب، ولكن حبسهم العذر، ويسر الله لك ما عجزوا عنه، فأوصلك وقد انقطع غيرك، وأدناك وقد نأى غيرك، فيا لها من نعمة أن تنال النفوس مبتغاها وأملها! وتنال من زيارة نبيها وصلها ووطرها!

غضّ الصوت عند عتبات بيته، وتجنب رفع الصوت أو الصخب بين يديه، فقد أَدَّب الله أصحابه فقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾، فكان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لا يخاطب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ إلا مثل أخي السرار[1]،-أي: أنه يخفض صوته كأنه يُسِرّ إليه- ولما سمع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رجلين في المسجد يرفعان أصواتهما، دعا بهما، وقَالَ: مَنْ أَنْتُمَا، أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟، قَالَا: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ، قَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ البَلَدِ لَأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ[2].

٦- الوقوف بين يدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ بما يدل على الحياء منه، والهيبة له، كما كان يفعل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ معه في حياته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ؛ فإنهم لم يكونوا يُؤَبِّدُونَه أبصارهم[3]، وإنما ينظرون إليه بإغضاء، ولذا قال: عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند وفاته: وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالاً لَهُ، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ[4].

٧- وأما ما يقال بين يديه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ فأوله: السلام عليه، فيقول الزائر: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ثم الصلاة والسلام عليه بأفضل الصيغ وأتمها، وهي الصلاة الإبراهيمية، ثم الشهادة له بالبلاغ، فنحن أمته الذين خاطبهم بقوله: «**أَلَا هَلْ**

(١) «صحيح البخاري» (٧٣٠٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٧٠).

(٣) أي: لا يحدون النظر إليه، ويُقَالُ: أَبَدَّ فلانٌ نَظَرَهُ إِذا مدّه وأطال. ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٨٢).

(٤) «صحيح مسلم» (١٢١).

بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**اللهُمَّ اشْهَدْ**»[1]، ونحن نشهد، هذه الشهادة عنده ونقول: نشهد أنك قد بلَّغْت، ونصحت، وأدّيتَ الذي عليك، فجزاك الله عنا خير ما جزى نبيّاً عن أمته، ورسولاً عن رسالته.

وبهذا تكون أديت ما يؤديه الزائر لمن يزوره، فتتحرك عن يمينك خطوة، وتُسلِّم على أبي بكر رَضِّيَٱللَّهُعَنْهُ: السلام عليك يا أبا بكر ورحمة الله وبركاته، رضي الله عنك وأرضاك، وجزاك الله عن أمة محمد ﷺ خير ما جزى عباده الصالحين.

ثم تتحرك عن يمينك خطوة، فتسلم على عمر رَضِّيَٱللَّهُعَنْهُ: السلام عليك يا عمر بن الخطاب ورحمة الله وبركاته، ورضي الله عنك وأرضاك، وجزاك عن أمة محمد ﷺ خير ما جزى عباده الصالحين، ثم تنصرف بسكينة وهدوء ورفق بمن أمامك.

وأما الدعاء العام بمسألتك وحاجاتك، فأنزلها بربك القريب لمن سأله، المجيب لمن دعاه، والقائل جل في علاه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

واعلم أنك أقرب ما تكون إلى الله في صلاتك في أي مكان من المسجد النبوي، وخاصة في الروضة الشريفة، فإن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، وليست حال الزيارة من أوقات الدعاء، ولا القبر من مواطن الدعاء.

وكذلك ذنوبك وهفواتك وخطاياك، ينبغي أن تستتر فيها بستر الله الجميل، ولا تفضح نفسك بها بين يدي نبيك، ولا تتجاهر بها أمامه، وإنما ننزل استغفارنا وتوباتنا بساحة عفو ربنا وحده، فهو القائل: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(١) «صحيح البخاري» (١٧٤١)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).

والقائل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والقائل: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

فلا يجوز لنا طلب العفو والمغفرة إلا منه، ولا التوبة إلا إليه وحده، فهو الغفور الغفار، العفو التواب، جل وعز وتقدس.

٨- عدم إطالة الوقوف؛ فإنّ خلفَك إخوةً لك في قلوبهم شوق مثل شوقك، وحبٌّ مثل حبِّك، فلا تستأثر عليهم بإطالة الوقوف بعد أداء ما ينبغي من السلام والصلاة، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يقفون بين يدي النبي ﷺ من غير إطالة ولا إملال.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ أَتَى الْقَبْرَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَتَاهُ[(١)].

وَفِي رِوَايَةٍ: وَلَا يَمَسُّ الْقَبْرَ[(٢)].

وقال الإمام مالك فيمن وقف عند القبر: لا يلصق به، ولا يمسّه، ولا يقف عنده طويلاً[(٣)].

وقال الإمام أحمد: أهل العلم كانوا لا يمسونه[(٤)].

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٦٧٢٤)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١١٧٩٣)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٠٢٧١).

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي (٣٨٥٤).

(٣) «الشفا» (٢/ ٢٠٦).

(٤) «الإنصاف» للمرداوي (٤/ ٥٣).



٩- عدم تكرار الزيارة في اليوم الواحد مرات، وإنما تكون الزيارة عند القدوم وعند الوداع، وأما تكرار الزيارة فإنه سبب لزحام القاصدين، ويقطع عن أعمال صالحة فاضلة في مكان فاضل، وهو المسجد النبوي والروضة الشريفة التي ينبغي أن يهتبل[(١)] الزائر أجر مضاعفة الصلوات فيها، الوارد في قوله ﷺ: «**صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ**»[(٢)].

وقيل للإمام مالك: إن ناساً من أهل المدينة لم يقدموا من سفر ولا يريدون سفراً، يفعلون ذلك -أي زيارة القبر النبوي- في اليوم مرة أو أكثر، وربما وقفوا في الجمعة -أي الأسبوع- أو في الأيام المرة أو المرتين أو أكثر عند القبر، فيسلمون ويدعون ساعة.

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، وتركه واسع، ولا يُصلح آخرَ هذه الأمة إلا ما أصلحَ أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده[(٣)].

١٠- التأدب في خطاب النبي ﷺ، ومن مراعاة الأدب في خطابه، عدم تخطي أمره بالغلو في وصفه بما لا يصح إلا في وصف الله عَزَّوَجَلَّ، مثل يا مغيث اللهفات، وغافر الزلات، ونحوها مما يكرهه وينهى عنه، فقد قال بأبي هو وأمي: «**لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ الله، وَرَسُولُهُ**»[(٤)].

ولما قال له رجل: ما شاء الله وشئتَ! قال ﷺ: «**أَجَعَلْتَنِي لله عَدْلاً؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[(٥)].

---

(١) يهتبل: يتحيّن ويغتنم. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٣٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٩٠)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٤).

(٣) «الشفا» (٢/ ٢٠٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٤٤٥).

(٥) «مسند أحمد» (٢٥٦١، ٣٢٤٧)، و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٧٥٩).

الحذر من مراغمة النبي ﷺ بارتكاب ما جاء بالنهي عنه، والتحذير منه، وهو صرف شيء من عبادة الله إلى غير الله، وقد كانت رسالته ﷺ ورسالة الأنبياء قبله إلى أممهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، فالدعاء عبادة لله، فلا نتوجه بالدعاء إلا إلى الله ربنا الذي قال لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فانظر كيف أمرنا بدعائه، ووعدنا بإجابته، وكيف سمى الدعاء عبادة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾.

وإن من المراغمة له ﷺ أن يفعل بين يديه ما أتى بالنهي عنه، والتحذير منه، كصرف شيء من العبادة لغير الله، ولو كان ذلك لأفضل رسله، أو أكرم ملائكته.

١١- ربما رأيت حول القبر النبوي بعض المخالفات التي تغلب فيها العاطفة مع قلة العلم، فاحذر من مخاتلة الشيطان لك أن ينفخ فيك العُجْبَ وازدراء الآخرين واستشعار الفضل عليهم، فقد يكون هذا الإدلال سبباً للخذلان، وأن يوكل الإنسان إلى نفسه وعلمه، ولكن على العارف أن يستشعر منة الله عليه بالهداية للتي هي أقوم، وينظر بعين الرأفة والرحمة إلى إخوانه الذين لم يزعجهم من ديارهم ويوقفهم في مقامهم إلا شدة حبهم لنبيهم، وهم إن أخطأوا في بعض التصرفات إلا أنهم محل المحبة والرحمة، فهم الوافدون إلى رسول الله ﷺ وقد قال ﷺ: «**أَجِيزُوا الوَفْدَ بِنَحْوِ ما كُنْتُ أُجِيزُهُمْ**»[1].

فيعاملون بحب، ويعلَّمون برفق، وتراعى فيهم وصاة رسول الله ﷺ وحق الأخوة والإسلام، وما أرق كلام الإمام الرباني الحافظ الذهبي حين قال: من زاره صلوات الله عليه وأساء أدب الزيارة، أو سجد للقبر، أو فعل ما لا يشرع، فهذا فعل حسناً وسيئاً، فيعلَّم برفق، والله غفور رحيم.

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٥٣).



فوالله ما يحصل الانزعاج لمسلم، والصياح وتقبيل الجدران، وكثرة البكاء، إلا وهو محب لله ولرسوله، فحبه المعيار والفارق بين أهل الجنة وأهل النار[1].

وما تراه ممنوعا في نظرك قد يكون مجازاً وموسعاً فيه عند غيرك، قال عبد الله ابن الإمام أحمد: سألت أبي عن الرجل يمس منبر النبي ﷺ ويتبرك بمسه، ويقبله ويفعل بالقبر مثل ذلك أو نحو هذا يريد بذلك التقرب إلى الله جل وعز؟ فقال: لا بأس بذلك[2].

١٢- أن في زيارة القبر النبوي استثارة لأفضل المشاعر وأجملها وأزكاها، وهي مشاعر الحب لرسول الله ﷺ، وهي من أعظم ما نتوسل به إلى ربنا؛ لمرافقة نبينا ﷺ في الجنة، كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَتَى قِيَامُ السَّاعَةِ؟ وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: «**أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟**» قَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**» قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَبِيرِ عَمَلٍ صَلَاةٍ، وَلَا صِيَامٍ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الْـمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»، قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَا رَأَيْتُ الْمُسْلِمِينَ فَرِحُوا بَعْدَ الْإِسْلَامِ بِشَيْءٍ مَا فَرِحُوا بِهِ[3].

وكم عشتُ بهجةَ هؤلاء القاصدين من فجاج الأرض، وتلذذت بمرآهم وأنا أرى نشوة اللقاء، وهيبة الموقف، وانفجار الحب الزاخر في القلوب لاستشعار القرب منه ﷺ.

ولا أزال أذكر ذاك الشيخ المهيب المحبّ من بلاد المغرب، الذي دخل المسجد النبوي من جهة التوسعة دهشاً حائراً، فلقيني وكان ذلك من توفيق الله لي أن كنت

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤٨٤).

(٢) «العلل ومعرفة الرجال» لعبد الله بن الإمام أحمد (٣٢٤٣).

(٣) «مسند أحمد» (١٢٠١٣)، و«صحيح البخاري» (٣٦٨٨).

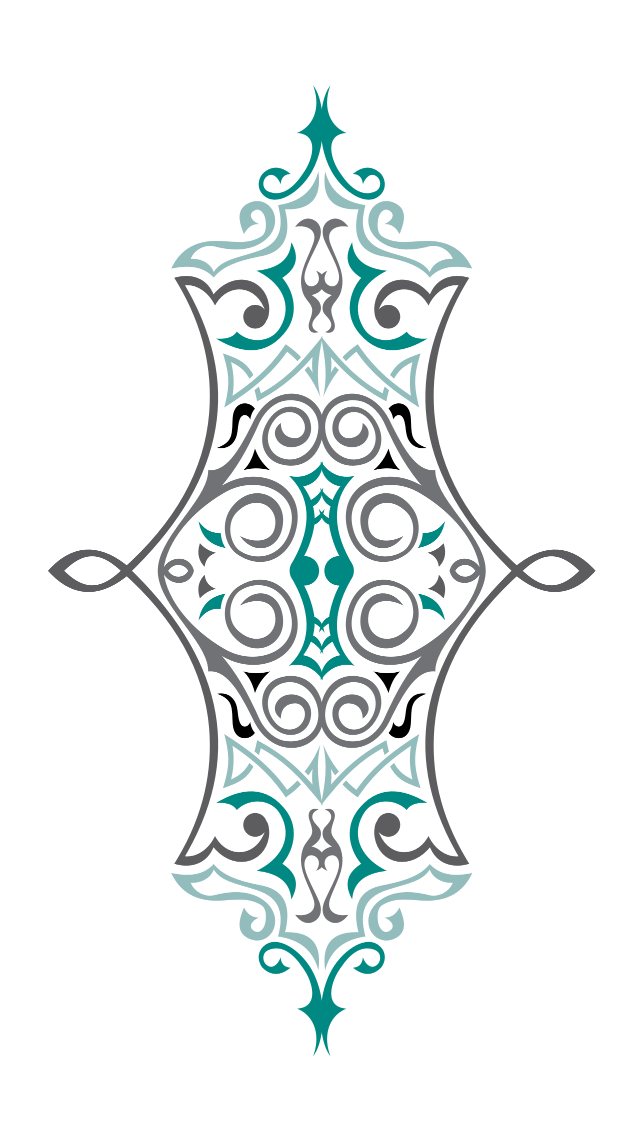
وجاهه، فاتجه إلي وهو يسأل كيف يصل إلى قبر النبي ﷺ وكان دخوله المسجد من جهة التوسعة الواسعة، قد جعله لا يدري في أيّ ناحية هو، ولا كيف يصل إليه، فأتذكر لهفته وهيبته ومحبته، وهو يعبر عن أشواقه بقرب الوصول إلى أمنية طالما تمناها، وبقعة طالما اشتاق إليها، فقال بلغة لا صنعة ولا تَصنُّع فيها: أموت أنا بس أوقف بهاديك البلاصة!![1].

وكان مشهد الحب والدهشة والهيبة، مشهداً مؤثِّراً في وجداني، ووجدت أن أفضل ما أفعله أن أكون خادماً لضيف رسول الله ﷺ، فتركت شأني وذهبت معه، وأنا أرتوي من مشهد الحبّ واللهف لزيارة رسول الله ﷺ، وسرتُ به حتى وقفت وإياه عند القبر المقدس، وكأنما استوت سفينة حبِّه على جُودِيها، وبلغت أشواقه مَحِلّها، وتخيلتُ النبي الرؤوف الرحيم بأمته ﷺ وكيف ستكون حفاوته بمن هذا حبه؟! وكيف سيكون تلقيه لمن هذا إقباله؟!

فيا لسعادة قلوبٍ يعمرها حبُّ الله ورسوله ﷺ، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليها مما سواهما.



(١) بلهجته المغربية: أريد أن أقف في تلك البقعة ولو مِتُّ بعد ذلك!





سقيفة بني ساعدة





صورة حديثة لموقع سقيفة بني ساعدة غربي المسجد النبوي

السقيفة عريش يستظل به، وسقيفة بني ساعدة ظلة كانت لهم يجتمعون فيها، وقد أتى إليهم النبيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في سَقيفتهم هذه، وجلس إليهم، وسَقوه شراباً في قَدح، ثم احتفظوا بهذا القَدح وظلُّوا يتوارثونه، حتى استوهبه منهم عُمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وشمال هذه السقيفة يقع منزل سَعد بن عُبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، السيد والزعيم والقائد السري الثري الذي سَخَّر مواهبه السيادية والقيادية، وثراءه ومكانته؛ للحفاوة برسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ونُصرته.

فكأنَّما كان النبيُّ ﷺ وهو في المدينة في ضيافة سَعد بن عُبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان النبيُّ ﷺ يُحبُّ سَعداً ويُقدِّره، ولما بلغه ﷺ أن سَعداً قد مَرض أتى إليه يزوره ومعه عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

فلما وصلوا منزله في دِيار بني سَاعدة دخل النبيُّ ﷺ عليه، وإذا هو في غَاشيةٍ من أهله[1]، فلمَّا دخل ﷺ تفرَّقوا عنه، وإذا سعدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد أُغمي عليه، فقال النبيُّ ﷺ بلهفة المُحبِّ: «**أَقَدْ قَضَى؟**» -أي: هل مات؟- فقالوا: لا، يا رسول الله! فبكى ﷺ رحمة وحباً لسعدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأجهش كل مَن حول النبيِّ ﷺ بالبكاء لبكائه ﷺ[2].

يا لهذا النبيِّ ﷺ الذي تذرف دموعه رحمةً بأصحابه إن كان واحداً منهم مُغمى عليه من المرض!

كلَّما قرأت هذا الحديث لا أمتلك مشاعر قلبي، وأنا أتخيَّل سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد أفاق من إغماءته، فأُخبر أنّ النبيَّ ﷺ زاره، وأنه ﷺ بكى لحاله يوم رآه مُغمىً عليه، ما شعور سعد إذا علم أن النبيَّ ﷺ أجهش بالبكاء؛ لأنه رآه في تلك الحال؟!

وما شعور أبناء سعد وهم يرون النبيَّ ﷺ يبكي شفقة ورحمة على أبيهم؟!

وما شعور بني سَاعدة، وهم يَـرون هذه المشاعر الدَّافِقة من النبيِّ ﷺ على سَيِّدهم؟!

---

(١) يعني: أنَّ أهله يُطيفون به.

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٤).

إن النبيَّ ﷺ بحبِّه الصادق ومشاعره المُعلَنة، كان يفتح مَغاليق القُلوب، ويعيد تأهيل المشاعر وتفعيلها بعد جفاء الجاهلية وقسوتها.

لقد كان هذا المكان شاهداً على هذه الرحمة النبوية، حيث ذَرفَت دُموع النبي ﷺ على خَدِّه رَحمةً بأحد أصحابه حينما أغمي عليه من شدة المرض.

أمَّا بقية الخبر في هذا المكان، فهو في يوم ذُهول العقول بوفاة الرسول ﷺ، يوم كان الصحابة يُعالِجون فَجيعة قُلوبهم وثُكل نُفوسهم بفقده ﷺ، وبدنه الطاهر مسجي في بيته، ورُوحه قد لَحِقت بالرفيق الأعلى، والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في حال يُتم وفَجيعة في هذا اليوم.

وكان الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أشد الصحابة حُزناً ولوعة بفقد حبيبه وصاحِبِه رسول الله ﷺ، ثم يرى الأمّة المكلومة بفقد رسولها ﷺ تُوشك اليوم أن تُصاب بمُصيبة أخرى، وهي مُصيبة الشقاق والاختلاف والتَّمزق، فإن النبي ﷺ توفي قبيل صلاة الظهر، وفيما بين الظهر والعصر كان استيقان الخبر واستيعابه، وبعد العصر اجتمع الأنصار في هذه السقيفة إلى سيدهم سَعد بن عُبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وكان حينها مريضاً مزملاً، ورهطه يتشاورون عنده في اختيار أميرٍ للمدينة من الأنصار، والذي سيكون أميراً للمسلمين كلهم في الجزيرة العربية، وهذا ما لن تقبله العرب!!

يا لهذه الأمة المُحمَّدية وهي اليوم في حال الفَجيعة والثُّكل، ثم تُقبِل عليها نُذر الانشقاق والاختلاف! مَن يتدارك الموقف ومن ينقذ الأمة؟!

مَن لهذا الموقف العصيب غير الكهل المُبارك الصديق أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؟!

فكأنك ترى أبا بكر وعُمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يَؤُمَّان السقيفة لاستنقاذ الأُمَّة.



وفي الطريق كان عُمر يهيئ في نفسه كلاماً مؤثراً يتكلم به، فالموقف عصيبٌ والأمر خطير، لأن الأمَّة التي جمعها رسول الله ﷺ، ولَمَّ شَعثها، وألَّف جَمعها؛ يُوشك أن تُصبح أوزاعاً، وأن تصبح أرضها بِقاعاً وأنْ تتفرق الأمة قبائل.

إنَّ الأمر لفي غاية الخُطورة!

ويدخل أبو بكر وعُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فيسمع عمر كلام الأنصار، وهُم يقولون: مِنا أمير ومنكم أمير، فيتهيَّأ للكلام، فيُسكِّته أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول له: اسكت يا عُمر.

ويبدأ أبو بكر بالكلام فيفتح الله عليه جَوامع القول! ومُؤثِّرات الكلام، فبدأ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالثناء على الأنصار، وذكر مَقامهم في الإسلام، وقال: والله ما مثلنا ومثلكم إلا كما قال الغنوي:

جَزَى اللهُ عَنَّا جَعْفَراً حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي الْوَاطِئِينَ فَزَلَّتِ

أَبَــوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَــوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي الَّــذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتِ

هُم خَلَطُونَا بِالنُّفُوسِ وَأَلْـجَـأُوا ... إِلَى حُجُرَاتٍ أَدْفَـأَتْ وَأَظَلَّتِ[1]

ثم قال: لَنْ يُعْرَفَ هَذَا الأَمْرُ إِلَّا لِهَذَا الحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ، هُمْ أَوْسَطُ العَرَبِ نَسَباً وَدَاراً. ولا يُمكن أن يختلف الناس عليهم، أما لو أُعطي للأنصار، فإن القبائل ستنافسهم، وسيتفرَّق شَمل الأُمة وتختلف كلمتها وتتعدد رَاياتُها.

ثم قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وإني أرى أن تُبايعوا عُمر، ثم قال لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ابسط يدك لنبايعك، يقول عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد قال أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلاماً أتى فيه على كلِّ ما قُلت في نفسي، وزاد عليه أحسن منه، وما قال كلمةً كَرهتُها إلا عندما قال: وهذا عُمر فبايعوه، فو الله لأن أُقدَّم فتُضرب عُنقي، أحبَّ إليَّ من أن أكون أميراً على قوم فيهم أبو بكر.

---

(١) «تاريخ المدينة» لابن شبة (٢/ ٤٨٩).





ثم قام عُمر فقال: بل أنت يا أبا بكر ابسط يدك لنبايعك، فبسط أبو بكر يده، فبايعه عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم قال للمهاجرين والأنصار: وأنتم بايعوه، فتواثبوا إلى أبي بكر[1].

وهل يَمينٌ تبايَع بعد رسول الله ﷺ إلا يَمين الصِّديق؟! الصَّاحب في الغَار! الذي قَدَّمهُ رسول الله ﷺ ليقوم مَقامه ويُصلِّي في مِحرابه، وهو يقول: يَأْبَى اللهُ وَالمُسْلِمُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ[2].

بُسطت الأيدي لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتمَّت البيعة، واجتمع الشَّمل، وتوحدت الأُمَّة، وخرج أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من هذه السقيفة خليفة لرسول الله ﷺ، وإماماً للمسلمين، فسَار بالأُمَّة حَذو مَسير رسول الله ﷺ خُطوةً خُطوة ما زلَّ ولا ضلَّ، ولا خَان ولا مَان، رضي الله عن أبي بكر وأرضاه.

وكانت هذه السقيفة بساط هذا الحدث شهدت استنقاذ الأُمَّة وتدارك الفَراغ الدستوري، وأعظم قرارٍ اتخذه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعد وفاة رسول الله ﷺ[3].



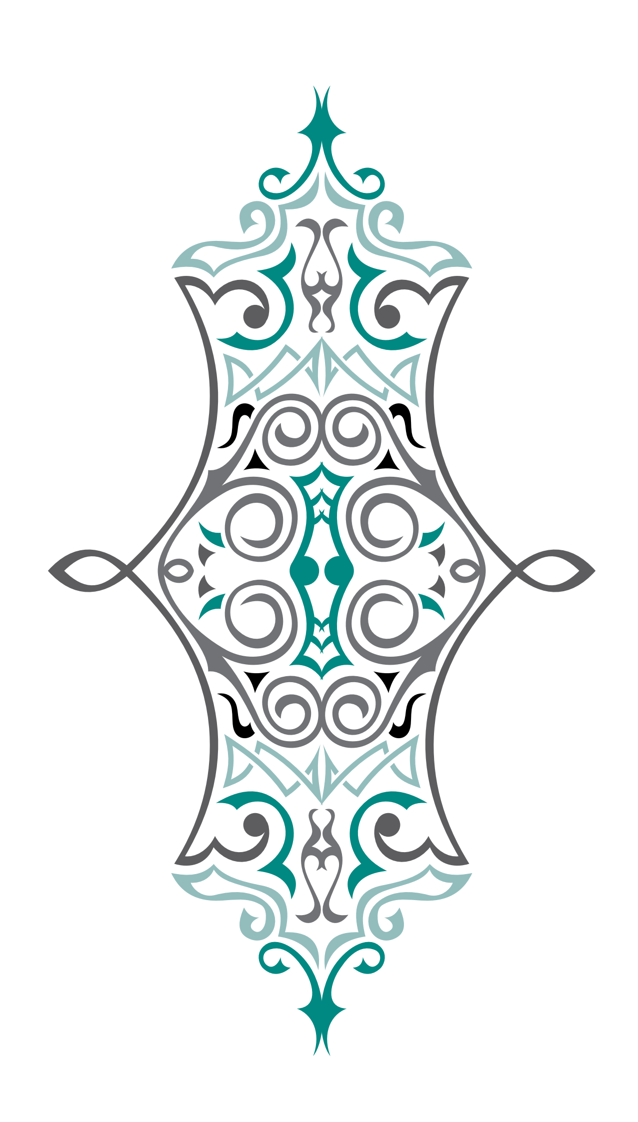
موقع سقيفة بني ساعدة

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٨٣٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٦٦٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٧).

(٣) ينظر في ذلك: «وفاء الوفاء» (٣/ ٥٩)، و«تاريخ معالم المدينة» (١٤٧)، و«المدينة بين الماضي والحاضر» (٩١)، و«آثار المدينة» (١٥٥)، و«فصول من تاريخ المدينة» (١٩٥).



سقيفة بني ساعدة واللطف الخفي



وكان اجتماع الأنصار يوم وفاة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في سقيفة بني ساعدة مما اكتنفته ألطاف الله، كأنما يساق الأمر لخيرة الله لأمة نبيه محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

أولاً: نلاحظ أن هذا الاجتماع تم وسعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مريض مزمّل، قد شُغل بنفسه، ولو كان سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عافيته وقوته لنازع الأمر ولتبعته فئام من الأنصار، وحصل خلاف ونزاع لا تحمد مغبته، فإن لسعد رأياً يخالِفُ فيه، وربما كان رأيه أن تعود السيادة في المدينة للأنصار كما كانت قبل هجرة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إليها، وما أبلت سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من مرضه إلا وقد التئم الأمر وتوجه، واستحكمت كلمة المسلمين ورأيهم بمن فيهم قومه الأنصار، ولذا فإنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يبايع ولكنه لم يشاقق!!



صورة لمدخل بستان سقيفة بني ساعدة

ثانياً: كان من لطف الله مبادرة أبي بكر وعمر وأبي عبيدة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ إلى الأنصار قبل أن يتفقوا على رأيٍ، ولو اتفق الأنصار على أن تكون الزعامة فيهم؛ لكان ذلك مؤذناً بتفتُّت دولة الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ؛ فإن قبائل العرب لن تسلم السيادة للأنصار؛ إذ يرونهم قبيلة كسائر القبائل، وما يؤدونه لقريش لن يؤدوه للخزرج، ولو تم ذلك لرجعت الجزيرة من دولة موحدة السيادة كما كانت في عهد النبي ﷺ، إلى دول قبائلية كما كانت في الجاهلية، ولكن الله سلم بالاتفاق على رجل من قريش اتفقت عليه الكلمة ورضيه المسلمون.

ثالثاً: من لطف الله في تدبيره أن تتم البيعة لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أول ما تتم في دور الأنصار، وفي سقيفة بني ساعدة، وباجتماع الأنصار كافة!

وبيعة الأنصار لرجل من المهاجرين لها دلالتها في التزكية، فإن الأنصار طرف محايد بين المهاجرين، ولو قدر لهم انسياق إلى ميل قبلي، كان ميلهم إلى علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فهم أخوال عبد المطلب وبنيه من بني هاشم، وصلتهم بهم أقرب، فإذا بايعوا أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فهم غير متهمين بتحيز عشائري، بخلاف ما لو تمت البيعة في بعض دور المهاجرين، فربما صار ثمة مقال لقائل يتأول ما جرى، ويتكلف تفسيره على وجه من التكلف مهما بعد!

أما أن تتم البيعة لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أو لما تمت في سقيفة الأنصار وناديهم ومجتمعهم وكثرتهم؛ فإن ذلك يقطع أي احتمال للنزوع بالولاية عن غير من هي له، فإن الأنصار في ناديهم هم الطرف القوي الذي لا يستضعف، والمحايد الذي لا يتهم، ولم يكن معهم من المهاجرين إلا نفر قليل، ومع ذلك تمت البيعة منهم بقناعة ورضا وحسن نظر!

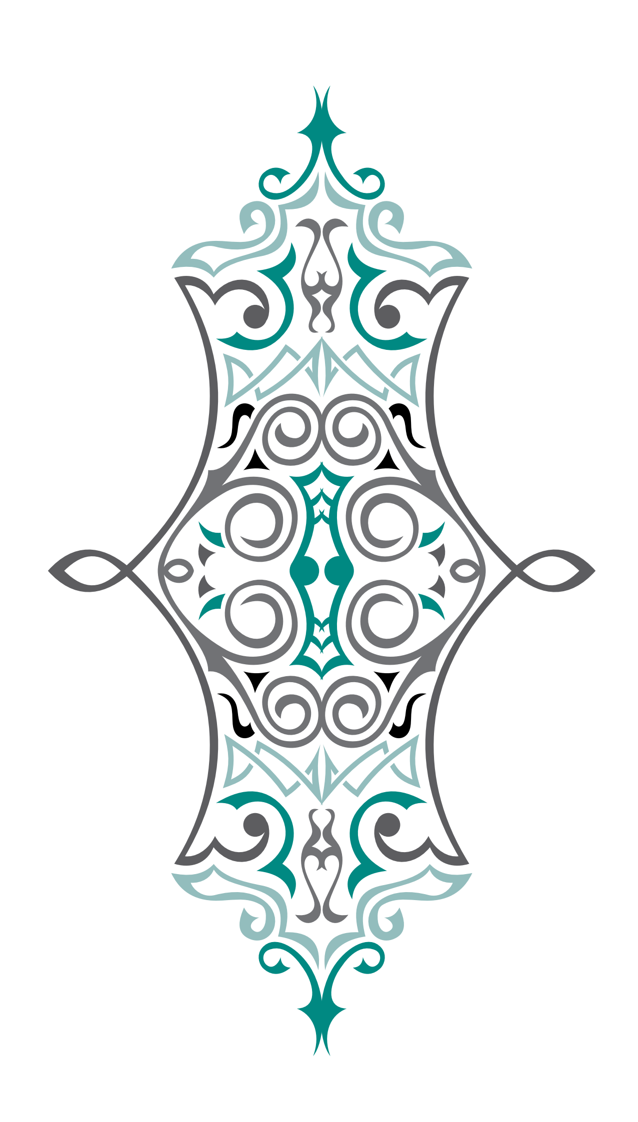
رابعاً: كان من لطف الله أن تتم هذه البيعة، وقد غاب عن الحياة سيد الخزرج عبد الله بن أبي ابن سلول، والذي عاش حياته شرقاً بالرسالة كائداً للرسول ﷺ جهده، فكيف لو كان حاضراً تلك الساعة؛ أيّ كيد سيكيد؟! وأي فتنة سيُحدِث؟! ولكن الله عَزَّوَجَلَّ غالبٌ على أمره، ولطفه خفي في تدبيره: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

خامساً: أن هذا الأمر -وهو الخلافة- غاية في الخطورة، والخلاف فيه كثير التشعب والتنازع، وغالباً لا يحسم بمثل هذه الصورة من الهدوء والسرعة، وطي النزاع، فإن هذه الأمور تأخذ عند الخوض فيها أوقاتاً طوالاً؛ لتقريب وجهات النظر، وتأليف الخلاف إلى ائتلاف، وهو ما نراه في المؤتمرات التي تعقد لمثل هذه الأمور، حيث تطول الاجتماعات وتتكرر اللقاءات، وقلما تثمر عن اتفاق نهائي محكم.

أما اجتماع السقيفة فهو مجلس عرضت فيه القضية ونوقشت، ثم حسمت في وقت قياسي، أحسبه سويعة بعد العصر!

وذلك أن كل المجتمعين كانوا صادقين في طلب الحق، ولذا وفقوا لإصابته، وسلمت قلوبهم من الأهواء، فألّف الله بين قلوبهم، وجمعها على أرشد أمرهم وأحكمه فله الحمد.







قراءة للأماكن النبوية



أولاً: اختيار الله المدينة مُهاجَراً لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في عالم الغيب، دليل من دلائل النبوة؛ فإن الأحداث التاريخية تساوقت لتهيئتها مُهاجَراً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فبها تزوج جده هاشم، وبها وُلد جده عبد المطلب، وفيها مات أبوه عبد الله، وإليها ذهبت به أمه وهو في سن الطفولة الباكر، وفي طريق العودة منها تُوفيت.

إن تتابع هذه الأحداث وترابطها في الغيب البعيد، يُرينا أنها أحداث تساوقت بلطف من الله؛ لتهيِّئ المدينة مُهاجَراً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

ثانياً: اختيار الله مكان المسجد النبوي؛ حيث جعل الناقة دليلاً إليه؛ حيث تبرك بعد مسيرها، فبركت الناقة بأمر الله لها، من غير أن يختار لها أحد مكاناً أو يسوقها إليه، فيُبنى ثَمة مسجده صلى الله عليه وآله وسلم؛ لنكتشف بعد ذلك أن هذا المكان هو واسطة العقد بين أطراف المدينة ونواحيها، فهو سرتها ومركزها، وبقاع المدينة وقراها وحواضرها تحيط به وتتناثر حوله.

ثالثاً: تعدد أماكن صلواته صلى الله عليه وآله وسلم في مساجد المدينة؛ فقد توزَّعت أماكن صلواته في نواحي المدينة ومساجدها ودورها وأحيائها، فما من ناحية من نواحيها إلا ولها حظٌّ من صلاته وبركته، وطيب خطواته وعطر أنفاسه، وهذا يكشف لنا العلاقة التي

كان ينسجها ﷺ بين أحياء المدينة وعشائرها وساكنيها، فلكلٍّ منهم حظٌّ من وصول النبي ﷺ وتواصله.

رابعاً: رعاية أهل المدينة جيلاً إثر جيل للأماكن النبوية وحفظها؛ ومن ذلك اتخاذهم العَلم عند المصلَّى الذي كان يصلي فيه النبي ﷺ العيدين؛ لحفظ المكان ومعرفة حدوده بالدور حوله، فيقال: المصلَّى الذي كان عند دار كَثِير بن الصّلْتِ.

وحفاظهم على الآبار بحيث بقي كثيرٌ منها إلى يومنا هذا، وبناء المساجد على أماكن صلواته في عهد عمر بن عبد العزيز؛ فبنى المساجد حيث صلى رسول الله ﷺ بالحجارة المطابقة.

خامساً: هذه الآثار وثائق تاريخية تحتفظ بها الأمة جيلاً إثر جيل، فنحن الأمة الوحيدة -من بين الأمم- التي يمكن أن تتحدَّث عن نبيها بالوثائق التاريخية والأماكن الآثارية؛ فتقول: هنا كان رسول الله ﷺ، ومن هنا أتى، ومن هناك خرج، وجاء من هذا الطريق، ورجع من ذاك الطريق، وكأنما ودَّعناه بالأمس القريب ﷺ.

وأبقى الله للأمة معالم حياته؛ لأن رسالته هي الرسالة الباقية، ونبوته وشريعته هي الشريعة الخالدة، فأبقى الله من معالمها ما يحفظها ويدلُّ عليها.

سادساً: المدينة النبوية منذ سكنها النبي ﷺ وإلى اليوم وإلى آخر الزمان عامرة بأهلها لم تنقطع عمارتها وسكناها، ولذا فإن أجيال أهل المدينة المتتابعة يتوارثون الشهادة على الأماكن النبوية بها، فليست آثار المدينة دوارس اكتُشفت، ولكنها معالم ومآثر بقيت، والناس حولها يعرفونها ويعمرونها، ويتوارثون العلم بها والخبر عنها، وهذا لا يمكن ادِّعاؤه في أيِّ أثرٍ من آثار الأنبياء غير نبينا ﷺ.

ما أكثر الأحاديث في فضل المدينة وفضائلها، ودعاء النبي ﷺ لها ولمن سكنها! وكان أعرف الناس بهذه الفضائل، وهذا الفضل هم صحابة رسول الله ﷺ الذين

عاشوا فيها معه ﷺ، وعايشوه، ووعوا عنه هذه الفضائل، وحضرت في عقولهم وقلوبهم ذكريات غالية ثمينة من صحبة رسول الله ﷺ والجهاد معه، واندماج حياته في حيواتهم، فهو تاريخهم وذكرياتهم وحبهم.

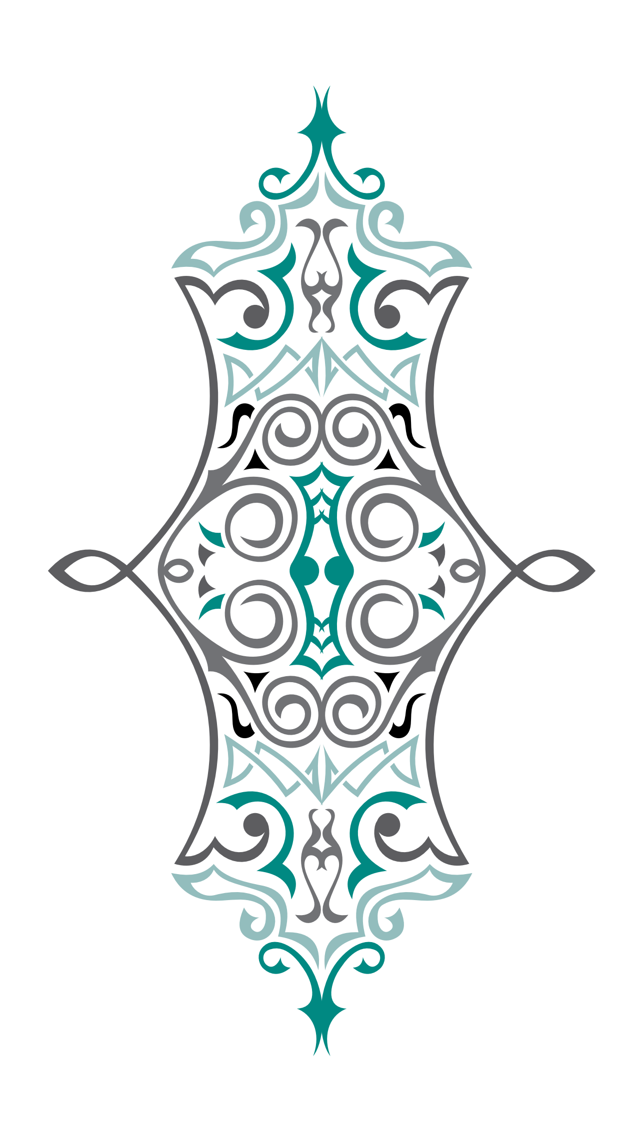
فلما توفي رسول الله ﷺ واتسعت مساحة العالم الإسلامي، وكثر المسلمون خرج أكثر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من المدينة أزهى ما تكون في عيونهم، وأحبّ ما تكون إلى قلوبهم وانساحوا في الأرض مجاهدين ومعلِّمين وتناثرت قبورهم بين قارات العالم الثلاث، ولو رُسِمَتْ خريطة لقبورهم، لعجبنا كيف تباعدت مضاجعهم بين شرق الشرق في آسيا، وغرب الغرب في أفريقيا في مساحة واسعة شاسعة، وهم الذين كان يجمعهم المسجد النبوي[1] مع رسول الله ﷺ!

إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مع حبهم الشديد للمدينة، ومعرفتهم بفضلها؛ لم يفهموا من ذلك أن تكون تكيّة للقاعدين والمتقاعدين! ولكن انطلقوا منها، وكلٌّ في يده شعلة من نورها ينير بها الدنيا، وبذا كانت المدينة: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾! فتناثر ثمرها في فجاج الأرض وأنحاء الدنيا نوراً وهدى[2].



(١) ينظر: «فقه السيرة» لمحمد الغزالي (ص:٩).

(٢) ينظر: كتاب «عنوان النجابة في معرفة من مات بالمدينة المنورة من الصحابة»، لمصطفى العلوي الرافعي، ومجموع من ذكر أسماءهم لا يتجاوز (٢٣٠) صحابي.



فهرس الموضوعات









كتب للمؤلف

قصص نبوية







الآثار النبوية



سنام الإسلام



سماء الذاكرة



حديث الغدير



القبر المقدس



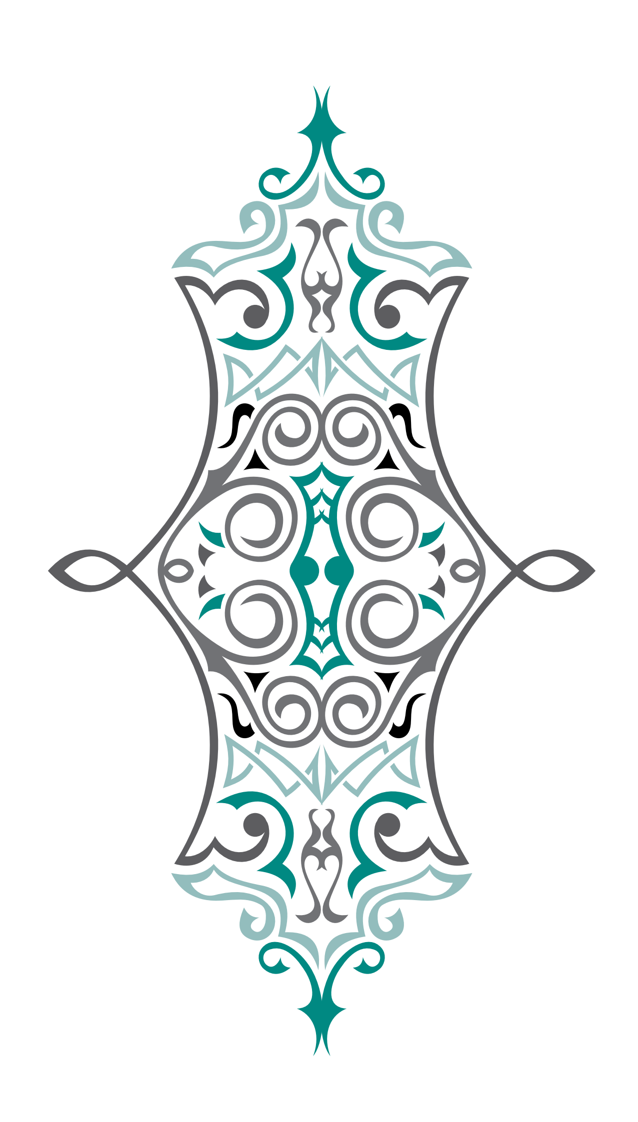
الحياة النبوية



كأنك معه

صفة حجة النبي ﷺ





التواصل مع المؤلف





في المدينة يتحدث إليك كل شيء فيها عن رسول الله ﷺ، وأيام عمره المباركة عليها.

كل مكان هناك يقول لك: كان رسول الله ﷺ هنا. أتى من هذا الطريق، وجلس في هذا المكان، وصلى في هذا المحراب، واستقبل هذه السارية، وصعد هذا المنبر.

هذا مسجده، وهذا محرابه، وهذا منبره، وذاك بيته وقبره.

في المدينة تفرقت أحداث حياته ﷺ في أماكنها، فعلى كل جبل قصة، وفي كل بيت حكاية، وفي كل شِعبٍ ووادٍ حادثٌ وحديثٌ.

وكان من أعظم نعم الله عَلَيّ أن عِشتُ في المدينة المنورة شطراً من عمري، أقرأ تاريخها، وأستروي مؤرخيها، وأتتبع خطوات رسول الله ﷺ في أماكنها، وأستنطق المكان ما كان فيه، وأستمليه ما شهد به.

ثم رويتُ ذلك في هذا الكتاب، ولعلي حرّكتُ به إلى المدينة شوقاً، وأذكيتُ عزماً، وسددْتُ بعضَ الحاجة في التعريف بالمدينة وتاريخها، ومواقع أحداث السيرة فيها.